رسائل
الصاحب بن عباد

صححها وقدم لها

عبد الوهاب عزام
عميد
كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

و

شوقي ضيف
مدرس
بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

الناشر

دار الفكر العربي

رسائل
الصّاحِب بن عبّاد

صححها وقدم لها

عبد الوهاب عزام و شوقي ضيف

عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

الناشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١

عثرنا فى دار الكتب المصرية على نسخة مصورة من رسائل الصاحب إسماعيل بن عباد . والصاحب — على مكانته فى الأدب ، وذيوع صيته فيه ، وتوليه الوزارة زمنا مديدا فى القرن الرابع ، عصر ازدهار الكتابة العربية — لم تنشر رسائله ، فلم يقدر الأدباء مكانته بين كُتَّاب عصره ، إلا بما قرءوا فى كتب الأدب ، نُبَذًا من كلامه ، أو إطراء لأدبه ، أو نقدا لطريقته .

فرأينا أن نبادر إلى نشر هذا المجموع ، تعريفا بأدب الصاحب خاصةً ، وبالكتابة العربية فى ذلك العصر عامة ، ولم نؤثر التأنى حتى نعثر على نسخة أخرى نحقق بها النص ، فاعتمدنا على النسخة التى وجدناها ، وصححنا غلطها ، وقومنا تحريفها ، جهد الطاقة ، ونشرناها نصًّا كاملا صحيحا ، إلا كلمات قليلة تعوزها المراجعة ، وإن يسّر لنا البحث نسخا أخرى رجعنا إليها فى الطبعة الآتية إن شاء الله .

٢

والنسخة التى أخذنا عنها محفوظة بدار الكتب الملكية المصرية (رقم ٤٨٨٠ أدب) ، وهى مصورة عن مخطوطة فى المكتبة الأهلية بباريس ، كُتِبَت فى القرن السادس للهجرة ، وختمها ناسخها بهذه الجملة :

"فرغ من كتابتها أبو الحسن على بن أحمد بن زكريا ، المعروف بابن الشصاص البغدادى ، بهمذان ، فى شهر رمضان ، من سنة سبع وسبعين وخمسمائة" .

وكُتِبَت عُنْواناتها بخط الثلث ، وسائر الكتابة بخط النسخ ، و إعجامها تام إلا ماسها عنه الناسخ ، وشكلها قليل . وقد وضع الناسخ مع الحاء والراء والسين والعين علاماتٍ تميزها من أخواتها المعجمات ، سُنَّةَ الناسخين القدماء . والكتابة واضحة فى الجملة . وليس فى الرسائل حِلْية إلا علامات ، تشبه دائرة ، يتصل بها شكل مخروطى ، تختم بها الفصول .

وعدد أوراق النسخة مائة وأربع عشرة ، وعلى كل ورقة رقم عربى فى الوسط وأفرنجى إلى اليسار . ويظهر أن الأرقام من عمل المكتبة الأهلية الباريسية . وعدد سطور الصفحة بين ٢٢ و ٢٤ ، وطول الصفحة ٢٤ س . م ، وعرضها ١٨ . وتشغل الكتابة منها ١٨ س . م طولا ، فى ١٢ عرضا .

وقد أثبتنا بين أقواس كلمات يقتضيها سياق الكلام ، قدّرنا أنها سقطت من الناسخ ، ولم نزد على هذا إلا ترقيم الرسائل فى كل باب ؛ ليسهل الرجوع إليها .

ولا تتضمن النسخة رسائل الصاحب كلها ، فهى مختارات منها ، مرتبة على أبواب ديوان الرسائل . ويقول جامع هذه المختارات فى أولها : " وخرّجت من كل باب من أبواب ديوان رسائله عشر رسالات ، ليخف حجم هذا المجموع ، ولا يعتاص تحفظه " ولكننا نجد فى الباب التاسع والباب العاشر والباب الخامس عشر إحدى عشرة رسالة .

٣

وقد عرضنا ما فى النسخة من رسائل على ما رواه ثقات الأدباء والمؤرخين ، فلم نجد منها إلا رسالةً فى الجزء الثالث من خزانة الأدب للبغدادى ، وهى الرسالة التاسعة من الباب الحادى عشر ، ورسالةً فى ترجمة يتيمة الدهر للصاحب ، وهى الرسالة الثامنة من الباب التاسع عشر .

ولم نكتف بهذا فى تحقيق الرسائل ، بل عرضناها على التاريخ ، فوافق ما تضمنته من الأحداث والأحوال ، ما رواه الثقات من المؤرخين عن دولة بنى بويه ، ففيها من أحوال دولتهم ، وأخبارها ، وذكر رجالها ، ما لا يدع شكا فى أنها لوزير من وزرائهم . وفيها من الأمور الأخرى التى تخص الصاحب كاستقبال عضد الدولة إياه ، واهتمامه بالمعتزلة ومذهبهم ، ما لا يترك ريبة فى أن كاتبها هو الصاحب إسماعيل بن عباد ، الوزير البويهى ، الذى عرف بدعوته إلى الاعتزال . ولو لم تنسب هذه الرسائل إليه ما صعب على القارئ أن يثبت أنها له .

وقد حاولنا جهدنا أن ننشر هذه الرسائل على أحسن وجه ، وفاتنا بعض ما نرجو ، ولكننا قاربنا على قدر الطاقة . والله نسأل أن يرزقنا السداد والإخلاص فى الفكر والقول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

القاهرة فى شوال ١٣٦٦ هـ . عبد الوهاب عزام شوقى ضيف

مدخل

١

بنو بويه

كتبت رسائل الصاحب بن عباد وزير بنى بويه فى أزهى عصور دولتهم ، نقصد عصر ركن الدولة وأولاده : عضد الدولة ، ومؤيد الدولة ، وفخر الدولة . وقد كان البويهيون ينسبون أنفسهم إلى بهرام جور(١) . وكان ركن الدولة وأخواه عماد الدولة ومعز الدولة أول الأمر قوادا فى جيش ما كان بن كاكى الديلمى ، فلما انتصر عليه مرداويج بن زيار صاحب جرجان وطبرستان تحوّلوا إليه ، فولّى عليا الذى لقب فيما بعد بلقب عماد الدولة ، الكرجَ(٢) . وأخذ الإخوة الثلاثة ينشطون فى فتح بُلدان الجبل وفارس ، واستمروا حتى قتل مرداويج سنة ٣٢٣ هـ فاستقلوا بما فى أيديهم(٣) . وما زال سلطانهم يتسع حتى استطاع أحمد ، الذى لقب فيما بعد بلقب معز الدولة ، أن يستولى على بغداد سنة ٣٣٤ هـ(٤) ، وخلع عليه الخليفةُ المستكفى ، ولقبه معز الدولة ، كما لقب أخاه عليا ، وكان قد استولى على فارس، بلقب عماد الدولة ولقب أخاه حسنا ، وكان قد استولى على بعض بُلدان الجبل ، بلقب ركن الدولة ، وأذن لهم أن تضرب السّكة باسمهم(٥) ، وبهذا صار الخليفة فى بغداد لُعبة فى أيدى البويهيين ، فهم يخلعونه حين يريدون ، ويولون غيره ، وليس له شىء من سلطان سوى ذكر اسمه على المنابر(٦) .

ونحن نعرف أنه قبل دخول بنى بويه بغداد بسنوات معدودة توزعت الخلافة العباسية إمارات مختلفة ، فبينما استقل بنو بويه بفارس والجبل وأصبهان والرى ثم بغداد أخيرا ، استقل السامانيون بخراسان وما وراء النهر ، والزياريون بجرجان وطبرستان ، ومحمد بن إلياس

---

(١) تاريخ ابن الأثير طبع أوربا ١٩٧/٨ .
(٢) ابن الأثير ١٩٩/٨ .
(٣) تجارب الأمم لمسكويه طبع آمدروز ٢٩٥/٥ وما بعدها .
(٤) ابن الأثير ٣٣٧/٨ .
(٥) مسكويه ٨٥/٦ .
(٦) ابن الأثير ٣٣٧/٨ .

بكرمان ، والبريديون بالأهواز وواسط والبصرة ، وأبو طاهر القرمطى باليمامة والبحرين ، و بنو حمدان بالموصل وديار ربيعة ومضر ، والإخشيديون بمصر والشام ، ولم يبق للخليفة إلا بغداد[1] ، بل هذه استولى عليها أخيرا معز الدولة البويهى .

وقد كانت رياسة البيت البويهى للأخ الأكبر ، وهو عماد الدولة ، فلما توفى انتقلت رياسة البيت إلى ركن الدولة ، فكان معز الدولة لايعصى له أمرا[2] ، وقد أقامه الخليفة مقام أخيه عماد الدولة على فارس[3] ، لأن عماد الدولة لم يترك عقبا ، وقد كان يتبنى عضد الدولة[4] ، ولعل ذلك ما جعل ركن الدولة يقيم ابنه عضد الدولة على فارس منذ توفى أخوه . واستولى عضد الدولة على كرمان . وقد قسم ركن الدولة ملكه بين أولاده ، فجعل لعضد الدولة فارس وكرمان وأرّجان ، ولمؤيد الدولة الرىّ وأصفهان ، ولفخر الدولة همذان والدينور[5] ، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، وجعلهما خليفتين له على ما بأيديهما . وخدم كل منهما أخاه بالريحان ، على الرسم المعروف للبويهيين[6] . غير أن فخر الدولة لم يلبث أن حاول الاستقلال عن أخيه ، فخرج عليه ، واستعان بقابوس صاحب جرجان وطبرستان[7] ، ولم تنفعه استعانته به ، فقد حاربتهما جيوش عضد الدولة ، ونزعت منهما ملكهما[8] ، فاستنجدا بالسامانيين ، وتبعتهما جيوش عضد الدولة إلى نيسابور ، ونكّلت بجيوش السامانيين تنكيلا[9] .

وعضد الدولة (٣٦٥ — ٣٧٢ هـ) هو أعظم حكام هذه الدولة ، فقد استولى فى مفتتح ملكه على مابيد ابن عمه من بغداد والعراق ، وكذلك استولى على ما بيد الحمدانيين من الحصون والقلاع ، وقد استولى على جُرجان وطبرستان ، وشنّت جيوشه الغارات على الروم ، وأنزلت بهم هزائم منكرة . ويظهر أنه كانت فى عضد الدولة شدة ، فقد بلغ من خوف بعض قواده منه ، وهو المطهر بن عبدالله ، أن قتل نفسه خشية أن يتغير عليه ، حين لم يكتب له

---

(١) ابن الأثير ٢٤١/٨ وانظر مروج الذهب للمسعودى طبع أوروبا ٣٠٦/١ ، ٧٣/٢ .

(٢) ابن الأثير ٣٦٦/٨ .

(٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبع دار الكتب ٢٩٩/٣ .

(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى طبع ليدن ص ٤٤٩ .

(٥) ابن تغرى بردى ١٠٩/٤ .

(٦) مسكويه ٣٦٣/٦ .

(٧) ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع طبع آمدروز ص ١٥ .

(٨) أبو شجاع ص ١٥ وما بعدها ، وابن الأثير ٨/٩ .

(٩) أبو شجاع ص ٢٨ وابن الأثير ٩/٩ .

الظفر فى حرب بعض الثائرين[١] . وقد قصده المتنبى فى فارس وهو لا يزال أميرا ، فأشاد به فى غير قصيدة ، ومن قوله فيه :

وقد رأيتُ الملوكَ قاطبـــةً وسرتُ حتى رأيت مولاها
ومَنْ مناياهمُ براحتـــه يأمرها فيهـــمُ وينهاها
أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الـــدّولة فناخسرو شاهنشاها

ويصفه ابن الأثير فيقول : إنه كان عاقلا ، فاضلا ، حسن السياسة ، شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، ثاقب الرأى ، محبا للفضائل وأهلها ، باذلا فى مواضع العطاء ، مانعا فى أماكن الحزم ، ناظرا فى عواقب الأمور[٢] . وقد بلغ من حزمه أنه تدلّه بفتاة ، فلما خشى على ملكه من تدلهه بها ، أمر بتغريقها[٣] . وكان كثير البر والصدقات[٤] . وهو أول من خوطب بالملك شاهنشاه فى الإسلام ، وأول من خطب له على منابر بغداد بعد الخلفاء ، وأول من ضربت الدبادب على باب داره . ويُرْوى أنه لما أحسّ بالموت تمثل بقول القاسم بن عبيد الله الوزير :

قتلتُ صـــناديد الرجال فلم أَدَعْ عدوًّا ولم أُمهل على ظِنَّةٍ خلقا
وأخليتُ دور المُلْكِ من كل نازل وبدّدتهم غربًا وشرّدتهم شرقا[٥]

وقد خلفه فى فارس والعراق أولاده ، بينما استقل أخوه مؤيد الدولة بالجبل وجرجان وطبرستان . ولم يلبث مؤيد الدولة أن توفى بعد أخيه بنحو عشرة أشهر[٦] ، ولم يعقب ، فاستدعى وزيرُه الصاحبُ بن عباد أخاه فخر الدوله من نيسابور ، وسلمه مقاليد الدولة[٧] عام ٣٧٣ هـ ، وما زال فخر الدولة يدير شئونها حتى توفى سنة ٣٨٧ هـ .

وهؤلاء هم ملوك بنى بويه الذين خدم الصاحب فى دواوينهم ، وقد بلغت الدولة فى عهدهم كل ما كان يحلم به أصحابها من سلطان وهيبة وثروة . ويكفى فى تقدير ذلك ما يروى من أن عضد الدولة بنى دارا بشيراز ، كانت تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة ، ويقول المقدسى فى وصفها : " لم أر فى شرق ولا غرب مثلها ، ما دخلها عامىّ إلا افتتن بها ،

(١) ابن الأثير ٥١٥/٨ .
(٢) ابن الأثير ١٤/٩ .
(٣) أبو شجاع ص ٤٢ .
(٤) ابن الأثير ١٦/٩ وأبو شجاع ص ٦٦ .
(٥) ابن تغرى بردى ١٤٢/٤ .
(٦) ابن تغرى بردى ١٤٤/٤ .
(٧) أبو شجاع ص ٩٣ وابن الأثير ١٩/٩ .

ولاعارفٌ إلا استدلَّ بها على نعمة الجنة وطيبها ... وعندى أنه إنما بناها على مثال ما سمع من دور الجنة[1]".

ويروى المؤرخون أن فخر الدولة خلّف نحو مليونين وثمانمائة ألف من الدنانير ، ونحو مائة مليون من الدراهم، كما خلف من الجواهر واليواقيت والماس واللؤلؤ ماقيمته ثلاثة ملايين من الدنانير ، وخلّف مثل ذلك أيضا من أوانى الذهب[2] .

وهذا ثراء مفرط ، ومن هذا الثراء كان البويهيون ينفقون على العلماء والأدباء ، وقد كانوا بعيدين فى أول الأمر عن الثقافة العربية ، فإن معز الدولة حين قدم بغداد احتاج إلى مترجم بينه وبين على بن عيسى[3] ، ولكنا نراهم بعد ذلك يقبلون على الثقافة العربية ، ويتعلمون أدبها وشعرها ، ويصبح منهم شعراء . وقد عقد صاحب اليتيمة فصولا فى يتيمته لمن كان ينظم الشعر منهم ، مثل بختيار وعضد الدولة[4] . ويقول صاحب اليتيمة : إن الأخير كان يحب الشعر ، ويعطى الشعراء ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء[5] . ويقول الرواة : إن كتاب الأغانى لم يكن يفارق عضد الدولة فى سفر ولا فى حضر . ويقول ابن تغرى بردى إنه كان فاضلا نحويا[6] ، وكان يفتخر بأنه غلام أبى على الفارسى[7] . وكان يقرب العلماء ، ويجلس معهم يعارضهم فى المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح فى النحو ، والحجة فى القراءات لأبى على الفارسى ، والملكى فى الطب ، والتاجى فى التاريخ للصابى[8] ، وهو فى تاريخ بنى بويه . وقد كانت له خزانة كتب كبيرة بشيراز ، ويقول المقدسى : إنه لم يبق كتاب صنّف إلى وقته من أنواع العلوم كلهاإلا وحصّله فيها[9] .

وقد كان بنو بويه شيعة ، ويظهر أنهم كانوا غالين فى تشيعهم[10] ، فقد زعم بعض

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٤٩ وما بعدها.
(٢) ابن تغرى بردى ٤/١٩٧ .
(٣) انظر المقدمة الإنجليزية لكتاب تاريخ الوزراء لهلال الصابى طبع بيروت ص ٧ .
(٤) انظر اليتيمة طبع الشام ٢/٢ وما بعدها .
(٥) اليتيمة ٢/٢ .
(٦) ابن تغرى بردى ٤/١٤٢ .
(٧) ابن تغرى بردى ٤/١٥١ .
(٨) ابن الأثير ٩/١٦ .
(٩) المقدسى ص ٤٤٩ .
(١٠) ابن الأثير ٨/٣٣٩ .

المؤرخين أن معز الدولة أمر أن يكتب على المساجد بلعن الصحابة[1] ، ويقال إنه أول من سنّ سنة مأتم الحسين وندْبِه فى يوم عاشوراء[2] ، ويصرّح ابن تغرى بردى مرارا[3] بأن البويهيين رافضة ، ويقول إنهم لم يفشوا ذلك خوفا على الملك[4] .

غير أن البويهيين — على مايظهر — لم يجعلوا للتشيع أثراً فى دولتهم ومعاملة أهلها ، فقد أبقوا على الخلافة العباسية ، وساسوا الناس سياسة رشيدة ، فلم يفرقوا بين نحلة ونحلة ، ومذهب ومذهب ، وقد اتخذ عضد الدولة وزيرا نصرانيا ، هو نصر بن هرون ، وأذن له ، فى عمارة البِيَع والأديار ، ومساعدة الفقراء من أهل الذمة[5] .

٢

الصاحب بن عباد

وصاحب الرسائل هو إسماعيل بن عباد أبو القاسم ، الملقب بكافى الكفاة ، ولد عام ٣٢٦ﻫ وتوفى عام ٣٨٥ ﻫ ، وهو العام الذى توفى فيه أبوه[6] . وهو فارسى الأصل ، من أهل الطالقان وهى ولاية بين قزوين وأبهر[7] . وقد كتب أبوه عباد، ووزر لركن الدولة[8]، وكان على مايظهر من الراسخين فى العلوم الدينية ، فقد ألف فى أحكام القرآن كتابا نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه[9] . ولا نعرف عن أم الصاحب إلا ما يروى من أنها كانت تعطيه كل يوم فى حداثته ، أثناء ذهابه إلى المسجد للدرس ، ديناراً ودرهما وتقول له : تصدّق بهذين على أول فقير تلقاه[10] .

وقد تخرج الصاحبُ على يد أديب عصره : ابنِ العميد ، وزير البويهيين المشهور[11] ،

---

(١) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٣٥١ ﻫ .

(٢) انظر ابن تغرى بردى ٣/٣٣٤ وابن الأثير ٨/٤٠٣ ، ٤٠٧ .

(٣) انظر ابن تغرى بردى ٣٠٧٣ ، ٣٠٨ ، ٣٣٤ ، وكذلك ١٤/٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٤) ابن تغرى بردى ١٤/٤ .

(٥) ابن الأثير ٥١٨/٨ .

(٦) ابن تغرى بردى ١٧٢/٤ وانظر ترجمة الصاحب فى ابن خلكان .

(٧) معجم الأدباء لياقوت طبع مصر ١٦٨/٦ .

(٨) ياقوت ١٧٢/٦ وانظر ترجمة الصاحب فى ابن خلكان .

(٩) ياقوت ١٧٢/٦ .

(١٠) تذكرة العلماء والشعراء : نسخة مصورة بدار الكتب (رقم ٩١٠٩ أدب) الورقة ٢٥ .

(١١) انظر ترجمة الصاحب فى ابن خلكان .

ويظهر أن ابن العميد أعجب به فقربه منه ، وما زال يرقيه فى دواوينه ، حتى اختاره وزيرا لمؤيد الدولة فى أثناء إمارته على أصبهان فى عصر أبيه . ولما توفى ركن الدولة عام ٣٦٥ هـ قصده أبو الفتح ابن أستاذه ذى الكفايتين ابن العميد ، فأزاله عن وزارة مؤيد الدولة ، ولكنه سرعان ما انتصر عليه وعاد إلى الوزارة[١] ، وظل فيها ، حتى توفى مؤيد الدولة ، فوزَر من بعده لأخيه فخر الدولة ، واستمر فى الوزارة حتى توفى عام ٣٨٥ هـ .

ولم تكن مكانة الصاحب فى دولة بنى بويه ترجع إلى أنه كان أديبا فحسب ، فقد كان كاتبا ووزيرا وقائدا[٢] ومدبرا لشئون الدولة ؛ ولهذا عظمت مكانته لدى ملوك بنى بويه ، فقد خرج عضد الدولة لاستقباله حين زاره عام ٣٧٠ هـ فى همَذان[٣] ، وروى ياقوت أن الصاحب كان إذا قال فى مسألة قولا ، وقال فخر الدولة قولا آخر ، امتثل قول الصاحب[٤] .

كانت للصاحب منزلة عظيمة فى دولته ، وقد أخذت هذه المنزلة تكبُر وتعظم على مر الزمان ، حتى قيل إن قواد بنى بويه وحكامهم ومن يوالونهم من الأمراء كانوا يقفون ببابه "ومن يؤذن له فى الدخول عليه ، يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحا ومسرة ، وشرفا وتعظيما ، فإذا حصل فى الدار ، وأذن له فى الدخول إلى مجلسه ، قَبَّل الأرض عند وقوع بصره عليه ثلاث مرات أو أربعا ، إلى أن يقرب منه ، فيجلس من كانت رتبته الجلوس ... ثم ينصرف بعد أن يقبّل الأرض أيضا مرارا ؛ ولم يكن يقوم لأحد من الناس ولا يشير إلى القيام ، ولا يطمع منه أحد فى ذلك"[٥] . ولما توفيت أمه سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ركب إليه فخر الدولة معزيا ، فأما سائر الأمراء والقواد ... فإنهم كانوا يحضرون حُفَاةً حُسَّرا ، وكان كل واحد منهم إذا وقعت عينه على الصاحب قَبَّل الأرض ، ثم توالى بعد ذلك إلى أن يقرب منه ويأمره بالجلوس ، فيجلس ، وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد بل كان جالسا على عادته فى غير أيام التعزية[٦] . ومما يدل على عظم منزلته ما يروى من

---

(١) ياقوت ٦/٢٥٠ .

(٢) ابن الأثير ٩/٣٩ وقد قيل إنه سلم لفخر الدولة خمسين قلعة . انظر ابن تغرى بردى ٤/١٧٠ وياقوت ٦/٢٥١ .

(٣) ابن الأثير ٩/٤ وانظر ابن تغرى بردى ٤/١٣٨ حيث يقول إن عضد الدولة استقبله فى بغداد .

(٤) ياقوت ٦/١٧٢ .

(٥) ياقوت ٦/٢٤٤ .

(٦) ياقوت ٦/٢٣٨ .

أنه لما توفى أُغلِقَت له مدينة الرى ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته، وحضر مخدومه فخر الدولة وسائر القواد ، فلما خرج نعشه من الباب قام الناس بأجمعهم ، فقبلوا الأرض بين يديه ، وخرّقوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، ومشى فخر الدولة أمام نعشه ، وقعد للعزاء أياما[(١)] . وقد رثاه الشعراء رثاء حارًّا[(٢)] ، ومن قول أبى سعيد فيه :

أبعد ابن عبادٍ يَهَشُّ إلى السُّرى ... أخو أَمَلٍ أو يُستَماحُ جَوادُ

أَبَى اللهُ إلا أن يموتا بموتِهِ ... فما لهما حتى المعادِ مَعادُ[(٣)]

وهذه المنزلة الممتازة للصاحب كان يعضدها خلق رفيع ، فقد حدَّث الرواة أن رجلا ممن ينطوى له على موجدة دخل داره فى غمار الناس ، فكتب له بعض أصحابه بذلك ، فوقّع : دارنا هذه خان ، لمن وفّى ومن خان[(٤)] . وقالوا إنه استدعى يوما شراب السكّر ، فجىء بقدح منه ؛ فلما أراد شربه ، قال بعض خواصه : لا تشربه فإنه مسموم ، فقال له : وما الشاهد على صحة ذلك ، قال : أن تجربه على من أعطاكه ، قال : لا أستجيز ذلك ، ولا أستحله ، قال فجربه على دجاجة ، قال : إن التمثيل بالحيوان لا يجوز ، وأمر بصب ما فى القدح ، وقال للغلام : انصرف عنى ولا تدخل دارى بعدها ، وأقرّ رزقه عليه[(٥)] . ويظهر أنه كانت فى الصاحب رقة ودماثة ، فقد روى الرواة أنه كان يقول : "نحن بالنهار سلطان ، وبالليل إخوان"[(٦)] . وكانت فيه إلى جانب ذلك فكاهة ؛ حدّث الرواة أنه فى أثناء درسه فى شبابه ببغداد ، تعرض لشخص يسمى ابن شمعون ، كان متصوفا وكان فيه هوَس يطيله ويسهب فيه، فسأله فى أثناء درس له عن قَدْ سيكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، وهو يريد بذلك أن يقطعه ، فأطرق الرجل ساعة، ثم أخذ فى ضرب من الهذيان ، فلما سكت قال له الصاحب : هذا الذى تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله[(٧)] ! . ويتصل بهذا الجانب الفكه فى الصاحب أنه كان يفسح فى حضرته لشعراء الكُدْية ، من أمثال أبى دُلَف الخزرجى[(٨)] .

---

(١) ياقوت ٦/٢٧٥ وابن خلكان فى ترجمة الصاحب وابن تغرى بردى ٤/١٧١ .

(٢) اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ١/٢٠٢ .

(٣) ابن خلكان فى ترجمة الصاحب

(٤) اليتيمة ٣/٣٩ .

(٥) ياقوت ٦/١٨٥ .

(٦) اليتيمة ٣/٣٨ .

(٧) ياقوت ٦/٢٦٨ .

(٨) اليتيمة ٣/١٧٤ .

وقد كانت حضرة الصاحب محطّ رحال العلماء والأدباء فى عصره ، وكان يتعهدهم جميعا بالعطاء . فمن ذلك ماقيل من أنه كان ينفذ فى كل سنة إلى بغداد خمسة آلاف دينار تفرّق فى الفقهاء وأهل الأدب[1] ، وفى ياقوت أن عطاياه للأدباء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار فى العام الواحد[2] . وإن الإنسان ليخيل إليه أنه لم يبق أديب فى عصره إلا قصد إلى حضرته لينال من عطاياه . يقول الثعالبى : " احتفّ به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يُرْبى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رقّ المعانى "[3] . ورُوِى عنه أنه قال : " مدحت بمائة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية "[4] . ويدل مديح الشعراء له بالشعر الفارسى على أنه كان يتقن الفارسية ، وفى ياقوت مايدل على أنه كان يتكلم بها أحيانا[5] ، ويقال إنه اختبر مهارة بديع الزمان فى الترجمة من الفارسية إلى العربية[6] .

ولم يَخْلُ الصاحب على عظم خدماته للأدب فى عصره ممن زاروا حضرته وارتدّوا حانقين عليه ، إذ لم يحقق لهم كل مآربهم . ومن هؤلاء أبو حيان التوحيدى ، فقد وفد عليه ، ولم يلبث أن خرج مغاضبا له ، فألف فى ثَلْبه وفى ثلب ابن العميد كتابا سماه : أخلاق الوزيرين ، وينقل منه ياقوت كثيرا[7] ، وقد تعقبه بالثلب أيضا فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة)[8] ، ثم فى رسالته المسماة (الصداقة والصديق)[9] . غير أن ثلب أبى حيان الصاحب لايقدح فيه ، لأنه يرجع إلى أسباب شخصية ، قال ياقوت : " إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد فى الرى ، فلم يرزق منه ، فرجع عنه ذامًّا له ، وكان أبو حيان مجبولا على الغرام ، بثلب الكرام ، فاجتهد فى الغضّ من ابن عباد "[10] ، وهو غض خَصْم شديد الخصومة .

---

(١) المنتظم : نسخة مصورة بدار الكتب (رقم ١٢٩٦ تاريخ) الجزء السادس ، القسم الثانى ، الورقة ٤٥٠ .

(٢) ياقوت ٦/٢٤٩ .

(٣) اليتيمة ٣/٣٣ .

(٤) ياقوت ٦/٢٦٣ .

(٥) ياقوت ١٥/١٦ .

(٦) لباب الألباب لمحمد عوفى طبع ليدن ٢/١٧ .

(٧) ياقوت ١٥/٢٦ وما بعدها .

(٨) الإمتاع والمؤانسة طبع لجنة التأليف ص ٥٤ وما بعدها .

(٩) الصداقة والصديق طبع القسطنطينية ص ٣٣ .

(١٠) ياقوت ٦/١٨٦ وكذلك ١٥/١٣ ، ٣٣ .

والحق أن الصاحب كان حسن السيرة ، وكان ما يزال يطلب الأدباء والعلماء إلى حضرته ، وممن طلبهم إليها القاضى عبد الجبار[1] شيخ المعتزلة فى بغداد، وقد ولّاه القضاء فى دولته . وكان العلماء يرفعون إليه كتبهم كما يرفع الشعراء قصائدهم ، وقد رفع إليه ابن فارس كتاب الصاحبى .

وقد كان الصاحب على ما يظهر عالما فى فنون شتى ، فله تآليف كثيرة[2] ، ألف فى اللغة معجما ضخما يقع فى سبع مجلدات سماه المحيط ، وفى دار الكتب المصرية قطعة منه ، وقد نشر له برونله كتاب المقصور والممدود ، وفى دار الكتب نسخة مخطوطة من كتابه الإقناع فى العروض . وكما كان الصاحب لغويا كان محدّثا ، أخذ الحديث عن أبيه وغيره[3] ، ويروون أنه خرج يوما وهو وزير متطلسا متحنكا بزى أهل العلم ، لرواية الحديث وإملائه على الناس[4] . وكان مثل أبيه يذهب مذهب الاعتزال[5] . ويقول أبو حيان إنه كان يكره الفلسفة[6] ، ولكن له رسالة طبية فى الباب التاسع عشر ، وهى تدل على صلته بالثقافة الفلسفية ، وقد قال فيها بعض الأطباء : "لو علمها ابن قُرّة وابن زكريا لما زادا عليها"[7] .

وقد عرف بسعة العلم . يقول صاحب المنتظم إنه "لم يكن من يذكر عنه العلم من وزراء الدولة الديلمية كما يذكر عن الصاحب"[8] . وقد قالوا : إنه جمع من الكتب ما يحتاج فى نقله إلى أربعمائة جمل"[9] ، وكان يعنى بطلب النسخ الصحيحة إلى خزانة كتبه عناية عظيمة[10] ، وقال أبو الحسن البيهقى إنه رأى فهرست كتبها ، وهو يقع فى عشر مجلدات[11] . وقد أسس سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى دارا للعلم فى الكرخ غربى بغداد ، ونقل إليها كتبا كثيرة ، وقد صنع ذلك منافسة للصاحب بن عباد[12] .

وكان الصاحب مثل سادته من البويهيين متشيعا ، وقد ألف فى إمامة على بن أبى طالب

---

(١) المنية والأمل طبع حيدر أباد ص ٦٦ .
(٢) انظر فهرست كتبه فى ياقوت ٢٦٠/٦ .
(٣) ياقوت ١٧٢/٦ .
(٤) ياقوت ٢٥١/٦ .
(٥) ياقوت ٢٨٤/٦ .
(٦) ياقوت ١٧٥/٦ .
(٧) يتيمة ٤٢/٣ .
(٨) المنتظم : الجزء السادس ، القسم الثانى ، الورقة ٤٤٩ .
(٩) ابن الأثير ٧٧/٩ .
(١٠) ياقوت ٢٤٣/٧ ، ٢٥١ .
(١١) ياقوت ٢٥٩/٦ .
(١٢) Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, P. 267.

كتابا[1] ويقول أبو حيان : إنه كان يقول بمقالة الزيدية[2] ، ويروى الرواة عن القاضى عبد الجبار أنه كان يقول : " أنا لا أترحم عليه لأنه مات عن غير توبة "[3] . ولسنا ندرى أيريد بذلك أنه كان غاليا فى تشيعه ، أم يريد شيئا آخر ؟ . ولم يرزق الصاحب سوى بنت واحدة ، زوجها أحد الأشراف ، فلما أعقبت منه سر سرورا عظيما . ومدحه الشعراء بهذه المناسبة مدائح كثيرة ، وقال هو فيها أيضا شعرا يدل على مسرته وبهجته بهذه الحادث ، فمن ذلك قوله :

الحمد لله حمـــــدا دائما أبدا إذ صار سبط رسول الله لى ولدا[4]

ونحن نختم حديثنا عن الصاحب بما قاله صاحب المنتظم من أنه كان أفضل وزراء بنى بويه[5] ، وما قاله الثعالبى ، من " أنه كان صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بما يمدح به كل مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهره سوق[6] . "

٣

الرسائل

ورسائل الصاحب ليست رسائل إخوانية كأكثر رسائل أبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى ، بل هى رسائل ديوانية ؛ ومن هنا كان لها قيمتان : قيمة تاريخية وقيمة أدبية .

قيمتها التاريخية

وترجع قيمتها التاريخية إلى أنها سجّلت طائفة من حروب بنى بويه ، كما سجلت أسماء طائفة من حكامهم وقوادهم وقضاتهم . وقد صوّرت فيها بعض التصوير معاهداتهم ، كما صوّرت سياستهم ، ومعاملتهم الرعية ، ومجتمع الناس فى عصرهم . فهى وثائق تاريخية مهمة فى أمور الدولة البويهية السياسية والاجتماعية .

---

(١) ياقوت ٦/٢٦٠ .
(٢) ياقوت ٦/١٧٥ .
(٣) ابن الأثير ٩/٧٧ وأبو شجاع ص ٢٦٢ .
(٤) يتيمة ٣/٧٣ وما بعدها .
(٥) المنتظم : الجزء السادس ، القسم الثانى ، الورقة ٤٥١ .
(٦) يتيمة ٣/٣٢ .

حق أن مسكويه كان معاصرا للصاحب ، وكتب فى تجارب الأمم فصولا طويلة عن البويهيين . ومع ذلك فمسكويه ينقصه كثير من التفاصيل التى ألمت بها هذه الرسائل ، كما تنقص هذه التفاصيل أيضا أبا شجاع صاحب ذيل تجارب الأمم .

وقد كتب أبو إسحاق الصابى فى تاريخ البويهيين كتابه التاجى ولكنه مفقود ، وكذلك كتب عنهم حفيده هلال بن المحسّن فى تاريخه الكبير ، ولكن هذا التاريخ أيضا مفقود ، ولم يبق منه إلا ما يتناقله المؤرخون ، وإلا ما طبع فى بيروت بعنوان تاريخ الوزراء ، وهى قطعة تتصل بوزراء المقتدر ، وقلما عرضت لوزراء بنى بويه .

ونحن لا ننكر قيمة ما قصه ابن الأثير وابن تغرى بردى وصاحب المنتظم عن البويهيين ، غير أن ما قصوه جميعا لا يتضمن كل التفاصيل السياسية والاجتماعية لهذا العصر . ومن ثَمَّ كانت كل وثيقة سياسية جديدة تُنْشَر عن هذا العصر البويهى تعتبر عظيمة الفائدة ، ولا سيما حين يكتب هذه الوثيقة وزير معاصر مشارك فى أحداث الدولة وسياستها مثل الصاحب بن عباد .

ونحن نستعرض موضوعات هذه الرسائل التى كتبها الصاحب حتى نقف على قيمتها السياسية والاجتماعية . وإن من ينظر فيها يجد الباب الأول منها خاصا بفتوح عضد الدولة وحروبه . وهو يفتتحه برسالة تصور حربه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير صاحب جرجان وطبرستان . ويقص الصاحب ما كان من هزيمتهما على باب إستراباذ . ومن طريف ما يقصه أن بنى بويه كانوا يطلقون من يقع فى أيديهم من أسرى أعدائهم ، يمنّون عليهم بذلك حتى يتألفوهم .

ونقرأ فى الرسائل التالية لهذه الرسالة فى الباب حروب عضد الدولة مع الروم ، وابن حمدان وكيف قضى عليه ، كما نقرأ إصلاحه بين سعد وربيعة . ونراه يتحدث فى الرسالة السادسة عن استنجاد إبراهيم بن المرزبان بركن الدولة على عمه وهسوذان ، وقد اغتصب منه ومن إخوته ملك أذربيجان بعد وفاة أبيهم . ويفصل الصاحب الحديث فى إغاثة ركن الدولة إياه ، ويذكر من أرسله معه من القواد وما كان بعد ذلك من هزيمة وهسوذان . وبينما تذكر كتب التاريخ أن ركن الدولة أغاث إبراهيم لأسباب شخصية[1] ، نجد الصاحب يذكر أنه

---

(١) ابن الأثير ٨/٤٢١ .

أغانه لأسباب سياسية ، إذ كان وهسوذان مغاضبا للدولة ، يكيد لها ، ويثير عليها الفتن . وقد خصّ الصاحب الرسالة السابعة بحرب عضد الدولة وابن عمه بختيار ، وكيف استولى على بلاده ، وهو يفصل الحديث فى ذلك . ومن طريف ماذكره أن خليفة بغداد كان يراسل عضد الدولة سرا ، وأنه خرج لاستقباله فى ديالى بعد انتصاراته .

وربما كانت الرسالة الثامنة أخطر رسائل هذا الباب ، وقد خصّها الصاحب بنهاية حرب قابوس وفخر الدولة ، وما كان من استعانتهما بالدولة السامانية ، إذ ساقت جيشا بقيادة تاش . ولم يكن حظ هذا الجيش خيرا من حظ جيوش قابوس ، فقد سارعت جيوش عضد الدولة إليه فى نيسابور ، وسرعان مادارت عليه الدوائر ، إذ قتل منه نحو ثلاثة آلاف ، وليس هذا كل ما فى الرسالة ، فإن فيها وصفا دقيقا لحروب السامانيين والبويهيين ، منذ قامت دولتهم ، وإن الصاحب ليعدّد هذه الحروب ، ويعدد أسماء قواد السامانيين فيها . وقد ذكر مادّة طريفة فى إحدى معاهدات البويهيين مع السامانيين ، وهى : " أن لا يُقْبَلَ فى جهة من الجهتين أُبّاق العساكر ، ولا يمهّد فى جنبة من الجنبتين للخالع والنافر ، ولا يُحَامَى على من عصا فشَرَد ، وشقّ العصا وانفرد " . ونقف من هذه الرسالة على شىء طريف آخر هو أن السامانيين كانوا إذا خلع بنو بويه خليفة وولوا مكانه آخر ، لا يدعون للمولّى مكانه على منابرهم .

ونترك هذا الباب الخاص بالحروب إلى الباب الثانى الخاص بالعهود ، فنقرأ فيه أوامر الدولة وعهودها للقضاة والولاة والمحتسبين ، وهى تبدأ بعهد عبد الجبار قاضى القضاة فى الدولة ، وفيه نرى الصاحب يأمره باتباع الكتاب والسنة والإجماع ثم القياس ، كما يأمره أن لا يأخذ بالآراء الشاذة ، وأن لا ينقض آراء من سبقه من القضاة إلا ما خرج عن اتفاق الأمة ، وقد دعاه إلى أن يتثبت من الشهود ، وأن يعدل بين الخصوم ، وأن يسوى بين الغنى والفقير فى لَحْظِهِ ولفظه وحكمه . ونرى من هذا العهد أن القاضى هو الذى كان يشرف على تعيين الأوصياء على اليتامى ، والنظار على الوقوف ، والقوّام على السكة . وجاء فى هذا العهد أيضا ألاّ ترد التركة إلى بيت المال ، بل يأخذها الأباعد من ذوى الأرحام . وفى هذا مايدل دلالة صريحة على أن بنى بويه لم يكونوا يتعرضون للتركات ، وقد امتدحهم المقدسى ونوّه بهم لذلك[1] .

---

(١) المقدسى ص ٤٠٠ .

ويلى هذا العهد عهد فى الحسبة ، ومنه نطلع على صفة المحتسب ، وأنه ينبغى أن يكون من الفقهاء ، كما نطلع منه على عمله وأنه كان يقوم بمراقبة المكاييل والموازين فى السوق ، كما كان يقوم بمراقبة السلع وحفظها عن الغش ، وكذلك كان يراقب النساء فى الأسواق ، وأهل الذمة ولبسهم للغيار وعقد الزنار . وقد كان له حق الحبس والتأديب . وإن الصاحب ليأمره أن يسوّى فى العقاب بين أبناء الثروة واليسار ، وإخوان الخلّة والإعسار .

ونقرأ بعد ذلك عهدا لحاكم ، وهو العهد الرابع من هذه العهود ، ومنه نعرف سياسة بنى بويه فى معاملة الرعية ، وما يأخذون به حكامهم ومرءوسيهم فى هذه المعاملة ، سواء أصحاب الصدقات ، وأصحاب الخراج ، وسواء المتولون لدور الضرب والقائمون على حراسة المكاييل والموازين ، وأصحاب المعاون والشرط . وقد أمر الصاحب هذا الحاكم بالعمل على نفض الطرق من اللصوص ، كما أمره بالعدل المطلق بين الناس . ومن غريب ماجاء فى هذا العهد أن الصاحب أمر الحاكم ألا ينفذ الحدود إلا بعد الرجوع إليه "حتى يأتيه من الأمر مايبرمه ، ومن الحكم ما يرتسمه" . وجاء فى هذا العهد أيضا ما يدل على أن الدولة كانت تراقب سوق الرقيق مراقبة شديدة .

ونستمر حتى العهد الثامن وهو خاص بقسمة الماء فى بعض الأودية ، وفيه نرى الصاحب يأمر الحاكم بالعدل فى قسمة الماء بين أصحاب الضياع ، بحيث لايقتطع أحد ماء فى غير حقه ، ولا يسد فاه النهر فى غير شربه . وقد أمره أن يعاقب من يخالف ذلك حتى لو كانت ضيعته من خاص ضياع الدولة وخالص أملاكها . وإن فى هذا مايدل دلالة واضحة على عدل بنى بويه ، وهو عدل تنتشر الدعوة إليه فى جميع صحف هذه الرسائل والعهود ، بحيث يخيل إلى الإنسان أن بنى بويه كانوا من أعدل الحكام فى الشرق . وفى كل مكان من رسائل الصاحب نجد الآيات الدالة على ذلك . ومن الرسالات التى تفسره فى دقة ، الرسالة الخامسة فى الباب الثالث ، إذ نجد الصاحب يأمر الموظفين فى الدولة أن يَزُمّوا أنفسهم عن أن يطلبوا شيئا من الناس فوق الضرائب المقررة لهم .

وكما عُنِى البويهيون بالعدل عنوا بالأمن ، ونفض الطرق عن أهل العيث والفساد ، وإن فى الباب الرابع الخاص بالحجيج والمصالح والثغور مايفسر ذلك تفسيرا وافيا . وقد كان

البويهيون يكرهون كل مايحدث خللا فى الدولة أو يثير فتنة فيها ، ولعلهم من أجل ذلك لم يحاولوا أن ينصروا مذهبهم الشيعى ، أو يؤيدوه فى أى بقعة من بقاع دولتهم . وفى الباب السادس رسالتان طريفتان هما الخامسة والسادسة ، وقد كتبتا بصدد نشوب ثورة فى قزوين بين العلوية وغيرهم ، وقد دعا فيهما الصاحب إلى وجوب الألفة بين الطوائف المختلفة ، بحيث لا يُتَعَصَّب لإحدى الطوائف على الأخرى ، ولا يلزم أحد بالعدول عما اختاره من مذهب وطريقة .

وليس فى الرسائل مايدل أى دلالة على أن دولة بنى بويه كانت تدعو إلى التشيع . وقد كانت تتخذ العيون والجواسيس كما تدل الرسالة السادسة من الباب الثالث عشر ، ولكنها فيما يظهر كانت تستعملهم على خصومها السياسيين .

ونحن نجد فى الرسائل نزعة واضحة إلى القول بالاعتزال والدعوة إليه ؛ فقد جاء فى الرسالة التاسعة من الباب العاشر "مولاى يتدين بتعديل ربه ، ويعرف مواقع اللطف من صنعه ، ولا يشك فى اقتران الصلاح بفعله" . وتتكرر فكرة التعديل هذه فى الرسائل كثيرا . والغريب أن الصاحب لا يدعو إلى التشيع فى رسائله ويدعو إلى الاعتزال ! . وهناك رسالتان طريفتان فى الباب السابع عشر وهما نصان صريحان فى أنه كان يبعث دعاة له إلى البلدان المختلفة يدعون الناس إلى الدخول فى مذهب المعتزلة . ولسنا ندرى أكان هذا من عمله هو أم كان من عمل الدولة ، فقد كان عضد الدولة يذهب — فيما يظهر — إلى الاعتزال(١) ، ويعرف التاريخ صلة دائمة بين التشيع والاعتزال منذ كانا . ويظهر أن التشيع اقترن فى هذا العصر اقترانا تاما بالاعتزال ، إذ كان أهل السنة يكرهون التشيع والاعتزال جميعا .

والرسائل تصرح بأن العلوية كانوا يخاطبون فى هذا العصر بالشرفاء والأشراف ، وأنه كان يتخذ منهم النقباء . وقد أظهر الصاحب فى الرسالة الحادية عشرة من الباب العاشر ، وهى خاصة بالتعزية ، حرقة شديدة على نقيب توفاه الله . وكذلك أظهر الصاحب هذه النزعة الشيعية فى الرسالة التاسعة من الباب التاسع عشر وهى موجهة إلى بعض الأشراف . ونجد فى هذا الباب أيضا رسالة طريفة ، وهى الرسالة العاشرة ، وهى عهد إلى بعض النقباء ، وفيها مايدل

(١) المقدسى ص ٤٣٩ .

على كثرة الصلات التى كانت تصل إلى العلويين من البويهيين ، وفيها أيضا مايدل على أن النقيب هو الذى كان يتولى الحكم بين العلوية ، حتى لا يحكم بينهم أحد من الخارجين عن الأسرة . ومعنى ذلك أنه كان للعلوية قضاء مستقل فى الدولة ، وأنه كان ينهض به فى كل بلدة قاض منهم . ومن طريف ما فى هذا العهد أنه يشير إلى أن أناسا كثيرين كانوا ينتحلون لأنفسهم نسبا فى الدوحة العلوية ، ولذلك نرى الصاحب يأمر هذا النقيب بتتبع المنتحلين للنسبة ، و إشهار أمرهم . و يظهر من جوانب أخرى فى الرسائل أن الذى كان يحج بالناس فى هذا العصر شريف من الشرفاء .

وليس الذى ذكرناه كل ما فى هذه الرسائل من دلالات سياسية واجتماعية ، و إنما هو بعض دلالاتها أثرناه لندل به على غيره ، حتى نصوّر بعض التصوير قيمة الرسائل من الوجهة التاريخية .

قيمة الرسائل الأدبية

قلنا آنفاً إن رسائل الصاحب وثائق تاريخية مهمة فى العصر البويهى ، ولا ريب أن قيمتها الأدبية أعظم من قيمتها التاريخية ، فقد تناولت موضوعات يصعب تطويعها للأساليب الأدبية ، من مثل سَقْى الأرض والخراج وأمن الطرق ، وأمور أخرى تحدُّها الحقائق ، ولا يتسع فيها الخيال ، و يصرّفها العقل ولا ينفسح فيها مجال العاطفة ، فلا يستطيع إلا كاتب قدير أن يسرد هذه الموضوعات وأشباهها فى أسلوب أدبى . وهذا دليل من أدلة كثيرة على اتساع الأدب العربى لموضوعات لا تعدّ فى النظرة الأولى من موضوعات الأدب ، ولا يتسع المجال هنا للإفاضة فى هذا الجانب .

ولم ينشر قبل هذه الرسائل لوزير من وزراء بنى بويه مجموع من الرسائل يماثل هذا المجموع ، بل لقد ضاعت رسائل هؤلاء الوزراء جملة ، ولم يبق منها إلا قليل روى فى اليتيمة ومعجم الأدباء وغيرهما من كتب الأدب . وأعظم وزيرين أديبين عرفا فى فارس أيام البويهيين هما ابن العميد وتلميذه وخريجه ابن عباد . ولم ينشر لابن العميد ما يكشف عن فنه وأساليبه كشفا تاما . فكان لنشر هذه الرسائل فوائد كثيرة إذ نطلع منها على رسوم الكتابة الديوانية فى إيران لهذه العصور .

وأول مايدرك القارئ من رسوم هذه الرسائل الصاحبية ، أنها تبتدئ بالتحميد والصلاة

على النبي وأحيانا بالدعاء ، وغالبا ينوّه الصاحب باسم سيده الذى تصدر الرسالة فى عهده ، وهو حين يذكره لايُطْنِب فى تلقيبه ، بل يكتفى باللقب الذى خلعه عليه الخليفة مثل مؤيد الدولة أو ركن الدولة ، وهو يذكر عضد الدولة باسم الملك السيد ، أو الملك شاهنشاه .

ويعبر الصاحب بكلمة الحضرة السامية ، أو الحضرة الشريفة ، أو الحضرة البهية ، وكذلك يعبر بالمجلس العالى والمجلس الشريف ، وقد يعبر عن نفسه بأنه عبد سيده ، ولكنه لا ينحدر من ذلك إلى الخنوع والتذلل ، على نحو ما حدث بعد ذلك فى الرسائل الديوانية ، من الغلوّ فى الأوصاف والإكثار من الألقاب والتفنن فيها فى صدور الرسائل ، وقد بالغ الكتاب بعده فى ذلك بصور مختلفة حتى قالوا : " خادم الخدمة الشريفة فلان " ، وقالوا : " قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسئلت الخدمة[1] " .

ويختم الصاحب رسائله أحيانا بالدعاء ، ولا يطيل فيه ، إلا إذا كان بصدد فتح عظيم ، فإنه يسهب فيه ويطنب ، على نحو ما صنع فى الرسالة الثامنة من باب الفتوح ؛ فقد امتد الدعاء فيها إلى نحو عشرين سطرا . وربما يعرض الدعاء والتحميد أثناء الرسائل ، ولكن هذا نادر .

وإذا تركنا طريقة الافتتاح والاختتام فى الرسائل إلى اللغة والأسلوب ، فسألنا أكان للفارسية أثر فى كتابة الصاحب ، وقد قلنا آنفا إنه كان يتقن الفارسية ، ويقول الجاحظ : " اللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد ، أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها "[2] . فهل أدخلت الفارسية الضيم على عربية الصاحب ؟

والإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نحتاط فيها ، إذ يجرى على أقلام بعض الأدباء دعوى تأثر العربية بالفارسية كلما كتبوا عن الأدب العربى فى العصور الإسلامية . وهى دعوى لا يستطاع إقامة الدليل عليها إلا بالرجوع إلى الأدب الفهلوى ، الذى اشتق منه الأدب الفارسى الحديث ، وإلا بمسايرة الأدب العربى فى تطوره أثناء العصور الإسلامية الأولى .

والذى يبدو لمن درس الأدبين أن موضوعات انتقلت من الأدب الفارسى المنثور إلى الأدب العربى ، وأن بعض رسوم الرسائل الفارسية تسربت إلى كتابة الدواوين العربية ، وأن ألفاظا فارسية كذلك استعملت فى العربية . وأما أن تركيب الجملة العربية طاوع تأثير

(١) تاريخ الوزراء للصابى ص ١٥٠ ومابعدها .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ طبعة السندوبى ١/١٣٩

الفارسية ، أو أن أسلوبا من أساليب العربية يعدّ محاكاة لأسلوب فارسى ، فأمر عويص ينبغى أن لا يقدم عليه الباحث المتثبت إلا بعد بحث طويل دقيق . ولولا هذا لأحلنا بعض عبارات الصاحب على عبارات فارسية .

ومن أجل ذلك نقتصر — فى إجابة السؤال السابق — على مالا شك فيه من استعمال الصاحب ألفاظا فارسية فى أمور الخراج وسقى الأرض ونحوها لم يجد من استعمالها مناصا ، وهى مبثوثة فى رسائله . وقد استعمل الظاء بدل الضاد فى بعض كلماته مثل إفضاء فقد كتبت إفظاء[1] والضغائن كتبت الظغائن[2] ولسنا ندرى أهذا من عمله أم من عمل النساخ . وعلى كل حال نحن لا نملك القطع بأن الصاحب غلبت عليه العجمة لمثل هذا الاستعمال . وقد جاء فى الرسالة التاسعة من الباب الأول كلمة "مسجد جامعها" يريد مسجدها الجامع ، وهذه صياغة فارسية إذ يضيف الفرس الموصوف والصفة معاً إلى المضاف إليه .

والصاحب يختار ألفاظه من ذات الحروف الضخمة ، حروف التفخيم والإطباق ، فتكثر فى كلماته حروف القاف والضاد والظاء والصاد والطاء ونحوها مما يجعل الكلام جزلا ذا جلجلة ورنين . ومن أجل ذلك كان بناء الصاحب قويا ضخما يروع القارئ لأول وهلة بصلابته ومتانته ، وهو يقصد إلى ذلك قصدا ، حتى يحلق فى أجوائه العليا من فن الكتابة كما يتصورها وكما تقع فى وهمه . ويتصل بذلك أنه يُغْرِب أحيانا فى ألفاظه ، فيختارها من المعجم غير المألوف رغبة منه فى الارتفاع ، وقد ساعده فى بلوغ مايريده من ذلك ، أنه كان واسع العلم باللغة ، وقد ألف فيها معجما كما ذكرنا قبلا

وإذا تركنا ألفاظ الصاحب إلى أساليبه كان أهم ما يلفت فيها كثرة الاعتراض والفواصل ، فقد يفصل بين المبتدأ والخبر بجملة تمتد إلى ثلاثة أسطر[3] ، وقد يفصل بين الفعل ومفعوليه بجملة تمتد إلى خمسة أسطر[4] ، وقد فصل بين فعل الشرط وجوابه بنحو سبعة أسطر[5] . وقد آخذه السابقون على ذلك ، وقالوا إن هذا يحدث تعاظلا فى أساليبه[6] . وكما يكثر من الاعتراض يكثر من البُعْد بين المتعاطفات ، وخاصة إذا كانت مجرورة ، ولذلك شكلناها

---

(١) انظر الرسائل ص ٧٦ .
(٢) الرسائل ص ٩١ .
(٣) الرسائل ص ١٥ .
(٤) الرسائل ص ١٦ .
(٥) الرسائل ص ١٧٥ .
(٦) الإمتاع والمؤانسة ١/٦٤ .

فى مواطن كثيرة ، حتى يستبين القارئ تعلق الكلام بعضه ببعض . وأكبر الظن أن الصاحب كان يريد أن يدل على مقدرته ؛ وقد كانت لديه نزعة للإغراب . ويدل على تغلغل هذه النزعة فيه أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة فى حاجة فوقع فيها ، ولما ردت إليه الرقعة لم ير فيها توقيعا ، وقد تواترت الأخبار بالتوقيع فيها ، فعرضها الرجل على أبى العباس الضبى ، فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع ، وهو ألف واحدة ، وكان فى الرقعة : "فإن رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل". فأثبت الصاحب أمام فعل ألفاً يعنى أفعل[(١)] . وأيضا روى الثعالبى أن الصاحب صنع قصيدة معراة من الألف التى هى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمنثور، فتداولها الرواة وعجبوا منها ، فصنع الصاحب قصائد ، كلٌّ منها خالية من حرف من حروف الهجاء . وهذا كله يؤكد أن الصاحب كان ينزع إلى الإغراب ، كما كان ينزع إلى أن يشقّ على نفسه ، حتى يظهر قدرته ومهارته ، ومن هنا يأتى استخدامه للغريب ، وإكثاره من الاعتراض الطويل بين المعطوفات .

وقد كان الصاحب يَخْضَع فى أساليبه لما شاع فى عصره من استخدام السجع والبديع ، وقد اشتهر فى عصره بأنه يكلف بالسجع كلفا شديدا ، قال أبو حيان : "كان كلفه بالسجع فى الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد ، قلت لابن المسيبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة ينحلّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويُحتاج من أجلها إلى غرمٍ ثقيل وكُلْفَة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفرج عنها ويُخليها، بل يأتى بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها"[(٢)] . ويزعم الرواة أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجها إلى أصفهان وطريقه رامين ... فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح ، لا لشىء إلا ليكتب إلينا : "كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت فى نصف النهار"[(٣)] . ويستمر الرواة فيقولون : إن سَجْعَةً اضطرت الصاحب إلى عزل قاضى قُمّ ، فقد كان عنده ، فقال له : أيها القاضى بقم ، وأراد أن يكمل السجعة فأعياه ذلك ، فقال : قد عزلناك فقم[(٤)] .

---

(١) يتيمة ٣/٣٨ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٦/٢٠٧ .

(٣) معجم الأدباء ٦/٢٢٠ .

(٤) انظر مادة قم فى معجم البلدان لياقوت .

ولا ريب أن هذه روايات بولغ فيها ، فما بين أيدينا من رسائل الصاحب لا يدل على هذا الـكلف الشديد بالسجع ، إذ نراه كثيراً ما يكتفى بالازدواج . وربما كان هذا كله مما لفقه عليه خصمه أبو حيان أو خصوم آخرون ، وأعانهم عليه تكلف الصاحب أحيانا فى أسجاعه ؛ وإنَّ سجعه ليطرد فى كثير من فصوله اطرادا ، فلا يعوقه عائق ، ولا يخالطه تصنع أو تكلف .

وكما كان الصاحب يعنى بالسجع فى أسلوب رسائله كان يعنى بالبديع ، وأكثر حِلَى البديع استهواء له حلية الجناس ، وكانت تغلب عليـه حتى فى أحاديثه . روى عن بعض ندمائه أنه قال : كنت يوما بين يدى الصاحب ، فقدم البطيخ ، فقلت لا مُتَرَكَ ، فقال بالعجلة : لمترك ، وكنت أريد أن أقول : لا مترك للبطيخ ، فسبقنى إلى التنادر بهذا التجنيس (١) .

وقد عنى الصاحب فى رسائله بالاقتباس ، ولا سيما من القرآن الـكريم ، فهو مولع باقتباس الألفاظ والعبارات القرآنية ، وإدخالها فى مادة لغته . وفى أحوال كثيرة نراه يختم الفصل فى رسالته بآية من القرآن ، وقد صنع ذلك فى طائفة من عهوده ، فالتزم فيها اختتام كل فصل بآية من الذكر الحـكيم . وكما يقتبس الصاحب من القرآن يقتبس من الشعر والأمثال ، ولـكنه لا يكثر من ذلك .

وقد تعلق الصاحب باستخدام التشبيهات والاستعارات فى رسائله ، وطلب شاذها وغريبها كقوله : " فلم يكتسب بطلب الفرصـة إلا تجرُّعَ الغصَّة ، ولا من تتبع الغِرّة ، إلا تدرُّعَ الحَرّة " (٢) . والحرة معروفة ولـكن تدرعها هو الغريب ، ومن ذلك قوله : " عبد مولانا أخصّ بالخدمة، وألبس للنعمة ، من أن يخبر عما توره هذه الفتوح على نفسه ، وتأتيه فى إعلاء منكبه وطرفه " (٣) . والتعبير بما تأتيه هذه الفتوح فى إعلاء منكبه وطرفه غريب . ومن ذلك قوله " أمسك ونيران قلبى تفور ، وأرض صدرى تمور " (٤) .

ولعل مرد هذا كله إلى ما كان فى الصاحب من ميل إلى الإغراب والتأنق ، وقد كان يتأنق حتى فى خطه ، ومايستعمله من قراطيس فى رسائله ، فقد روى أنه لما أنشأ العهد إلى القاضى

---

(١) يتيمة ٣/٣٦ .
(٢) انظر الرسائل ص ٧ ، والحرة : شدة العطش.
(٣) الرسائل ص ١٤ .
(٤) الرسائل ص ١٢٠ .

عبد الجبار — وربما كان العهد الأول فى الباب الثانى من هذه الرسائل — كتبه له بخطه، واعتنى بزخرفته، ويقال إنه كان سبعمائة سطر، كل سطر فى ورقة سمرقندى، وله غلاف آبنوس يطبّق كالأسطوانة الغليظة، وقد أُهدِى هذا العهد إلى نظام الملك فى القرن الخامس[1].

ونرى من كل ما سبق أن الصاحب عُنِى فى رسائله بالسجع، فلا ينفك عنه إلا نادرا، كما عُنِى بطول الجمل وتحليتها بالبديع، وخاصة الجناسات والاقتباسات والتشبيهات والاستعارات. وإن من يقرن رسائله إلى رسائل القاضى الفاضل وحلبته من كتاب العصور التالية، يدرك أن هؤلاء الكتاب إنما استنّوا فى رسوم كتاباتهم بالسنن التى نراها هنا عند الصاحب، ونقصد سنن تطويل العبارات، وما يطوى فيها من سجع وبديع. وهى سنن اقتفى الصاحب فيها أستاذه ابن العميد، ومن المعروف أن ابن العميد تناول الكتابة ممن سبقوه، وهى مليئة بالسجع، على نحو ما نجد عند كتاب المقتدر ووزرائه[2]. ولم يكتف ابن العميد بالسجع فقد أضاف إليه البديع وكان يشغف بالطباق، ثم جاء الصاحب من بعده، فارتفع بالكتابة الديوانية إلى الصورة التى وصفناها. وهى صورة تستمد خطوطها وألوانها من السجع والتشبيهات والاستعارات والجناسات والاقتباسات وكل ما يمكن أن يُعَدَّ حلية بيانية. وقد تحكّمت هذه الصورة فى الأجيال التالية بحيث لم تستطع أن تضيف إليها جديدا مهمًّا، سوى ما كان من لون التورية.

ومجمل القول أن الصاحب كان علما من أعلام البلاغة فى عصره وبعد عصره، وحق ما يقوله الثعالبى من أن "كلامه سار مسير الشمس، ونظم ناحيتى الشرق والغرب". وهو ليس كلاما مكرورا، مما نقرؤه عند أصحاب الرسائل الإخوانية، بل هو فى موضوعات من التاريخ والسياسة والاجتماع، وهى موضوعات لا يوفق إلى الإجادة فيها، إلا من أوتى علم الصاحب باللغة، ودرسه للأدب، وطبعا مدّادًا، وملكة فيّاضة. والله المستعان ؟

(١) طبقات السبكى ٣/٢٣٠.

(٢) انظر تاريخ الوزراء للصابى ص ٢٧٧، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٢، ٣٤٤ وكذلك معجم الأدباء ١٧/ ١٣٦، ١٨/٩٧

الرســائل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ذكرتَ – أطال الله بقاءك – شديدَ حِرْصِك على تحفّظ بعض رسائل الصاحب كافى الكُفاة رضى الله عنه ، واحتياجَك إلى من تستعين به على جمع ذلك مبوّبا ، مختارا الأشفَّ فالأشفَّ منه . فوعدتك القيامَ لك به ، وجرّدتُ له عنايتى ، وخرّجتُ من كل باب من أبواب ديوان رسائله العشرين عَشَرَ رسالات ليخفَّ حجم هذا المجموع ولا يعتاص تحفّظه . وقد رجوتُ أن يقع ذلك منك موضعَ الوفاق ، والله ولىُّ التوفيق والإرشاد .

فالباب الأول — فى البشائر والفتوح .
والباب الثانى — فى العهود .
والباب الثالث — فى الأمان والأيمان والمواقفات والمناشير ومراعاة الكبيسة من السنين وما يجرى مجراه .
والباب الرابع — فى أمر الحجيج والمصالح والثغور .
والباب الخامس — فى الاستعطاف وما يجانسه .
والباب السادس — فى إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة وتهجين العقوق بين ذوى الأرحام وما يشا كل ذلك .
والباب السابع — فى المدح والتعظيم .
والباب الثامن — فى الذم والتهجين وما يجرى مجراه .
والباب التاسع — فى التهانى .
والباب العاشر — فى التعازى .
والباب الحادى عشر — فى الإخوانيات والمداعبات .
والباب الثانى عشر — فى التشكر .
والباب الثالث عشر — فى الاستزادة والتقريع .
والباب الرابع عشر — فى التنصّل والاسترضاء .
والباب الخامس عشر — فى الشفاعات .
والباب السادس عشر — فى توصية العمال بتجلّب المال وإظهار العفاف وحسن السياسة .
والباب السابع عشر — فى الأدب والمواعظ .
والباب الثامن عشر — فى فصول وغُرَر ، وتوقيعات ودُرَر .
والباب التاسع عشر — فى النوادر وهى الكتب النادرة .
والباب العشرون — فى الشوارد و [هى] الكتب المختلفة المعانى .

الباب الاول

فى البشـــائر والفتوح

١

كتابنا — أدام الله عزك — من المعسكر بظاهر إستراباذ(١) ، وقد أنزل الله علينا النصر ، وسهّل لنا بعلوّ جَدّ مولانا الملك السيد(٢) العلوّ والقهر ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله وصحبه أجمعين .

وأحسنُ نعم الله تعالى غُرَرًا وأوضاحا ، وأبينها فَلَقًا وصباحا ، وأولاها إذا تُصُفّحت المواهب أخذاً بحظ السابق ، وأوْلاها إذا تُتبعّت المنائح فوزا بالعز الشاهق ، وأحراها بأن تُثْنَى عليها ألسنة الأيام والليالى ، وتُثْنَى إليها أعناق المحامد والمعالى ، نعمةٌ صادفت حمداً وشكرا ، وجمعت فَتْحًا ونصرا ، ونظمت نُجْحًا وقهرا ، واستذلّت ممتطياً للجحود لاهياً عن غَوْره ، مُسْتَشْرِيا فى الغموط عادياً لطوره ، وتلك(٣) النعمة عند مولانا الملك السيد ، إذ عَضَدَ الدولة ، وتوّج الملة ، وحرس الأمة ، وزحزح الغُمّة ، ورفد الخلافة ، وبسط العدل والرأفة ، وطهّر البلاد ، وعَمَرَ الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدّ الثغور . فشهدت فتوحه بأنه مُؤيدٌ من عند الله ، ومحوط الملك بيد الله ، لا ينازع رأيَه منازعٌ إلا تلّ لجبينه ، وعوجل بقطع وَتِينه . ولا يمانع رايته ممانع إلا غُلت يده دون مطلبه ، واقتُطع أمده عن مهربه . ولم يَعزّ بالتحصّن عليه مارق ، والتمنّع دونه مشاقٌّ مفارق ، إلا استولى عفوا على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكّن منه القضاء سمحا فاستُنزل عن معاقله وصياصيه . وعيانُ ذلك لمشاهده ، قبل إقامة شواهده ، حادثُ ما أجرانا الله عليه فى ظله ، وباعتلاق

---

(١) استراباذ : مدينة فى شمال فارس وكانت فى العصور الوسطى المدينة الثانية فى إقليم جرجان .

(٢) يريد الصاحب دائماً فى رسائله بالملك السيد عضد الدولة .

(٣) فى الأصل : فتلك .

حبله ، فى أمر الغامط قابوس[1] بن وشمكير ، إذ مضى أخوه[2] وكان للطاعة عبدا ، ومع أيدى أوليائها يداً ، وهذا الجاحد مغمور فى أهله ، مخفور فى نفسه وفعله ، يكاد ضُمُور القدر يخفى شخصه ، وغموض الذكر يتولّى غمّصَه ، واستجار بنا وهو فى قران ذهول ، وضمان خمول ، فظنناه إذا اصطنعناه لمولانا الملك السيد ولنا[3] — منتضين له من غمد الامتهان والابتذال ، ومستلّين من عادية الامتحان والاختلال — واستخلفناه على بلاد جرجان وطبرستان يشكر النعمة ويرتهنها ، ويُدمِن الخدمة ويحسنها ، فرفعنا خسيسته ، وجبرنا نقيصته ، وجمعنا له بين التمكين من هذه الأعمال والبقاع ، والإيثار بما فيها من المعاقل والقلاع . فحين رأت عيناه ، ما لم يبلغه مناه ، واتسعت نعمته ، بحيث لم تُنِلْه همته — وقد نقلناه إلى رتبة لم يدر أنه راقٍ إلى سماوتها وأثقلناه بنعمةٍ لم يأمل أن يتعلق بعُلاوتها — نفخ الشيطان فى سَحَرِه ومناخره ، وضرب بالأسداد بين أوائل أمره وأواخره ، وحبّب إليه العناد حتى سِيط بلحمه ودمه ، وكرّه إليه الرشاد حتى ألقاه وراء ظهره وتحت قدمه ، وأقبل على الشروط ينقضها ، والمواثيق يرفضها ، والرعية يحتنكها ، والدماء يسفكها ، وسُنَن الظلم يحييها ، وسِيَر العدل يميتها ، والنفوس البريئة يرتهنها ثم يغتالها ويُفيتها .

ومولانا الملك السيد فى كل ذلك يُوَلّيه صفحة صفحه ، ويوليه العفوَ من عفوه ، فيتجاوز عنه حلما ، ولا يتجاوز به التنبيه كظْما ، ونسلك فيه هذا المذهب ونعتمده ، ونحذّره فى أثناء الإغضاء ونُرَشّده ، رجاء أن يَنزِعَ أو يَتزِع ، أو يُقلِع أو يرتدِع ، إلى أن عاد بُدُوُّ شره فادحا ، وفتق جهله قارحاً ، فاستبد استبداد المطاع لا الطائع ، والمخدوم والمتبوع لا الخادم التابع واستلان لبس المخازى ومدّ سُجُوفها ، وتلقّب شمس المعالى[4] وكان كسوفها ، صنيعَ من لم يُؤتَ بَسْطَةً فى علمه ولا جسمه ، واستولى البؤس على عيشه واسمه . وما غادر مع ذلك من المروق مناطا إلا بلغه ولجّ ، ولا بابا من الفسوق إلا قرعه وولج ،

---

(١) أحد ملوك الدولة الزيارية التى تسلطت فى طبرستان من عام ٣١٦ إلى عام ٤٧٠ هـ .

(٢) هو بيستون بن وشمكير الذى توفى عام ٣٦٦ هـ ، فخلفه أخوه قابوس أميراً على طبرستان ، انظر ابن الأثير طبع أوربا ٥٠٦/٨ .

(٣) يريد هنا مؤيد الدولة وكان الصاحب وزيره ومشيره .

(٤) هذا اللقب لقّبه به خليفة بغداد على عادته فى تلقيب ملوك الدول الإسلامية التى نشأت فى ذلك العصر ألقاباً مختلفة .

إلى أن صار السبب فى استزلال فلان[1] ، فدلاّه بغروره ، واستهواه إلى جانب ثُبُوره ، كأن لا رِقبَة عليه ولا محاسبة ، ولا عصمة بينه و بين الطاعة ولا مناسبة . ولم تُرْضه هذه المساوئ التى لا مُسَاوِىَ له فى ارتكابها ، وقد ملأ حقائبه من اجترامها واحتقابها . فأخرج فلانا إلى جبل[2] شهريار ، و به[3] أخونا أبو الحسن على[4] بن كامة مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — من لا يَصْطلى المخالفون بناره ، حتى يحرقهم بشراره ، وقد نَسَخَ الجبل[5] قرنا بعد قرن ، وأوسع أركانهم وهنـا بعد وهن ، فردوا نا كصين على الأعقاب ، متقمصين لباس الخُسْر والتباب .

ثم تصدّع شمل المقيم على العقوق[6] ، والمديم للمروق[7] ، تصدّعا نتجته الخيفة والمهابة ، لا الرُّجْعَى والإنابة . فعلم أن الله قد وكله إلى حول نفسه وخلّاه ، وخاف أن ينتقم منه وقد أملاه . وقرر مولانا[8] بحضرة سيدنا ومولانا الأمير[9] وقتا وقتا حال النواحى ومن كنا وليناه ، ودَفْعَهَ بيد الكفر فى صدر ما أوليناه[10] . فكاتبنى أمير المؤمنين على ما أشعت من الذكر ، وأشبعت من النشر مستكفيا ، وأهاب بى لارتجاع الوديعة من جاحدها مستصفيا . ورأى أن تكون جرجان وطبرستان مضافتين إلى ما نليه حاضرَ النظر ، وندبره تدبير العيان دون الخبر[11] . ووافانا من حضرة مولانا[12] أبو حرب زيار[13] بن شهرا كويه مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — وعينه فِرَارُه ، واختاره حيث اختياره ، قد نجّذته الحروب ، وخفّت عليه الخطوب ، زعيما على من ضامّه من خيل ، كقطع الليل ، ورجال ،

---

(١) يقصد هنا فخر الدولة فقد خرج على أخيه عضد الدولة ، وهاجر إلى قابوس مستنجداً به فحماه وكانت حمايته له سبب هذه الحرب .

(٢) أحد حصون بلاد الجبل أو الجبال التى كانت تقع جنوب طبرستان .

(٣) فى الأصل : وبها .

(٤) أحد قواد الدولة البويهية العظام وقد توفى عام ٣٧٤ هـ . انظر ابن الأثير ٢٨/٩ .

(٥) هكذا فى الأصل ولعلها الجيل وهم سكان جيلان وهو إقليم وراء طبرستان

(٦) يريد فخر الدولة ، انظر ذيل تجارب الأمم نشر آمدروز ص ٢٥ .

(٧) يريد قابوس بن وشمكير .

(٨) يريد مؤيد الدولة .

(٩) يريد عضد الدولة .

(١٠) يريد قابوس .

(١١) يشير هنا إلى ما كان من سؤال عضدالدولة الخليفة الطائع لله — حين حمى قابوس فخر الدولة — أن يعقد لمؤيد الدولة على أعمال جرجان وطبرستان فأجابه إلى ذلك ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٥ .

(١٢) يريد عضد الدولة ، انظر المرجع السابق ص ١٥ .

(١٣) فى الأصل : زياد بن اشهرا كويه وهو تحريف ، وكان زيار هذا من كبار قواد عضدالدولة ثم ابنه صمصام الدولة .

خلقوا لقطع الآجال ، مقرونا من فلان بالسديد رأيا وروية ، الشهير فى مجارى التدبير مشورة ناصعة وبصيرة قوية ، فنهضنا وقد ضممنا الخيل الواردة إلى جيوش ترجف — بعون الله — لها الأرض ، ويستوى بها — والمنة لله — النشز والخفض .

وراسلنا المغرور نناشده حق الصنيعة ، ونبصّره فرض الشريعة ، ونعلمه أن هواء الغمْط وَبِىّ ، وفناء النكث فناء وَخِىّ ، وأنه — إذا حللنا بعقوته — غَرَضُ الخوادم ، وهَدَفُ الخواطف[1] ، وأن أتباعه رِجْلُ جراد وافت بها الريح فى يوم عاصف . وعادت عنه أجوبة حققت أن الغامط مسوق إلى جزاء أعماله ، مسبوق بقضاء لا مطمع فى انحلاله ، إلى أن شافهنا طبرستان وقد طار عنها أخوه[2] ، والآخرون ذووه ، واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلابهم نحورهم . فبسطنا بها المعدلة سهولا وجبالا ، وأمضينا[3] فيها الإحسان يمينا وشمالا ، وألف الجاحد بإستراباذ عديده ، وأرهف حَدَّه وحديده ، مستوثقا من مضايقها ، معمقا لخنادقها ، مقدرا أن الحصون واقية من يطلبه جند الله وحزبه ، وحامية من يَدْهمه سخط الله وحربه . والمستأمنة منذ أول حطّنا بوبمة[4] ، إلى أن أمضينا فى المناجزة العزيمة ، يتقاطرون نافضين أيديهم بالخذلان وزعيمه[5] ، آيضين إلى ذمام التوفيق وحريمه .

وقد كان المثبور حسب المجاهدة تقع على باب إستراباذ المفضى إلى سمت سارية[6] ، وهو ضَنْك على الفارس والراجل ، ضيّق على الزارق والنابل ، رجاء أن تتدارك المدافعة ، أو تتماسك الممانعة ، وتأميلا لأن تكون جرجان وراء ظهره ، وباقية مدة مطاولته تحت أمره . وأملنا عنه أعنة الخيول إلى باب استراباذ المواجه لجرجان برأىٍ صائبٍ سافرٍ ، على طريقٍ بكرٍ لم يفترع بخفٍّ ولا حافر ، فبردت أرواح الضلال ، وعلموا أن سعيهم فى وبال وخبال . وشحنّا جرجان بخيل سربناها إليها ، وضممناها إلى أبى الوفاء بكتكين الحاجب مولى مؤيد الدولة — أيده الله — ليطنب عليها ، فقد كان أهلها من عَسْف المارق وخَبْطه ، فيما ضاعفه عند نهوضنا لمحاصرته وضغطه ، فأرْخى من خناق تلك الرعية ،

---

(١) الخوادم : السيوف ، والخواطف هنا : الرماح

(٢) هو جركاس بن وشمكير ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٧ .

(٣) فى الأصل : وأقصينا .

(٤) وبمة : بلدة صغيرة كانت فى الجبال بين الرى وطبرستان .

(٥) يقصد بالزعيم قابوس

(٦) إحدى مدن طبرستان .

واستُخلصت من أنياب العسف ومخالب الأذيّة ، وخيمّنا فأعدنا الذكرى على الغار مع الاقتدار ، وحذرناه العقبى على قرب الدار ، آخذين بإذن الله ، عند مقاتلة البُغاة ، ومقابلة الخوارج العُتاة ، فخيل إلى المضعوف أن تركنا التسرّعَ إلى قصده ، استصعابٌ للخطب دون حَصْده ، ناسياً أن الحتف يتاح دفعة فلا يبقى ولا يَذَر ، والحَيْن يساق ضَرْبَةً فلا يُؤَخِّر ولا يُنْظر . ورصد فى بعض أيامه لطليعة خفيفة قربت منه فتلقاها بأصحابه جميعاً ، وطمع فى أن يركب منها مركبا فظيعاً ، فلم يكتسب بطلب الفرصة ، إلا تجرُّعَ الغُصّة ، ولا من تتبّع الغِرَّة ، إلا تدرُّعَ الحرَّة ، فتحققنا عند ذلك أن تركه فى اغتراره ، غلوٌّ فى تأخيره وإنظاره ، لا سيما وقد بدأ وهو مطلوب ، وتعرّض وهو مغلوب ، فصممّنا على اللقاء ووجوبه وقد استعذنا من البغى وركوبه ، وزحفنا يوم كذا مستظهرين بعادة الله وعِدَته ، معلنين بشعار أمير المؤمنين ودعوته ، ومستَنجحين بدولة مولانا الملك السيد وكلمته .

وأطاع الغامط أذهب وجهيه[(١)] مع الغرّه ، وأقضاها بالشِّقوة المستمرة ، وأقدم على المساورة ، وحض أصحابه على المصابرة ، وخفّ الأولياء إليهم فخيلت الجبال سائرة ، والبحار ثائرة ، والأسلحة تَبِصُّ عليهم لمعانَ الشموس ، وتروع أطباق القلوب قبل إزهاق النفوس ، وشاهد المخاذيل منهم ما أطار العيون عن حجاجها ، وأطاح القلوب من انزعاجها . وشمّرت الحرب عن ساقها ، وتنمرّت بمحمرة أحداقها ، ودارت كأس الموت دِهاقا ، وعاد لقاء القِرْن للقِرْن عناقا ، فكسرنا المدابير بالديلم زَرْقاً ، وبالغلمان رَشْقاً ، ومُلِك عليهم الخندق[(٢)] بعد أن جُعِل قتلاهم معابر ، وجرحاهم قناطر ، فما انتصف النهار إلا وقد انتصف الله للحق من الباطل ، وكُنِفنا بالأيد القاهر والنصر الشامل ، واقتسمت المخاذيل الهزيمة بين قتلى أجروا من دمائهم الجداول ، وأسرى استنفدوا الكبول والحبائل . وكان من وجوه المأسورين وأعيانهم ، والمعدودين فى جمهور أعضادهم وأركانهم لشكرستان بن لنكرين وفلان وفلان ، فأما من سواهم فلم يتميز بعد مجهولهم عن معروفهم ، لدخول مثيهم فى أضعاف ألوفهم . وأفلت المغرور ، فى فل الثبور ، مفرداً مزءوداً[(٣)] ، موحداً مهدوداً . قد عرَّف نفسه أوعرفها ،

---

(١) فى الأصل : نعنه .

(٢) يشير إلى الخندق الذى حفره قابوس بظاهر إستراباذ ، وكان قد بنى عليه أبراجا رتب فيها الرماة ، انظر ذيل تجارب الأمم ص ١٦ .

(٣) فى الأصل : مزدوداً .

وجمعت بين عينيه مساويه التى اقترفها ، وهو متبوع إلى أن يذيقه الله بأسه وإن كان قد أذاقه ، ويلقيه جزاء كفره وقد شدّ له نطاقه .

فأما ما ملكه هو وأشياعه من مال وكُراع ورقيق وسلاح فإن الله عز وجل أفاء منه غُنماً على الأولياء ، ما سبق يد الحصر والإحصاء ، وقد تقدمنا بالمنّ على الأسْرَى اقتداء بالسنة المتبوعة فى حَقْن الدماء ، بعد سكون الدَّهْمَاء ، وإيثار الاستبقاء ، بعد الاقتدار والاستيلاء . فالحمد لله معز الحق وناصره ، ومذل الباطل وقاهره ، العَدْل فلا يَلِتُ أعمال المحسنين ، ولا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين ، حَمْدًا يديم لمولانا أمير المؤمنين علاء الحكمة ، ومَضَاء الكلمة ، وأبّهة الإمامة ، وعظمة الزعامة ، وإرث الرسالة ، وعز الحجة والدلالة ، فالدين مالم يُقْرَن بطاعته نِفَاق ، والدنيا ما لم تسكن مع جماعته شقاق ، وأطال بقاء مولانا الملك السيد حارساً بعزته الإسلام وحوزتَه ، واقيا ببسطته وقبضته الإيمان وبَيْضَتَه ، ولاينجم فى أوساط الأرض وأطرافها ناجم فتنة إلا عاجله غير منتظر ، وغادره هشيم المحتَظِر ، وأوزعنى الله أن أشكر نعمة الله وقد أيدنى وأيّد بى ، وأصلحنى وأصلح على يدى . ووفقنى لأن انتضتنى يد الخلافة صارما أذبّ عن أنصار الملة فمضيت ، وارتضتنى حا كما أقضى على كفار النعمة فقضيت مفوضاً فى كل حال إليه عز ذكره ، وموقنا أن القوة به والأمر أمره .

طالعناك — أدام الله عزك — بهذا الفتح الزاهر ، والنُّجح الباهر ، لتُوَفِّر حظَّك من الأنس له ، والشكر عليه ، وتُنطق أعواد المنابر وألسنة المحاضر به ، فرَأْيَكَ — أدام الله عزك — فى إعلامنا موقع هذه البُشْرَى لديك ، وما توردە من السرور عليك ، وذكر ماتتوقعه من خبرك موفقاً إن شاء الله .

٢ — وله فى فتح قلعة

كتابى ، ونعم الله عند مولانا الأمير فيما يعليه من نجمه ، ويمضيه من حكمه ، متوالية ، وكلمته فى مصارف الزمان ، وأحوال السلطان ، عالية ، وأنا سالم من بعده ، وبعالى جَدّه ، والحمد لله وحده .

ووصلت كتب سيدى مفصحة من آثاره عما يُطيب النشر ، ويُطيل الفخر ،

وعرفت ما يسَّرته له سعادة الدولة القاهرة ، والعزة الظاهرة ، حتى طهَّرَ تلك البلاد عن شوائب الفساد ، وأطلع فيها كواكب السداد ، فصَمَد له من أمر القلعة التى حسب مودعها أولاده ومستحفظها عتاده[١] أن حماها لا يُرَام ولا يُدْرك ، وقاطنها لا يُضَام ولا يُمْلَك فلما غشّاها سيدى هَوْلة الانتقام ، وولّاها جانب الاصطلام ، انحلّت بساكنيها[٢] معاقدها ، وزلزلت عليهم قواعدها ، فملكت قسْراً ، وأُلبسوا ذُلّاً وقهراً . وتلك عادة الله عند مولانا فى أوليائه وأعدائه ، وتابعى رايته ومخالفى رأيه ، وعِدَته للأمير فى الواقفين مع أمره ، والصادفين عن[٣] رسمه ، والمتمسكين بشعاره ، والمتحككين بناره ، فلمن أخلص نجحُ السعادة وبلوغ المرضاة ، وإدراك الآمال عن كثَب ، ونيل الأمانى بأقرب طلب ، ولمن داهن الخزىُ العميم ، والدمار المقيم ، والسعى الذميم ، والعذاب الأليم .

وسيدى سيف الضريبة ، وليث الكتيبة ، ما جرده مولیانا — أدام الله علاهما — فى خطب إلا نفذ وجدّ ، ورَى وقدّ ، ولا أفرداه بأمر إلا أوفى على الذروة والغارب ، وحاز منية الطالب ، وبغية الراغب ، فالحمد لله حمد العارف بمقادير النعم ومحالّها ، ومواقيت الشكر وأحوالها ، حمدا يزيد أبناء الحق ظهورا ويوسع أشياع الباطل ثبورا . وعرضت فى المجلس العالى ما ورد ، فارتاح مولانا لمودَعه ، واهتزّ لمتصفِّحه ، واستقبل من حمد الله على مننه ما هو رباط عطاياه وعقالها ، والداعى إلى أن تتصل موادّها وأمثالها .

والقلعة الأخرى إذا صرّف مولاى أهلها بين خشونة إيعاده ، ولين ميعاده ، وأراهم بريق حسامه ، مشفوعا ببروق إنعامه ، لم يلبثوا أن يسلموها خاشعين ، ويستسلموا لأمره متابعين ، اللهم إلا أن تكون الشقوة عليهم مكتوبة ، والحتوف مصبوبة ، والمتالف لهم راصدة ، وإليهم قاصدة ، فلمولاى حينئذ استنزال[٤] عوائد الله عند مولیینا ، حتى يسوق إليهم المنايا الحمر ، ويُرَوّى منهم الرايات الزرق والصوارم البُتْر . وسيدى يُصْغى إلى ما يورده مولاى حق الإصغاء ويتأمله تأمل مثله من أولى العزائم والآراء ، ويأخذ فيه بأدب الأناة حتى يتدبّره ، ويتصور أوله وآخره ، إن شاء الله .

---

(١) لعله يريد قابوس ، انظر ابن الأثير ٩/٨ .
(٢) فى الأصل هكذا : لسكنيها .
(٣) فى الأصل : مع .
(٤) فى الأصل : فى استنزال .

هذا ، وقد عرّف الله الـكافة ممن نهض به فحَصُه وتنقيره ، أو قعد به عجزه وتقصيره ، أنه — تبارك اسمه — سهّل طرائق ذلك ومجاريه ، ورفع قواعـده ومبانيه ، بمن انتضى دون الخلافة سيفه فصدق رجاؤه ومضاؤه ، وجرّد عن الإمامة عزمه فنفذ قضاؤه ، ووقف على حماية الدين خواطره فساعدته الأقدار ، وشغل بالذيادة عن المسلمين عساكره فخير له الاختيار ، وهو مولانا الملك السيد[١] فما يقصد وعراً إلا آض سهلا ، ولا يحكم عقدا إلا استماض حَلاً ، ولا ينادى بلفظه مصرا إلا أجاب بالتسليم ، ولا يناجى بفكره صقعاً إلا دان لبأسه العظيم ، ولا يُضمِر له المداجاة مُضمر إلا خبَا جَمْرُه ، وتبرّم به عمره ، وتقطّعت وصائل بقائه ، واتصلت حبائل هُلْـكه وفنائه ، فضلا من الله فات رويّة المروّين[٢] ، وسبق أخبار الراوين .

وكنت عرفت سيدى حال ابن حمدان[٣] حين نفته الأرض عن مناكبها ، وضاقت عليه من جوانبها ، ومُحِيَ اسمه من صحيفة الأحياء ، إلا ما أملى له لاستكمال الشقاء ، وأن الحيرة فى مهار به رمت به إلى الروم ، فلما ظن الشرك يستر نفسه ، والـكفر يَسْتَخْبى شخصه ، تبعته من سطوة الملك السيد صاعقة خطوب على هؤلاء الأعلاج إيراء[٤] لمكانها ، وان رَضِيَ بالتذلل بين بِيَعها وصُلْبانها ، فأخرجوه فريدا حريدا ، وأبعدوه شريدا طريدا ، تملكه الشقوة ويرصده الحِمام ، ويزعجه الصبح ويُذْعره الظلام .

وكان الملك السيد كاتبَ عرب الشام فى اقتناصه ، وإبهام الوجوه دون خلاصه ، فاستقْرِيت أخباره ، واقتفيت آثاره ، وعاجله فى البوادى التى تطوّحَ بينها وجوهُ العرب ، وحثّوا إليه رواحل الطلب ، معلنين بشعار الدعوة ، مُعْتَزِين إلى منتماها ، مستظلين بأكنافها ، مُوضَحين بسيماها ، والتقوا فهبّت ريح الإقبال لأولياء الله ، ودَبَرَت ريح الإدبار لأعداء الله ، وأُخِذَ ابن حمدان أسيرا ، وخرّ عقيرا ، ورُفع قتيلا ، وغُنمت تتمة ماله ، واصْطُلِمَت بقية رجاله ، وصُلِبت جثته إتماما للعبرة ، وأُصدر رأسه على الرسم إلى الحضرة ، فلم يبق لتلك

---

(١) يريد عضد الدولة .

(٢) فى الأصل : الراوين والفعل من الروية روّى

(٣) هو أبو تغلب بن حمدان . انظر حربه مع عضد الدولة فى تجارب الأمم لابن مسكويه نشر آمدروز ٦/٣٨٤ وما بعدها وتاريخ ابن الأثير ٨/٥٠٨ وما بعدها .

(٤) فى الأصل : إبواء . وإيراء من أورأ بمعنى أعلم وأظهر .

العصبة المجاهرة بعداوتها وعدوانها ، المترددة بين كفرها وكفرانها ، من ينتمى إليها بسبب ، أو يضرب فيها بعرق ونسب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة .

ووافق ورود هذه البشرى حضرة مولانا الملك السيد طلوع أخرى جارتها فى رهانها ، وزادت فى علو شأنها ، وذلك أن بنى شيبان كان شرُّها استفحل ، وداؤها أعضل ، بعجز من تقدم من الولاة عن رميها بأحجارها ، ومحو آثارها ، وحسم أطماعها ، وقصر أبواعها . فلما عاد الملك السيد إلى مقر عزه من دار الإمامة ، وجوار الخلافة ، جهّز إليها من مقانب النصر، وجيوش الكفاية والقهر(١) ، من يقيمها على مناهج الاستقامة إن لم تُسلمها جرائرها ، ويعيدها إلى مدارج السلامة إن لم توبقها كبائرها ، فأبى الله إلا أن يذيقها وبال ما ارتكبت ، ويُجنيها ثمار ما احتقبت . وحسبتْ تركَ المعارف إلى المجاهل يقيها ما أظلها ، والإيغال فى المسارب والمهارب يحميها ما أقلّها ، فجدّ الأولياء فى طلبها ، وأتاح الله لها قرب الإحاطة بها ، فقُسِم الجمهور منها بين أسْرٍ سريع ، وقتل ذريع ، وملكت عليها ذراريها وأولادها ، وعدتها وعتادها ، وكُراعها وسوائمها ، وولدانها وولائدها ، وطهّر الله البلاد من أدناسها ، فتركها عبرة لأضرابها وأجناسها ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ولا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين .

فالحمد لله ، ثم الحمد لله ، ما دام الحمد منطوقا به وملفوظا ، وكان الشكر لازما ومفروضا ، إذ مهّد لأمير المؤمنين الخلافة فعظّم دلائلها ، وفخّم جلائلها ، وظاهر أمارات صحتها وثباتها ، وضاعف سموّ منازلها وعلو رتباتها ، وعضدها من الملك بمحافظ عزتها ، وتاج ملتها ، وسائس أجنادها ، ورافع عمادها ، ومذلّ من نكَبَ عن محجّتها وصدف ، ومال عن قبلتها وانحرف ، وأوزعنى الله أن أشكر هذه المنن التى يقصر عمر الزمان عن إحصائها عدداً ، وحصرها لسانا ويدا ، إنه فعال لما يشاء .

ولما كان ما تهيّأ من هذه المطالب ، ويُهنّأ من هذه المواهب ، مختصا بسيدى للأحوال التى شاركت بين النفوس فى المنائح ، والمحاسن والمناجح ، بشّرته بهذه الرغائب الجامعة إلى الاستبشار ، اعتبارا بلطائف الله تعالى ، وإلى الابتهاج ، إكبارا لعوارف الله .

---

(١) انظر حروب بنى شيبان مع جيوش عضد الدولة فى تجارب الأمم ٦/٣٩٨ ، وكذلك انظر ابن الأثير طبع أوربا ٨/٥١٦ .

٥ — وله جواب فتح

كتابي — أطال الله بقاء الملك — والأرض مهتزة الأعطاف والمناكب ، ريَّا الأطراف والجوانب ، لما يوالى الله تعالى لمولانا الملك من العز الممنوح ، ويظاهر لأنصاره من عز الفتوح . ومن أقرب ذلك عهدا ، وأوجبه شكراً وحمداً ، ما وردت به البشرى الكبرى ، وتجدّدت معه النعمى العظمى ، فى افتتاح البصرة أحد العراقين ، وأشهرهما ذكرا فى الخافقين ، حين مُلكت بجيش الرُّعب ، قبل امتلاكها بأبناء الحرب ، ومَلَكَ المخالفين فيها من الذعر والرَهَب ، ما كفى كُلفة اللقاء والطلب ، ووردها أبو الوفاء طاهر بن محمد[١] — أيده الله — فى المضمومين إليه من أبناء الدعوة ، وأنشاء القُرْبة والحضرة ، فأفصحوا فيها بشعار الحق ، وخلّصوا أحرارها من سمة الرق ، وأماتوا فيها سُنَن الجَوْر والاعتساف ، وأحيوا فيها سير العدل والإنصاف .

وقد سَعِدت سعدٌ بالطاعة ، وحصّلت خَصْلَ السابقين إلى عز الجماعة ، وربع على ربيعة من هُجْنَة الزَيغ ما عفّته بالإنابة والمتابة[٢] ، وتلافته بالتماس العفو وحسن المثابة . فإن الموهبة بذلك كادت تجلّ عن لسان الشاكر ، وتعظم عن ذكر الذاكر .

فالحمد لله على حسن[٣] نظره للأرض برها وبحرها ، سهلها ووعرها ، معلومها ومجهولها ، صعبها وذلولها ، بجمعها إلى خطة مولانا الملك السيد وحَوْزَته ، وتغشيتها بأيْده وعزته ، حمدا يُسْعد ما طلعت عليه الشمس وغربت ، بالانطواء فى أثناء سلطانه ، وإضاءة الأرجاء بنور زمانه ، إنه فعّال لما يريد .

وعبد مولانا أخَصُّ بالخدمة ، وألبس للنعمة من أن يخبر عما تورد هذه الفتوح على نفسه ، وتأتيه فى إعلاء منكبه وطرفه ، ويقوم به من فرض الله — تعالى — على عظيم مننه ، والتحدث على المنابر ، فى الأندية والمحاضر ، بما يجدد الله تعالى من فضله .

---

(١) أحد قواد عضد الدولة . وانظر فى وروده البصرة تجارب الأمم نشر آمدروز ٦/٣٧٠ .

(٢) فى الأصل : المثابة .

(٣) فى الأصل : حسب حسن ، وحسب زائدة لا داعى لها .

٦ — ولـــه

كتابُنا — أدام الله عزك — عن سلامةٍ قد وصل الله أسبابها بالسعادة ، وأجرى فيها على كريم العادة ، والحمد لله رب العالمين . ومواهبُ الله عنـد مولانا الملك السيد — وإن كانت فائتةً للتعديد ، ضامنةً للمزيد ، سابقةً للحصر ، غامرةً للشكر ، متجاوزةً حدود العرف ، ممتنعةً على أيدى[١] الإحصاء وألسنة الوصف ، مقبلةً بالفتوح المتوالية ، مشتملةً على الكلم العالية ، ناظمةً أشتات العوائد ، شافعةً غرّ المـآثر بزهر المحامد — بحكم تفضُّل الله فيها باستعلاء نجمه ، واستخزاء الزمان لحكمه ، وتطامن الأقدار لرسمـه ، واستجابة الأقطار لهمه ، حتى لا يُستثنى عند ذكر ممالـكه بلد ، ولا يَشِذّ عن احتذاء مراسمه أحد .

إنّ لـكل رغيبة تُستقبَل ، ومنقبة تؤثَل[٢] ، ومسعاةٍ تُستنجَح ؛ ومملـكة تُفتَتَح ، ورايةٍ تذهب قُدُما ، ورويّة تنتج غُنْمَا ، وداءٍ أعْضَـلَ الأمم السالفة فهان بدولته علاجه ، وطرفٍ أعيا الولاة السابقة فدان لعزته رِتاجه ، لحقاً[٣] من الإشاعة والإشادة ، والإفصاح بما جدد الله من كريم العادة ، ليعلم المستعلم[٤] كما عرف الناظر ، ويوقن البادى كما أيقن الحاضر ، أن الله — تعالى — النافذَ أمره ، العزيزَ نصره ، الجلىَّ صنعه ، الخفىَّ مكره ، قد ذلل لمولانا الملك السيد ولنا فى ظل دولته مصاعبَ الأمور ، وألّف على طاعتها مذاهب الجمهور ، فمن مسعودٍ يسبق إليها فى قران التخيير ، ومن مثبور حُمِل عليها فى ضمان التسخير . ذلك بما صرف إليه مولانا الملك السيد عزائمه المرتضاة ، وصوارمَهُ المنتضاة ، من حراسة حريم الدين وحياطة حوْمته ، وحماية زمامه وشد عُرْوته ، والقيام لمولانا أمير المؤمنين بإيفاء الخلافة حقّ الإكبار والتوقير ، والخروج إليها من فرض الإجلال والتعزير[٥] ، وشرح صدور المُخْبِتِين لها بما اعتقدوه وشحذ بصائرهم فيما قصدوه واعتمدوه ، لئلا تميل بهم السبل ، ويختلف عليهم القول والعمـل ، واستمالة الناكثين عن لوازمها المـكتتبة ، واستتابة الحائدين عن فروضها الموجبة ، بالوعظ إذا أغنى وأقنع ، والإيقاع بمن جمح وامتنع . والله يَزيد مولانا الملك السيد ولىّ النعم المآثرَ التى قعدت دونها خطرات القلوب ، وعيّت بها همّات النفوس ، وكذبت

---

(١) فى الأصل هكذا : ايد .
(٢) فى الأصل : تومل .
(٣) فى الأصل : لحق .
(٤) فى الأصل : المستسلم .
(٥) التعزير : التوقير والتعظيم .

عنها مصارف الآمال ومَبالغ المقول ، إنه فعّال لما يشاء .

وقد كنا أعلمناك — عند ذكرنا حال إبراهيم بن المرزبان[١] فى انتقاض عزيمته ، واستمرار هزيمته ، واستنقاذ الأجل دَمَاءه من ظُبَى السيوف وقد شارفته ، وشبا الحتوف وقد شافهته ، وذهابه على وجهه فريدا موحّداً ، وطريدا مشرّداً ، لا يعلم أين المفر ، وكيف المفر ، قد احتملته رياح الخيفة ، ومهابة الزانات المطيفة ، واستأمن أتباعُه متعرفين الخير فى مباعدته ، كما تعرّفوا الخُسْر فى مساعدته — أنّ[٢] وهسوذان بن محمد قد طالت للدولة العالية مداجاته ، ودامت لأوليائها مماراته ، يوهم ، متى ضُغِط ، طاعةً يُضْمر خلافها ، ويثير ، متى أُهْمِل ، فتنة يَسْتَدِرُّ أخْلافها ، متردِّداً بين مكائد ينصبها فتنىْ إليه بتبار ، وتشتمل عليه بدمار ، وتوبقه فى خسار ، وتجمع له نكالا إلى صَغَار . قد غره أنْ نُفِّسَ من خِناقة وعُدِل عن إرهاقه ، وإنا عازمون على تحميله أثقال المعاقبة ، وتعريفه آيات سوء العاقبة ، بفضل الله وطَوْله ، وظل مولانا الملك السيد وصَوْله .

وكان خُيِّل إليه أنّ حزونة المسالك إلى بلده تُثَبِّط الخيول عن استباحة صفحته ، وصعوبة المنافذ إلى مقرّه تستأنى الجيوش عن الإناخة بساحته ، ولم يَدْرِ أن سعادة مولانا الملك تستخدم الأقضِيَة ، وتعيد الدروب أفْضِيَة ، ومناجحَ سلطانه تَرْجم المجاهل معارف ، وتُثْنى المناكر معالم ، وعكف على إخراب بلده ، واقتلاع ما سكنه بيده ، طمعا فى أن تُصْرَفَ عنه الأعنَّة ، وتصْدف دونه الصفاح والأسنة ، فتبقى تلك البقاع محرمة على الطالبين ، مزورّة الوجه عن الخاطبين ، فخاطبنا الولىَّ الصريح والكمىَّ المشيح ، والوفىَّ النصيح ، أخانا أبا الحسن على بن كامة مولى أمير المؤمنين — أدام الله عزه — فى المسير إليه ، والانقضاض فى الأولياء المنهَضين معه عليه ، وإذاقته وبالَ ما خبَّب فيه ووخد ، وقام به وقعد ، مفوضا إلى الله ، فهو المُديل والمُنيل ؛

---

(١) إبراهيم بن المرزبان هذا كان أبوه صاحب أذربيجان ، ولما توفى قامت حروب بينه هو وإخوته وبين عمه وهسوذان الذى حاول أن يستولى على قلاع أذربيجان وأن يطرد أولاد أخيه ، وقد حارب إبراهيم فهزمه ، على نحو ما يصف ذلك الصاحب ، ثم لجأ إبراهيم إلى ركن الدولة ، فأمده بالجيوش لمحاربة وهسوذان ، وقد تغلبت عليه أخيراً على نحو ما يرى القارئ فى تلك الرسالة . ويظهر أن هذه الجيوش كلها كانت بإمرة عضد الدولة لأن المتنبي مدحه بقصيدة طويلة ذكر فيها انتصاراته على وهسوذان ، ومطلع القصيدة (أزائر يا خيال أم عائد) .

(٢) أطال الصاحب هنا الفاصلة بين أعلم ومفعوليها.

والمنتقم والمذيل ، ومعتمداً على راية مولانا الملك السيد فهى الكافلة بافتتاح الأمصار ، وتملك الديار ، وارتفاع الألوية والأعلام ، وحيازة مزايا الاستظهار والانتقام ، المُؤذِنة فيمن شردَ عن ولائه الألزم ، وانفرد عن سواده الأعظم ، بتساقط القُوَى ، وتقاطع العُرَى ، وتخاذلِ المُنَن ، وتهافت الجُنَن .

وقد كان من أبى نصر المرزبان بن اسماعيل[١] — أدام الله عزه — ما عرفته إعلانا بشعار الدولة القاهرة والدعوة الظاهرة ، مباينا لجده وخاله ، ونافضا بهما ليمينه وشماله ، ومستوليا على قلعة شميران[٢] كما وافقناه عليه ، وأهبنا به إليه ، منتظرا ما نرسم له فيها ، وفى سائر الأمور التى تليها ، فسار أخونا أبو الحسن والأولياء المضمومون إليه بقلوب تستعير الليوثُ ثباتَها ، وصرائم تَستَخوِف المنون شذاتها . فما كان إلا أن عرف وهسوذان خبر إطلالهم على تلك الديار ، حتى طار كل مطار ، وعاذ بقلعة الكوكبان ، ومَنِيَّته ، عُظْمُ مناه ، يودّ لو لم يلده أبواه ، وقدّر عند لصيقه[٣] مدافعةً إن لم يجمل بلاء ، ولم يُثمر غناء ، ولديه متنفساً دون معالجة الثبات ، ومفاجأة سوء الانفلات ، فنفضهم سرعان الخيل نفضة أوسعتهم ثبورا ، وتركتهم هباء منثوراً ، وامتُلكت الطَّرْم[٤] عليهم بنواحيها ، وضُمَّ منتشر حواشيها ، وأُقيمت فيها الخطبة على سنّتها ، وطهِّرت من ميسم بدعتها . وقد كان من وليها من أهل ذلك البيت صادفين عن الدولة العباسية عنادا ، ومظهرين لها شقاقا وإلحادا .

وامتد فلان إلى فناء الكوكبان محاصرا لوهسوذان ، وإن كان يسأل ويستميل ، ويخشع ويستقيل ، ويبذل أعزّ بنيه رهينة عنه ، ويحكّم فى معقله وسائر ما يراد منه ، ويرقّق بذكر سنه وكِبْرَته ، ويخضع فى إقالته سابق عَثْرته ، وإن قل الإصغاء إليه بمسابقة الحل لعقوده ، ومعاجلة النكث لعهوده ، ومبادرة الحنث لأيمانه ، ومساوقة الفجور لأقسامه . ولم يبق بمشيئة الله من أمره إلا غُبَّرُ اهتمام ، وعدة أيام ، إلى أن يُستنزَل مستأسرا ، ويقضى عليه الرعبُ متحسراً .

---

(١) هو المرزبان بن اسماعيل بن وهسوذان السابق .

(٢) قلعة بأرمينية .

(٣) فى الأصل : لفيقه .

(٤) الطرم ناحية كبيرة فى الجبال ، وقد ذكرها المتنبى فى القصيدة السابقة فقال :

ما كانت الطرم فى عجاجتها … إلا بعيراً أضله ناشد

يسأل أهل القلاع عن ملك … قد مسخته نعامة شارد

وولدنا أبو نصر المرزبان[١] بن إسماعيل باذل فى مباينة جَدّه غاية طوقه وجِدّه ، ومجتمع مع أخينا أبى الحسن على بن كامة على ما نحدُّ ونمثل ، ومُرْخص المهجة فى مزيد زُلفة تتحصّل وقُربة تتأصل . فالحمد لله محقّ الحق بأيده ، ومُزْهق الباطل بكيده ، ومنزل النصر على مستوجبه ، ومُفرغ الخذلان على مستجلبه ، الحاكِم بالعز لمن ذبّ عن حَوْزَة دينه ، القاضى بالذل على من استعاض شكّه من يقينه ، حمدا يديم لمولانا أمير المؤمنين اتّساق الأمر ، وعزّ النصر ، وسياسة الأمة ، ووراثة الأئمة ، ويواصل لمولانا الملك السيد ارتفاع الحكمة ، وتظاهر العظمة ، وسموّ الراية ، وعلوّ المكانة والكلمة ، ويوفّقنا لشكر ما أولى ، والقيام بحق ما استرعى وولّى ، إنه فعّال لما يريد .

طالعناك — أدام الله تأييدك — بنبأ هذا الفتح الجسيم خطرا ، الكريم أثراً ، لتتقدم بإشاعته فى الأولياء والرعية ، والتحدث به على المنابر والأندية ، فرأيَكَ فى العمل بذلك ، وإعلامنا أخبارك وحاجاتك ، موفقاً إن شاء الله .

٧ — وله

النعم تبدو من مطالع مختلفة الأقدار ، مؤتلفة فى جلاء الأبصار ، مفترقة فى المواقع والمنازل ، متفقة فى إحسان الله الشامل ، لكن أسعدها طوالع ، وأعذبها مشارع ، وأكرمها مناقب ، وأحمدها عواقب ، نعمةٌ تُشرق لها غُرّة الخلافة ، وتُطبّق بعوائدها مصالح الكافة ، وتجلو عن عِراص الدين عوارض التبسط ، وتقصر أيدى أولى الغَرارة دون التحكم والتسلّط ، وتوافى وقد تقدمتها مواهب ترادفت أرسالا ، وتناصفت جمالا وجلالا ، فى فتوح لم يتراخ العهد بين[٢] بواديها وتواليها ، ولم يتماد الأمر بين أوائلها وثوانيها ، بل مُدّ[٣] كل واحد منها بما هو أوفى عددا ، وأعلى مَرْقى ومصعداً ، إلى أن تحصّلت غاية المبتغى ، وبلغت الغاية القصوى . وتلك نعمة الله عند مولانا الملك السيد فيما نهض له ، وأمرُ الله مؤدٍّ إلى مرامه ، ونصر الله منطوٍ على أعلامه من حراسة بيضة الإسلام وحماية حوزته ، والذياد عن سُدّة السرير الأعظم بتوفيق الله وعزته ، واستخلاص بلاد الله وعباد الله من أيدٍ مضيعة واهنة ، وعواد

---

(١) فى الأصل : أبو نصر بن المرزبان

(٢) فى الأصل : من .

(٣) فى الأصل : وعد .

وسيعة راهنة ، فلقاه الله فى كل منزل نزله أجمل ما حاوله وأمله ، لا يعتاق رأيه ملتبَس ، ولا يعتاص فى أنحائه ملتمَس .

وكنا طالعناك بما تيسر للملك السيد فى فتح أهواز ، إذ حدّث المخالفون نفوسهم بالمقارعة وقوارعُ الأيام تصطلمهم ، وطوالع الحِمام تَحُسُّهم وتخترمهم ، إلى أن أجْلَت الحرب عن حَرَب تردّد أشياع الباطل فى ضلاله ، وتعثّر حزب الشيطان فى أذياله ، فمن بين مأسور ومجرّح ، ومقتول ومطرّح ، وغريق وطافح ، وشريد وطائح .

وثنينا بالبشرى ، فى فتح البصرة ، وقد استصعبت على وجه الأيام ، واستغلقت على إمام بعد إمام ، فَألَانَ الله للملك السيد قيادها ، ورفع أسْدادها ، ومكّن حماة الدعوة منها ، وأزال ميسم ذوى العُرّة عنها ، ووافاها — أدام الله سلطانه — فرعاها ، وهى ثغر بُرَاع ، وحاطها وهى سَرْحٌ يضاع ، وأمات الأحقاد من قبائلها وعشائرها ، وأحيا الصلح والصلاح فى باديها وحاضرها ، ووضع الحقُّ بذلك الصقع جِرانه ، ووَسِع العدلُ سكّانه وجيرانه .

وثلثنا بواسط فى توجه سرعان الخيل المنصورة إليها ، وقد خيّم طبقات المخالفين عليها ، فلما نمَتْ إليهم أنباؤهم استفزّتهم بوارق الرعب ، قبل صواعق الطعن والضرب ، فأطاعوا وَهلهم ، وعاينوا أجلهم ، وأجفلوا يطأ آخرهم أولهم ، فصاروا ببغداد تأخذ بهم الآراء الفائلة ذات اليمين والشمال ، وتستطير بهم الخطوب المائلة بأجنحة الثبور والنكال ، وكانت أمانى الغرور تُمثّل لبعضهم ثباتا للموافقة ، ورجوعا للمكاشفة ، فما كان إلا ريثَ نهوض الملك السيد عن واسط حتى زلزلت المخافة أقدامهم ، ونسخ الإحجام إقدامهم ، وأيقنوا أن وعد الله حق فلا دفاع لما أرمه ، ولا امتناع مما شاءه وأحكمه ، وصاروا شيعا لا تأتلف لهم كلمة ، وفرقا لا تجمعهم حَكَمَة .

فأما معظم الديلم فلاذوا بجوار الاستئمان وذمته ، وتسرعوا إلى حضرة الملك السيد وخدمته . وأما بختيار فرأى أن لا خلاص ولا مناص ، ولا معاذ ولا ملاذ ، غير حكم الملك السيد وإبقائه ، وعفوه وإغضائه . وكتب يسأل تغمده وإخوته وولده بالصفح عن جرائمهم ، وإغماد الصفاح دون جماجمهم ، ليتوجه إلى الشام معلنا بشعار الطاعة ، باذلا

فى الخدمة غاية الاستطاعة ، فجرى مولانا على عادته فى الرعاية والإرعاء ، والإقالة بعد القدرة والاستيلاء ، فغشاه ظلَّ بُقْياه ، وفسح له فيما ابتغاه .

ولما خلت بغداد منه وممن خفّ معه حدّثت العباس[١] بن فيلسار أحدَ نبّاغ الزمان نفسُه بتأليف قوم من شذاذ تلك الأجناد إليه ، والالتجاء إلى طرف يَحْمى عليه ، وأخذ سمت النهروان ، فى طريق ينشعب بين الأهواز وحلوان ، وسبق خبره إلى حضرة الملك ، أدام الله سلطانه ، فرسم لأبى القاسم سعد بن محمد الحاجب ، أيده الله ، التعجل فى ثلاثة آلاف من الأتراك والأعراب والأكراد لاقتناصه ، والحجاز بينه و بين خلاصه . وتجاوز ذلك المُحيَّنُ جسر النهروان فقطعه ، مقدراً قطع من ينهض ليتبعه ، فعبر أبو القاسم الحاجب ، أيده الله ، ومن معه فى مخاضات ، وعلى عبّارات ، ووقف المخذول ، فى هؤلاء الفلول ، للمنازلة ، وكثرهم العسكر المنصور حتى أتى على نفسه ، وأَرْوِيَتْ الأرض من دمه ، ودماء من أوثقته حبائل جهله .

ومولانا أمير المؤمنين — أدام الله إعزازه و إعلاءه — فى كل ذلك مستقر على سرير عزته ، وضارب حجابه دون بَخْتِيَار ومن فى جملته ، يكاتب الملك السيد مساترة عند إطافة الغواة بحِفافى ملكه ، ومجاهرةً لما انجلت غمائمهم عن رواق عزه ، مُحرِّجا عليه إن تأخَّر عن حضرته ، وخارجا إليه من الأمانة فى التعجل إلى نصرته ، شاكراً ما تجشّمه من الأحوال ، وتحمله من الأثقال ، فى الوصول إلى بابه مباءة كل مجد وشرف ، ومثابة كل ذى أدب[٢] وطُرف .

فلما جاز الملك السيد دَيَالَى[٣] ، وطالما أدالته من مخالفيه ، وقضى الله بها على مكاشفيه ، رأى مولانا أمير المؤمنين أن يَقْسم له من الإكرام ، أعظم ما صدر عن خليفة و إمام ، فسار أمير المؤمنين فى الماء بكبرياء الإمامة وعظمة الخلافة والزعامة مُبعداً فى تلقيه ، ووصل الملك السيد إلى عالى مجلسه مستقبَلا بتهلّل بشره وتحفّيه . وابتدأه أمير المؤمنين بالإحماد لمرضىّ مسعاته ، والإخبار عن موقعه من اعتداده ومرضاته ، وأنه — أدام الله عزه — لم يزل منذ أتاه الله ما أتاه ، واسترعاه ما استرعاه ، واثقاً بأن الله سيستخلص له قُرْبه ، و إن تطاولت الأيام بما أحبَّه ، ليقوم بنشر الدين فيضمَّه ، وشعث المؤمنين فيَلُمَّه ، إذ كانت الدولة

---

(١) أحد أتباع بختيار .
(٢) فى الأصل : أوب .
(٣) نهر كبير شرقىّ بغداد .

الهاشمية التى رفع الله عماد الحق بها ، وخفض منار الباطل لها ، لم تزل تعتلّ طوراً وتصح أطواراً ، وتختلّ مرة وتستقل مراراً ، من حيث أصلها ثابت لا يتزعزع ، و بنيانها راسخ لا يتضعضع ، فإذا لحقها الالتياث، وازدحمت عليها الأحداث ، بِغَمْرٍ يرتَعُ فى أكلائها ، وغرّ يغفل عن شكر آلائها ، أتاح الله لإقرار الأمر فى نصابه ، وحفظه على أصحابه ، وليا صفيًا ، كافياً وفيًا ، فلا تلبث أن تعود الدولة على يده غضّة العود؛ معتدلة العمود ، جديدة اللباس ، متينة الأمراس ، فشكر الأمير السيدُ لله عظيم منّه ، ولخليفة الله رحيب فضله . وأنبأ عن أن مُجرَى عزمه ومُفْضَى همّه ، كان القيام دون أمير المؤمنين فى جمع الكلمة على الطاعة ، وردّ المفترقين إلى الجماعة ، حتى لا يُبْقِ — بإذن الله — طرَفاً مأخوذاً إلا ارتجعه ، ولا حقًا مغلوباً عليه إلا انتزعه ، ويعيد إلى السلطان ما خُرِق من هيبته ، وإلى الفَيْء ما أُضيع من سُنَّته ، وإلى الحج ما انتهك من حرمته ، ويدبر الثغور بما يرتق الفتوق مع استفحالها ، ويدْمِل الجروح مع إعضالها . كل ذلك بعون الله ومشيئته ، وعز أمير المؤمنين وميامن ألويته .

وعاد من حضرة أمير المؤمنين إلى معسكره بظاهر بغداد ، فائتاً من سلف من الأقران ، سابقاً غايات أهل الزمان ، قد سنَّى الله له فتح الفتوح ، وأفضى إليه بأشرف موهوب وممنوح . وأعلم سكان الأرض من دانٍ وقاص ، ودائنٍ وغاصّ أن الذى ابتدأه الملك السيد وأجراه ، وأنشأه وأمضاه ، وصَل رحِمَ الدين وشفَع وسائله ، وقوّى غارب الإسلام وشدّ كاهله ، وإن ساءت — قبلُ — ظنونُ قوم آخرين ، وعرفوا نبأه بعد حين .

والحمد لله رب العالمين ، قول العارف بفضل هذه العوارف ، على ماخوّل فأجزل ، وسهّل فعجّل ، ووهب فقرّب ، ووفر فيسّر ، مؤيِّدِ أوليائه بالظهور والغلَب ، متوعِّدِ[1] أعدائه بسوء المآب والمنقلب ، حمداً يقضى لأمير المؤمنين بما قضى به لآبائه الراشدين — صلوات الله عليهم أجمعين — من النصر المبين ، والكيد المتين ، وإعزاز الأنجاد والأنصار ، وإذلال ذوى العناد على اختلاف الديار والأمصار . ويهنئ الملك السيد ما أتاه من صُنْع لم تره النواظر قبله ، ولم ترو الألسنة مثله ، فما يُسَدّد سهام اقتراحه إلى مرام فيخشى اعتياصه ، ولا يَشْهر

(١) فى الأصل : متوحد .

حُسام اجتياحه على مرام فيرجي[١] خلاصه ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

طالعناك بهذا الفتح الممدودة أظلّته ، المسعودة أهلّته ، المرفوعة ألويته ، المعمورة أنديته ، لتصدع به على المنابر ، وتشيع نبأه بين الرعايا والعساكر ، فيعلم الحاضر والبادى ، ويوقن الموالى والمعادى ، بأن الله متكفل بهذه الدولة الثابتة البنيان ، الواضحة البرهان ، وإن أملى لأعدائها إلى مدة ، واستدرجهم بعد أنفاس ممتدة ، فَرَأْيَكَ .

٨ — الفتح الأكبر بجرجان الواقع بين الخراسانية[٢]

للنعم — أدام الله عزك — من الشكر قِيَم ، ولِلمنَح من الحمد قِسَم ، فأعلاها قيمة ، وأعلاها غنيمة ، وأجزلها حظا وقسما ، أثبتُها فى صحيفة المجد رسما ، وهى وإن تكافأت طوراً وتفاضلت أطواراً ، وتقاربت مرة وتباعدت مراراً ، فمنها فرائد يدّخرها الله لأفراد ، ويؤخرها لميقاتٍ وميعاد ، حتى إذا حان حِينها ، وقدر لها كُفْوها وأمينُها ، سيقت إليه لأمدها المضروب ، ورُهنت لديه على سَنَنها المطلوب ، فغدّت كريمة الدهر ، واعتُدّت يتيمة الفخر ، وأضاءت شمساً طلعت بمناجح الأئمة الأبرار ، وسطعت بمصالح الأمّة الأخيار ، وألبست شِيعَ الحق عزًّا تضفو أعطافُه وذيوله ، وتبدو غُرَرُه وحُجوله ، ويُطنب شرقا وغربا شعاعُه ، ويمتدّ غوراً ونجداً ذراعه ، ودرَّعتْ أتباع الباطل ذلًّا يحتم بالعقاب ، ووهْناً يختم[٣] على الرقاب ، ووهْيًا ينهك القُوَى والقُدَر ، وضعفا يملك السمع والبصر ، فلا يغنى عن الضالين التآذر وإن كثروا ، ولا التظاهر وإن أمِروا ، كمواهب الله التى سوّغ مولانا الملك شاهنشاه عضد الدولة وتاج الملة جلائلَها ، وقسم لنا فضائلها ، وحاز له خصائصها ، ورهن عندنا نفائسها ، وجعل إليه مآلها ومرجعها ، ووسّع بنا مَرَادها ومُنْتَجَعها ، وأفاض على دولته عزها وفخرها ، وفوّض إلينا عقدتها وأمرها . ذاك بما عَضَد من دولة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وأيّدْنا ، وأسّس وشيّدْنا ، ومثّل واقتفينا ، وسبق وصلّينا ، حتى ضرب الدين بجِرانه ، وانبعث الحق بعد حِرانه ، واستوسَقَ الملك على نظامه ، وأرْختِ المحاسن

---

(١) فى الأصل : يرجى .
(٢) كذا فى الأصل !
(٣) فى الأصل : يحتم .

بأيامه ، وسكنت دهماء الأمة وكانت مضطربة ، وخمدت نيران الفتنة وكانت ملتهبة ، وعُرِف المعروف وكان منكوراً ، وقهر الإنصافُ وكان مقهوراً ، إن الله لا يضيعُ أجر المحسنين ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وقد علم من كُشِفَ عن سمعه ، و بَغَطَّ على لبّه ، وفُتِح عن بصره ، ولم يُختَم على قلبه ، ما جرت عليه الحال بيننا أهلَ البيت و بين ولاة خراسان قرناً بعد قرن ، وقراناً بعد قران ، ندعوهم إلى طاعة خلفاء الله فى أرضه ، ونأخذهم بما كتب الله لهم[1] فى لوازم فرضه . هذا وقد كانت خراسان دارالهجرة العباسية ، وأهلها شيعة الدولة الهاشمية ، إلى أن بدّلَ من ولاتهم من دَرَجَ أشنع المدارج ، ورتع مرتع الخوارج ، وغَبَر دهراً يخطب للأموات على المنابر جرأة على الدين . و يجحد للمطيع لله — صلوات الله عليه — إمرة المؤمنين ، والحرب بيننا و بينه[2] قائمة ، وآفاق الصلح مظلمة قاتمة ، يجهِّز جيوشه إلينا فيُهزَم ، و يسرّب خيوله فتحطم ، ويحشد جموعه فتفرق كل مفرّق ، و يحشر جنوده فتمزّق كل ممزّق ، قد فُضَّ أحمد[3] بن محمد بن المحتاج دفعات بذبّنا عن الرايات السود . وفُلَّ ابن قراتكين[4] عن ثُبَات بدفعنا عن رواق الخلافة الممدود ، وورد ابن عبد الرزاق[5] هزيماً كسيراً . وأوثق ابن ما كان[6] هشيماً أسيراً . فلم يبق من أصحاب جيوشهم إلا من وسمناه بميسم الانفلال ، وشهرناه فى موسم الضلال . فمنهم من لجأ إلى طاعتنا فعاش حميداً ، ومضى سعيداً ، ومنهم من شَرَدَ عن جماعتنا فأُنظِرَ غَوِيًّا ، وقُبِض شقيًّا ؛ إلى أن علموا أن القِراع لا ينتج إلا قرع صفاتهم ، والنزاع لا يثمر إلا نزع شباتهم ، فبخعوا بالخطبة للمطيع لله — رحمة الله عليه ورضوانه — على أيدينا التى عوّدها الله البسْطة ، وحرس بها الإمام والأمة ، واستعدنا إليهم ثوب الطاعة وقد حُرِبوه ، وتنجزنا لهم العهد على تلك البلاد وقد حرموه ، فبقوا على هـذه الجملة زماناً وعادات الفساد ، تتنزّى بهم دون

---

(١) فى الأصل : له .

(٢) فى الأصل : بينهم .

(٣) أحد قواد خراسان وقد تولى قيادة الجيوش الخراسانية كلها عام ٣٢٧ هـ . انظر ابن الأثير ٢٦٧/٨ .

(٤) أحد قواد خراسان أيضا ، وقد ولى على الجيوش الخراسانية عام ٣٣٤هـ ، انظر ابن الأثير ٣٤٦/٨ .

(٥) هو محمد بن عبد الرزاق صاحب طوس وأعمالها . انظر ابن الأثير ٣٥٣/٨ .

(٦) كان مقدم الجيوش الخراسانية عام ٣٤٤هـ واشتبك مع ابن العميد فى حرب أخذ فيها أسيراً . انظر ابن الأثير ٣٨٣/٨ .

استعمال الرشاد ، ووشمكير بن زيار (١) يدبّ لإغوائهم دبيب الخمر ، ويعرّض نعم الله عندهم لصوائب القدر ، فهمّوا بالمعاودة ، واهتموا بالمعاندة ، وطالبوا أبا الحسن محمد بن إبراهيم ابن سيمجور (٢) — أيده الله — بالمسير والاجتماع فى منازعتنا مع الضال وشمكير ، فسارت تلك الجنود والتخاذل دأبها ، وبلغت الدّامغان (٣) والتواكل ينتابها ، فلم يرعها إلا خذلان نزل بوشمكير ، فجعله فِرْية الخنازير ، وكشف لذوى البصائر عن سريرة المقادير ، فاعتبر معتبر ، وانزجر منزجر .

وتراجعت تلك الخيول إلى نيسابور (٤) ، فلم تشجع الخرسانية من بعدُ لذكر المنازلة ، ولم يخطر ببالها ذكرُ المقاتلة ، وأخذوا يعرّضون بطلب الصلح فنُعرض امتحانا لعقائدهم ، وابتلاء لمغازيهم ومقاصدهم ، إلى أن صرّحوا بعد التعريض ، وصحّحوا بعد التمريض . فجنحنا للسلم حين جنحوا لها إذ كان ذلك أدبا من آداب الله ، وأمرا نصّا فى كتاب الله ، ومميتاً للضغائن والإحن ، ومُزيلا للحوادث والفتن ، ومفرّغا لتسديد الثغور عن ذوى الشرك والإلحاد ، وموفّرا على عمارة الحج وسبيل الجهاد . وأُكّدت العقود ، وأُخِذَت العهود ، وكتبت الشروط وأشهدت الشهود ، وآتى كلٌّ صاحبه مَوْثقا من عند الله ، وحِلْفاً مقرونا بعهد الله ، وجعل ما أُمضى من ذلك مشروطا على التأبيد لا يتعقّب وِفاقهُ بخلاف ، ومقصودا بالتخليد يرثه الأعقاب عن الأسلاف . فلم يمض ماضيهم لسبيله ، حتى أخذ خَلَف السوء فى تبديله ، بخُرْق لأوصال الوفاء قطّاع ، وعِرْق إلى الضلالة السوء نزّاع ، وبمشورة أحداثٍ لم تعرُكهم الدُّرْبة عراكها ، ولم تُعلِقهم الحُنكة أشراكها ، كأن لم يعلموا أن من سلف من سَلَفهم لم يرجعوا للمصالحة ، إلا وقد عَيُو بالمكافحة ، ولم يجنحوا للمسالمة إلا وقد عجزوا عن المقاومة ، ولم يركزوا الرماح إلا لأنفذ منها مسارب ، ولم يغمدوا الصفاح إلا لأحدّ منها مضارب .

وكان من فواتح ما أنكرناه أن أرجأوا الخطبة لأمير المؤمنين الطائع لله (٥) بعد وقوع

---

(١) وشمكير : هو صاحب طبرستان وهو والد قابوس ، وتوفى عام ٣٥٦ هـ .

(٢) صاحب جيوش خراسان حينئذ وقد سيره الأمير منصور بن نوح لمساعدة وشمكير ضد ركن الدولة البويهى . انظر ابن الأثير ٨/٤٢٧ .

(٣) بلدة كبيرة بين الرى ونيسابور .

(٤) مدينة كبيرة فى أول إقليم خراسان

(٥) هو الخليفة بعد المطيع ، وتولى الخلافة عام ٣٦٣ هـ .

البيعة وتسليم الأمة ، وإصفاق الكافة ، واستقرار سبيل الخلافة ، على عادتهم الأولى فى جَحْد الإمام الحى واجبَ حكمه ، وعقد الجمعة بشعار الميت واسمه ، إلى أن نبّهناهم من رقدة الإغفال ، وحَلَّأناهم[١] عن مشارع الإهمال ، وشُحِنت خراسانُ بالدعوة ، ومددنا حلم أمير المؤمنين على هذه الهفوة ، وسعينا لهم فى تجديد الولاية ، وأكرمناهم بتنجزّ التشريف وعقد الراية . وجدّدوا على نفوسهم الميثاق لنا على الإخلاص ، وأظهروا الرغبة فى إعادة الصِّهْر دلالة على الاختصاص .

وكان من قواعد الصلح وأحكامه أن لا يُقبَل فى جهة من الجهتين أُبّاقُ العساكر ، ولا يُمَهَّد فى جَنْبَةٍ من الجنبتين للخالع والنافر ، ولا يُحامَى على من عَصَى فشَرَد ، وشقّ العصا وانفرد ، واعترض — فى أثناء هذه الأحوال — أن المخذول قابوس بن وشمكير كشف عن العناد وسفر ، وجحد نِعَمنا عليه وكفر ، فخُيِّب ظنّه وعُجِّل تكذيبه ، وحُسِم داؤه ويسَّر له طبيبه . وقد كان من قبل راسل الخرسانية يَرُوزُ ما لديهم فى بابه ، ويدلّهم على ما كمن فى نِصَابه ، فشحذوا بصيرته فى الخلاف ، ووعدوهم بالمئونة والاكتناف ، حتى إذا زحزحناه عما أمّل وارتقب ، وطوّحناه جزاء عما احتقب وارتكب ، لجأ إليهم فمهدوا له فى جوارهم ، ودلّوه بغرورهم واغترارهم . وقد كان العاقّ[٢] رديفَه فى الغَوَاية ، وزميله فى سوء الهداية ، فراسلهم كرسالته ، وقد ضلّ فى مخالفتنا كضلالته ، فحرصوا على قبوله حرصا جلّى عن مدفون ضمائرهم ، وأبدى عن مكنون سرائرهم ، وأوضح أن مرادهم التأليب علينا والتألّب ، والتثريب والتحزب ، وأقبل الأغمار المستولون على صاحب بخارى يحسبون ببصائرهم العليلة ، ويرون بأبصارهم الكليلة ، أن أبا الحسن بن سيمجور[٣] — أيده الله — حجابٌ بيننا وبينهم مشتد ، وحجاز مستطيل ممتد ، وأنه لو قد أزيل عن مقرّه ، لاستمرّ تدبيرهم علينا فى ممرّه . غير عالمين بأن ذلك الشيخ هو الذى قد ارتضع أفاويق الزمان ، وحلب أَخْلاف الليالى والأيام ، وعرف ما أتانا الله من قوة وإقران ، وعُدّة وإمكان ، وبنود

---

(١) فى الأصل هكذا : وطدناهم .

(٢) هو فخر الدولة كما سبق بيانه .

(٣) يظهر من كلام الصاحب هنا أن ابن سيمجور لم يكن من رأيه مؤازرة قابوس وحرب عضد الدولة . وتذكر كتب التاريخ أنه عزل عن قيادة جيوش خراسان وولى مكانه أبو العباس تاش . انظر ابن الأثير ٩/٧ .

مرفوعة للنصر ، وجنود كعدد القطر ، وأموال كـكثبان الرمال ، وذخائر أملاء الهم والآمال ، وعزائم تُطْبَع السيوفُ على غرارها ويُتْبَع ما تَنْهج(١) من آثارها . وطفق يخصف عليهم من ورق الصيانة ، لئلا تنكشف عوْراتُ قصورهم ، وتتبرّج هناتُ أمورهم . لا جرم أنهم قرفوه بالمداهنة ، وصرفوه عن رتبته الراهنة . مقدرين أنهم يرفعون منه سِدَادا ، وإنما عدموا به سَدَاداً ، وظانّين أنهم يدفعون بعزله شراً مرصودا ، وإنما هتكوا عن عجزهم ستراً ممدودا .

واعتمدوا لجيشهم تاش(٢) يستبدلون من الطيب خبيثاً ، ورفدوه بفائق(٣) يستعيضون من التذكير تأنيثاً . واستنفدوا قواهم فيما جمعوا من الأموال ، وبلغوا مداهم فيمن لفّوا من الرجال ، حتى أناخوا على بضائع التجار وأهل الصناعات يَجْبُونها غَصْبا ، وعلى وقوف المساجد والرباطات يتناولونها نهبا ، وعطلوا الثغور باستجاشة من فيها من الحماة ، وسلّطوا مجاوريهم من المشركين بمن صرفوا عن وجوههم من الـكُفَاة . كلذلك للطمع أن يشفوا من البغى علينا غليلا ، ويشتروا بعهد الله ثمنا قليلا .

وحصل تاش بنيسابور وقد سبقه فائق ، واستعجل نحوها العاقّ وقد وردها المخذول المارق . فلم ندع أن أصدرنا إلى زعيمهم رسلنا مذكرين بالعهد المبذول ، وميثاق العقد الموصول ، ومحذرين من عاقبة الناكثين ، وما كتب الله من العقاب للحانثين ، ومطالبين برد الآبقين ، على أمان لهما نتبرع ببذله ، وصفح عنهما نأخذ بفضله . فأصرّ هو ومدبّروه على الامتناع ، وعوّلوا على الدفاع ، وأخذوا يشفعون شفاعة التحكم ، ويشفعونها بالتوعد والتجرّم ، يحسبون استئناءنا لهم فكراً فى حشرهم وحشدهم ، واحتفالا بجدهم وجندهم . وزاد رفقنا بهم فى إغوائهم وإغرائهم ، ووكّد مرائر اجترائهم واستشرائهم . وأخذ المخذول قابوس يوهمهم من نفسه وبقية خيله أمورا ، وملأ مسامعهم بهتانا وزورا ، ماضياً على شاكلة أبيه فى التلبيس عليهم والتمويه ، فيخيّل لهم زَفْزَفَ الباطل حقًّا ، ويمثّل عندهم زخرف القول صدقا . وبدأ العاق يوسوس إليهم بأن موقعه — كان — من هذا البيت يُميل إليه الأعناق متى وقع إكثاب ، ويعطف عليه الأجناد متى اتفق اقتراب ، ويُريهم سوء التبصر ما يأفك به يقينا ،

(١) فى الأصل : يبهج .

(٢) صاحب الجيوش الخراسانية بعد ابن سيمجور

(٣) فى الأصل : تفاريق وهو تحريف واضح ، وفائق خصىّ من موالى نوح بن نصر ومن قواد الخراسانية العظام

وما يتنفق بإيراده برهانا مبينا . فحبسوا الرسل طغيانا لم يعهد فى جاهلية ولا إسلام ، وضيّقوا عليهم المطعم والمشرب اتضاع همم وضعف اهتمام ، ومنعوهم عن إقامة الصلوات ، ودفعوهم عن الجُمَع والجماعات ، وفيهم فقهاء أعلام وقضاة تكون بحضرة أمير المؤمنين من دار السلام ، صنيعَ من لا حياء له يردعه ، ولا دين يهجّن له القبيح ويَزَعه .

وخفّ الخصى[(١)] والمخذول على طريق نسا[(٢)] يتقارضان أكاذيب الأمانى وهى زاد المائق وتعلّة الجاهل ، وامتد التركى[(٣)] والعاق على سمت قُومس[(٤)] يتفاوضان تحديثَ النفس بالباطل ، حتى إذا عرفوا أن اجتماعهم لدينا كافتراقهم ، واختلافهم فى الطرق والعزائم كاتفاقهم ، خشوا أن نَبذه[(٥)] إحدى الطائفتين بانتساف ، ونعجّل عليها باختطاف : فأذْنت المخافةُ بينهم المسافة ، إلى أن صاروا يداً واحدة وقد كتب الله بقصْرها ، وحرّم على الأقدار تولى نصرها ، وجدّوا فى المسير قبالة جرجان والإقبال عنهم ممتاز منصرف ، والتوفيق دونهم منحاز منحرف .

وقد كنا استخرنا الله — تعالى — فى البروز[(٦)] بمعسكرنا المنصور إلى ظاهر جرجان على سمت خراسان مفوّضين إليه ، معوّلين عليه ، راجين ما لديه ، عالمين أن الفَلَج بيديه ، مولّين البغى من تولاّه ، والنكث من اختاره واصطفاه ، وقرُب المخاذيل فكففنا عنهم إلى أن بدأوا بالقتال ، وحسّن لهم الطغيان نخوة الصيال ، وقد كان طردهم بل حصدهم ممكنا — بعون الله — من[(٧)] أول لقائهم لولا إيثارنا البُقْيا فى إمهالهم وإمهائهم[(٨)] ، وتقديرنا أنهم إذا مارسوا الحرب فوقدتْهم بنارها ، وأقذتْهم بعَوارها ، وعرفوا ما بين المطوّع له فى أمره ، والمطبوع على قلبه وصدره ، تلافوا أحوالهم ، فلم تُرَقْ دماؤهم هَدَراً ، ولم تُفرَّق أشلاؤهم جَزَراً ، ولم تذهب أموالهم هَمَلا ، ولم ترجع آمالهم نَفَلاً .

واختلف بيننا وبينهم اثنتا عشرة حربا ، ما انصرفوا عن واحدة منها إلا وقد استحرّ الجرحُ فى صناديدهم ، وانتقص القَرْحُ من عديدهم ، وغَرِضت القيودُ بأسراهم ، واستعفت

---

(١) الخصى هو فائق . انظر ابن الأثير ١٠٥/٩ .

(٢) مدينة بخراسان .

(٣) هو أبو العباس تاش .

(٤) كورة عظيمة قصبتها الدامغان .

(٥) فى الأصل هكذا : سده بدون نقط .

(٦) فى الأصل : البروز إلى معسكرنا المنصور بظاهر جرجان . وأصلحناها بما يقتضيه السياق .

(٧) فى الأصل : عن .

(٨) إمهاء : من أمهى الفرس إذا أرخى له من عنانه .

اللحودُ من قتلاهم ، حتى بلغ عدد من قتل قبل الوقعة الأخيرة ، والصَّدْمة المبيرة ، ثلاثة آلاف ، قد باء جالبها بآثامها ، وتطوّق الأوزار فى أراملها وأيتامها ، إذ ساقهم ليطفئوا نور الله بأفواههم ، ولم يعلموا أن الله يكبتهم قبل ذلك لجباههم . فأما المستأمنة فجاءت كالقطا أرْسالا ، وفارقت حَرَم الإدبار مجاهرة وانسلالا . فلم يزد المدابير على الأيام ، إلا إصراراً على الآثام ، ولم ينقادوا للغِـيَرِ اعتراراً بظنون كالأحلام ، إلى أن ناشَدنا ما عهد الله إلى الولاة ، فى حَسْم أدواء البغاة ، وفرَض على الرعاة ، فى إبادة خَضراء العُتاة .

وكانت لهم يومنا — وهو يوم الأربعاء لثمان بقين من ذى القعدة — حركة إلى المعركة ترجَّحوا فيها بين تقديم للأقدام وتأخير ، وتعجيل للإقدام وتعذير . مقدرين أنا نجرى على العادة فى إرجائهم وتركهم يعودون من ورائهم ، فجرَّدنا استخارة الله فى صدق الحملة ، وتصييرها واحدة الدولة والملة . وأهبنا بالأولياء أسود الدّلوف وضراغمه ، ونُسُور الحتوف وقشاعمه ، فزحفوا الى أعداء الله الفجرة ، وأكثروا من شعار المجاهدين البررة . وثاروا فخيِّلت الأرض مائجة ، والبحار هائجة ، والنجوم منكدرة ، والسماء منفطرة ، وصار الفارس أقرب إلى الفارس من ظله ، والسيف أدنى إلى الوريد من حَبْله ، وتواصلت[1] الضربات بين زرق بالزانات ، لا يعرف الإحكام انفصامها[2] ، وأخذت الرماح تطير شررها ، والنفوس تفارق قَصَرَها[3] ، وثملت الزُّوبينات[4] من الدماء ، فتعثرت فى النحور ، وتكسّرت فى القلوب والصدور . وعاين أعداء الله هول المطلع ، فولوا الأدبار ، وطاروا كل مطار ، وتبعهم الأولياء يفيضون الصوارم على الترائك[5] ، فَيْضَ الصباح على النجوم الشوابك . والمخاذيل يتطايرون عن القنا جفاء ، ويَطيحون عن الظُّبى هباء ، ولو عرَّجوا بمعسكرهم لمحة طارف ، أو وقفوا على ذخائرهم خلسة خائف ، لما تخلّص منهم صافرٌ ولا صائت ، ولا نجا منهم ناطق كما لم ينج صامت .

وكيف لهم بالثبات ، وقد مُلِك عليهم حتى فيلهم العظيم الذى توارثه آل سامان ، وهوَّلوا به فى الحروب زمانًا بعد زمان . وقد ركب سرعان الخيل أقفاءهم ، يشلّونهم إلى نيسابور

---

(١) فى الأصل : تواصت .

(٢) فى الأصل : انصامها .

(٣) القَصَر : أصل العنق .

(٤) الزوبين : فارسية وهى حربة قصيرة

(٥) فى الأصل : الترابك . والترائك جمع تريكة وهى بيضة الرأس .

شـلَّ النعام ، ويسلبونهم أرواحهم بأيدى الحمام ، ليوقن هؤلاء الأغتام ، أن الأطواد الشم لاتطال بالنجاف ، والجبال الرُّعن لا تُزال بحَصَبَات المقذاف (١) .

فالحمد لله المانّ على خلقه بما لا تناله الآمال كرما ، ولا تُقلّه الجبال عظما ، القاسِم لذوى طاعته مالا مُنْيَة بَلَغَتْ ، ولاطَلِبَة أنتجَعَتْ ، كما أعدّ لهم (٢) مالاعينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، الراصدِ لمقارف معصيته بظُلَلٍ من الخذلان تَزْهق وتَعْسف ، وتُزْهق وتَـكْسِف ، وتوبق وتَنْسِف ، وتوثق وتَخْسِف ، كما توعدهم (٣) بعذاب الخلود ، حمداً يكونَ كفاء ما هيَّأ فقرَّب ، وهنَأَ فأطْلَب . وإليه تَرْفع الرغبة الصادقة ، وتقدّم المسألة السابقة ، فى الصلاة على النبى ، الهادى المهدى ، أفضل من دعا إلى ربه صادعاً بالأمر ، ونصح لخلقه قاطعاً للعذر ، وعلى آله الذين عظّمهم توقيراً ، وطهّرهم تطهـيراً ، وإطالةِ بقاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين سادًّا مسدّ آبائه الطاهرين ، فى شَعَثٍ يلمُّـه ، ونَشْر يضمُّه ، ووهاء يشدّه ، وثلم يَسُدُّه ، ليقدح زناد الخيرات بمناره المرفوع ، ويستنزل عِهاد البركات بشعاره المتبوع ، وإدامةِ أيام الملك شاهنشاه السيد ساطعَ الأدلّة ، مشرق الأهلّة ، ممدودَ الأظلّة ، عاضداً للدولة ، متوجا للملّة ، ويوفقنا لحق ما استكفاناه من حفظِ عراص الحوزة وأطرافها ، واستذلال من أخذته العزة فى خلافها ، لنحوط الملك من جوانبه وأرجائه ، وندأب فى الله دءوب من رضى من أُمنائه . ثم الحمد لله حمداً مجدَّدًا ، باقياً مؤبَّدًا ، على ما ليّن من أخادع هـذا الخطب ، وسوّغنا من واسع النصر فى هذه الحرب ، بعد أن ساءت ظنون ، وزاغت قلوب وعيون ، وحَسِبَ كثيرٌ أنِ قد غمسنا اليد فى خُطة صعبٍ مرامها ، دَحْضٍ مَقامها ، فحقق الله الأمل بطَوْله ، والاستعانة بقوته وحَوله . فأصبحنا وقد شهد العدو مضطرا خاشعا ، شهادة الولىّ مختاراً طائعا ، أنَّ لله لسانَ هداية يُلقى على عزائمنا الصـواب محضا ، ويُفضى بمصارفنا إلى المراد غضا ، حمداً ترفعه الملائكة المقرّبون ، ودعاء يؤمّن عليه الـكرام الـكاتبون .

حدّثناك — أدام الله عزك — بنعمة الله وإن كَبُرت عن بيان المُخْبِر ، ولسان المبشّر ، وإطناب الـكاتب ، وإسهاب الخاطب ، وكانت واسطة فى قلائد الدهور ، وجامعـة لفوائد

---

(١) فى الأصل : القذاف

(٢) فى الأصل : لها بإعادة الضمير مؤنثا على جمع المذكر السالم

(٣) فى الأصل : توعدها !

الجمهور ، لتعلم أن الله صادقٌ مَوْعده ، محيط بالنا كثين مَرْصَدُه ، فأشِعْ نبأ ما طالعناك به حقَّ الإشاعة ، وليُقرأ على المنابر لتساهم الرعيةُ أولياء الطاعة ، واكتب بذكره إلى النواحى والأطراف ، وأعْلن بنشره فى الضواحى والأكناف ، وأعلمنا موقعه منك ومن الكافة وإن كان معلوما ، وأبْدِىْ الشكر وأعِدْه إنه كان فرضاً محتوماً ، إن شاء الله .

٩ — نسخة الخطـــاب بإسقاط مال الإرصاد وكان كتبها عند هذا الفتح ليمنه[1]

إن الله — عز اسمه — قد فرض عند كل طارىء من النعم ، وطارف من المنن ، شكرا يُتَلَقَّى به إفضاله فيستُحْفَظ معتاده ، وحمدا يقابل به إحسانه فيستَجْلَبُ مُزْدَادُه . وليس الشكر بمقصورٍ على اللسان دون العقد ولا على القول دون الفعل بل الواجب أن تتكافأ فيه نتائج الألسنة وضمائر القلوب وتوصَّل له مواقف الثناء بالتقرب المقبول ويُجْعَل من أمارات المعرفة بحقِّ ما سوَّغ الله فرهن ، وأسبغ فأحسن ، تقديمُ الأعظم فالأعظم مصلحة بين الناس ، والأحسم فالأحسم مَفْسَدَةً عن العام والخاص ، ليشمل الجمهور عائدة ما يتوخَّى ويقصد ، وينتظمَ التابعَ والمتبوع بركةُ ما يتحرّى ويعتمد ، ومن عند الله التوفيق . إنه خير من هدى وأسعد ، بالإرشاد إلى الحسنى لا معقب لحكمه ، ولا خير إلا بإرادته وإذنه ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون .

ولئن كانت مواهب الله — عز اسمه — لدينا تفوت حصر المحصين ، وتجوز ذكر المستقصين ، ومنائحه عندنا تحوز غايات التأميل ، وتفوز بحسنات التخويل ، فكنا[2] لشكر ذلك مديمين ، وبالحمد عنه مغمورين مرتهنين ، لا نخلو من الاعتراف بالقصور عما يلزم منه ، ولا نَعْرَى من استدفاع عوارض التقصير عنه . إن ما قسم لنا — تعالى — آنفا من هذا الفتح العظيم ، والصُّنْع الكريم ، والنُّجْح القريب ، والنصر المستجيب ، وسهّل من استذلال المخالفين ، وردّهم أسفل سافلين ، ومقابلتهم عن البغى ارتكبوه بالخسار دُرِّعوه ، ومكافأتهم عن النَّكْث احتقبوه بالصَّغَار قُنِّعوه ، فَرْضٌ[3] ما يستقلّ بنفسه ، ويُطالب

---

(١) فى الأصل : لينها .

(٢) فى الأصل : لكنا

(٣) فى الأصل : افرض .

فى يومه بما قد نُذر فى أمسه ، والله تعالى أسأل أن يرشدنا لمصالح الأعمال ، ومناجح الأفعال ، ويثبّت عزائمنا على الخير نصل مرائره بعُرَاه ، والعدلَ نبسطه فيمن نسوسه ونرعاه ، إنه رءوف رحيم .

وحين روَّأنا فى القُرَب التى رأينا تجديدها ، والزُّلف التى نذرنا تمهيدها ، وجدنا من أَوْلاها بالاهتمام ، وأجراها مع العدل فى الأحكام ، إزالة رسوم الإرصاد بأصبهان قديمها وحديثها ، عتيقها وجديدها ، أصولها وفروعها ، كثيرها وقليلها ، والإعفاء مما يجرى فى حقوق البذرقة والمكس فيها[١] ، ومايلحق من التوابع والمؤن بها ، إذ كان شيئا لم نأذن فى ابتدائه[٢] ، ولم نُرخص فى إنشائه[٣] ، وإنما تهوّكت فيه جماعة أذاقها الله وبالها وأساء عاقبتها ومآلها . عالمين بأن نفع ما يُحطّ من هذه الأحوال يشمل ذوى البضائع فى بضاعتهم ، وأولى التجارة فى تجارتهم ، وأرباب البياعات فى بياعاتهم ، وأصحاب الضياع والزراعات فى غلاّتهم ، ثم لا يَقْتَصِر على ذلك الصُّقْع وقُطّانه ، ولا يتفرّد بجدواه من محلّه من سكانه ، حتى يَتَخَطّى إلى كافة المجهِّزين إليه من البلاد الدانية والقاصية ، والكُوَر المجاورة والمتراخية ، فى شرق الأرض وغربها ، وبرها وبحرها . ويَدْعو إلى زيادة ما يُنقَل ويُمتَار ، ويَرِد به المجهزون والتجار ، فيعظم النفع ويزداد الرخص ، وتَشْمل البركة ويؤمن البَخْس .

هذا وأصبهان أوْلى بلاد المملكة — حرسها الله — بالتخفيف ، وأحرى كورها بالحماية عن أثقال التوظيف ، إذ كانت منشأ الدولة القاهرة ، ومطلع أنوارها الزاهرة ، والنية فيها وفى أهلها أحسنُ نية ، وأدعاها إلى تصيير الخيرات شورى بين الرعية . وإذ كان الرصد فى سائر بلادنا مرفوعا ، والاعتراض به على الرُّفَق والقوافل ممنوعا ، فذلك البلد بإزالته عنه أخلقُ وأحق ، وتكلفه على الرعيّة فيه أثقل وأشق . وقد أسقطناه مريدين وجه الله بما أتيناه ، لا يثنينا عنه كثرة قدره ، والعرْجة على نفعه أو ضرّه ، إسقاطا يستمر على التأبيد . وأوعزنا فوُضِع بحضرتنا عن الدواوين حتى لا يبقى له اسم ، ولا يحيى منه رسم . وأذنّا فى إقامة النداء

---

(١) فى الأصل : حقها .
(٢) فى الأصل : ابتدائها .
(٣) فى الأصل : إنشائها

بحذفه فى أسواق اصبهان ومجامعها ، وأبواب خاناتها ومسجد جامعها ، والتقدم إلى التجار بذكره فى كتبهم إلى معامليهم وخُلَطائهم ، ومضار بيهم وشركائهم ، لا طلبا منهم للسُّمعة ، ولا مراءاةً بالقُرْبة ؛ بل ليعلموا أن الذى يوردونه ويصدرونه محروسٌ عن التحيُّف ، محوطٌ عن التخوّف ، ويثقوا بأن أموالهم تصل إليهم فى ضمان التوفر ، وبضائعهم ترجع عليهم بالزيادة والتثمّر ، فيُكثروا شكرهم لله رب العالمين ، ويُشركوا لنا بين الدعاء والتأمين . إن الدعاء مرغوبٌ فيه ، متنافسٌ عليه ، موعود من عند الله بالاستجابة له والإجابة إليه .

فاعمل — أدام الله تأييدك — بما رسمناه ، فقد حتّمناه ، وامتثل ما حددناه ، فقد جزمناه ، وقدِّمه فقد تقدمنا بإماطة هـذا المـال من تلك المعاملات ، وحطّه عن التقريرات والتوظيفات . واصرف عن المراكز هؤلاء العشّارين الذين عادتهم الظلم ، ومكاسبهم الإثم ، وطُعْمَتهم السُّحْت ، وتقدّم بهدم مراكزهم ، وإبارة مراتبهم ومراقبهم ، ليجتاز المجتاز بما يصدر ويورد ، ويحمل وينقل ، وليس عليه رقبة من معارضٍ ولا مُستَوْقف ، ولا نُقبَة من مطالب ولا مستخرج ، وما احتيج إليه لحافظى دروب البلد من جارٍ ، فأطْلِقْه من بيت المال لئلا يبقى أثَرَ لما حُظِر يُتوصَّل بقليله إلى الكثير ، ويُتوسَّل بصغيره إلى الكبير ، وراعِ من بعدُ الأمر مراعاةً تتولّاها عيونك من الأمناء ، وأهل الثقـة فى الإخبار والإنهاء ، فإن عثروا بعاشر أو راصد ، أو تابع لهم أو حافد ، قد استخرج بعد النداء ما قلّ قدره ، أو عظم أمره ، فلا ترضَ فيه بغير التنكيل ، واجمع عليه العقاب إلى التمثيل .

واقرأ كتابنا على مشايخ البلد ووجوهه وتجاره وعيونه . وتقدّم بالإشادة به على المنبرين وبُثَّ نُسَخَه فى المصرين ، لتظهر الكلمة وتشتهر ، ويُعلن بذكرها فلا تستتر . إن سماع الخير داعٍ إلى أمثاله ، وقاضٍ بتكثير أعماله . جعلنا الله مريدين بما نأتى ونذر رضاه ، لا نريد الجزاء والشكور من سواه ، وإليه نرفع الرغبة متوسلين بجلاله ، فى الصلاة على النبى محمد وآله ، وعليه نعول ليبارك لنا وفينا ، ويصلح بنا ويصلحنا ويصلح على أيدينا ، فإنما نحن له وبه ، ولا ندّعى الحول والقوة من دونه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

١٠ — نسخة الخطاب بالفتح العظيم بجُرْجان
الذى تقدم الكتابُ الكبيرُ به

كتابنا من المعسكر المنصور بظاهر جُرْجان على سمت خُراسان يوم الأربعاء لثمان بقين من ذى القعدة ، وقد أنزل الله النصر أعم إنزال ، فكشفنا الناكثين كشف الاستئصال ، وسرنا إليهم يومنا هذا هاجمين على معسكرهم مستنصرين بنصر الله ، مستظهرين بعون الله ، معوّلين على ما عود الله مولانا الملك شاهنشاه السيد المنصور عضدَ الدولة ، وتاجَ الملة وعوّدنا من الإظفار والإظهار ، فحكّم أولياءه الحق فى أشياع الباطل سيوفَ الانتقام ، وجزروهم جَزْرَ الأنعام ، فولّى المفلول تاش والمنقوص فائق والعاق على والمنحوس قابوس وقد كملوا طبائع الخذلان ، وأتاهم بَأْسُ الله من كل مكان ، ناكصين على الأعقاب ، راجعين على الأدراج ، وغَنِم أنصارنا كُراعهم وأموالهم وأسلحتهم وخيامهم ، وهام من نجا من استلحام الحديد عاريا ، لا يَلْوِى أوّلٌ على آخر .

وقد سرّينا فى طلبهم الأتراك ركضاً ، والأعراب حثًّا ، والأكراد حضًّا ، وأمرناهم بأن لا يُكذّبوا عن نيسابور بإذن الله ، وسيستأسر من أخطأه السيف بمشيئة الله ، إن الله متبع الخاسرين الغادرين ذلا بعد ذل ، ووَهَناً بعد وهَن ، فالحمد لله الذى منح وأنجح ، ومنّ ، وأحسن ، ويسّر ، ونصر ، حمداً يحرس الدولة ، ويحفظ الدعوة ، ويوزعنا شكر ما ذلّل لنا من هذا الخطب الذى أعيا القرون ، وأعجز القروم . رسمنا إصدارَ هذه الجملة إلى أن ينفُذ المبشر بشرح الفتح فى غد ، إن شاء الله . آخر الباب من الفتوح .

الباب الثانى

فى العهـــود

١ — عهد قاضٍ ضُمّ إلى أعماله أعمال

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد[١] حين ألفاه الكافىَ فيما استكفاه ، الوافىَ بما قلده واسترعاه ، قد نهض من قضاء قُضاته ، بما أحمد فيه رضىّ مسعاته ، مُؤدّياً حق الله فى الأخذ بالعدل ، والحكم بالفصل ، والقضاء بموجَب الدين ومقتضاه ، والإمضاء على سُنَن الشرع ومُفْضَاه ، لا يميل به هواه عند الارتياد ، ولا يختلف مغزاه فى الاعتبار والاجتهاد ، الورَعُ مركبُه وسبيله ، والحقُّ مقصدُه ودليله ، قد ضربت بحسن مذهبه الأمثال ، وشدّت إلى اقتباس علمه الرِّحال ، فرأى أن يضيف له إلى ما يليه من أحكام مملكته الحكم على آنِف ما استضافه بأمر أمير المؤمنين الطائع لله ، أطال الله بقاءه ، إلى مملكته من جرجان وطبرستان وما يجرى مع أعمالها ويعد من سفوحهما وجبالها ، برّ ذلك وبحره ، سهلِه ووعره ، مُمتِّعاً رعية هذه البلاد بكفايته ، قاسماً لهم حظوظهم من رِعْيَتِهِ ودرايته ، فأوْلَى الولاة من جُمع فيه الحلم والحجى ، وأكفى الكفاة من أجمع عليه فى العلم والتُّقى ، والله ولى الخيرة فيما يراه ، والبركةِ فيما أمضاه ، إنه سميع بصير ، وعلى كل شىء قدير .

أمره بتقوى الله مفتاحِ الخيرات المنجية ، ومغلاق الشهوات المُردية ، الداعيةِ من استشعرها لباسا ، وجعلها قاعدة وأساسا ، إلى أجدى الأقوال ، وأزكى الأفعال ، وأهدى الأعمال ، وأرضى الأحوال ، الكاسيةِ من اطّرحها وراء ظهره ، وصرفها[٢] عن سبيله وأمره ، خسران الصفقة ديناً ودنيا ، وانحلال الربقة أولى وأخرى ، لا تُقْبل منه حسناته ، ولا تكفر

---

(١) قاضٍ معتزلى مشهور ولى القضاء بالرى وبقيا تحت حكم مؤيد الدولة من البلاد عام ٣٦٧ هـ . انظر ابن الأثير ٨/ ٥١٠ . وقد أضيفت إلى أعماله — على ما يظهر من هـذه الرسالة — جرجان وطبرستان بعد فتحهما .

(٢) فى الأصل : وصرحها .

عنه سيآته ، يوم تسوَدُّ وجوهُ المجرمين ، وتبيض وجوهُ المؤمنين ، وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ، ولا هم يحزنون .

وأمره بأن يجعل مصباحه فى ظُلَم الأمور ، واستنجاحَه فى الحكم بين الجمهور ، كتابُ الله الذى أنزله ، وبيّنه وفصّله ، وأودعه ما قدم وما حَدَث ، ونصبه حجّةً على من وَرِث ووُرِث ، لا تُنزَف بحاره ، ولا تُبلغ أغواره ، ولا تَكْسَفُ أضواؤه ، ولا تُخلِف أنواؤه ، ولا تَلْتَبس مذاهبه ، ولا تنقضى عجائبه ، قاطعةٌ أحكامه ، ساطعة أعلامه ، كافٍ إلزامه ، إليه يرجع كل ذاهب ، وبه يُقْمَع كل ناكب ، ليس عن محجته مَعْدِل ، ولا يستبدِل بمحجته مستبْدِل ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم وعلى آله — تاليةً كتابَ الله فى الاقتداء ، وجاريةً مجراه فى الاقتفاء ، إذ كانت العُرْوةَ التى لا تنفصم ، والعمدَة التى لا تنثلم ، والصراطَ الذى لا يميل ، والبرهانَ الذى لا يستحيل ، قد رتبها الله بيانا لما أشكل ، ولسانا لما أعضل ، وعِيانا لمن غاب ، وإيقانا لمن ارتاب ، فالمتمسك بها ناجٍ يوم الخيفة ، راجٍ للدرجات المنيفة ، والمخلّ بها مدخولٌ دينُه ، خفيفةٌ موازينُه ، ومن يرد الله به خيراً يهيىء له من أمره رشَداً .

وأمره بأن يتلقى الإجماع بالاتباع ، ويحترس معه من الابتداع والاختراع ، فقد خصّ الله بفضيلته أمتنا دون الأمم الماضية ، وشرّفهم به على القرون الخالية . وهو حبل من الله ممدود ، وكنف فى دين الله ممهود ، لا تضطرب أسبابه ، ولا يُهتَك حجابه ، ولا تُعْمَل الآراء مع وجوده ، ولا تُسوّغ العِبْرَة[1] بعد معقوده ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلّه ما تولى ، ونُصْلِهِ جهنم وساءت مصيرا .

وأمره إذا عرض له ما لم يفصح به الكتاب نصاً وإسماعا ، وإن لم يُفرّط فيه تضمينا وإيداعا ، ولم تأت به السنة كَشْفًا وتنويهاً ، وإن اشتملت عليه فَحْوَى وتنبيها ، ولم يسبق فيه اتفاق ، لا يسع من بعده افتراق ، أن ينظر نظراً يُنْعِمه ، ويُصابرَ الفكر فيه فلا يسأمه ، فإن الله إذا علم أن الحق بُغيته ، والصلاح نيتُه ، أدّى به إلى ما يريد ، ووفّقه فلا يضلّ

---

(١) العبرة الاعتبار ، وفى مصطلح الفقهاء القياس .

ولا يحيد ، ورفده بصائب الخواطر ، وهيّأ له أجلى الأشباه والنظائر ، ولم يُبهم سبيل الرشاد دونه ، وجعله بلطفه من الذين يستنبطونه[١] .

وأمره بأن يكون اختياره إذا اختار ، وإيثاره إذا اعتمد الإيثار ، من أقوال السلف المشهورين ، وفقهاء الأمة المذكورين ، رحمة الله عليهم أجمعين ، لا يُعَرِّج بالمذاهب الشاذة ولا يتقبّلها ، ولا يَتَرَخَّص فى الأقوال الشاردة ولا يتحمَّلها ، ويصدر أحكامه عن قولٍ شهير وبيان مستنير ، واستبصارِ واضحِ المنهاج ، واعتبار متلألِىء السِّراج ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وأمره بالاستظهار على أحكامه بالمشورة ، والمباحثة لأولِى المعارف الموفورة ، من الفقهاء الذين جعلهم الله للأحكام قُنْية ، وللإسلام حِلْية ، فإنه وإن كان موصوفا بالاستقلال ، فما أحدٌ خُلِقَ للكمال ، وقد جعل الله فى وفور العِدة ، مزيّةً لم يجعلها للوحدة ، وعرّف فى الاستمداد والاستكثار ، فضيلةً لم يوجدها فى الاستبداد والاستئثار ، ثم له الإمضاء إذا استشار ، والقضاء إذا تخير واستخار ، فقد أفصح منصوص الذكر ، بقوله تعالى : وشاورهم فى الأمر .

وأمره بأن يهذب نفسه قبل أن يهذب عمله ، ويؤدّب عادته قبل أن يؤدّب من قِبَله ، ويروضَ أخلاقه على الحلم فإنه أحمدُ ما اعتاد ، والصبر فإنه أفضل ما ارتاد ، لئلا يقضى فى حال قلق أو عَلَق ، أو غيظ أو حنق ، أو ضَجَر أو ملال ، أو حَرَجٍ أو كلال ، بل ينظر بين الخصوم ، وقد سدّ خَصَاصته ، وقضى عامّة أرَبه وخاصّته ، واستظهر بملكِ نفسه وإرْبه ، وعركِ المساخط والمغايظ بجنبه ، ليؤدى فرض الله فى عظيم ما تَطوّقه من الفروج والدماء ، ويحتذى أمر الله فى جسيم ما اعتنقه من حقوق الدهماء ، فإن الله سائله يوم تشهد الأشهاد ، ويُحشَرُ العباد ، عن قليل ذلك وكثيره ، ومحاسبُه على صغير ذلك وكبيره ، لا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا فى كتاب مبين .

وأمره بأن يعدِلَ بين الخصوم فى مجالس قضائه ، ويعُمَّهم بحسن استماعه وإصغائه ،

---

(١) يشير الصاحب هنا إلى الآية الكريمة : "ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم" .

ولا يَعْجَل بمن قد غشيته هيبةُ الحكم فيحْصَر ويَحْرَج ، ولا من مَلَكته روعةُ الخصم ، فيحسِر ويتلجلج ، ولا يَقسم لواحد منهما فى لفظه إذا لفظ ، ولحظه إذا لحظ ، إلا مثل الذى يَقسمه لصاحبه ، ويوجبه لمنازعه ومجاذبه ، لئلا يطمع قوىٌّ فى انظلام ضعيف ، أو يجزعَ مشروف من اهتضام شريف ، فالحقُّ أكبر من كل ذى محلّ وثروة ، والدينُ أعظمُ من كل ذى منزلة وحُظْوة ، ولله على كل قاض فيما يخفيه فيبطنه ، أو يبديه فيعلنه ، رقيبٌ لا تلحقه غفلة ، وحسيبٌ لا تفوته خصلة ، ما يَلفِظُ من قول إلا لديه رقيب عتيد . وأمره أن يتخير كُفاته وخلفاءه ، وكتابه وأمناءه ، فمن نصح وعفّ ، وصلح وكفّ ، أقرّه ، وفسحَ له ممرّه ، ومن صدف عن التورع والظَّلَف ، وانحرف إلى الجشَع والنَّطَف ، قدَّم عزلَه ، وحسَم عن المسلمين كَلَّه ، فالمرء مسئول عن بطانته ، كما هو مسئول عن أمانته ، يوم تُوَفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

وأمره بأن يتصفح الشهود تصفُّحَ مَنْ عدالةُ المسلمين آثرُ إليه من الجرح ، وسلامتُهم فى الدين أوقعُ لديه من القَدْح ، فالمسلمون بظواهرهم عدول ، إلا من ثبت منه فسوق أو غُلول ، وأن يَخْبُرَ أحوالهم بعد أن لا يقبل ظنيناً ولا عبداً ، ولا من أقام عليه القذفُ حدا ، ويستشفهم فيما يُصدرون ويوردون ، ويتحملون ويُؤدون ، لئلا يقدم أحدهم فى شهادته على لَبْس ، أو يهجم به ضعفُ درايته على زيادة أو نقص ، فما كل الشهود يُؤْتَى[(١)] من سوء السريرة ، وإنما يُؤْتَوْن من سوء المعرفة والبصيرة ، ولذلك فُضِّل من فضّله علمه وقُدِّم من قدّمه فهمه ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشديد ، فلا يعوّل فى حفظه إلا على الأمين السديد ، ويُوكِّل به عيناً من ملاحظته ، ويداً من حفظه ومحافظته ، ليؤمن فيه الأكل بالباطل ، والتعريض لخبث المطاعم والمآكل ، ولينفق منه عليه إنفاقاً وسطا فى التقدير ، بين التبذير والتقتير ، إلى أن يبلغ الحلُمَ والنكاح ، ويستكمل الرشد والصلاح ، فيحصُل ماله فى يديه ، ويُشهد به عليه ، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رُشْداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنياً

---

(١) فى الأصل : يؤتى به .

فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالَهُم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا .

وأمره بأن يضع المواريث إذا دُفعت إليه مواضعَها من الاستحقاق والاستيجاب ، ويوصلها إلى أربابها بالأنساب والأسباب على فرائض الله فيما سمَّى وأسهم ، وأبقى بعد ما قسم ، وأن يُجْرى ذوى الأرحام على ما رآه أكثر الأمة ، وقال به جمهور الأئمة ، من إيجاب التوريث عند فقد ذوى التعصيب ، فلو لم يكن فى ذلك إلا حراسة التراث ، عن[1] معارضة عمال المعاون[2] والأحداث ، لوجب تغليب من هذه فُتْياه ، والحق فيها غرضه ومرماه ، فكيف وقد تُلِى فى نص كلام الله : وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله .

وأمره ألاَّ يفسخ حكم القضاة قبله إذا كان مما يُسوغ الرأىُ مثلَه ، فلو نُقِضَ الاجتهاد بالاجتهاد ، لما استقرّت أحكام قضاة البلاد ، وإن هو وجد من ذلك ما خالف إجماع الحجة ، وخرج عن اتفاق الأمة ، أتى فيه ، ما يلزمه فى تلافيه ، فالباطل أولى بأن يُدْفع ، والحق أحقُّ أن يتَّبع .

وأمره بتزويج الأيامى اللاتى ولايتهن إليه ، وعُقَدَتهن بيديه ، متخيِّرا الأكفاء ، وطالبا فى الصدقات الوفاء ، عالما أن تقديم ذلك أدْعى إلى العفاف ، وأرْجى للكفاف ، وأقرب إلى العدل ، وأبعد من العَضْل ، وقد قال الحكيم الرحيم فى القرآن المبين : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يُغْنهم الله من فضله ، والله واسع عليم .

وأمره بأن ينصب للوقوف من يَحْسن وقوفه عليها وقيامه ، ويَصدق اشتغاله بها واهتمامه ، لئلا تبور أصولها بالضَّياع ، أو تفوت حقوقها باقتطاع ، ولتجْرِى أقسامُها على ذُلِلها ، وتُصرف فى وجوهها وسُبُلها ، وتحمى عن مكائد من يسعى فى نقضها برأىٍ من آراء المجتهدين ، ويتأتى لحلها بفتوى من فتاوى المختلفين ، فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه .

(١) فى الأصل : عما .

(٢) المعاون : الشرطة .

وأمره إذا ثبت عنده الإعسار أن يُنظِر ويُمهل ، ويؤخر ويؤجل ، فإن الله فرّق بين ذى المَتْرَبة والمقدرة ، فقال : وإن كان ذو عُسْرةٍ فنظِرةٌ إلى مَيسرة .

وأمره أن ينصب لحفظ السكك فى دور الضَّرْب أمناء يحرسون العِيار ، ويعرفون السبك والاعتبار ، ليكون ما يُطْبَع على الإمام المعلوم ، والمثال المرسوم ، فلا يستطيع من أراد دَغَلاً ، أن يوقع خَللاً ، فتجرى المعاملات على السَّداد ، وتُحفَظَ النقودُ عن الفساد ، والله خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين .

وأمره إذا رُفع إليه ما يوجب حداً أو قَطعًا ، أو قتلاً ، أو جَلداً ، أن يأخذ بأبعد المذاهب من إباحة ظهر المسلم فإنه الحمى ، وإراقة دمه فإنه الحرمة العظمى ، وإبانة أعضائه فالأصل الحظر ، ولا إطلاقَ ما استعجم الأمر ، وأن يُجرِّد عند ذلك المسألة عن البينات ، ويأخذ بالسنة فى دَرْء الحدود بالشبهات ، فإن وضح له ما يوجب إقامة الحد أنهاه ونفّذه بحكم الله ، ولم تأخذه رأفة فى دين الله .

هذا عهدُنا إليك ، وعهد الله به عليك ، لم نألُكَ فيه تذكيرا ، وإن كنت به بصيرا ، ولم ندّخر عنك بيانا ، وإن كنت تقتله علما وإيقانا ، فاستخر الله المُقيت يُلقك سَدَداً ، ويؤتك ما بقيت رشَدًا ، إليه تفويضنا فيما نبدئ ونعيد ، وعليه[1] تعويلنا فيما نعزم ونريد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢ — وله عهد فى الحسبة

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين لفلان . إنا لما أُنْهى إلينا ، وتناهى فى الوضوح لدينا ، من علمك المشهود ، وسِترك الممدود وموقعك فى أعيان الفقهاء ، وموضعك من الاضطلاع والغَنَاء ، رأينا اعتمادك لما صدق به اهتمام الأئمة ، ومسّت إليه حاجة الأمة ، من الحسبة التى تنظّم مصلحة الكافة ، وتجمع مرارة الحق إلى حلاوة الرأفة ، ففوّضناها بالرىّ وأعمالها إليك ، ناظرين للرعية ، وطالبين فيها وجه المزية ، إذ الاحتساب مشتمل على الأمر بالمعارف والزجر عن المناكر والتواصى

---

(١) فى الأصل : وعلينا .

بالمحامد والتناهى عن المقابح . والله ولى إرشادنا وتأييدنا ، و إسعادنا وتسديدنا ، نعم الوكيل ، وعليه التعويل .

فباشر ما عصَبْناه بك ، مُؤْثراً تقوى الله ، فهى العُدّة والعُصرة ، والنجدة التى فيها النصرة ، والمحجة الآمنة من الاختلال ، والمنجاة السالمة من الاعتلال ، من اعتصم بحبالها ، وتدرّع بسربالها ، تقدّمت خطاه ، وسلمت دنياه وأخراه ، ومن زاغ عن مقتضاها ، وراغ عن مُقْتضَاها ، اتصل عثاره ، وأثقلته أوزاره . وأولى الناس باتباع منارها ، و إقامة شعارها ، من عُدَّ فى ذوى العلم والدراية ، واعتدَّ فى أولى الفهم والرواية ، إنما يخشى الله من عباده العلماء .

ونفِّذْ ما استُرْعيته بين عفافٍ يُهتَدَى فيه بهداك ، ويقتدَى بمقصدك ومغزاك ، فإن من أصلح من نفسه تُقُبِّل دعاؤه إلى الخيرات ، وامتُثِل قوله فى الكفّ عن المنكرات ، و بين غلظةٍ على أهل الفسوق تقوِّم دَرَأهم وتثقِّفه ، وتهذِّب مائلهم وتوقِّفه ، فهذه العصبة متى لم تر جانبا منيعا ، ولم تخش إنكارا وسيعاً ، انهمكت فى شهواتها ، وتداركت على سوء عاداتها ، ولين على المشهورين بالستر والعفاف ، ليرغب الممتاز عنهم فى الانحياز إليهم ، فذلك أقومُ قيلا ، وأهدى سبيلا ، والله يَهْدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

واهتمّ بأمر المعايير والمكاييل ، والقسطاسات والموازين ، اهتماما يقتضيه افتقارُ المعاملات أجمع إليها ، ورجوعُ المبايعات عليها ، فقد عظم الله تعالى فى نصّ المصحف ، وزرَ الباخس وإثم المطفّف ، فقال : وَيْلٌ للمُطَفِّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، و إذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون ، ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعوثون ليومٍ عظيم .

وأجْرِ الرعية ، على طريقة سويّة ، فى المنع عن المجاهرة بما يُحظَر ، والمبادرة بما ينكَرُ ، غير مفرّق بين أبناء الثروة واليسار ، و إخوان الخلّة والإعسار ، فالجماعة عبيدُ الله ، لا تختلف فيهم حدود الله ، بل الأغنياء — إلا من عصَمَ الله — أجْرأ على المناكير ، وأقدر على بلوغ اللذات بالتبذير ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وألزم النساء إذا تخللْن الأسواق[1] والمحال ، وداخلن الشوارع وقابلن الرجال ، أن

(١) فى الأصل : الأسوا .

يضربن بخُمُرِهن[١] على جيوبهن ، ويمددن جلابيبهنّ على وجوههن ، فذلك أدفعُ لمحة الفاسق ونظرته ، وأسلمُ للعبد الصالح وعفته ، ولهذا أمر الله تعالى بغض العيون كما أمر بتحصين الفروج ، قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم .

وراع السلع مراعاة تحوطها عن الغشوش ، فإثمها عظيم ، ووزرُها جسيم ، ولها إفساد للبياعات ، وتخريم للمعاملات ، إلى الوكس الداخل على أهل الملة ، وأولى العهد والذمة ، ومن صحّ إصرارُه على استعمالها ، وإقدامه على وبالها ، فبالغْ فى تقويمه يَصِرْ مُثْلَةً لمن سواه ، وعبرةً لمن يجرى مجراه ، إن الله لا يردّ بأسه عن القوم المجرمين .

وامنع من سَدّ الشوارع دون السابلة بأمتعة الباعة وآلاتها ، وبضائعها وأدواتها ، فليس لأحد أن يضيق على المسلمين طرقهم ، ويشحنها بما عسى أن يعوقهم ، ليلزم كلٌّ منهم موضع بيعه وشراه ، لا يتخطّاه ولا يتعدّاه ، إن أذى المسلم حرام ، وحجازه دون مجازه آثام ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين .

وخُذْ أهل الذمة بلبس الغيار ، وعقد الزنار ، والتميز عن المسلمين الذين ألبسهم الله ثوب العزة ، وأفردهم حتى فى الشعار والبِزّة ، وحماهم الذلة والهون ، وأعلاهم ولو كره المشركون .

وقد أُذن لك فى حبس من يجب حبسه ، وتأديب من تغرّه نفسه ، لتتم المصلحة وتُقْلِع المفسدة ، ويخف العَنَتُ وتكف المردة ، بعد ألاّ تدع تقديم الإنذار ، والتقويم بالإنكار ، فإن نجع القول فذاك أقرب مأخذا ، وأرشد منفذا ، وإن احتيج إلى تعدّيه فلا إقصار دون القيام بحق الله ولا اقتصار[٢] على ما يُغْرِى بسخط الله ، إن الله لا يحب الفساد .

هذا ما عهدناه إليك ، فاستمرّ على منهاجه ، واهتد بسراجه ، وإن عرض ما يقتضيك الاستئمار ، لا الاستئثار ، فأَنْهِهِ يأتك من التبصير ما يُخْرِج عن وحشة الاستبداد والانفراد ، إلى أَنَسَة الاستظهار والاستمداد ، واستخر الله تعالى يَخِرْ لك ، ويسدِّدْ عملك ، نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) فى الأصل : بخمورهن .

(٢) فى الأصل : والاقتصار .

٣ — وله

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد، حين ولاه قضاء القضاة بالرىّ وقزوين وسُهرَوَرْد وقُم وساوة وما يجرى معها، ويتصل بها، علما بما لديه من علم يُهتَدَى بأضوائه، وورع يُستَسْقَى بأنوائه، وكفاية يكْنُفُها الحلم والحجى، وأمانة يبعثها النسك والتقى، وموقعٍ فى عِلْيَةِ أهل الدين ترمقه النواظر، ومكانٍ من صفوة المسلمين تعقده الخناصر، والله ولى الإرشاد، والمعونةِ على حسن الارتياد.

أمره بتقوى الله ومراقبته، وتخَوُّف سَطْوِه ومعاقبته. إن التقوى زمام الأفعال الصالحة، وإمام الأعمال الرابحة، من لجأ إليها أتاه التوفيق فى مصارفه، وواتاه السداد فى مواقفه، ومن مال عنها تحاماه الرشاد فى أنحائه، وتخطاه الصواب فى آرائه، ومن يتّقِ الله يجعل له من أمره يسْرًا، ذلك أمر الله أنزله إليكم، ومن يَتّقِ الله يُكفِّرْ عنه سيآته، ويُعْظِم له أجرا.

وأمره بأن يجعل القرآن قبلة مساعيه، ووجهة مطالبه ومباغيه، فينصبّ إليه تاليا، وينتصب له قارئا، ويخلو به متدبّرا، ويواظب عليه متبصّرا، فهو حادى الحِكَم، وهادى الأمم، والجِلاء عند الاشتباه والاستعجام، والضياء فى مشكلات الإعضال والاستبهام، من فزع إلى ذخائره أثرى من المراشد واستظهر، ومن عدل عن بصائره أقوى من المحامد وأعسر، فلو أُنزل على الجبال لخشعت، أو على الأطواد لتصدّعت، ما فرّط فيه، ولا تُجُوِّزَ فى أوامره ونواهيه، تنزيل من حكيم حميد.

وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه — مرجعا، ويرضى بها مَرَادًا ومُنْتَجَعًا، فيرد إليها أحكامه، ويلتمس منها حلال الدين وحرامه، إذ كانت العُدّة إذا اشتبهت الأمور، والعمدة إذا اختلف(١) الجمهور، وفيها تفصيل ما أجملته النصوص، وتبيانُ ما اعتوره العموم والخصوص، تنكشف بها(٢) الشُّبَه، ويُؤمَن بها(٣) العَمَه، محجتها بيضاء ساطعة، وحجتها غراء قاطعة، من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظا.

---

(١) فى الأصل: اختلفت.

(٣) فى الأصل: به.

(٤) فى الأصل: به.

وأمره بأن يتلقى سالف الإجماع بحسن الاستماع والاتباع إذ كان حبلَ الله المعقود لا تُنتَكَثُ قواه ، وظله الممدود لا تستباح حماه . فضّل الله به أمتنا على الأمم ، وجعل كلمتها فيه فوق الكلم ، حتى وسمها فى كتابه بالوسط ، وآمننا فيها من الخطأ والغلط[1] ، لا يُخشى على اتفاقها عوارضُ الالتباس ، وقد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، فليس لذى حكم ونظر ، وآخذ بتأويل آية أو خبر ، أن يخالف ما أطبقت عليه الأمة ، وسبقت إليه الأئمة ، بل عليه التسليمُ والاقتفاء ، والتفويضُ والاقتداء ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ، ونُصْلِهِ جهنم وساءت مصيرا .

وأمره إذا عنّ ما لم يشتمل الكتاب عليه تعيينا ، ولا كشف عنه الأثر تبيينا ، ولا سبق به الإجماع يقينا ، أن يُعمل فيه اجتهاده طويلا ، ويُنْهض له ارتياده بُكرةً وأصيلا ، ويستشهد مُودَع النص وفحواه ، ويستنجد موجَب الأثر ومقتضاه ، ويقيس الأشباه والنظائر ، ويستنبط الأمارات والدلائل ، فذاك الجدَد الذى كان السلف الصالح — رحمهم الله — يسلكونه وقال الله تعالى . لعلمه الذين يستنبطونه .

وأمره إذا عارض فى الأحكام ما يعضل استخراجه ، ويستبهم رتاجه ، أن يتبين ويتئد[2] ، ويفكر ويجتهد ، ويستشير أماثل العلماء ويستمد ، ويأخذ من آراء الفقهاء ولا يستبد ، حتى إذا وضحت له القضية أكمل فضل الاستشارة بيمن الاستخارة ، وأمضى من الحكم ، ما يأمن فيه مصارع الظلم ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

وأمره بأن يُواصل النظر بين الخصوم ، والأخذ من الظالم للمظلوم ، فاتحا لذلك بابه ، ومُلينا حجابه ، ومسوّيا فى الخصومة إذا اشتجرت ، والألحاظ إذا تصرّفت ، والألفاظ إذا جرت ، بين الغنى المثرى ، والفقير المُثْوى ، والقوىّ الموقّر ، والضعيف المستحقر ، فليس بالثراء تشرُف المنازل وترتفع ، ولا بالإقواء تضعف الوسائل وتتضع ، وبعد فكلٌّ عباد الله يسعهم فضله ، وشَرَعٌ فى حكم الله يشملهم عدله ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأمره بأن يدّرع الهيبة ، ويؤثر الوقار والسكينة ، ليُغَشّى ما استكفيه جمالا ، ويُوَفّى ما استُرْعيه جلالا ، ويسير سيرةً لا الضعف يتخللها فيوهنها ، ولا العنف يتجللها فيهجّنها ،

---

[1] يشير إلى الأثر المروى "لا تجتمع أمتى على ضلالة " .

(٢) فى الأصل : يتايد هكذا .

لتستمر أحواله مكنوفة بالمحاسن ، محروسة عن المطاعن ، مرويّةً فى السير الصالحة ، محميّةً عن الألسُنِ القادحة ، متوكلا على ربه ، فى قلِّ أمره وكُثْره ، وصغر شأنه وكبَرِه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وأمره بأن يتخير لأحكامه الأوقات التى يجمع لها لُبّه ، ويملك فيها إرْبه ، ويأمن معها منازعة الوطَر ، ومساورة الضجر ، لتصدر قضاياه عن رأىٍ مُسْتَجْمِع ، وصدرٍ متّسع ، ونفس مُرَاحة ، وعلل مُزَاحة ، ذاكراً عند القضاء ، فَصْلَ القضاء ، يومَ لاينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأمره بأن يتسلم ديوان القضاء من المتولى — كان — قبله بمحاضره وسجلاته ، ومثابت حججه وبيّناته ، وذكرِ المحتبَسين بمبالغ الحقوق وأسماء الخصوم ، ويعرضه بفهرست يعقده فهو جامع للمسلمين حقوقا جمّة ، وعقوداً مهمة ، ويُوَكّل به من ثقاته من يحوطه عن الأيدى الممتدة ، والأطماع المشتدة ، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

وأمره بأن يختار لخلافته على قضاء البلدان المقرّرة فى يده ، المذكورة فى عهده ، والكتابة، وسائر ما يُتوَلى من جهته، من يجمع إلى الرِّعة عزوفا عن النَّطَف ، وإلى المعرفة عكوفا على الظَّلف ، ويطالع أخبارهم ، ويشارف آثارهم ، فمن زاغ عن الطريقة المُثلَى ، ولم يَخْش وخيم العُقْبى ، صَرَفه زَجْرًا وتحذيرا ، وردعا ونكيراً ، ومن استقرّ على الحسنى ، وسلك المحجة الوسطى ، أقرّه بعثاً لمثله ، على الأخذ بهديه ، والاقتداء بسعيه ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وأمره بأن يَستَشِفَّ أحوال الشهود ويستكشفها ، ويبالغ فيها حتى يتعرفها ، فعليهم مدار الأحكام ، وبهم استقرار النقض والإبرام ، فمن ألفاه سَتِيراً سديداً ، حراً مسلما رشيداً أحله محل المزكَّين أعمالا ، المقبولين أقوالا ، ومن ارتاب فى أمره ، وامترى فى سَتْره ، وقف ببابه إلى أن ينحسر وجه ارتيابه ، ومن انكشف له عن ظنَّةٍ لا تُؤمن معها مضرته على الدين ، أو شهادة زورٍ تكثر بها مَعَرّته على المسلمين ، جرحه جرحا ظاهراً ، وكفى الناس شره مجاهراً ، فقد قرن الله قول البهتان بعبادة الأوثان ، فقال : فاجتنبوا الرِّجْسَ من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور .

وأمره بإقامة الحدود على مستحقيها إذا وجبت ولزمت ، وقامت بها البيناتُ وانتظمت ، وأن يدرأها بالشبهات ما أطاق ، ويحقِنَ الدم ما جاز ألا يراق ، ولا تأخذه فى إمضائها على حقها رأفةٌ مانعة ولا ملالةٌ دافعة ، فقد نبه الله على ذلك تنبيه الزاجر فقال : ولا تأخذ كم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .

وأمره بأن يحتاط على الوقوف أشدّ احتياط وأوفاه ، وأحفظه لما لها وأوقاه ، ويعتمد فيها على أمناء يَعِفُّون عن خِبْثَة[1] المطاعم ، ويكفون عن خطة المآثم ، لتصل ثمراتها إلى أصحابها ، وتُنْفَق فى سبلها الصادرة عن أربابها ، وليُوضع ما يجب إنفاقه على المساجد الجوامع ، وإنفاذه إلى الثغور والمصانع ، مواضع الاحتياط ، فتؤمن عوادى التخوّن ، وتنقبض أيدى الحَيف والتخرّم ، وتحصل بذلك الزلفة عند الله تعالى ، وما عند الله خير وأبقى .

وأمره بمراعاة العيار ، فى هذه الأمصار ، ومطالعة أحوال السكك لتُجَرَّد فى المحرم كلّ سنة على السُّنة فى مثلها ، ويُبْطِل محواً وكسراً ما كان منقوشا قبلها ، وأن يحتاط على الإمام المقرر لدار الضرب بالمجدية عَيْنا وورِقا ، ويُوعِز إلى صاحب العيار بالتحفظ ممن يوقع غشا ، أو يُعْمِل دَغَلاً ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين .

وأمره بتزويج الأيامى اللاتى إليه ولايتهن ، ولا ولىّ سواه لهن ، أو يريد الأولياء عَضْلهن ، إذا وجد الكُفْء وحلّ العقدُ ، وبُذِل صداق المثل ، ولم تحجُزْ شبهة ، ولم تبقَ عِدَّة ، كما قال الله تعالى فى كتابه المبين : وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يُغْنهم الله من فضله ، والله واسعٌ عليم .

وأمره بالاحتياط على مال اليتيم الحاصل فى حجره ، اللازم له تدبّر أمره ، وأن ينفق عليه إنفاقا قَصْداً ، ولا يُلْقيه إسرافاً ولا جهدا ، حتى إذا بلغ الحُلُم مميِّزاً بين مصالحه ومفاسده ، ومَضَالّه ومراشده سلّم ماله إليه ، وأشهد به عليه ، قال الله تعالى ، وقوله الحق ، وأمره الحَتْم : وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبِداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا .

---

(١) خِبْثَة بكسر فسكون ففتح : الخبيث

وأمره بحبس من يثبُت الحقُّ فى ذمته ، ويطالبُ الخصمُ بحبسه على توفيته لحقه ، إلى أن يبرأ مما حُبِس [عليه[1]] أو يَخرُج منـه على واجبه ، أو تقوم البيّنة على إعساره ، فيُؤخذ بحكم الله فى إنظاره ، كما قال الله تعالى : وإن كان ذو عسرةٍ فنَظِرَةٌ إلى ميسرة .

وأمره بأن لا يفسخ حكم من تقدَّمه ، ولا ينقضَ ما أبرمه ، إلا إذا كان للإجماع خارقا ، وللسان الأمة مفارقا ، فإذا وجد ما قد خرج عن تأوّل المتأولين ، وقول المختلفين ، فله أن ينقضه ويتعقبه فيدْحَضَه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذا ما عهدنا إليك فاقتف دليله ، واحتذ تمثيله ، واستهد الله يهدك ويُرَشِّدْك ، واستكْفه يُعِنْك ويُسَدِّدْك ، إليه نفوّض ، وعليه نعوّل ، وهو حسبنا ، ونعم الوكيل .

٤ — ولـــه

هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين إلى إسفهلار بن كوريكنج[2] مولى أمير المؤمنين حين ولاّه أعمال الصلاة والحرب والأحداث والمعاون وسائر وجوه الجبايات بقزوين ونواحيها ، إلى الأعمال التى كان يليها ، مقدّرا فيه حُسْن الاضطلاع ، والوفاء بحقّ الاصطناع ، والأخذ بالهَدْى الصالح ، والتأدب بالسعْى الراجح ، والله ولى التوفيق والتسديد لأحمد نهجٍ وطريق .

أمره بأن يتقى الله حقّ تقاته ، ويحذَر عظيم نقماته ، ويراقبه فى سرّ أمره وجهره ، ويخشاه فى بطن حاله وظهره ، فذلك المشْرَع الذى من ورده فاز ونجا ، والمَهْيَع الذى من تنكبه ضلّ وغوَى ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وأمره بإقامة الصلوات على المفروض والمسنون من حدودها ، واستعمال الخشوع فى ركوعها وسجودها ، وحراستها عن التأخير والمهل ، وحياطتها من[3] التسويف والكسل ، لتؤدَّى على شرائط القبول ، وتُحمَى عن عوارض الخِدَاج[4] والفلول ، ويقام شعار الدعوة

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) هو أبو منصور بن كوريكنج الملقب بالإسفهلار صاحب قزوين . انظر ابن الأثير ٣٩/٩ .

(٣) فى الأصل: على .

(٤) الخداج : النقص .

على ماضى السنّة فإنه نظام الجماعة ، وعنوان الطاعة ، وقوام السعادة التامة ، وملاك الخاصة والعامة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا .

وأمره بأن يتدبر لوازم القرآن وأوامره ، ويتجنّب نواهيه وزواجره ، ويقتفى ما أوضحته السنة من مجمله ، ودلّ عليه الإجماع من متأوّله ، وأرشد إليه الاجتهاد من ودائع منزّله ، فإنه الشفاء من كل معضل ، والجلاء لكل مُشكل ، والبصيرة عند اعتراض العمَه ، والواضحة عند اعتراء الشُّبَه ، من اعتمد عليه غَنِمَ ، ومن ألحد فيه قُصِم . كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على سيد المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وأمره بإشاعة العدل بين الرعية ، وحَملِهم على المحجة السويّة ، والنظر بالنَّصَفَة بين المستظهر الموسر[1] والمُرمل المقوى ، ليرتفع التغالب والتجاذب ، ويعم التعادل والتناصف ، ويأمن الضعيف سطوة القوى ، والفقير عزة الغنىّ ، فإن الكل من عباد الله ، وشرَعٌ فى شرائع الله ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وأمره بأن يجرى الخراج والموافقات وسائر أهل المعاملات على رفوتهم[2] المقدرة ، وشروطهم المقنّنة ، ويستوفى حقوق بيت المال فى محالها ونجومها ، وعلى عقودها ورسومها ، لا حَيْفَ ولا إغفال ، ولا جَنَفَ ولا إهمال ، ليكون ما يورده ويصدره ، ويقبضه ويدبّره ، واقفا مع السيرة العادلة والنَّصَفَة الشاملة ، فإن الله تعالى عالم بما يخفى ويُعلن ، ويُبدى ويُبْطن ، وكان الله بكل شىء عليما .

وأمره بأن ينفض الطرق عن أهل العَيْث والفساد ، ويشحنها بأولى الجلَد والجلاد ، لتحاط عن الخراب ، وتعمرّ بالمِيَر والأجلاب ، وتُؤْمَن عوادى المتلصّصة على الرُّفَق والقوافل ، والجوادّ والعوادل ، وتشمل الأَمَنَة فتنتظم ، وتنحسر المخافة وتنحسم ، فمن ظفر به من قطاع السبيل ، قابله بالعقاب والتنكيل ، إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفَوْا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

---

(١) فى الأصل : المؤثر

(٢) فى الأصل هكذا: رفوتهم وتتكرر فى الرسائل كلمة رفوتهم بمعنى الأوامر ولعلها جمع رفت الفارسية ومعناها ذهب ، ويكون معناها هنا الأوامر الماضية .

وأمره بأن يُعظِّم المنصوب للحكم ويُكبره ، ويعزّزه ويوقّره ، إذ الأحكام أولى الأمور بالاهتمام ، وأجلها فى شرائع الإسلام ، والمتولّى لها معتَمَدٌ لصلاح الدهماء ، ومؤتَمَنٌ على الفروج والدماء ، وأن يقبض الأطماع عن المعارضة فيما يورده ويصدره ، ويمضيه ويقرره ، ويقصر الأبواعَ عمن يحبسه ويطلقه ، ويفرج عنه ويوثقه ، وأن يُلزم الموسوم[1] بالمعونة إحضار من عسى أن يتأبّى عليه ، أو يتقدّم بسوء القول والفعل بين يديه ، إن الله لا يُضيع أجر المحسنين .

وأمره بتخيّر أصحابه ومتصرفيه وكتابه ، إذ كانوا السُّفَراء بين الرعية وبينه ، والمباشرين لكثير من الأمر دونه ، وأن يأخذهم بالتنزه والظلف ، ويزجرهم عن الشره والنّطف ، ويقبض أطرافهم عن الرعايا أجمعهم ، ويُوكِّل بهم عيونا لا ترقد عن تصفّحهم وتتبعهم ، فمن كانت الثقة سبيله ، والرِّعة دليله أقرّه على أمره ، وشرح بالإحسان من صدره ، ومن ألفاه خبيث المطعم ، جريئا على المآثم ، لا يكفّ عن المآكل الذميم ، ولا يَعِفّ عن المَشْرَع الوخيم ، صرفه وأبعده ، ونبذه وشرّده ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان .

وأمره بأن يُلزم متولى دار الضرب إيثار الصحة ، ويقوى المنصوب للعيار على حفظ السكك ، ويُلزمهما اتباع الإمام المُنْفَذ من الحضرة لئلا يعترض — بعدُ — مخالف ، أو يَرُوج بَهْرَجٌ أو زائف ، ومن عرف منه إدْهانٌ فى ذلك وقلة أمانة ، وإجراء إلى غشٍّ أو اجتراء على خيانة ، تُرِكَ عبرةً للناظر ، ومُثْلَةً للنواظر ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين .

وأمره بأن يأخذ أهل الذمة كل حولٍ بجوالى[2] رؤوسهم ، المستبقية لأرواحهم ونفوسهم ، فيستوفى على كل حالم جزيته ، ويحصن بها مهجته ، ولا جالية على معضوب ولا شيخ فانٍ ، ولا على الأناث والولدان ، بل يُلزَمُها الأصحاء البالغون ، ليؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

وأمره باستيفاء الصدقات على العدّ والإحصاء ، وحَوْطها عن الظلم والاعتداء ، واختيار السعاة النصحاء لها ، واستكفاء الكفاة الصلحاء فيها ، لا جمع بين مفترق ، ولا تفريق بين مجتمع ، ولا يد على أكُولَة[3] الراعى وفحل الغنم ، ولا رخصة فى اختيار الأعيان

---

(١) الموسوم بالمعونة : هو القائم بأمر الشرطة.

(٢) الجوالى جمع جالية ويريد بها الصاحب الجزية على أهل الذمة .

(٣) أكولة الراعى : الشاة التى تُعزَل للأكل وتسمَّن ، ويكره لصاحب الصدقة أخذها .

والعِيَم[1] ، فقد قال الله تعالى لنبيه عليه السلام فى الأوامر التى بعثه لها : خذ من أموالهم صدقةً تطهِّرهم وتزكّيهم بها .

وأمره بأن يؤثر[2] الأمر بالمعارف أشد إيثار ، ويتعمّد المناكر بأعظم الإنكار ، فهما مفروضان بحسب الإمكان ، وموجَبان على اختلاف الأزمان والأديان . لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عَصَوْ وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون .

وأمره بحراسة المكاييل والموازين عن التطفيف والبخس ، والزيادة والنقص ، فشأنها عظيم ، والمتسمّح فيها أثيم ، وقد أنطق الله بالوعيد فى ذلك كتابه المبين وأنزل فى نصه : ويلٌ للمطفِّفِين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون .

وأمره إذا ارتُفِع إليه فيما يوجب حدًّا ، ويُلزم قَوَدًا ، أن يتثبّت فى تعرف البينات ، ويعمل على دَرْء الحدود بالشبهات ، فإذا ثبت لديه ما يصحّحه النظر ويحققه ، وتتحاماه[3] الشبهة فلا تعوّقه ، ، كتب مُصَوَّراً مستأمرا ، وأصدر كتاب الحاكم قِبَله مستظهرا ، ليأتيه من الأمر ما يُبرمه ، ومن الحكم ما يرتسمه . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون .

وأمره بأن يحفظ على المسلمين أُبَّاقهم إلى أن يُعادوا إليهم ، وضوالهم ولُقَطهم لتُرد — بالتعريف — عليهم . ومن اشتبهت حاله فلم يُهْتَدَ لصاحبه ، وما استمر استعجامُه ، فلم يُظْفَر بمالكه وُضِعَ على يدى موثوقٍ به يُسْكَنُ إليه ، واستُطْلِعَ الرأى فيما يُعْمَل عليه . إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها .

وأمره بأن يستكفى سوق الرقيق عفيفاً فى نفسه ، مالكا لإرْبِه ، خشنا فى دينه ، خاشيا لربه ، لِيَكْتُبَ العهد بعد صحة الرق ، فى الأمان من الحرية والعتق ، ويحتاطَ على الإماء ، فإن أمرهنّ متصل بشواجر الأنساب ، وبواشج الأحساب ، ومراعاة أحوالهن فى المواقيت ، أمْنٌ من دخول الفساد على المواليد ، قال الله تعالى فى محكم الفرقان : واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام .

---

(١) العيم جمع عيمة ، وهى خيار المال .

(٢) فى الأصل : يورث .

(٣) فى الأصل هكذا : بتحاه .

وأمره بأن يُغشى العوامَّ ظلَّ هيبته ليردعها عن التحزب ، ويمنعها من التعصب ، ويدفعها عن التباين والتدابر والتوصُّل[1] باختلاف المذاهب إلى التمادى والتنافر ، ليقبل كلٌّ على عمارة ما آثره لمعاده ، ويشتغل بالإقامة على ما تخيّره لزاده ، إلا من قال قولا خرج عن إطباق الأمة ، وخرق إجماع الحجة ، فإن للسلطان — دون الرعية — استكشاف ما أتاه ، والمعاقبة بما يراه ، ومن خالف هذا المنار المضروب ، والمثال المكتوب ، موقدا نار الفتنة ، ورائشاً نَبْلَ الفُرْقَة ، أحلّ به ما يَعْتَبِر معه أعوانه ، ويزدجر إخوانه . لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ فمن يكفر بالطاغوت الآية .

وأمره إذا عنّ له ما لم يعهد فيه إليه أن يطالع ويستمد ، ويتطلع فلا يستبد ، إلى أن يُكاتَبَ بما يجعله وجهة حلّه وعقدِه ، وقبلة صَدرِه ووِرْده .

هذا عهدنا إليك فاقتف معالمه ، واحتذ مراسمه ، واستعن بالله يسدّدك ، وعوّل عليه يُرَشّدك ، وانقطع إليه يؤيّدك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٥ — ولـــه

كتابى — أطال الله بقاءك — وأنا بدولة الأمير مؤيد الدولة سالم ، ولله تعالى شاكر ، وإليه فى الصلاة على النبى محمد وآله راغب .

ولما ورد — أعزك الله — أمر مولانا الأمير ركن الدولة ، وخرج إذن مولانا الأمير المؤيد بارتياد من يَلى نايين[2] ودهاتها[3] ، مدبرا عملها ، ومتلافيا خللها[4] ، ومصلحا فاسدها ، ومتألّفاً شاردها ، ومعيداً عماراتها ومحصّناً ارتفاعاتها ، وماحياً ما ينْمى فيها من آثار الجور والظلم ، وقاصراً ما بُسِط على الرعية فيها من أيدى الاهتضام والغَشْم .

وكنتَ — أعزك الله — من قد عرفتُ فى الأيام المتطاولة ، واتصال المعاملة ، لزومَك طريقتك المثلى ، وسلوكَك المحجّة الوسطى ، فاستخرت الله ولىّ الخيرة فى تفويض الناحية إليك ، والاعتماد فى ضمانها عليك ، فتقلّد — أدام الله عزك — ذلك وتطوّقه ، وتشمّر له واعتنقه ، واجعل تقوى الله — عزّ وجلّ — قبلتك التى لاتنحرف عنها ، ووجهتك التى

---

(١) فى الأصل : التواصل .
(٢) نايين من قرى أصبهان .
(٣) فى الأصل : ودواتها ، ودهاتها جمع دِه بالفارسية أى قرية
(٤) فى الأصل : ظلها .

لا تَسْتَبدل منها ، فإن من اهتدى بها هدتْه ، ومن صدف عن سبيلها أردتْه .

وسِرْ فى الرعية ، بالنَّصَفة والسويّة ، من حيث لايعترض استيفاءك عنف ، ولا يكتنف مَعْدَلتَكَ ضعف ، واستوف حقوق السلطان على العبرة القائمة والرفوت الجارية ، والقوانين السابقة ، فى مواقيتها المعلومة ، وعلى نجومها وتواريخها المعروفة ، ولا تُخْلِ من قعدت به حاله عن المسارعة إلى التصحيح ، والمبادرة إلى التوفير ، من إنظار ومياسرة ، وإمهال ومقاربة ، وطهِّر البلد من دَنس المغالبة والمراغمة ، ليكون الناس سواء فى المجاورة والمعاملة ، وحُط السابلة ، والرُّفَق الصادرة والقافلة ، لتدرَّ الأجلاب ، وتتصل الأحمال ، وتثق التجار ، وأذْكِ العيون فى المفاوز المتصلة بعملك على أهل الدعارة ، والمتعرِّضين للمارّة ، مستنشئا أخبارهم ، ومقتصًا آثارهم ، لئلا يتوجه لهم على أموال مجتلبَةٍ [1] حيلة ، أو تستمر منهم على أرباب الجلَب مكيدة ، فإن ذلك من أولى ما نطالب به ، وأولى ما تشتغل بضبطه .

وصحِّح لأبى منصور الحسين بن محمد مال الضمان على واقع العقد ، وواجب الشرط ، مغنيا عن هزّ وحثّ ، وحضٍ وبعث ، وأنهِ — أدام الله عزك — أمر الجنايات إذا عظمت ، والجرائر إذا كبرت ، لنحد لك فيما يجب من عقوبة ، أو حدّ ماتقف لديه ، وتعمل عليه ، والله وليُّ التوفيق ، وعليه التعويل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٦ — ولـــه

كتابى أيها القاضى — أطال الله بقاءك — عن سلامة مولانا الأمير مؤيد الدولة وعافيتى بعده ، والحمد لله شكرا لنعمته ، وصلواته على النبى وعترته ، وما زلت أروِّى فى أمر [قاضى] قاسان [2] وأستعلم القضايا بها والأحكام ، فيبلغنى من شره الموسوم — كان — بالحكم ونَطَفِه ، وسوء تأتِّيـه وقلة ظَلَفِهِ ، مايبعث على النكير ، ويَفْرض الاهتمام بالتغيير ، فتعوق قواطع ، وتعرض موانع ، فلما انقطعت سمائمُها ، وأسفرت غمائمُها ، أنهيت ما كانت الأخبار تتواتر به وتتظاهر ، والألسنة تترافد عليـه وتتناصر ، إلى مولانا الأمير مؤيد الدولة فأوعز — لمـا عليه نيته من إفاضة المعدلة فى رعيته ، وقبض يد مَن عدل عن سيرته وسجيته —

---

(١) فى الأصل : مختلفة .   (٢) قاسان ناحية بأصبهان .

فى صَرْف ذلك الطبرى — صرف الله قلبه وتقليد من أتحقّقُ سَدَادَه وعلمه ، فلما تدبّرت ونظرت ، وصوّبت وصعّدت ، لم يَعْدُ الاختيار من سبق له الاختبار ، وهو أنت — أدام الله عزك — فأبنتُ عن مكانك من الدّراية والصيانة ، والمعرفة والأمانة ، وأحمَدَ مولانا مؤيد الدولة مارأيته ، ورسم إمضاء مااجتبيته ، وكاتبك القاضى أبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن جعفر — أدام الله عزه — مفوّضا الحكم بقاسان وأعمالها إليك ، ومعتمدا فى قضاياها عليك . ولئن كنت برشادك واعتقادك ، وفضلك وسدادك مستغنيا عن التبصير ، مكفيًّا مؤونة التذكير ، إن رهنى لسانى عنك ، وارتهانى بما يبدو منك ، يبعثاننى على تقديم الوعظ ، ويقتضياننى الحض على موضع الحظ ، فاتق الله حقّ تُقاته ، واخْشَ عظيم نقماته ، واعمل بعلمك ، وتصرّف على حُكم عَقْدك ، وانظر إلى الدنيا بعين الخارج عن أبوابها ، ونافس فى الآخرة منافسة الواثق بثوابها وعقابها ، وادّرِع من ثوب عفافك ، مايشمل كافة أطرافك ، وعدّل الأمر بين الخصوم ، وخذ من الظالم — وإن عزّ — للمظلوم ، وسوِّ بين المتنازعين فى ملاحظتك ، ثم فى مجلسك ومخاطبتك ، واحتطْ على أموال الوقوف والأيتام ، وزوِّج الأيامى اللاتى ولايتهن إلى الحكام ، وميز أمر الشهود فاقبل من ظهرت عدالته ، وعُرفت أمانته ، واجرح من تدنس بحُطام ، أو تلبّس بآثام .

وليكن دليلك فى كل الذى قلته كتابَ الله ، فقد جمع مايكفى ، وأودع مايشفى ، بين حظرٍ يوثِق ، وإباحةٍ تطلِق ، وندبٍ يُرْغب ، وحتمٍ يوجب ، وحكمٍ يفصل ، وقضاء يعدل ، وأمرٍ يلزم ، ونهى يجزم ، ووعظٍ يُصْلح ، وسَعْيٍ يُنْجح ، ثم سنةَ رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فهى أثارة العلم التى من اهتدى بها وَرى زَنْداً ، وسعِد جَداً ، واهتدى حلا وعَقْداً ، ومن أعرض عنها تعثر فى الضلالة ، وتخبّط فى الجهالة ، ودُفِع عن موقف الهداية ، ورُدِّد فى أثناء الخزاية ، ثم إجماعَ الأمة خير الأمم ، ففيه كشفُ الغمم ، وإنارة الظُلَم ، وزوال الاختلاف والمضادّة ، وانحسام الافتراق والمشادّة . ثم لك رأىٌ قد حصّل شروط الاجتهاد فآثِرْه عند فقد النص والأثر ، وأعْمِلْه عند عدم الاتفاق والخبر ، غير طالب الرُّخَص من شواذ الأقوال المتروكة ، ولا منتهز الفُرَص فى شوارد الفتاوى المهجورة ، ففى آراء مشهورى العلماء فُسْحةٌ للطالب ، ونُدْحَة للراغب .

وليكن جلوسك للحكم بعد تخليتك ذَرْعك ، واستنفادك فى الاستخارة وُسْعَك ،

وقضائك أوطارَ نفسك ، و جمعك لوقارك وحلمك . والله وليُّ توفيقك وتسديدك ، و إرشادك وتأييدك ، وهو حسبي وكفى .

٧ — وله عهد عامل إلى الناحية

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبي منصور بن ركن الدولة أبي على مولى أمير المؤمنين لمحمد بن أحمد الكاتب . إنا لِمَا عرفناه من غَنائك وكفايتك ، وجرَّبناه من وفائك وشهامتك ، وشهدت له آثارك فيما مارسته [١] ودلت عليه أفعالك فيما لابسته ، ورجونا فيك من مزيد الاضطلاع ، عند زيادة التقديم والاصطناع ، رأينا تقليدك القمدان [٢] سنة كذا وما بعدها ، أعمالَها وأموالها ، وخراجها وأعشارها ، وصدقاتها وجواليها ، ومراصدها وسائر ما يجرى معها وينضاف إليها .

وأمرناك بتقديم خشية الله فيما تبطن وتظهر والاعتصام بمراقبة الله فيما تُقَدِّم وتؤخر ، فإن عصمة التقوى تَهدى المناجح ، وتُدْنى السعادات والمصالح .

وأمرناك باقتفاء [٣] سنتنا فى إفاضة العدل وبسطه ، ونشر الإنصاف وفرشه ، ومحو آثار الظلم والاهتضام ، و إزالة مراسم الجور عن الخاص والعام ، لتتبوأ الرعيةُ أكنافَ الأمن والدعة ، وتَتَفَيّل فى أظلال الرفاغة والسعة ، لا يمتد طمع الى تحيُّفهم ، ولا تتسلط يد على تعسُّفهم .

وأمرناك بحمل المعاملين مع اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم ، على رفوتهم القائمة ، ورسومهم الثابتة ؛ لاتنقض لأحد شرطا ؛ ولا تُتبع عقداً مؤبداً حلاًّ

وأمرناك بتتبع آثار المتلصِّصة ، وأهل العبث والدعارة ، و إذكاء العيون عليهم فى مظانِّهم ومكامنهم ، وإفشاء [٤] الطلب إليهم فى معادنهم ومساكنهم ، لتأمن المارة وتتطهر السبل ، وتصفو الأطراف وتتهذب الطرق ، وتتصل القوافل وتتقاطر المِيرَ والرُّفق ،

---

(١) فى الأصل : رسمته .
(٢) هكذا فى الأصل .
(٣) فى الأصل : باقتفار .
(٤) فى الأصل : إنشاء .

ومن ظفرت به من هذه الطبقة ضيّقتَ حبسه ، وأنهيت أمره ، لنحدَّ لك فى بابه ما تقتضيه أحكامُ الملة ، وتوجبه معالمُ السنة .

وأمرناك باستيفاء الحقوق السلطانية على شرائط العقد ورسوم من تولى قبلك ، متصرفا مع المعدلة والتعديل ، ومتوخّيا لسواء السبيل ، من حيث لا تُغمض عن استيداء واجب ، ولا تُغضى عن استيفاء لازم ، حاملا المؤدين على نجومهم وآمادهم ، وشروطهم وآجالهم .

وأمرناك بأخذ الجوالى على العد ، من كل ذمىّ بالغ الحد ، لا جزية على صبىّ ولا أنثى ، ولا شيخ فانٍ قد بلغ المدى .

وأمرناك باعتماد من يأخذ الصدقات على فرائض الله المكتوبة ، وأحكامه المأثورة ، لا جمع بين مفترق ، ولا تفريق بين مجتمع .

وأمرناك باستطلاع الرأى فيما يعرض مما لم يُعْهَد فيه إليك ، ولم يُعْرَض مثاله عليك ، لتؤمَرَ بما تلتزم حدَّه ، وتقف عنده .

هذا عهدنا إليك فانتهج ما مَثل ، وانته إلى ما رسَم ، واستعنْ بالله فى أمورك يكفك ، وعوّل عليه يَهْدِك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٨ — وله عهد لتولية أمر الوادى

قد اعتمدناك — لما تؤول إليه من كفاية مستفادة عن الدربة ، ودراية مُستَفاة من الحُنكة ، وأمانةٍ موجبة للاستنامة ، وسدادٍ مستدعٍ للسكون والاعتماد — فى تولى قسمة ماء وادى زَرِين روذ .

ورسمنا لك أن تباشر ذلك باتقاء الله تعالى ومراقبته ، فإنهما يزجران عن احتقاب المآثم ، والإسفاف لخبيثة المطاعم ، وتعديل الحال بين أهل الرساتيق والضياع ، حتى يستوفىَ كلٌّ حظَّه فى وقته المعلوم ، ويستوعب قسطه فى شِربه المقسوم ، وتقْصر دون الحيف الأيدى الغالبة ، وتحسم عن الظلم الأطماع الكاذبة ، ويكون الناس فى حقوقهم أمثالاً لا يتفاضلون ، وعلى سواء لا يتفاوتون ، ويجرى الأمر فى المقاسم والفُرَض والسدود والرشانات على ما توجبه الدستورات القديمة ، والمثابت العتيقة ، والرسوم المعهودة ، والسُّنَن الموروثة ، وتقع الاستعانة بالجوبذين[1] الثقات الذين لا يطِئون العَشْوة ، ولا يقبلون الرِّشوة ، ويَستظهر عليهم بأغلظ

---

(١) الجوبذ : القيّم على النهر.

الأيمان ، وأوكد الأقسام ، فمن عُثِر منه على خيانة ، عوقب بما يتركه سُمْعَة ، ويغادره مُثْلَة .

وإن اجترأ أحد من الأكرة والمزارعين ، والجُباة والمتولين ، إلى اقتطاع ماء إلى غير حقه ، أو سَكَره[1] إلى أرضه فى غير شِرْبه ، عوقب عقابا رادعا ، وقوِّم نكالاً وازعاً ، ولم يُبْقَ عليه وإن كانت الضيعة من خاصٍّ ضياعنا ، وخالص أملاكنا . فالأمر الذى قلدته قوام البلد ، وملاك الدخْل ، وقيمة الأملاك ، وأحرى المهمات ، بالاهتمام والمراعاة ، أمر [ماء[2]] الوادى الذى جُعِل منه كل شىء حيًا . فكن عند الظنّ بك ، واحذر خللا أو زللا يقعان منك ، فقد علمتَ أنا نعاقب من تجاوز أوامرنا أو تعدَّاها ، كما نثيب من وقف عندها لا يتخطاها . واستوف الرسم الجارى لك ، ولعمال الماء قبلك ، على أحسن وجوه الاستيداء ، وأرفق طرق الاستيفاء ، والله يهديك للحُسنى ، ويوفقك للطريقة المُثلى ، وهو حسبنا وكفى .

٩ — ولـــه

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين لإبراهيم بن محمد الحاجب حين قلده الراوقريذين[3] . أمره بتقوى الله وخشيته ، والاعتلاق بذمة مراقبته ، وتوخّى رضاه فى إعلانه وإسراره ، وتحرى زُلْفَاه فى إبدائه وإضماره ، فالمتقى لله فائز فى دنياه ، حائز النجاة فى أخراه . وأمره بإقامة الصلوات على هِينَة ، ووقار وسكينة ، وتوفيةٍ لما فيها من فرض ونفل ، وحَتْمٍ وفَضْل ، وشَحْنِ منابر عمله بشعار الدعوة التى تحصّن الخيرات ، وترتهن البركات ، وتورد مشارع الهدى ، وتُحَلِّئ[4] عن موارد الردى .

وأمره ببسط النَّصَفَة لمن فُوِّض تدبيره إليه ، واعتمد فى سياسته عليه ، وتخوّل جميعهم بإيالة لا العنف متخللها ، ولا الضعف متجللها ، ففى ذلك ما نظم الأمور وأصلح الفاسد ، وهذّب الشئون وأقام المائد ، وجمع شمل الخير وضمّه ، وأحصد[5] حبل البركة وأبرمه .

وأمره بأن يستعين بصالحى الولاة ، ويستظهر بأمناء الكفاة ، الذين يتنزهون عن خَبَثَة المطاع ، ويتعففون عن خُطّة المآثم ؛ وأن يكون له عليهم أعين راصدة لا ترقد ، ولواحظ

---

(١) سكر النهر : سدّفاه .
(٢) زيادة يقتضيها السياق .
(٣) هكذا فى الأصل .
(٤) فى الأصل : تجلى .
(٥) أحصد الحبل : أحكم فتله .

مُذَكاة لا تهجد ، فمن أحسن السيرة وأجملها ، وأخلص السريرة ونَحَلَها ، جزاه عن فعله جميلا ، ومن أسفَّ إلى الخيانة ، وأخلى طويته من الأمانة ، أوسعه عن جُرمه عقابا وتنكيلا ، ليتبصَّر كافةُ من يليه ، وتَرْشُد جماعة من يوليّه ، فيؤمَن التحيفُ للحقوق السلطانية ، واستمرارُ الحيف على ضعفاء الرعية .

وأمره باستيداء ما يستأديه على لين فى المعاملة ، ومعدلة فى الموافقة ، ورفق فى المحاسبة ، وتأسٍّ بالسنن العادلة ، و إماتةٍ للرسوم الجائرة ، واعتمادٍ للمثابت القديمة الراتبة ، وتعويلٍ على الدستورات الصحيحة الخالدة ، واستخراج على النجوم المقدرة القائمة ، لتأمن الرعايا غوائلَ الاهتضام ، وتسكن أفياء السلامة والسلام .

وأمره بصرف همة ووكده ، وجده وجهده ، إلى تطلُّب الأكراد المردَة ، وسائر المتلصصة المفسدة ، إذ كانت قد اتخذت تلك البقاع دار هجرتهم ومأواهم ، وجعلتها أمَّ مسكنهم ومثواهم ، وصدقِ النية فى إرواء السيوف من نحورهم وطُلاهم ، وتمكين الرماح من أكبادهم وكُلاهم ، لتعفو آثارهم من تلك الديار بإذن الله ، وتُسرع إليهم موادّ التَّبار بحول الله ، كما فرض الله فى أولى العناد ، وأمضى حكمه فى الساعين بالفساد .

وأمره بأخذ الصدقات من دون ظلم ولا إعنات ، بل على الفرائض المشهورة ، والسنَن المنقولة المأثورة ، وعند استكمال الحول فى وفاء من النصاب ، لتوضع مواضعَها المتلوة من الأصناف [1] .

وأمره بالمحاماة على أهل الذمة ، واستيفاء ما كتب عليهم من الجزية ، ليشتغلوا بمكاسبهم آمنين ، ويؤدُّوها عن يدٍ صاغرين .

وأمره بالتوفر على العمارة بأقصى ما يطيق وأبلغ ما يستطيع ليتثمر الدخل ، ويزول الخلل ، وتبدو صفحة الغَناء فيما قُلِّد ، وتلوح غُرَّة الكفاية فيما نُصِب له واعتمد .

وأمره بالتعديل بين الغنى الموسر ، والفقير المقتر ، إذا رُفعا إليه وجُمعا للنظر بين يديه ، لئلا يطمع المكثر ليساره ، فى اهتضام المقلّ لإعساره ، وليكون المشروف والشريف ، والقوى والضعيف ، فى الحكم على سواء ، لا محاماة تُعتَور ، ولا محاباة تُحذَر ، فإن الله مسائلٌ عن خطَفات العيون ، وخطرات القلوب ، يوم ينادى المنادى من مكان قريب .

---

(١) يعنى بالأصناف أصناف أهل الصدقة المذكورة فى سورة التوبة ، وهى : إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، الآية .

هذا عهدنا إليك فانتهج معالمه ، وأمرُنا لك فاقتفِ مراسمه ، واستطلع الرأى فى الأمور السانحة عموما ، وفى الحدود الواجبة خصوصا ، يأتِكَ ماتعمل عليه ، وتنتهى إليه ، واستخرِ الله يخرْ لك واستكفِه يرؤفْ بك ، وهو حسبنا كافيا ومعينا ، وناصرا ودليلا .

١٠ — ولــــه

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة أبى على للحسين بن أحمد ابن عبد الله بن هرون . إنا لما قدمتَ من حُرْمَةٍ مكتسبة وموروثة ، وأثلت من عصمةٍ قديمة وحديثة ، واستظهرت به من وسائل توجب الاقتضاب والاصطناع ، والتجأت إليه من ذرائع تقتضى الإلحاق بأهل الغَنَاء والاضطلاع ، قلّدناك الخراج بأصفهان لسنة كذا وما بعدها ، بعد أن استخرنا الله تعالى طويلا ، ورغبنا إليه فى حسن الهداية كثيرا .

فباشر ما فوّض إلى مَنَابك ، ووكل إلى قيامك ، مستشعراً خشية الله التى من جعلها قبلة يتوجه إليها بأعماله ، وعصمةً يعوّل عليها فى أفعاله ، هدته إلى الضياء المبين ، وأعلقته بالحبل المتين ، وأدّته إلى المشارع العذبة ، وأخذت به إلى الشرائع الرحبة . واجعل جل ما تتقرّب بتوخّيه ، وتطلب الزلفة بتحرّيه ، إيثارَ النَّصَفَة فيا تتقلّده ، واستعمالَ المعدلة فيما تحلّه وتعقده ، والصدوفَ عن موارد الأثام ، والعزوفَ عن مسالك الظُّلْم المحفوفة بالظلام ، مقتدياً بهدينا فى إيضاح معالم العدل ، وطمس آثار العداء والغشم ، وادّرِع من التعفف عن أموال رعايانا ثوباً تلوح عليك جدّته ، وتبقى عليك بهجته ، واحذر خِبْثَة المطاعم التى لا يقارّ عليها وجيه[1] لوجاهته ، ولا يُرْخَص فيها مع نبيه لنباهته .

واحمل أرباب الخراج على رسومهم القائمة ، وشروطهم الثابتة ودستورات البلد الخالدة ، وأوَارِجاته الواضحة ، من دون تغيير لسنّة ، ولا فسخ لشريطة ، ولا أخذ واجدٍ بمُعدِمٍ ، ولا مطالبة برئ بمجرم ، ولا إلزام شريك عن شريكه ، ولا بَسْط يدٍ على قسيم عن قسيمه ، ولا قطّ[2] لمتحيّر[3] ، ولا تجديد تقسيط عن بائر ، ليأمن الجميع دَرَكاً ينالهم من حيث لا يجب ، وتَبِعةً تلحقهم من حيث لا تلزم .

---

(١) فى الأصل : وجيها .
(٢) القِط بالكسر : الصك وكتاب المحاسبة .
(٣) متحير الماء : مجتمعه أى المستنقع

وافتح النجوم فى الأوقات التى يخرج بها الإذن ، ويتجدد فيها الأمر ، على رفقٍ بالمؤدّين وإمهال ، محوطين عن التراخى والإهمال ، وأورد الديوان عند كل نجم حسابا بأصله وإضافاته ، وإقطاعاته واحتساباته ، وما تقوم به الحجة من نفقاته ، ليخلّد ديوان الأصل بعد تتبعه فى ديوان الزمام ، فإذا انقضت السنة الخراجية فارفع حسابا جامعاً لدخلها وخرجها ، وأصلها وفرعها ، وزوائدها ونواقصها ، واحذر إيقاع التحويلات ، إلا على المِلاءِ الثقات ، بعد تصديرها من حضرتنا . واقبض أيدى الكتاب عن تغيير يتجه لهم فى اسم ، أو حيلةٍ تنفذ منهم فى حكّ ، أو تسمّح يقدمون عليه فى تبديل ونقل ، فالخراج مادة المملكة ، وقوام الجيش ، وقيمة الأملاك ، وأرواح الرعية ، وعمدة السلطان . وبحسب هذه الأحوال يجب على متوليه فرط التشمر والتيقظ . وتَنَاوَل المسمّى لإقطاعك ، ومبلغه عشرون ألف درهم ، مستعينا به على أداء حق النصيحة ، والتنزه عن المآكل الذميمة ، واستكف الله يكفك ، واستعن به يهدك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب الثالث

فى الأمان والأيمان والمواقفات والمناشير

ومراعاة الكبيسة من السنين وما يجرى مجراه

— ١ —

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة لفلان وفلان وفلان . إنا لما نؤثره فى وفد الله من حجيج بيت الله صيانةً تكنفهم وتحرسهم ، وحمايةً تتغمَّدهم وتخصّهم ، ورفقا بهم صادرين وواردين ، وإشبالا[1] عليهم ذاهبين وعائدين ، رأينا تفويض زعامة حجاج الرى والمنضمّين معهم إليك ، والاعتماد فى تدبيرهم وتسييرهم عليك ، لما عُرِف من سداد مذهبك وجميل غَنائك فى المعصوب بك ، فتولَّ ذلك مؤديا حق الأمانة فيما استُرْعيته ، وفرضَ النصح فيما استكفيته ، وتوخَّ من الإحسان إلى هذه الرُّفَق ما يُجْزل حظوظها من الحماية ، ويعتمدها بفضل الحفظ والرعاية . وسِرْ بها سيرا لا يجهدها تعجلا ، ولا يفوّتها المناسك تمهلا ، وأحسِن التوقف على الضعيف والراجل ، والفقير والمُرْمل ، والمبدع[2] به وذوى المرض .

وتوخَّ فى الجماعة أفسحَ المنازل ، ورِدْ بهم أعذب المناهل ، وكن شفيقا على أموالهم ، رفيقا بهم فى أحوالهم . واعرض هذا المنشور فى المسالك التى تقطعها ، والمراصد التى تَرِدها ، ليُعلَمَ تقليدنا إياك ما قلدناك ، وتُؤثَرَ ومن فى جملتك بالعناية فى متوجّهك ومغزاك ، وتُقصَر الأبواع من مضارتك ، وتُحسَم الأطماع عن هَضيمتك . والله وليّ توفيقك فى مصارف الأحوال ، وتأييدنا فى مجارى الأقوال والأفعال ، عليه نعوّل ، وإليه نفوّض ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) إشبالا : عطفا . (٢) أبدعت الراحلة : ظلعت وكلّت .

٢ — وله كتاب أمان

هـذا كتاب من مؤيد الدولة لفلان . إنه أُنهى ماضطرك إلى الحال التى ركبتها ، والخُطّة التى احتقبتها ، والتماسُك من نظرنا مايثبّت قدمك ، ومن أماننا ماتتلافى به فرْطك ، فأنت متى سلّمت القلعة إلى ثقاتنا ووردت حضرتنا ، أو أين اخترت من بلاد مملكتنا ، آمنٌ بأمان الله — عز وجل — وأمان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأماننا المقرون بالوفاء ، المعروف حكمُه فى الدهماء ، ولك عندنا تجديد الاصطناع وسنىّ الاقطاع ، لانؤاخذك بجريرةٍ تقدّمت ، ولا جريمةٍ سلفت . وعهد الله بذلك مبذول ، وعليه مأخوذ ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

٣ — ولـــه

هـذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور لفلان . إنك أنهيت الحال فى ترويع فلان لك ، وإشفاقِك من بعض ما أنكرنا فيه فعلك ، ورغبت فى إجرائك على عادة الاحسان ، وإنشاء ماتسكن إليه من الأمان ، واستظهرت إلينا بشفاعة النبيهِ مكانُه ، الوجيه كلامُـه ، فرأينا لما عليه عادتنا فى الصفح عن المجرم ، وإقالة المتندّم المتحرّم ، تحقيق طَلِبتك ، وتصديق رغبتك ، فعاود مسكنك فى كنَف أماننا وعهدنا ، لتجرى على سنّةٍ إنعامنا ورفدنا ، وتسكن ظلاً من الإعزاز لاينحسر ممدودُه ، ولا يتجافى ممهوده ، ماستأنفت حالا تُرْضى منك ، وأقلعت عن مثل مابدر عنك . ومن قرأ كتابنا هذا من الولاة والضُّمناء ، والعمال والأولياء ، فليعمل بما رسمنا ، وليحذُ على مانهجنا ، وليحذرْ مخالفة ماأمرنا .

٤ — ولـــه

هذا كتاب من مؤيد الدولة لأهل قصبة الدينور . إنا لما عرفناه من حالـكم ، وتمثلنا من اختلالـكم ، وتصورنا من كثرة عددكم ، واشتراك عالم من الضعفاء وأهـل المسكنة فى مؤدّى خراجكم ، رسمنا تعهدكم بالصيانة والحراسة ، والحماية والحياطة ، وإجراءكم فى الخراج المقسوم بينكم على أعدل السُّنَن ، وأخف القوانين ، لازيادة تلحقكم ولا مؤونة تلزمكم ، ولا

كلفة تتوجه إليكم ، ولا مرفق ولا نائبة عليكم ، ولا تتبعٌ ماتناصفتم بينكم ، ولم يستأكل قويُّكم ضعيفَكم ، وكنتم على سَنَنَ التواسي والتظاهر ، ولم تخرجوا إلى التمادي والتناكر ، وحظرنا أن يزاد عليكم في الإتيان بطروق من يطرق من الخيول ، وزيادةِ من يزيد من الجيوش ، وتقدمنا بتعفية ما كان عمال السوء وولاة الجيش يأتون مداخلةً في هذه المعاملة ، يتوصلون بها إلى ارتشاء منكم ، وارتفاقٍ من جهتكم . فمن قرأ أو عُرِض عليه كتابنا هذا من الولاة وعمال الحرب والخراج والمعاون بكورة ماه[1] الكوفة فليعرف ذلك من رأينا وأمرنا ، وليحذر من مخالفة مثالنا ورسمنا ، إن شاء الله .

٥ — ولـــه شرط

هذا كتابٌ كتبه للأمير المؤيَّد مؤيِّد الدولة فلانٌ على نفسه مختاراً لأمره ، في صحة من جسمه ، وثبات من عقله ، حين تخوّله — أدام الله عزه — بإحسانه ، وظاهر عليه ملابس إنعامه ، ووسمه باقتضابه واصطناعه ، واعتمده بسابغ نظره وإقطاعه ، وأوجب له ولأصحابه من مواد خيره وإفضاله ، ماوسعهم كلهم ، وتحمّل ثقلهم وكَلَّهم ، واعتمدهم بحماية الطرقات والمنافذ ، وحراسة الرُّفَق والقوافل ، وخفارة الضياع والمزارع ، بالري وقزوين وقم[2] وساوة[3] وآبة[4] والتَّيْمُرَتَيْن[5] وما كان جاريا في حماية من أعمال أصفهان .

شرط فلان على نفسه أن يقوم بما فُوّض إليه مُشيحا ، ويباشره جادا نصيحا ، ويتصرف على أحكام الطاعة وإقامة فرائض الجماعة ، وينفض السبل عن أبناء العيث على اختلاف أجناسهم ، ويطهرها من معارّهم وأدناسهم ، ويكفّهم مما يخرجون إليه من مدافعة ومقارعة ، وممانعة ومواقعة ، لايعتنّ بكثرة أعدادهم ، ولا يحتج بفضل ازديادهم ، ويكفي أرباب الإقطاعات والتَّنَاءات[6] والمقاطعات مضارّ أصناف الأكراد والمتلصصة ، والشهجان

---

(١) ماه بالفارسية : قصبة . وماه الكوفة : دينور ، سميت بذلك لأن معاوية جعلها لأهل الكوفة سهادا حين كثروا . انظر معجم البلدان لياقوت في مادة نهاوند .
(٢) مدينة كبيرة بين أصبهان وساوة .
(٣) مدينة بين الري وهمذان .
(٤) آبة : قرية من قرى أصبهان أو قرى ساوة
(٥) التيمرتين : قريتان من قرى أصبهان .
(٦) التناءات : إقطاعات الدهاقين .

والمتشبهة ، لتكون الرساتيق دانيها ونازحها مكنوفة بالأمنـة ، والمسالك جوادها وعوادلها محروسة عن المخافة ، مسلوكة بالميرَ والأجلاب والبضائع والحمول غير محتاجة إلى استظهار من يذب مصاحبا ، ويحمى مسايرا ، فمتى وقـع فى النواحى والطرق التى تَكفَّل بتهذيب مدارجها ، وتطهير مناهجها ، عيثٌ أو إفساد ، أو ضرر أو إضرار ، أو سلبٌ أو انتهاب ، كان على فلان تتبع الجانى حتى يُسلِمَ أو يهلك ، وردّ ما أخـذ أو أرْشِهِ بالغا ما بلغ ، لا يقبل له فى ذلك ولا فى شىء منه عذرٌ ولا اعتلال ، متى وقع خلل أو إخلال .

وشرط أن يَزُمَّ أصحابه ووجوههم ، وأتباعهم وأماثلهم ، وأشياعهم ورءوسهم وأذنابهم ، لتكون الطاعةُ مَلَابسهم ، والعفةُ مقاصدَهم ، والمسمَّى لهم مطاعمهم ، لا يُسفون الى خِبْثَةِ المآكل ، ولا يتوجهون إلى وارد أو صادر ، ولا يتجاوز هو ولاهم فى الخفارات وغيرها الرسوم المقررة والرفوت المقنّنة ، ويستوفى ذلك على يد الكاتب المنصوب من الديوان المعمور ، ويُعْفِى أهل الضياع بقم والتيمرتين من التنزل على قراهم ، وحلولهم فى مشتاهم ، ويقتصر فى المسارح والأفياء ، والمياه والأكلاء ، على البقاع التى رسمت له ، ووسمت به ، لا يتعداها إلى ماعداها ، ولا يتخطاها إلى ماسواها ، ومن جاوزمن أصحابه هذه الأمثلة المضروبة ، والمراسم المشروطة ، عاجله بالقبض عليه ، وعمل فيـه بما تنفذ به الأوامر إليـه ، وأن يخف مع هذه الشروط فى البيجارات العارضـة ، ويتصرف فيها مع ولده ورجاله بالنيات الخالصة ، لا يحتج بأخذ أهبة ، وتأخر عُدَّة ، وتناقص عِدّة ، بل يباشر مايهاب به إليه ، باستقلال من رباط الخيل وشاكى الأسلحة وعُدَدِ الاستظهار .

شهد الشهود إقرار فلان بالتزام هذه الشروط واعتناقها بعد معرفته بما بذل فيها ، وذلك فى شهر كذا سنة كذا .

٦ — وله كتاب أمان

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة مولى أمـير المؤمنين لفلان . إنه أُنهى عنك إخلالك بمركزك من كذا خيفة من أحوال رُقِّيت عنك ، وانبساط أيدى الضُمَنَاء فى فضـل استخراجٍ منك ، ورغبتك فى إنشاء أمان تعود به إلى وطنك ، موفورا

غيرمغدور ، فرأينا — لِماعليه النية ، فى كافة الرعية — الإيعازَ بذلك ، فأنت — متى عاودت مقرك ، ولزمت شأنك وأمرك — آمنٌ بأمان الله وأمانِ رسوله وأماننا الذى لاحلّ لمعقوده ، ولا نقض لمعهوده ، ولك أن نوعز بصيانتك ، وحياطتك ، وقبض الأيدى عن هضيمتك . ومن قرأ أو عرض عليه كتابنا هذا من طبقات الولاة والضمناء ، والعمال والأولياء ، فليعمل ذلك من رسمنا ، وليقتف ماضى حكمنا ، إن شاء الله

٧ — ولــــه

كتابى — أطال الله بقاءكم — عن سلامة مولانا الأمير مؤيد الدولة ، واطراد السعادات فى أحواله ، وانتظام البركات بإقباله ، وعافيتى فى ظلاله ، والحمد لله ، وصلواته على النبى محمد وآله . وقد علمتم — تولاّكم الله — أنكم بدأتم بحضور البساط العالى راغبين ، وسألتم القبول والإقطاع طالبين ، فأحسن مولانا الإصغاء لكم ، والرفق بكم ، وأبدلكم من التوحش اصطناعا ، ومن التفرق اجتماعا ، ووُطِّنَتْ لكم المشاتى والمصايف ، وأفيضت عليكم العطايا والعوارف ، وشُهرتم فى جملة الأولياء ، ومُيِّزتم عن النظراء والأكفاء ، ولم تنسلخ سنة إلا عن زيادة تُؤْثَرون بها ، ووجوه نظر تؤهَّلون لها ، من إحسانٍ ونعمة ، وحُملانٍ وخلعة .

وكان مايُنْوَى فيكم أكثرَ مما أفيض عليكم ، وما يُدّخر لكم أوفرَ مما أُوصل إليكم ، ووُثِق بكم الثقة بالأخصّين من الخدم ، والمتحققين من أنشاء النعم . ثم أُنهى أن إخلالا وقع منكم بمراكزكم ، ومفارقةٍ لمواضعكم ، مع توالى الكتب بأن أكابركم ووجوهكم كرهوا ذلك ولم يتحمّدوه ، وأن الأصاغر أقدموا عليه وآثروه ، وأجْرَت طائفة إلى قطع الطرق ، وأخذ أموال الرُّفق ، نكوصاً على الأعقاب ، وتحككاً بالعقاب .

ووردت الآن [رسل[١]] منكم يذكرون أن أخبارا كانت سقطت إليكم استطارتكم حــذرا ، واستفزتكم خوفا وذعرا ، فأنهيت إلى مولانا الصورة ، وأوضحت القصة ، واستقلْتُ لكم العثرة ، واستوهبت الزلة ، فقال مولانا : إن حُرماتهم تقتضى التغميض عن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

هفواتهم إذا أنابوا ، وعِصَمهم تبعث على غفران جرائمهم إذا تابوا . وقد أُنشِئ المنشور بالأمان ، والوعد بالإحسان ، وخُتم بعالى خَتْم مولانا ، لازال نافذا فى الأقاليم ، ماضيا مضىّ المقادير .

وكاتبت أباعيسى بما يذكره لكم ، ويلقيه إليكم ، لتزدادوا سكونَ نفس واشتدادَ ظهور ، فعاودوا مواضعكم ، والزموا أماكنكم ، واجْرُوا فى الطاعة على رسومكم ، ولاتُضَيِّعُوا متوكّد حقوقكم ، فظلّ الخدمة أمدّ ، ولباس عزها أجدّ[1] ، وإنما تقع هذه النزوات أياما ثم تأتى العواقب بمالاقِبَل به ، ولاثبات فى وجهه ، وأبو الهيجاء بكتاش الحاجب مولى مؤيد الدولة قد رُسم بقاسان ، وهو صائر إليها ، ومكاتَبٌ باعزازكم وإكرامكم ، وإيثاركم وبسطكم ، ودفع كل أحد عن مضارّتكم ومساءتكم . وأبو منصور بن محمد مخاطَبٌ ببلوغ الغاية فى الاشتمال على جماعتكم ، وتوفية حقوق كافتكم . وأنا أنتظر مايكون منكم ، خارَ الله لكم ، والخيرةُ أجمعُها فى الطاعة المأمونة الغوائل ، المرجوّة الفواضل ، الجامعة إلى صلاح المعاش ، صلاح المعاد ، وإلى تحصيل النجاح ، سلامة الأرواح ، وهو — تعالى — حسبنا ، ونعم الوكيل .

٨ — وله فى مراعاة أوقات المعاملات والكبيسة من السنين

وصل كتاب الأمير ركن الدولة بما ورد به أمر مولانا أمير المؤمنين من نقل سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة إلى سنة ثلاث ، ليزول التفاوت الذى تخلّل السنين بين الشهور الخراجية والشهور الهلالية ، ولتكون المعاملات جارية على أوقاتها ، والإجارات منسوبة إلى زمانها ، والجماعات مصدَّرة بمحالها ، والتواريخ منتظمة على حقوقها ، والكبيسة واقعة على رسومها .

وحمدت الله وشكرت له على مامنّ به على الأمة ، وأفاضه على أهل الملة والذمة ، من نظر أمير المؤمنين ورعايته ، واهتمامه بمصالحهم وعنايته ، وتدبير أحوالهم بما يجريها على أذلالها ، ومطالعة أمورهم بما يُؤْمِن من اختلالها ، وتثقيف شئونهم بما يضاهى سُنَن آبائه الراشدين ، من الخلفاء الماضين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ممن استرعاهم حياطتهم ، ووكل إليهم سياستهم ، حتى أصبحت الكلمة بيمن إيالته متفقة[2] ، وأسباب البلاد والعباد

---

(١) فى الأصل : واجد . (٢) فى الأصل : متفقة .

متسقة ، وحتى برز الحق فى أحسن ملابسه ، ونجم العدل فى أزكى مغارسه ، وأصبح الظلم لا يُقْتَدَى بحكمه ورسمه ، ولا يُعْرَف إلا بذكره واسمه ، حمداً يحصّن لأمير المؤمنين جلائل مواهب الله ونعمه ، ويَمْترى إليــه فواضل مِنَحِه وقِسَمِه ، ويؤذن له بدوام قدرةٍ لا تختلُّ قُوَاها ، وبسطة لا تنحلّ عُرَاها ، ويوجب للأمير ركن الدولة — بذبّه عن دين الله ، وقيامه بحق خليفة الله ، وتوفّره على ما أصلح خَدَمَهُ ورعاياه — مزيدَ منائحه وعطاياه .

وقابلت الأمر بامتثاله ، على الرسم فى أمثاله ، وأوعزت فى بنـاء الحسـبانات ، وعقود الضمانات ، وما يجرى مجراها من الشروط والموافقات ، على ما رُسم ومثّل ، وقرّر وحصّل ، فصار كل حول يدعو إلى نفسه ، ويخبر عن دَخْله وخَرْجه ، لاحاجة لعامل ولا معامل إلى تبديل جارى سُنَّة ، واستعارة اسم سنة لسنة .

وكاتبت بذلك أصحاب الأطراف التى استخدمنى الأمير السـيد فى مراعاتها ، ليُجروا عليها أمر رفوعها وحُسْباناتها ، فيكون ماتجدد من رأى أمير المؤمنين شاملا شمول عوارفه ، وما قدمه الأمير السيد عاما عموم فواضله ، وليصير رسماً يدوم ويخلّد ، ويقرّر على وجه الدهر ويؤبّد ، لاتهتدى الأيام إلى فسخه ، ولا ترتقى الليالى إلى نسخه ، فيتجدد لأمير المؤمنين — على تجدد الزمان — الذكر الجميل المأثور ، والثواب الجزيل الموفور ، وللأمير السيد الدعاء المؤذن بالمنائح الشاملة ، والسعادات العاجلة والآجلة . أنهيت إلى مولانا الأمير ولىّ النعم ما أقمت به رسم الخدمة ، فإن رأى الأمير أن يديم تشريف عبده[1] ، بالتصريف بين أمره ونهيه ، فعل إن شاء الله .

٩ — ولـــه

هذا كتاب من مؤيد الدولة أبى منصور بن ركن الدولة لصدقة بن أحمد وأولاده . إنّا — لما أظهرتموه من انحياز الى جملة الأولياء المخلصين ، وامتياز عن غمار الأكراد المفسدين ، وأبديتموه من صفحة الإقلاع ، وتعلقتم به من عصمة الارتداع ، والتمستموه من قبول انقطاعكم ، وسألتموه من تجديد اصطناعكم — فَسَحْنا لـكم فى ورود حضرتنا ، مستظهرين بأماننا وذمتنـا ، فأنتم وكل واحد منكم — ما اعتنقتم شروط الموالاة ، وتطوقتم عهود المصافاة ،

---

(١) فى الأصل : عهده .

وكنتم لأشياعنا شيعا ، ولأنصارنا تبعا ، وعلى المارقين يدا قاصدة ، وعينا راصدة — آمنون على أنفسكم ودمائكم وأرواحكم وشعوركم وأبشاركم ومالكم وكُراعكم ، وسائر ما تنضمّ عليه ملكتكم ، بأمان الله — جلّ اسمه وتعالى جده — وأمان رسوله — صلى الله عليه وعلى آله الذين اجتبى — وأماننا الذى لايتسلّط الإخفار عليه ، ولا ينبسط الانقباض إليه ، لا تؤاخذون بجرائركم الواقعة قبل إنابتكم ، وكبائركم المكفّرة بمثابتكم .

فثقوا بذلك مثنّى ومَوْحدا ، واسكنوا إليه شتى وجميعا ، ورِدوا الباب ليوصَل إليكم حلاوة الطاعة وبَرْدُها ، وتَدِرّ لكم أخلاف الإحسان وتُوَفّر مزيتها . ومن قرأ كتابنا هذا ، أو أقرّ به ، أو عرف أمرنا فيه وأُنبئَه ، فليعرف صَدْرَ ذلك عن أمر جزم ، ونفوذَه عن مضاء عزم . وليحذر تعدىَ أحكامه وحدوده ، وتخطىَ مراسمه وشروطه ، إن شاء الله .

١٠ — وله

إنا لما عرفناه من كفايتك ، ورجوناه من غَنَائك ودرايتك ، رددنا أمور الدرب والبذرقة[1] الموفرة أموالها على العرب إليك ، واعتمدنا فى ضبطها واستخراج الواجب منها عليك ، ورسمنا لك أن تستوفى الرسوم من حيث لايلحق الرعية والسابلة اهتضام ، ولا ينال استحقاقات العرب انتقاص واخترام ، وأن تجعل الإمام الذى ترجع إليه فيما تستوفيه ، المنشورَ الواردَ من الحضرة البهية وما بُين فيه ، وتُحَصّل الأموال على حقوقها مُياومة ومُشاهرة ، وعند كل رفقة صادرة وواردة ، ولا تستعين إلا بمن تسكن إلى ثقته ، إذ كنت المؤاخذ بعهدته ، ليخرج حق إبراهيم بن محمد الحاجب من الأموال بقسطه ، ويوفر[2] كل من العرب على حقه وقسمه .

فباشر مامثلناه ، بإيثار للنصح لا تتعداه ، ونقاء من الجيب لاتتخطاه ، ورفق بالمعاملين يَحْسِم مادة التظلم ، واستقصاء للأولياء يغنيهم عن التألم ، واستزد من إحساننا إليك بالمُقام على الطريقة الحميدة ، والشيم الراشدة ، إن شاء الله .

---

(١) البذرقة : الخفارة . (٢) فى الأصل : يؤثر .

الباب الرابع

فى الوَصاة بالحجيج والمصالح وأمر الثغور

١ — كتاب فى أمر الحجيج

كتابى — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — وأمور السلطان وأحوال ممالك مولانا مطردة فى استقامة المجارى وتعادُلها ، واتفاق المناجح وتواصلها ، على ما يوجب الحمد مغرقا فيه ، والشكر مسهبا فى تعاطيه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وكان وصل كتاب الأمير على عادته فى عمارة سبل الخيرات ، والبعث على الأعمال الصالحات ، أحسن الله أداءه(١) ، وشكر إسعاءه(٢) ، فتلقيت رسمه بالامتثال ، وأنهيت إلى حضرة مولانا حقيقة الحال ، فاعتدّ للأمير بلطف البداية إلى ما فيه رضاة مُغْتَنَمة ، وفى تقديمه مثوبة ومكرمة ، وأوعز فى أمر الحاج بما لا شك فى انتهاء أنبائه ، فلا حاجة فى إعادة القول بعد ابتدائه ، وأصحبوا الكتب إلى الحضرة بمدينة السلام ، و إلى طريق الجبل وهمذان بما شملهم ظله ، وعمهم فضله . وحين عاد المَجمَزة(٣) أنهيت هذه الجملة إلى الأمير ، والله يُنهضنى بالتصرف على مراده ، ويوفقنى لاجتلاب رضاه وإحماده ، بمنّه ، فإن رأى الأمير أن يخاطبنى بأمره لأتقبّله ، ورسمه لأمتثله ، فعل إن شاء الله .

٢ — وله جواب كتاب صاحب الثغر بالإحماد له

كتابنا ونعم الله لدينا موفورة ، وعوارفه مشكورة ، ودعوة الحق بنا منوطة ، وحوزة الدين عندنا محوطة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك صادرا عن ثغر أَرْدَبيل(٤) — أحسن الله حمايته ، وتولّى وقايته —

---

(١) فى الأصل : أداءهم .

(٢) فى الأصل : إسعاءهم .

(٣) المجمزة : الذين يركبون الجمازة : الإبل . وفى الأصل : المحمرة .

(٤) مدينة كبيرة بإقليم أذربيجان .

تصف استقامة شأنه ، وتراجُع سكانه ، وانتظام أموره ، وتكامل العمارة فى سوره ، بحسن تأتيك ، وجميل تهذيك ، وتجردك لتلافى ما تشعّث من بنيانه ، وردّ من نفر من قُطّانه ، حين ألجأهم سوء الملكة ممن كان يليهم ، ويسير سيرة العدوان فيهم ، إلى الإخلال بديارهم ، ومفارقة محالّهم ومقارّهم ، فَحَمِيت للدين ، حمية مثلك من المهتدين ، وقمت بحق الله قيام الجادّين المجتهدين ، فعاد الشارد ، واستقام المارد ، وأنِسَ النافر ، وسكن الثائر ، وانحسمت أطماع الكفرة عن الثغر — حرسه الله — بعد امتدادها إليه ، وردّ الله آمالها خائبة بعد انقضاضها عليه ، وأن الذى قطعك عن مكاتبة حضرتنا ، بعد اعتصامك بطاعتنا ورايتنا ، هذه الحواجزُ التى ملكت عليك اختيارك ، إلى أن بلغت فيها إيثارك ، وأنجح الله مساعيك وآثارك .

وفهمناه حامدين من له الخلق والأمر ، وبيده النفع والضر ، على ما تكفل به من إعزاز دينه وإعلانه ، وإظهار أنصاره وأعوانه ، وإنارة برهانه ودليله ، وإعانة المجاهدين فى سبيله ، حمدا يقضى لأوليائه بالغلب ، وعلى أعدائه بسوء المنقلب ، وأحمدناك على جدك فى خلل أزلته ، وأود عَدَلته ، ونازح استعدته ، وثلم سددته ، ووهَن شددته ، كفاء اهتمامنا بما أصلح الدنيا والدين ، وعنايتنا بما أحاط حريم المسلمين ، فقد آذن الله بحصد شوكة الكفار والفجار ، حزب الشيطان وكلاب النار ، والله المرشد ، والمعين ، والمسدِّد — فى فضّ حَكَمتهم ، وتفريق كلمهم ، وفك أسلتهم ، ومحت أثلتهم — عزمةً حاضرة ، تعلو — بمشيئة الله عز وجل — دعوتها ، وتبطش سطوتها ، ويُغلى جدُّها ، ويمضى حَدُّها ، وتُشرح صدور المؤمنين عندها ، والله بالغ أمره ، متمم نصره .

وعذرك فى تأخير كتبك ورسلك حتى الآن ممهود ، وشغالك بما صرفت إليه جهدك ووكدك محمود ، فأحسن المثابرة ، على ما أنت بصدده من المجاهدة ، واستذلال الكفرة بصدق المجالدة ، فكثيرهم قليل ، وعزيزهم ذليل ، ومعاشهم غرور ، ومعادهم ثبور ، وأنصار دين الله قلتها كثرة ، ومحنتها منحة ، وبقاؤها سعادة ، وفناؤها شهادة ، تكتب خُطاهم حسنات ، ويُكفَّر بها خطيئات بعد خطيئات ، والله زائدهم إلى عزهم عزًّا[1] ، ومرسل الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزًّا ، وثقْ منا بالعناية الصادقة ، والإلحاق بأهل الخصوص والسابقة ،

---

(١) فى الأصل : عزما .

والتخوّل بالإحسان والإنعام، والتعهّد بالتشريف والإكرام، وعرّف من لديك من المرابطين لوجه الله، والمجاهدين فى سبيل الله، ما عندنا إشبالا عليهم وعلى أمثالهم، واشتمالا على ما قوّى من آمالهم وأحوالهم، ليزدادوا على الكفرة العجزة ثقل وطأة، وصدق جرأة، وحدة جوانب، وشدة مناكب، إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتُلُون ويُقْتَلون، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم.

وتابع كتبك بأخبارك وآثارك، فيما يجدد الله من إذلال الكفرة فى أطرافك، وأطرارك، واستمع من رسولك ما يؤدّيه، وانتهج نهج الامتثال فيه، واعرض ما يسنح ويعنّ من أرَبك، والله راعيك وكافيك، وواقيك وهاديك، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

٣ — وله فى إحماد صاحب الثغر

كتابى ومولانا الأمير مؤيد الدولة فيما يوجبه الله تعالى من ولائه، ويبسطه من ولايته، ويمضيه من رأيه ويعليه من رايته، ويعزّه من كلمته ونصره، وينفذه فيما قرب وبعد من أمره، على أفضل ما أقام الله به قناة الجماعة، وألّف معه الأهواء على حسن الطاعة، وما أدبّره من أمر خدمته مستقيم، وإحسان الله فيه جسيم، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على نبيه محمد وآله أجمعين.

ووصل كتابك نافذا من ثغر أَرْدَبِيل — حماه الله السوء[١] — فسرنى ما أخبرت به من حاله، ودللت عليه من عمارته واستقلاله، وعود سوره بعد اختلاله، وأوْب من أخلّ من مرابطيه ورجاله، حين أنالهم من كان يليهم، ولا يراقب وصية الله فيهم، ظُلْماً أزعج ساكنهم، وأخرج قاطنهم، وكاد الإسلام فيه يضعف ركنه، والشرك يصدق ظنه، إلى أن انتَدَبْتَ انتداب النَّدْب فى دينه، الثبت فى يقينه، المحامى بحميته، المرامى بحسن نيته، فتلافيت ما فرط[٢] وأدنيت [ما][٣] اشحط، واستعدت من شرد، واستذللت من عَنَدَ، وعمّرت ما تشعّث، وأبرمت ما انتكث، واستدفّ[٤] أمر الثغر[٥] حاطه الله — وقد شارف

(١) فى الأصل هكذا: سو.
(٢) فى الأصل: فرطت.
(٣) فى الأصل: وأشحطت.
(٤) استدفّ: استقام.
(٥) فى الأصل: الثغور.

الانتشار ، واستمر عقده — وكده الله — وقد صافح الانبتار ، وتراجعت آمال الكفرة خاسئة على أذنابها ، خائبة على أعقابها ، قد ردّ الله مكائدها فى نحورها ، وبقّ لوافحها فى صدورها ، وَعْدًا منه حقا فى قصم كل من أراد بالدين سوًّا ، وكان للمسلمين عدوا ، إما فى عاجلة تُلبِسُه ثوب الصَّغار ، أو فى عاقبة توردُه دار البوار .

وقد حمدت الله — تعالى — على ما قواك عليه ، وأجراك إليه ، وسألت الله أن يصلى على محمد خير بشير ومبعوث ، وأفضل وارث وموروث ، وعلى آله ، ويزيد دينه تمهيدا ، والمجاهدين فيه عزًّا وتأييداً ، ويحسن جزاءك عما اخترت وآثرت وأبليت .

وعُرِض كتابك بحضرة مولانا الأمير المؤيد فاهتز لسماع ما أنهيته ، ولقّاك الرضا عما أتيته ، كفاء ما تقتضيه همه التى وقفها على ضمّ نشر الإسلام ، ولمّ شعث الإيمان ، فعمّ الله الجماعة بعد له ، وخصّ أبناء الطاعة بفضله ، وأوضح منهاج الحق فى ظله ، وأثقب سراج الدين بين عزمه وفعله ، وأحمدك على ما أبديته فى ملاقاة الكفرة أعداء الله من نجدة وباس ، وشدة ومراس ، واعتدك فى خاصّ خَدَمه ، ورصدك بلاحقِ نظره ، فوسيلتك أوجه الوسائل وأوقعها ، وذريعتك أنبه الذرائع وأرفعها ، جهادٌ فى سبيل الله رب العالمين ، واجتهاد فى تذليل أعداء الله المشركين ، وبذلٌ للمهجة فى مرضاة الله ، وتحمل للمشقة فى ذات الله .

وقد قبل مولانا ما قدمته من العذر ، وتصوّر تشاغلك عن المكاتبة بمصالح الثغر ، ولا خدمة عنده — أعلى الله جدّه — أدعى إلى نيل القربة ، وأقضى برفع الرتبة من الاشتغال بمثل شغلك الذى تحمى به من حواشى الإسلام حاشية ، وتسد به من نواحى الجهاد ناحية ، وسينجز الله بمولَيَيْنا الملك السيد والأمير المؤيد وعده ، ويَصْدُق عهده ، فعزائمهما فى اجتثاث دوحة الشرك محصفة ، قد آن أن يُنجزا ميعادها ، وصوارمهما لاقتلاع عَمَدة الإفك مرهفة قد حان أن تهجر أغمادها ، وسيشاهَدُ بمشيئة الله عز وجل عن قرب كيف تخفق ألوية الحق وراياته ، وكيف تُتلَى قوارع النصر وآياته ، وكيف تجتمع حلقتا البطان[١] ، على عبدة الأوثان والصُّلْبان ، فيعذبهم الله بكفرهم ، ويريهم وبال أمرهم ، لا يجدون فى السماء مصعداً ، ولا على الغبراء مقعدا ، سنةَ الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن

(١) البطان : الحزام الذى يكون على صدر الراحلة .

نجد لسنة الله تبديلا ، فهذه الدولة المحمودة ، والدعوة المسعودة ، هى التى أنشأها الله ليعمر بها أفنية الإيمان ، ويضعضع أبنية البهتان ، ويعيد وجه الإسلام غضاً ، ويترك جمع الضلال منفضاً ، له القوة والحول ، ومنه القدرة والطول .

وعنايتى بك عناية يفرضها الدين ، وتكتبها وتقتضيها صحة اليقين ، وتوجبها لما ظهر من حسن قيامك ، وفضل اهتمامك ، ثم لما اعتلقته من حبل الخدمة لمولانا الأمير ، فما أحد اعتصم به إلا أكثب مُرَادَه ، وأمرع مَرَادُه ، وفَلَجت حجته ، ووضحت محجته ، وقد أدى رسولك ماحمّلتَه ، وصادف من القبول ماأمّلتَه ، وأعدتُ إليه فى الجواب ما تسكن إليه ، وتعمل بتوفيق الله عليه ، فدُمْ — أيدك الله — على ماأنت بصدده ، واسْتَمِرَّ على القصْد من جَدَدِه ، فإنه المنهج الواضح ، والمتجر الرابح ، إن الله لايضيع أجر المحسنين . وتابع كتبك إلى الحضرة البهية بما يتجدد من خبر ويتسهل من ظفر ، ويُحمَد من أثر ، ويَعْرِض من وطر ، فملاحظة مولانا تضمن الإيجاب فى مطالبك ، وتنجُّزى يَسْفِر فى تقريب مآربك ، إن شاء الله .

٤ — ولــــه

كتابى — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ولله تعالى عنـد موليينا منائح تتسابق إلى نهايات السعادة وآمادها ، وتتناسق بعادات الزيادة وأعدادها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد نبيه وآله أجمعين ، وكان كتاب الأمير ورد علىّ مهنئاً طوْله الذى لا أخلو من استنشاء لباســه ، واجتناء أغراسه ، فسألت الله تعالى أن يديم مامنحه ومنح به أولياءه ، ويشكر له عنى ما لا أستطيع جزاءه .

وعرفت ما رآه الأمير صاحب الجيش فى أمر الحاج اهتماما منه بمصالح المسلمين والإسلام ، واختصاصا لبيت الله الحرام ، وعرضت ماورد علىّ بحضرة مولانا فكان ارتياحــه لمطلعه ومودَعِهِ كفاء ماعنــده من الاهتزاز لكل ما يُجْرِى له صاحب الجيش ذكرا ، ويعيره همًّا وفكرا . هذا إلى ما لديه من العناية السابقة ، والرعاية الصادقة ، لهذه العصابة القاصدة خير مقصد ومثابة ، وأكرم بقعة منتابة ، وقـد أقاموا فى اجتيازهم وظلال الكرامة تقيهم ،

ونهضوا وأجنحة الحماية تحميهم ، وامتد الجمّزان معهم إلى الحضرة العالية ، وسينهيان ماسارت به الركبان عن مولانا الملك السيد فى تسيير وفد الله أجمعين بين أطراف محفوظة ، ومصانع معمورة ، ومعالم مُنيرة ، ومشارع غزيرة ، وللأمير صاحب الجيش فى كل ذلك أجْرُ المساهم وثواب المُقاسم ، فالدال على كل خير كفاعله ، والشافع فيه كعامله . وحين انكفأ الجمّزان أنهيت هذه الجملة إليه ، وجُدِّدت ذكرى لديه .

٥ — وله جواب الكتاب الوارد فى إصلاح قنطرة النُّوبَهَار

كتابى — أطال الله بقاء مولانا الملك السيد — والأمير المؤيد موفور السلامة ضافيها ، مسعودٌ فى الأعمال التى يخلف مولانا فيها ، والحمد لله وصلاته على نبيّه محمد وآله .

ووصل ما خوطبتُ به من المجلس العالى بذكر قنطرة النوبهار(١) ، فتشرفت بما استخدمت فيه ، وأُهّلت للقيام به ، وحمدت الله تعالى على ما يحضر مولانا الملك السيد فى كل حال وأمر من الاهتمام بمصالح الخلق ، وحسن النظر لهم عن قرب و بعد ، والمأثُرة فى شأن هذه القنطرة عظيمة ، والمثوبة جسيمة .

وقد جمعت وجوه القياسين والجصّاصين والمصهرجين وأخرجتهم إلى الموضع لتأمله ، وأوصيتهم ببناء الأمر على مايقصد به التأييد والتخليد ، و يُؤْمَن عليه عُدْوان الماء عند الزيادة الحادة ، وتقدمت إليهم ببناء سدٍّ أمام القنطرة يدفع عن أساسها حدة الماء إذا كثر ، فعلى هذا عملت القناطر المتقدمة بهذه الديار ، فلم تتمكن السيول من الإضرار بها ، وحدّدت أن يقدروا تقديراً ما ، و إن كان الاعتماد فى الإنفاق على ما يخرجه العمل بأيدى الثقات .

وأشير فى الخطاب العالى إلى استخدام فلان فى ذلك ، وهذا أمر يُحتاج له إلى من يلزم ذلك المكان ولايفارقه إلى حين الفراغ ، وفلان مخالفٌ للدار والخدمة ، ولا يكاد يفرغ أكثر نهاره ، وخادم مولانا يستخدم فى هذا غيره ممن ينوب منابه ، و يقوم فوق قيامه ، ويُجرى المال على يد فلان ، و ينهى أمر التقدير إذا عاد القياسون ، و يبتدىء بابتياع الآلات لتكون مُعَدّة لانحسار البرد . ونسأل الله التوفيق لشروط الطاعة .

---

(١) النوبهار : موضع قرب الرى .

٦ — ولـــه

كتابى ، ونعم الله عند مولانا على ما يرفع نواظر خدمه ، وأنا سالم بكريم نظره ، والحمد لله وصلاته على النبى محمد وآله .

ووصل كتاب سيدى فسرنى ازدياد الدار قربا ، وما تولاه به [الله[1]] فى مسيره كفاية وحفظا ، وسألته أن يجعل مواهبه لديه دارّةً لا ينقطع لها مدد ، ولا يقف بها عدد ، وقد كان مولانا متطلعاً لأقرب أخباره عهدا ، وأدناها وِرْداً ، وارتاح لما أنهيته ، وأنس بما حكيته . وكان رسم تسمية من يستقبل سيدى ويشحن بالخدمة طريقه ، وفى هذا خرج فلان فيمن أُصْحِب من القواد ، والله يوفقهم للتقرب إليه ، والتخفف بين يديه ، ويسعدنى بوده ، وكريم عهده .

فأما الحجيج فمولانا على اهتمام بأمورهم ، ومراعاة لأحوال جمهورهم ، وملاحظة لسيرهم ، حتى يقعوا[2] فى ظل الصون والسداد ، ويأمنوا عوارض العيث والفساد ، وإذ قد [ورد][3] الأمر الممتثل بذلك من الحضرة العالية ، فإن النافلة فيه تعود فرضا حتما ، وحكما جزما ، ومتى ورد الكتاب بذكر انفصالهم أخرج العُدد والعَدد الجم من الأولياء ، وليهم الله ، ليوردوهم بإذن الله مكنوفين محوطين ، من أعينٍ محروسين .

٧ — وله فصل فى أمر الحاج

فأما الحاج — أحسن الله كفايتهم ، وأجمل حمايتهم — فقد اعتدّ الأمير المؤيد بما رسم إنشاءه فى أمورهم ، وابتداءه من هزّ لحقوقهم ، إذ كان جمال ذلك ليس بخافى الخبر ، ولا عافى الأثر ، بل هو مسعد ديناً ودُنياً ، ومُحْمَد البدء والعقبى ، ومن أَوْلَى بأن يهدى للمحجة الوسطى ، وينبه على مواقع الخير والهدى من الأمير ، وهو عَلَمٌ فى العلم بالسياسة ، وجامعٌ مصلحة العامة إلى مصلحة الخاصة ، وقد لزمنى عن كل كتاب وصل شكرٌ أستأنف فرضه وأستجدّ ، واعتدادٌ أجتهد فى حقه وأجِدّ .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) فى الأصل : يقع .

(٣) زيادة للسياق .

وقد كان الأمير — حين عرف انفصال الحاج — رسم إنهاض من ينفض السبل ويَقدُم الرُّفق ، ويُسيِّر آخر من ورد . ووصلوا مكنوفين ، وهم على الخروج ، محوطين ، وقد نفذت الكتب مدَّ الطريق بما يبعث الجميع على إعزازهم ، وإكرامهم في مجازهم ، وهم بذلك عاملون متقيِّلون ، بمشيئة الله .

٨ — ولـــه

كتابي — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ومولانا الأمير المؤيد مستفيد من مزيد العز والنعمة ما يطابق مواقع البغية ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير الجليل قد ألبسنى فيه من مستجد التقريظ مع قصرى بنفسى عن[1] رتبـة التقريظ[2] ، ما أحسن ظنى بأمرى وقد ساء ، وعظُم علىّ منه كيف شاء ، فقول الأمير حتم ، ورضاه شرف ومجد ، وحمده ذخيرة وعز .

وقد عرفت ما أحمده الأمير من جميل نشر الحجيج عن هذه الحضرة ، وكل الذى بلغ ويبلغ بالمنفصلين عن تلك البقاع — حرسها الله — فظلالُ الأمير تمتـد عليهم ، وسحائبُ اهتمامه تنصبّ إليهم ، معتقدٌ وجوبه ، مستشعرٌ لزومه ، مقرٌ بالقصـور عن المفروض منه ، غير مستدعى — بعد قبول العذر — الشكرُ عنه ، ومهما وفقنى الله له فى هـذه الأحوال فبرأيٍ من الأمير حَسُنَ فىّ وأرانى الرشد ، وهدانى القصد ، أعاننى الله على ما يُزلف لديه ، كما بسط بأنواع العُرْف يديه .

٩ — ولـــه

كتابي يا أخى وأثيرى — أطال الله بقاءك — ومولانا مؤيد الدولة سالم فى نفسه ، محروس فى ملكه ، موفق فى أمره ونهيه ، وأنا معافًى فى ظله الظليل ، مُوَفًّى بدولته أحكام التأميل ، والحمد لله وصلواته على خيرته ، محمد النبى وعترته .

---

(١) فى الأصل : على .

(٢) هكذا فى الأصل .

ووصل كتابك صادرا عن الثغر أحسن الله وقايته ، وأجمل رعايته ، بعد أن تُرُقِّب لصدق الاهتمام بخبرك وحالك ، وأحوال أتباعك ورجالك ، إذ كان مولانا — والله يعز سلطانه ويعلى شانه — يراعى من أمور الثغر ما ستتضح — إن شاء الله — مناهجه ، وتظهر نتائجه ، فيزداد دين الله ظهورا ، وأعداء الله ثبورا ، وقد أنِسَ — كبت الله حساده ، ورفع عماده — بما أنهيت من حسن قيامك فى حراسة ما إليك ، وسياسة مَن لديك ، والغلظة على الكفار عَنَدة الإيمان ، وعَبَدة الصلبان .

وقد رسم — أدام الله علوه — أن تُعَدّ فى المستخلَصين من أوليائه ، والمختصين بحسن رائه ، ولذلك توابع من كرمه ، وشوافع من نعمه ، وقد وفقت فى التماس الحظوة ، كما وفقت فى إقامة الدعوة ، ومهما ازددت على الكفر بأسا وشدة ، زادك — أدام الله سلطانه — إكراما وقُرْبَة ، وضاعف لك بعد رتبة رتبة ، فأحسنْ — أيدك الله — الثبات على أمرك ، وقوِّ بصائر القائمين بنصرك ، فإن الكفار وإن كانوا ذوى عدد كثير قَيْدُ الخذلان يقللهم ، وعزّ الإيمان يذللهم ، والله الكافلُ للدين ، والقاصم للملحدين .

وعندى لك — أيدك الله — الإكبار الذى يتبعه الإيثار ، والإكرام الذى يشفعه الإنعام ، كما يفرضه العقد الصحيح ، والدين الصريح ، ثم ما أنبأ به كتابك من فضلك ، ودلّ عليه من وفور عقلك ، وإذا ورد رسولنا فأكرم مورده ، وأحسن مصدره ، بإذن الله ، فتابع كتبك ، واذكر أنباءك ومآربك ، إن شاء الله .

١٠ — ولـــه

كتابنا عن سلامة ، قد وصلها الله بحسن الولاية ، وارتفاع الراية ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين . ووصل كتابك — أيدك الله — صادرا عن الثغر المعصوب بك — حرسه الله — وقد كنا له متطلعين ، ولما أنهيته من خبرك متوقعين ، كفاء ما فرضه الله تعالى فى حكم الدين ، من إعظام أعلام المجاهدين ، فسَرّنا ما أنبأت عنه من استقامة الأمر ، ولطف كفاية الله فى مهمات الثغر ، إلى ما وصفته من حسن مشايعتك ، وحسن موالاتك ومناصحتك وإقامتك الدعوة لنا سالكا أحمد المذاهب ، وحافظا فى طاعتنا أسعد الضرائب .

وأحوال الثغور من أهم ما نراعيه، وأخصّ ما نُخلص الاهتمام فيه، وستكشف الأيام — بمشيئة الله — عما شحذناه من العزائم، وأرهفناه من الصّرائم، حتى ينجز الله — تعالى — على أيدينا وعده، وينصر تحت رايتنا جنده، ويُعزّ الدين وحضرته، ويذل الصليب وعَبَدته، فكن — أيدك الله — على عزيمتك الثاقبة، وبصيرتك الصائبة، فإن الله يتمم الإنعام ويسبغه، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، وإن أمهل الكفرة إلى حين، وأملى لهم بكيد متين.

وعنايتنا لك — أيدك الله — شاملة، وأمْدَادُ نظرنا — متى أردت — متواصلة، ومعونتُنا لأبناء الجهاد مبذولة، وسيوفُ أوليائنا على أبناء الإلحاد مسلولة، فاقْوَ نفسا وظهراً، ورأيا وأمراً، ولا يهولنك كثرة الأرجاس، فإنهم أزواد الضباع، وآكال السباع، ومشارع السيوف، ومراتع الحتوف، كثيرهم قليل، وعزيزهم ذليل، وهم بين سوأتين، إما إملاء بمقت — من الله — عظيم، أو إقضاء[1] إلى عذاب أليم، كما أن المجاهدين فى سبيل الله بين حُسْنيين، إما سعادة فى الحياة الدنيا، أو شهادة فى التى هى خير وأبقى، والله وليّ تأييدك وتسديدك، وتقوية أنصارك وعديدك.

---

(١) فى الأصل بكتابة الضاد ظاءً.

الباب الخامس

فى الاستعطاف لقلوب أولياء الدعوة

والتودد إليهم بمباسطتهم وما يقارب ذلك

١ — كتاب تودد واعتذار من تأخير إطلاق

كتابى — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ونعم الله عند مولانا الملك السيد فى تهذيب الأمور وتسديد الثغور ، وتزايد النصر المبين ، وشفاء صدور المؤمنين ، على أفضل ماوعد تعالى وعوّد ، وجدّد فى حال ومهّد ، ومولانا مؤيد الدولة مصَحّح فى جسمه ، موفّق فى بسطه وقبضه ، وحلّه وعقده ، وما أراعيه جارٍ أحمد مجاريه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير على عادته لدىّ فى مبرة يصل أسبابها ، ويوثّق أطنابها ، ويتابع عددها ، ويلثّ مددها ، ولو قد كان الشكر وفّى ، بسالف ماأولى ، لرجوت أن يستقلّ بفرض ما نستقبله ، ويقابل آنف ما يُخَوّله ، ولكن فضله بتواليه يعجز عن أمَد الوجوب ، ويقف بصدد القصور واللغوب ، فأطال الله بقاء الأمير فى نعم تكنفه غير منحسرة ، وتشمله غير مُقَصّرة ، وأدام على المكارم إعانته ، وإلى المآثر هدايته ، إن الله يفعل مايشاء .

وقد أدّى فلان ماتحمّل بذكر الضياع والتماس حلها ، واستخلاصها لحقّها ، وعرضَ ماورد من الحضرة البهية بذكرها ، ووصفَ اهتمام الأمير بأمرها ، فصادف الجميعُ عند مولانا ارتياحا للخطاب ، واهتزازاً للاطلاب ، ومحبّةً لأن تكون تلك الأملاك مقررة على سبلها ، وما تحوى فى وجوه دخلها . وقال — أدام الله علوه — إن أمثالها لو أريدت لأصاغرِ مَنْ على ذلك الباب لما رأينا غير الإسعاف والإيجاب ، فكيف بالأوْجَهِ رتبةً ، الأنبَهِ قُرْبَةً .

هذا والأمير صاحب الجيش الوسيط والمشير ، فلا خلاف عليه ، فيما يومىء بالإيثار إليه ، إلا أن الديلم تعرّف صورَهم فى الإقطاعات إذا عُلّقوها وفارقوها ، وتملّكوها وفكّوها ، وإن

ارتجاع ما يراد تخليصه منهم مقتض أدنى ترفقٍ وتمهل ، والإرضاء بالابدال من دون تهجم وتعجل . ولولاذلك لما عاد الرسول إلا بالإجابة التى كانت النفس معها أذهب ، ولها أطلب ، وقد مُثِّلَ لى أن أشغل كتّاب الجيش والإقطاع بتعويض من رضى بالمعُوضَة ، والإسعاف بالزيادة والمعونة . وهذا أمر يلزمنى فيه مع امتثال الأمر بذل الجهد ، واستغراق الوُسع ، وسيأتى بمعونة الله مايقرب المدة ويُدْنيها ، وييسرها ولا يُرَاخيها .

٢ — ولـــــه

كتابى — أطال الله بقاء الشيخ — ومولانا الأمير سالم النفس ، متظاهر العز ، مخيِّم السعادة ، نافذ الأمر ، وأنا بدولته — ثبتها الله — مستقل الجسم ، مكنوف من الله بلطيف الصنع ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين . ووصل كتاب الشيخ فكان الوافد المؤْثَر ، والوارد المنتظر ، وتضمّن من أنباء الحضرة فى السلامة المجلّلة ، والسعادة المتصلة والمسارّ المتوالية ، والمحابّ الجمة الصافية ، مايقيم النفوس ، ويشرح الصدور ، ويرفع نواظر الأحرار ، ويُرْضى عن مجارى الأقدار ، لازالت نعم الله لديه محروسة عن التنكر ، محظورة عن التغير ، باقية بقاء المُسْنَد ، نامية انتهاء الأبد .

وعرفت من خــبر الشيخ فى نفسه ، والخاص والعام من أمره ، ما يُهَنِّئُنِى المواهب ، ويُمَلِّئُنِى المنح الرواتب ، ففى حراسة الله لِرباعه ، وبسطه لأمله وباعه ، جمالٌ للفضل ومن أخذ منه بحَظٍّ ، وقوة للـكرم ومن حظى منه بقسم ، فأدام الله ما آتاه ، وأحمــده عُقْبى كل أمر ومأتاه ، والذى يأتيــه الأمير فى مواصلة مولانا لمخاطبته ، ومراسلته ، وعمارة مسالك برّه وشفقته ، قد غرس فى صدره ، من وده ، مالم تسمع الآذان بشبهه ، ولا يوفى العيان بكُنْهه ، فـكيف الخبر بتقصى حقه ، والإصابة فى وصفه . وقد عرض فلان ما صحبه من المـكاتبات ، وردفها من المشافهات ، وعززها من المبرّات ، فكان لـكل منهـا أخص موقع فى الاعتداد والتقبل ، والزيادة فى الحمد والتحمد .

أما الخطاب فلما تضمّن من خــبرٍ مؤنسٍ للنفس كان متوقعا ، وأما الشفاه فلتفاوض بودائع الصدر كان متطلعا ، وأما التحف فلرفعها كُلْفَةَ الاحتشام ، ودفعها سُدْفَةَ الانقباض ،

وفسحها الطريق إلى إيثار الاسترسال ، والجرى على سَنَن الانبساط فى كل حال .

ولما تيسر لفلان وقتُ الإياب ، وحَمَلَ ما وجب فى كل باب ، كاتبت الشيخ بمواصلته التى تهدى إلى الصدر روحاً ومسرة ، وللطرْف جِلاء وقرّة ، وعلى ذكر فلان فهو السديد أداءً وسماعا ، الحقيق تقديما واصطناعا ، ما أعزُّته — يشهد الله — شهادة ، ولا أعطيته فيها زيادة ، فقد أُحمِد مورده ومصدره ، وارتضى مطواه ومَنْشَره ، ومولاى أولى بما قيل فى عظيم من الكرام ، سهل الحجاب مؤدّب الخدام ، ورأى الشيخ فى مواصلتى بكتبه ، وتصريفى على مآربه ، موفقٌ إن شاء الله .

٣ — وله اعتذار وإيجاب

كتابى — أطال الله بقاء الإصفهبذ[١] — ومولانا ثابتُ معاقِد العز والقدرة ، راهنُ عوائِد الملك والبسطة ، وأنا فى ظليل ظله محظوظٌ من إحسان الله وفضله ، والحمد لله .

وقد أتتنى للإصفهبذ كتب تحمّلت من جميل قوله ما لا أستبدعه مع خلوص وده ، وتضمنت من لطيف بره ما لا أستغرب به مع خصوص عهده ، ووقفتُ على آخر ما أهدته مخاطبتُه ، وأدّته مراسلتُه ، وعجبت من الأحوال التى كانت سبقت إلى فكره ، وانتهت إلى تضييق صدره ، فقد علم الله مالك الشقاء والسعادة ، وعالم الغيب والشهادة ، أنى منذ وصل الله حبل المشاركة بينى و بين الإصفهبذ آخذ نفسى فى الاشفاق على بيته ونعمته ، والإيثار لمحبته ومصلحته ، بما لا أحسب أحدا يحاسب ضميره على مثله ، ويجده فى مودَع سره ومتصفح جهره ، لأمور : منها مكانه العظيم فى مشايخ الدعوة ، وموقعه الشريف من الإكبار والحظوة ، وتصرفه للدولة السامية مع الاخلاص الغضّ ، والوفاء المحض ، فى حالى الضرورة والاختيار ، وزمانى الكراهة والإيثار ، ومنها أن التعصب لبيته الرفيع ، وشرفه الوسيع ، واجب على كل ذى جبلة صحيحة ، وأرومة صريحة ، ومنها ما فى الطباع من مقابلة الجميل بالجميل ، ومكايلة الود الوكيد بالإخلاص البليغ ، وقد أظهرت إلىّ الأيام منه ما عقدت عليه بنانى ، وانصببت إليه بجنانى .

---

(١) لقب أمراء طبرستان .

هذا إلى سائر البواعث التى يكثر تعديدها ، ويصعب تحديدها ، وكان مما يُقر عينى فى بابه ، ويشرح صدرى لأسبابه ، ما أجد عليه مولانا إكباراً لوزنه ، وإيثاراً لبسطه ، وتحسينا لذكره ، واهتماما بأمره ، فإن وقع فى وقت استبطاءٌ فعن غير تنكّر ، ولا تنمّر ، ولا اعتراض تغير ولا تذمّر ، بل كما لا يَخْلَى من مثله الأعمام ، والأقارب الكرام ، وكيف جاز أن يتخالج الإصفهبذ رَيْبٌ ، أو يغشَى فكره رَيْنٌ ، بتسرّع متسرّع إلى مضارّته ، وتعجّل متعجّل إلى محادّته ، لم يُرْفد بإذن ، ولم يَخْلَ من عَتْبٍ .

وسطرت هذا الكتاب بخطى ليزداد الإصفهبذ إليه سكونا ، وعليه عكوفا ، فلعله قد عرف منى أنى لا أطلق يدى إلا بما أقبله يقينا ، وألبسه برهانا مبينا ، فليتحقق أن مكانه من رأى مولانا مكان لا يهتدى له الزمان ، ولا تؤثر فيه الأيام ، ولا تجرى بخلاف استقراره الأوهام ، أعان الله الإصفهبذ على استحفاظ ذلك بدواعيه ، وغُرَر مساعيه — وفيما يكتب به فلان — مما سمعه لفظا ، ووعاه عند مولانا حفظا — غُنْيَةٌ دون التطويل ، وعمدة تؤثل الاستنامة كل التأثيل ، وسيعرف من نتائجه ما يُقر الناظر ويسلِّ الخاطر ، ويُحمد العقب ، وينفى الرِّيَب بإذن الله ، فإن رأى أن يخاطبنى مواصلا ، ويباسطنى مطاولا ، فعل إن شاء الله .

٤ — وله فى إظهار المشايعة والبسط

كتابى وأمور الحضرة على ما عوّد الله فيها من الرجاء رفعةَ شان ، ومَنَعَة سلطان ، والحمد لله وصلاته على نبيه محمد وآله . ووصل كتابك بوصف ما شاهدت عليه فلانا مُقاماً على أجمل ما وعد الوفاء عنه ، وشاهدته عين الثقة منه . وعرفتُهُ وسائرَ ما توليت الإبانة عن صورته ، والتحدث بحقيقته .

وقد علمت أن مودّتى لفلان ليست لدواعى الرغبة وبواعث الرهبة ، وإن كان مرغوبا إليه ، ومرهوبا منه ، وإنما قصدى عمارة موقعى من رائه ، وأن يَعُدَّنى فى أوّل نُصَحائه ، كما أعد نفسى أولى أوليائه ، وأن يحفظ الله نظام هـذه الأمور التى وُكِّدَتْ دعائمها ، ورفعت معالمها[1] ، وكُبِتَ حسدتها ، وقُمِع عنَدَتها ، ويكون ما خلص له عند مولينا راسخا على

(١) فى الأصل : معاملها .

الدهور ، وثابتا على اختلاف الأمور ، لاترتقى همـة الأيام إلى فسخه وتحويله ، ولا تقوى مُنَّةُ الزمان على حلّه وتبديله ، وأن يعلم — فى مصارف الأقاليم — أنى ما توسطت أمرا إلا حفظت شرائطه وحرستها ، ورفعت مبانيه التى ابتدأتها وأسستها ، لا سيا إذا كان مولينا — كبت الله حَسَدَتهما — لا ينقضان ما أبنيه ، ولا يَقفان ما أمضيه .

وكان فلان — على ما أقدر بل أتيقن ، وأحسب بل أتحقق — يُحلّنى محل من يُرجَع إليه ، ويعوّل على ما لديه ، ويعلم أنه لا يريد بما ينقض ويبرم ، ويؤخّر ويقدّم ، إلا ما هو أرضى لذات البين ، وأحمد على مرّ الجديدين ، وزادنى ارتياحا لما وَرَدَ منك أن هذه الأيام التى غبت فيها شُحِنَت صدورُها وأعجازُها ، وبُكَرُها وآصالهُا ، بكتب مولانا تتضمن من ذكر فلان ما فسح لى فى مذاهب الجذل ، كما حقّق سوابق الأمل ، وأنكر — حرس الله ملكه — ما أقدم عليه ، وتقدم [به][1] المشكو إليه ، إنكاراً كالتنكر ، واستبطاء كالتنمّر .

لا جرم أنى أصدرت كتابك على جهته ، وكتاب فلان كهيئته ، بعد تقديمى مخاطبات ، وإسلافى مقدمات ، اقتضاها ما كان المنابذون[2] يرجفون به ، ويوجِفون فيـه ، من أضاليل شهدتُ ببطلانهـا ، وأباطيل نصصتُ على بهتانها . وتوقعى قربَ عودكما يُغنى عن الإطالة فلا يقعنّ تأخر دون التعجل ، ولا توقف دون التسرع .

٥ — وله فى تحقيق الأمل وأمن المحذور

كتابى ، ومولانا سابغ السلامة والسعادة ، ونعم الله لديه مضمونة العادة والزيادة ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فآنسنى الله بما أحسن من تأديتك ، وأجمل من صحابتك ، وسألته أن يكنُفَكَ بالخيرات دانياً ونازحا ، وصادرا وواردا ، وعرفت ما ورد عليه من الأمير ثباتا على وثيق العَقْد ، وإخلاصا فى حفظ العهد ، وكانت السعادة المقسومة لأيامه بذلك واعدة ، وعليه معاهدة ، والثقة من مولينا — أدام الله علاهما — تامة ، لا يتغيّر عليها غيب ، ولا يتمشّى إليها ريب ، ولكنى بما أدين له من طاعته ، وأنصبُّ إليه من مشايعته ، وأفرضه على نفسى من

(١) زيادة للسياق .
(٢) فى الأصل : المنابذ بالإفراد .

المشورة بما هو إلى صعود جَدّه أقرب وأدنى ، و بسعود نجمه أحكم وأقضى ، أحب أن تكون الأحوال واضحة الصفحة ، رابحة الصفقة ، محروسة عن عوارض الشُّبْهة ، محفوظة عن عوائق المرية ، لا سيا إذ كانت المئونة فى ذلك خفيفة لا تُجهد حالا ، ولا توقع اختلالا ، وكانت الجنبة التى وصل الله السبب بها أعلى جنبات العالم ، وأجمعها للسلطان الشامخ والعز الراهن والملك الشامل .

وكنت مع هـذا المتطوق للوساطة ، والمعتنق للسفارة ، والناظر بين الموالاة والكفالة ، ولا غرض أرميه ، ولا مغزى أنتحيه ، إلا أن يحرس الله نعمه عنـد من عَمَر صدرى بمحبة أيامه ، ويظاهر مِنَحه لمن وقف فكرى على مصلحة أمواله و بلدانه ، والله يشفع هـذه الشوافع بعين حَوْطه ، ويدِ صَوْنه . ولولا تقريبك الأمد فى العود لكنت أبسط الخطاب وأفرش الكلام ، ولكنى أجد الشفاه أعذب منهلا ، وأقرب متناولا .

وقد أصدرت كتابك إلى الحضرة العالية ، لأدفع فى صدر الأكاذيب المتوالية ، وحدانى على ذلك أن مخاطبات مولانا تتابعت على أيدى رسل متقاطرين ، وفيوج[1] متظاهرين ، متضمنة من ذكر الأمير ما يشهـد الله أنه رفع ناظرى ، وجمع خاطرى ، إذ دلّ من الاهتمام على ما لا يصدر إلا عن ذلك الكرم الفسيح ، والمجد الصريح ، ولا يُستَحقّ إلا فى هذا الجناب ، الواسع الرحاب ، الشريف النصاب ، وتُنووِل من كان شكى من اللوم بأحدّه غرار ، بل من الذم بأشده إنكارا . وأما اعتداد مولانا بما يخصه[2] من ود الأمير مولاى فما أرضى عبارتى للإخبار عنه و إن لم تكن قاصرة لبلوغه[3] النهاية التى لا تُدْرك ، واستيلائه على الأمد الذى لا يلحق ، ولولا إن ذِكْرَ الوصل بين العظماء تتنزه عن الابتذال للوصف ، لاجتهدت فى قصد الشرح والكشف . وأنا أرجو أن تُغْنِى بقرب الإياب ، عن استعجال الجواب ، فقد أوحشت ببعدك ، و إن آنست بحسن سعيك . وأنا أتوقع أخبارك ، وأوطارك ، إن شاء الله .

٦ — وله تودد واعتذار من اطراح الحشمة

كتابى — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ولله ذى المنّ والإحسان عند الملك السيد ، والأمير المؤيد ، مع مؤتنف الأيام ، ومتصرَّف الزمان ، منائحُ متصلة الورود ، جامعةٌ

---

(١) جمع فيج بمعنى فوج .
(٢) فى الأصل : يخص .
(٣) فى الأصل : لبلوغ .

أحكام السعود ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ولولا علم الأمير بأن موالاته دِينٌ أكمِّل به فرائضى ووظائفى ، ودرس أشحن به مصارفى ومواقفى ، وأن التحدث بنعم الله فى حراسة أيامه ، ونفاسة أعوامه ، شعارٌ لا أخلّ بلوازمه بادئا وعائداً ، ومنارٌ لا أضلّ عن معالمه جاداً وجاهدا ، لاقتضتنى أيادى الأمير عندى بالإفصاح عما يجنّه صدرى ، ويُسكنه سرّى ، وتتناصف فيه شرائع لسانى ، وودائع جنانى ، وظواهر أخبارى و بواطن استشعارى . والله يديم له ما قسم من مواهب أصبح ظلها على الناس ظليلا ، وفضلها للخاص والعام جزيلا ، فلم يتفرد بها حتى أفاضها مرتجلا ومحتفلا ، و بذلها ملتزما ومتنفلا ، والله يشكر للشاكرين و يزيدهم دهرَ الداهرين .

ورأى الأمير أن يُصدر إلى حضرة مولانا أحد أنشاء خدمته ، وأغذياء نعمته ، ليؤدّى فصولاً يحملها ، ويعود من سائر الأنباء بما يوفّر المسرّة ويكمّلها ، فصدر فلان ورسْمُ أصحابه ما تقبض خفة قدره عن إجراء ذكره ، وإن كان المراد فيه تصيير الاسترسال فرصةً توجَدُ ، ونُهْزَةً تعتمد . ولِعلْمِ مولانا الأمير بأنى آخذ نفسى للأمير مأخذ المقيمين بحضرته ، المنفردين[1] بخدمته ، ما رسم لى أن أكتب ، معربا عن الغرض فيما أُصدِر ، ليتجه العذر إن استُنْزِل .

٧ — وله فى استعطاف وتودد

وصل كتاب الأمير محمدِ عَبْدَه ؛ على كريم عادته عنده ، لما خدم فيه من أمر المخاطبة ، حتى جرى على الطريقة الواجبة ، فلبِسَ عبده بذلك شرفاً لا نطمع الأيام فى خلعه ، وادّرع مجدا لا يتطلع الزمان إلى نزعه . و بواعث الأمر على ما يوافق محابّ الأمير ، أكثرُ من أن يُحتَاج معها إلى اجتهاد سفير ، وجد نائب ومشير ، إذ هو — أعز الله نصره — يُسْتَقْصَرُ فى مسرّته ما يعظم عن درك العيان ويكثر عن حد البيان . يوفقنى الله للخدمة التى فى حجرها رُبِيت ، و بلبانها غُذِيت .

٨ — وله فى شكر و ملاطفة

كتابى — أطال الله بقاء الأمير — ومولانا سامى الراية مظفرها ، وافى السعادة موفرها ومولانا المؤيد معمور ساحة العز ، محروس عَرْصَة الملك ، والحمد لله وصلواته على النبى محمد وآله .

---

(١) فى الأصل : المنفرد .

ووصل كتاب الأمير على عادته المظهرة كل وقت فضلا جديدا لم يشهد ، ومنًّا عظيما لم يُعْهد ، وإحسانا وسيعا لا يضبط قُطْراه ، وامتنانا رحيبا لا ينقطع عصراه ، وأنبأ من استقامة أمور حضرته ، واستيفائها لشروط محبته ؛ عمـا إذا قارن النعم العظام أوفى [١] عليها وزاد ، واستغرق طاقة الشكر أو كاد ، وسألت الله — سؤال مَنْ قولُهُ كسريرة صـدره ، وسيانِ لسانا سرِّه وجهره — إطالة بقاء الأمير فى عزٍّ مستجد لا يُخْلق ، وأمل مُدْرك لا يُخْفق ، وابتناء للمكارم يستوقف الضمائر على محبة أيامه ، ويستخلص السرائر لاستدامة زمانه .

وعرفت ما اعتزمه [٢] الأمير من تعهد سيدى أبى فلان برسول يؤدى إليـه شريف ما يحمله ، ويظاهر عليه ما يتعهده به جميل خطابه ويتخوّله ، وأنه حين ذكر خبر انكفائه عن وجهته ، رأى العدول إلى إفراد المجمِّز بمخاطبته ،شيمة منه — أدام الله تأييده — عظيمة فى إسباغ البر على من قرب بحضرة مولانا موقعه ، وعظم فى ظله الكريم مشرعه ، وقـد وصل الـكتاب إليه ، فأكبر مَطْلعه عليه ، وشكر جميل التعهد شكرا لم يدّخره مضاعفة وزيادة ، ولم يَسْأمه بدءا وإعادة ، وصارت هذه اليد مما يكثر اعتداد الملك بها إذا رَقِى خبرها ، كما اعتدّ بها مولانا الأمير المؤيد لما أنهى موردها ومصدرها ، إذ [٣] كان فلان مرموقا بالدولة — ثبتها الله — لقُرْبته وزُلْفته ، وحظه وحُظْوته ، فإن رأى الأمير أن يخاطبنى آمراً وناهياً ، لأجيب مؤتمراً ومنتهياً ، فعل إن شاء الله .

٩ — وله تودد وشكر واستعطاف واعتداد

كتابى ومولانا الأمير المؤيد فيما يواصل الله إلى عراص عزه ، من مزيد إحسانه وفضله ، ويحرس من حمى أيامه وكنف ملـكه ، على أحمد ما تسمو له الآمال ، وأسعد ما يساعد عليه الإقبال ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب سيدى موصّل المسارّ ومسنّيها ، ومتحمّل المبـارّ ومُهَنّيها ، فتعرفت البركة به مطويا ومنشوراً ، واستمليت الغبطة عنه فصولا وسطوراً ، وفكـكته فبشّر من انتظام الأمور بحضرة الأمير بمـا أجد النعمة فيه تنظم الشاهد والغائب ، وتخص الأباعد

---

(١) فى الأصل : وأوفى وأسقطنا الواو

(٢) فى الأصل : اعترفه

(٣) فى الأصل : إذا .

خصوصها الأقارب ، إذ كان الله قد جعل محامد أيامه شائعة لا تنفرد بطرَف دون طرف ، ولا تحد بكنَف دون كنف ، والله يديمها محفوظة عن همم الزمان أن تنالها ، وآمالِ الحِدْثان أن تتصدى لها .

وعرفت من خبر سيدى فى عافية يسبغ الله ثوبها عليه ويُضفيه ، ونعمة يسوّغ شربها له ويُصْفيه ، ما لا تعدونى ثمرته ، ولا تخطونى نتيجته ، بحكم الأحوال التى جمعنا الله عليها ، وأجرى بأسباب مودتنا إليها ، فإنى إذا وقفت خنصرى لأثنيه على أكرم عهد أحرزته ، منذ صحبت الزمان وسبرت الأنام ، كان عهدَه الذى أستوزع الله شكر الموهوبِ منه ، وأستصرف عيون الكمال ولحاظ التمام عنه ، والله يواصل له ما أعطى وخوّل ، ويملّى أهل وده الجمال بفضله وقد فعل .

والذى وصف سيدى من الأسباب المنعقدة بين مولانا ومولاى أبهر ضياء ، وأرفع سماء وأشرف مناظر ، وأفسح مبادئ ومحاضر ، من أن يأتى عليه الذكر ، وإن اشتغلت به الأيدى الكاتبة ، والألسن القائلة ، واشتركت فيه القلوب الحافظة ، والآذان الواعية . وأما الاسترسال فى الألطاف ، المتوسطة حالتى الإخلال والإسراف ، فهو الذى يشرق له أفق المشاركة ، ويعمر به طريق الثقة الصادقة ، وللأمير من الابتداء بهذا البر والعود فيه ، والافتتاح له والرجوع إليه ، ما لا يجارى إلى أمده ، ولا ينازع فى قصَبه ، كما استولى من كل فضيلة على سبقها ، وأخذ فيها بأزمة حقّها .

وما رأى — وفّق الله آراءه وأطال بقاءه — تجديده الآن منه قد عرضه فلان أجمل عرض ، وأخذ من اعتداد مولانا بأوفر حظ ، ورآه نتيجة ودٍّ يقتضى بالجميل وصالا ، ويستدعى الحسنى منه حالا فحالا . وتصرفت فى القول من الجنبتين كفاء تحقق بهذه الحضرة البهية ، وتخصصى بتلك السُّدّة الزكية ، فإنى وإن كنت بعيد الدار عن الأمير فالإخلاص البالغ يدنينى من رائه ، ويقرّبنى من ولائه .

ولما تيسر عود فلان خاطبت سيدى على يده شاكراً كتابه الواصل وبره المتضاعف ، وقبل ذلك بما يعهده بحضرة الأمير من موارد قولى وفعلى ، ويصوّره من خلوص نيتى وعَقدى .

١٠ — وله تأنيس بجميل الرعاية وبعث على الزيادة فيما يكسب حمدا

كتابي ومولانا الأمير موفور أسباب العز والتمكين ، محفوف بالسلطان الراهن والنصر المبين ، وأنا سالم بصعود حكمته ، وسعود خدمته ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك على حين تطلّعته وتشوّفته ، وارتقبته وتوكّفته ، أُنسا بخطابك ، وثقة بودادك ، ومراعاة للحال معك[1] ، وإيجابا صادقا لك ، وقبل ذلك ، لما كنت أعرفه من جميل رأى مولانا فيك ، ومحافظته على سوابقك ودواعيك ، وملاحظته لمجارى أمورك ، ومصارف شئونك ، بعين كرمه ، التى لا ترقد عن خدمه .

وقد كان العذر فى تأخير الكتب عن الديوان المعمور ، وإبطاء الرسل على الباب المسعود ، واضحاً لا يغير صورتك ، ولا يبدّل منزلتك ، وقد عرضت ما ورد منك فصادف من تقبل مولانا وإصغائه ، ما أوجب حسن عنايته ورانه ، وصدّق — حرس الله عزه — قولك ، وتمثّل — أعز الله نصره — أمرك ، ورسم الكتاب إلى حضرة الملك بالشكر لما أظلّك من إنعامه ، وقسم لك من شريف اهتمامه ، وذلك مستثمر من مزيد الرعاية ما يسهّل إلى المطالب ، ويؤمن من أسباب المحاذر ، وسأعرض على فلان ماينبئ عنه الديوان من معاملتك ، وما كان الأمر جاريا عليه من موافقتك .

ويجب الآن أن تعمر ما أسسته من تحصيل القُربة ، واستمداد الزُلفة ، بالكتب فإنها تمهد من موقعك بالحضرة ما يجذب بضَبعك ، ويختصر الطريق إلى مآرب نفسك ، وتصادف لدىّ من المعونة والعناية الموفورة ما تستوجبه بفضلك وأصلك ، ومحامد أمرك ومكارم نَجْرِك .

---

(١) فى الأصل : معه .

الباب السادس

فى إصلاح ذات البين والدعاء إلى الطاعة

وتهجين العقوق بين ذوى الأرحام وما يشاكل ذلك

١ — كتاب فى مشايعة وإطلاب وشفاعة

كتابي — أطال الله بقاء السلار[1] — ومنائح الله عند الملك السيد، والأمير المؤيد، متضمّنةٌ من وفور النجح، وفوز القِدْح، وتظاهر القدرة والإمكان، وتضاعف القوة والإقران، ما يشرح صدور الأولياء، ويجمع أحكام السرّاء، وما أخدمهما فيه جارٍ أحمدَ مجاريه، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين.

ووصل كتاب السلار، فصادف لدىّ المِنّة التى لا أخلو من لُبْسها، ولا أنفك من اجتناء غرسها، وتعرفت من نعم الله لديه ما أجده يعم طبقات الفضل، ويرفع درجات المجد، والله تعالى يواصل المواهب إليه واضحة الوجوه، ويوزعه من شكرها ما يضطلع بالوجوب، إنه يفعل ما يشاء.

وعرفت ما ذكره السلار فى معنى فلان، وعرضته، وكشفت عن الغرض وأوضحته، فقال الأمير: إن هـذا الحديث لو لم يكن متصلا بابن يجب كفُّه عن هجنة العقوق ووصمته، ودفعه عما يحاوله بفضل غرّته، بل كان مع أجلّ منازع للسلار ومراجم، ومضاد فى ناحيته ومزاحم، لما وجد عندنا وعند من تعلّق بحبلنا إلا الإبعاد والإسلام، والانتقام والاصطلام، إذ لا نرى نعمته — فيما يجب من غضّ الأطماع عنها، وقبض الأبواع دونها — إلا لخالص نعمنا، وخاص الممالك المتوسطة له ولنا.

وقد رسم — أدام الله ملكه — لى، فأمرت كلا من فلان وفلان بزجر من يتصرّف

---

(١) سلار معناها سردار أى قائد. وهو لقب لأمراء أذربيجان، ولعله المرزبان، أو ابنه ابراهيم، وقد مرّ ذكرهما فى ص ١٦.

فى جُمَلهم ، ويعتصم بسببهم ، عن معاونة المسفّ إلى العقوق ، إن التوَى به الطريق ، وانزوى عنه التوفيق ، بل أمروا بأن يكونوا له حربا ، ومع مدافعيه من أصحاب السلار إلبا . والسلار يرى فى إعادة فلان رأيا ، فقد طال الأمد ، وكثر الوعد والتردد ، والإيجاب إذا تمادى زمانه ، وتراخت أيامه ، نضَب ماؤه ، واقتُضِب رُواؤه .

٢ — وله فى الدعاء إلى الطاعة والسكون إلى كتاب أمان وما بسَط من الأمنية

كتابى ومولانا معمور الساحة بالعز والملك ، وأنا فى ظله سالم النفس ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

وقد أنفذت إلى حضرته نسخة اليمين التى حلفتَ بها فى تسليم القلعة والضيعة معها إذا أومنتَ ، وأُقْطِعْتَ ما رُمت ، فحمدت الله تعالى على أن هداك وأرشدك ، وسألته أن يوفقك ويسدّدك ، فإنى أعلم أن الضرورة دعتك إلى ما ركبته ، وأوقعتك فيما فعلته ، وصوّرتُ ذلك فى المجلس الشريف حتى تنجزت لك أمان مولانا بكريم صفحه ، مختوما بعالى ختمه ، ووقَّعت فيه بخطى عن نافذ أمره ، وضمنته كذا إلى ذكر الإقطاع ، ومزيد الاصطناع .

وعرفت أنك تؤثر التسلم ممن يصدر عن الحضرة البهية فتسكن إلى مكانه ، وتركن إلى كلامه ، واخترت فلانا إذ كان مع موقعه من رأى مولانا وإيجابه ، وتقدمه فى أكابر حاشيته وحجابه ، يختص بمجْتبى كل الاختصاص ، ويحل عندى محل ذوى الإيثار والإيناس ، فأصغ لكلامه الذى تحمّله ، واغتنم الحظ فى وقته لتحصِّله .

وإياك والمدافعة والمراجعة فإنهما يهدمان ما قد بينته لك ، ويثلمان ما مهدته عنك ، واعلم أنك إذا فعلت ما رسمته تقدمتُ بكذا ، وما بعد هذا أمدٌ يُنْزَعُ إليه ، أو يُعوّق الأمر عليه . وفلان يؤدى إليك ، ما تحقّقه هذه المواعيد لديك . وأسأل الله — تعالى — لك العصمة من الخلل والزلل ، والتعرض لما لا طاقة به ولا قِبَل .

٣ — وله فى إيناس نافر وإحماد ساع

كتابى ومولانا عزيز النصر والأولياء ، منصور الراية واللواء ، وأنا بدولته سابغ النعمة ، والحمد لله ولىّ المِنَّة .

ووصلت كتبك فأحطت علما بما شرحته ، وعرضتُ فى المجلس العالى ما أوضحته ، وكشفت عما أتيته جدًّا واجتهاداً ، واستغراقا للطاعة واستنفادا ، وسألت الله تعالى أن يُحْضرك من التأييد والتسديد ما تسلك به أحمد الطرق وأسعد السبل بمَنّه . وقد أحمد مولانا خدمتك إلى حيث انتهيت ، واستصوب كثيرا مما أنهيت ، فأما اضطراب الرجل بعد أن حلف واستجاب ، والتمس الاستقالة واستجار ، فليس إلا لتخوفه منك ، وتحرزه عنك .

ورأى مولانا إخراج فلان وأصحابه كتبَ الأمان والوعد بالإقطاع وإمضاء ما يوجَب للرجل باتفاق واجتماع ، ومشافهتَه بما يذكره فيستمع له ويعمل به ؛ لأن ذلك الإنسان إذا أبصر رشده ، وعرف قصده ، فقد صلحت حاله واستقلّت ، وثبتت قدمه واستقرّت ، وإن كان منه بعد ما بذل إصرارٌ — ولن يكون — فالانتقام قريب ، والاصطلام مجيب .

وسنبلغ بإذن الله تعالى ما يتأدب به كل جامح(١) فى عنانه ، وطامح إلى ما ليس من شانه ، وأنت تقدم العمل بما رسم ليلتقى فلان وفلان مع الرجل فيؤمَن ، ويَجْمُل وعده ويَحْسُن ، ويُلْتزم له الوفاء ويُضْمَن ، ويَنزل عن القلعة ، ويُفرِج عن الضيعة ، ويرتب فيها من الخواص المقيمين هناك من يَسْكن إليه — إن شاء الله — القومُ ولا ينفرون عنه ، إلى أن يرى مولانا عالى رأيه فيه إن شاء الله .

٤ — وله

كتابى — أطال الله بقاء السلار — ومولانا على أحسن ما عوّد الله خَدَمه عليه ، علوّ شان وسعادة أيام ونفاذَ أمر فيما قرب وبعد ، ومضاء حكم على ما غاب وشُهِد ، وذلك بتفضل الله ومنّه ، ونظره وفضله ، ثم بدولة مولانا الملك ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على النبى محمد وآله أجمعين .

---

(١) فى الأصل : جائع .

ووصل كتاب السلار مفتتحا بما عهدته من جميل يُجزَل منه حظى ، ويُستَنفد له شكرى ، ويُستَوقف عليه إخلاصى وحمدى ، فسألت الله أن يديم له المنَح واضحة الوجوه والسبل ، ويظاهر عليه النم متراخية الزمان والأمد ، ولا يُعدمنى التحمل لأياديه ، والتجمل بما يوليه ، وهو — تعالى — ولى الإجابة .

وعرفت ما قاله السلار بذكر فلان فيما كان عقـده له وعَهده إليه ، ورسمه به وأنم فيه عليه ، وتدبّرت مَسَاقَ الحديث إلى حيث وصف : أن أكابر الولد يستزيدون إلى ما كانوا رضوا بقدره ، ويستضيفون إلى ما كانوا استجابوا إلى أخذه ، ويحاولون أن تُبتَدأ قِسْمَة ، ويُوَفَّوا إلى تلك السهمات مُبْهَمَة ، وتصورت ما اتصل به من حديث حلبانا[1] فيما كان وهب منها ، وحظر الآن من ارتجاعه عن اليد المتصرفة فيها ، للعلة التى ذكرها ، والصورة التى شرحها . وأنهيت الجميع فى المجلس العالى فأصغى له مولانا إصغاءه إلى مثله ، فيما يرد من خطاب السلار ومهمه ، وقال فى جوابه : إن هذا الأمر لسنا نريد فيه إلا ما هو لذلك البيت أحفظ ، ولشمله أجمع ، ومن أسباب الخلاف فيه أبعد ، ولليوم والغد أحوط ، ثم لا نرضى بأن نقول فيه إلا ما نرضاه من مصارف آرائنا إذا أمضيناها ، وعزائمنا إذا أجريناها ، فغاية النصح أن يرضى المرء لأهل وده ، ما يرضاه ويجتبيه لنفسه .

وهـذا الذى عقده السلار ليس بيسير ، فيُطلَق القول بنقضه ، وما أقسم عليه ليس بخفيف فتستجازَ الرخصة فى نكثه ، بل العهود توقَع على وجـه الزمان ، والقَسَم فيها يوضع للتأبيد على الأيام ، فحَلُّها وَهْىٌ ، والرجوع فيها وَهْنٌ . ذلك لو كانت المـدة متمادية ، والمهلة متراخية ، فـكيف والعهد طرىّ ، والتـاريخ فتىّ ، والذكر قد اضطرب ، والخبر قد شرّق وغرب ، وعندنا أن السعى فى إبطال ما أمضى وفسخِ ما أحكم هو الذى يغمر تلك الصدور بالسخائم ، ويثقب فى القـلوب نيران الضغائن ، فلا يدع للخلاف بابا إلا فتحه ، ولا للنزاع زندا إلا قدحه . والسلار بعد ذلك أولى باختياره ، وأحرى بإيثاره ، وأخلق بتدبير بلاده ، وأحق بتهذيب أولاده ، فما عندنا أن أحدا منهم يَتَشجّع — إذا جُزِم عليه الأمر ، وساوى السر الجهر — بمخالفة حكمه ، والالتواء على رسمه ، وقد اعتددنا بأن واضَعنا ما فى صدره ، وأطلعنا على ما فى نفسه ، توفيةً لحقوق المساهمة ، وفروض المودة القائمة .

---

(١) فى الأصل هكذا وربما كانت اسم موضع أو بلد .

وقد أديت — أدام الله عز السلار — ما استمليت عن لفظ مولانا ، وهو عندى وجه الرأى الذى لا خفاء به ، والسلار أعلم منى بالصواب فى مثله ، أجرى الله أموره ، وفقّ[١] اختيارِه وأنفذ فيها أقداره بإيثاره ، إنه فعال لما يشاء .

٥ — ولـــــه

كتابى — أطال الله بقاء الشريفين سيدىَّ وكبيرىَّ — عن سلامة مولانا الأمير مؤيد[٢] الدولة ، وانتظام أمور سلطانه ، وعافيتى بدولته وعلو شانه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على خِيرتِه محمد وعترته .

وقد علم الشريفان أن الصلاح تجتمع أطرافه ، وتُحْرَسُ أكنافه ، باطراح الظغائن[٣] ، ونسوية الظواهر والبواطن ، والأخذ بالخلق السمح ، وترك المشاحّة والشحّ ، وأن المُعَارَّة تورث التباعد ، وتزيل التعـاون والترافد . والأشراف العلوية بقزوين بينهم وبين سائر الطوائف شحناء لا تكاد تسقط جَمَراتها ، ولا تنجلى غَمَراتها ، وقد كتبت فى ذلك كتابا أرجوه يجمع على الألفة ، ويحرس من الفرقة ، وينْظِمُ على ترك المنـازعة ، والجنوح إلى الموادعة ، فإن المهادنة تجمل بين الملتين ، فـكيف بين النحلتين ، والله نسأل توفيقاً لأنفسنا ولهم .

وإذا عرفت لمـا يجرى من ذلك تأويلا ، وإن كان ضعيفا ، فليت شعرى لِمَ بين آل أبى طالب — أيدهم الله — تمارٍ وتباغض ، وتناه وترافض ، وشرّ قد تعدّى إلى إراقة الدم ، وقطع العِصَم ، ونسيان الذمم ، وبيتُ الرسالة يجمعهم ، وظـل النبوة يكنفهم ، ورَحِمُ الوصية تؤلفهم ، وهل ذلك إلا من حبائل الشيطان ومكائده ، ونزغاته ومراصده ، وقـد اعتمدت الشريفين لأمرين عظيمين : أولها وأولاهما إزالة هذا التنازع والتقاطع بين بنى الم حتى يكونوا متوازرين متعادلين ، إخواناً متقابلين ، وإن احتاج بعض إلى احتمال ضيم لبعض ، والتزام هضيمة وغضّ ، فالدين يقتضى ذلك اقتضاء لا رخصة فى تركه ، ولا تأويل فى حله ، ولا عذر فى هجره .

---

(١) فى الأصل : ووفق .

(٢) فى الأصل : المؤيد .

(٣) هكذا فى الأصل بإبدال الضاد ظاءً .

وأنا أتوقع ما يكون من هؤلاء الأشراف — أيدهم الله — فى الاستجابة لما رسمت ، والتزام ما ألزمت ، ومن الشريفين — أيدهما الله — فى إصلاح ذات البين والصبر على إيقاع الاتفاق ، ورفع الافتراق ، واستعادة الائتلاف ، و إماطة الاختلاف ، إن شاء الله تعالى .

٦ — ولــه

إن الله — سبحانه — حين استكفى مولانا من أمر بلاده ما استكفى ، واسترعاه من حال عباده ما استرعى ، وأتاه السياسة التى يُضرَب بها المثل ، ويَعتدِل بها السهل والجبل ، وحمى أيامه من الفساد ، بقدر ما شحنها به من السداد ، ألهَمَهُ أن يتصفح مصارف الرعية ومذاهبها ، ويستشفّ مواقفها وضرائبها ، ليجزى المحسنين إحسانا عميا ، والمسيئين[1] إساءة وتقويما ، فيكون الخير دُولةً بين الأكابر والأصاغر ، وفرصة بين الوارد والصادر ، والعدلُ شاملاً لمن لزم الطريقة المُثلَى ، وأقام على المحجة الوسطى ، والعقاب حالاً بمن زاغ عن سواء السبيل ، وراغ عن ضياء الدليل ، والله يحفظ على الرعايا ظلَّه ، ولا يُعْدِمها فضلَهُ وعدلَهُ .

وهذه مقدمة اقتضاها ، وأوجب الإطالة فى معناها ، ما قد شجر بين أهل قزوين — أحسن الله كلاءتهم — من خصام تنفق أسواقه ولا تكسُد ، وتهب رياحُه ولا تركُد ، ونزاعٍ تتصل مواده فلا تنقطع ، وتُطْبق غمائمه فلا تنقشع ، فهم دائباً بين تباينٍ وجدال ، وتباعُدٍ وقتال ، وتهاجُرٍ وتقاطُع ، وتظالُمٍ وتنازُع ، وما جعل الله فى التدابر صلاحا ، ولا أرى فى ترك التوازر نجاحا . وقد زاد جُهَّالَهم إغراء ، وأغمارَهم إغواء ، أن هذه الغَوَاية قد طال أمدها ، واتصلت مُدَدُها ، وتراخى زمانها ، وانبسط عنانها ، فهم يقدرون أن الاحتمال والإهمال ، والتغافل والإغفال ، سيستمر على طريق قد ألفوه ، ومجاز قد عرفوه ، ولا يدرون أن لكل أجل كتابا ، كما أن لكل ذنب عقابا ، وأن مولانا الأمير — أدام الله سلطانه — لا يُصْطَلى بنار إنكاره ، إذا أقام المعذرة بإعذاره ، ولا يُوقَف لحر انتقامه ، إذا وفَّى الإنذار أوفر أقسامه . ومن قواعد الفساد أن هناك زعماء للعوام ، يحسبون محالهم تَحفَظُ بنصرة السفهاء إياهم ، وركوبهم الصعبَ والذلول فى هواهم ، فهم يحامون عليهم ويدافعون ، ويذودون دونهم ويمانعون ، فجل الرعية مَمنُوُّن بما يجرى إليه هؤلاء المتهوكون ، والفساق المتهتكون .

(١) فى الأصل : المسىء .

ولقد ورد البابَ المعمور من الأشراف العلويّة — أدام الله عزهم — من حكى المظالم التى تُسْتَفظَعُ أخبارها ، و يُفرَضُ إنكارها ، لولا ما أوجبه الدين من التبيين قبل الإقدام ، والتثبت قبل الانتقام ، حتى قالوا إنهم يُمنَعون عن التسوّق والتكسب ، ويُتعَمّدون بالتتبع والتطلّب ، و يُحْوَجون إلى حراسة أملاكهم عن الغارة ، ومنازلهم عن الإبارة ، وما ظننت ذلك يقع فى فهم وفكر ، فضلا عن أن يُشكَى عن مرأى عين ومسمع أذن ، مع أنى قد تخوّلت هؤلاء الواردين — أيدهم الله — بالموعظة والتبصرة ، وأطلت عليهم بالتعريف والتذكرة ، وعرفتهم مايلزمهم من حراسة شرف المناصب ، بشرف الأعمال والمذاهب ، وحماية كرم المنابت ، بالثبات على القول الثابت .

وسبيلك ، يا أخى — أطال الله بقاءك — أن تَعْقِدَ مجمعا تحضره الوجوه والأعيان والأماثل ، والصدور والأفاضل ، دون الأذناب الذين لا يسمعون ، و إن سمعوا لا يَعُون ، وتقرئهم كتابى ، فإن الله يعلم أن بغيتى صلاح عامتهم ، وحصول الخير لجماعتهم ، واتفاق كلمتهم ، وارتفاع الشر من جملتهم ، لا أن طائفة تُلْزَم العدولَ عما اختارته من مذهب وعقيدة ، واجتبته من نحلة ضالة أو رشيدة . فالخلاف متقادم بين الجماعة ، لا يرتفع إلى قيام الساعة ، و إنما يأمر السلطان بأن يلزم كلٌّ ما تخيّره من دون مشارّة ، و ينفرد بما آثره من غير مضارّة ، فمن انقاد لحكمه ، ووقف عند رسمه ، كان قد حمى روحه وماله ، ومهجته وحاله ، ومن أضرم للفتنة ناراً ، ورفع لها منارا ، كان قد أباح من نفسه المحظورَ ، ومن ملكه المحرّمَ المحجورَ ، ولحقه من النكير ما يتركه سُمْعَةً رادعة ، ومُثْلَةً وازعة .

وقوام ما بعثتُ عليه ، ودعوت الكافة إليه ، أن ينفى كلٌّ قوم مَن فى جملتهم من خارب وداعر ، وناعق فى الفتنة وناعر ، وأن لا يقارّوا المتّسمين بالعِيارة ، والمتوسمين بالشطارة ، بل يقبل كل قوم على أمورهم ومكاسبهم ، وشئونهم ومطالبهم ، شاكرين لله تعالى على كلمة الإيمان ، وعدل السلطان ، وخصب الزمان ، مستعيذين به من الأفعال التى تغير ما بهم من نعمة ، وتُحِلّ ما يُخشى من نقمة .

وهؤلاء الأشراف — أيدهم الله — فليُعرَف لهم الانتماء إلى من هدى الله به الأمة ، وكشف الظلمة ، وأنار الدين ، وأبار المشركين ، وهدى إلى صراط مستقيم ، وكان رءوفا

بالمؤمنين ، صلى الله عليــه وعلى آله أجمعين ، وكما يلزم ذلك لهم فليُبْعَثُوا على ما يلزمهم إكبارا لمشيخة العلماء وأعيان الفقهاء — أعزهم الله — ورفقا بسائر الناس ، وتنزها عن المعارّ والأدناس .

ثم إن نفعت هذه الفصول فى أهل تلك البلدة ونجعت ، وكَفَتْ وكَفَّت فالخير أردنا ، والصلاح قصدنا ، وإن عاد عائد إلى ما أنـكر ، وأقدم على ما حُظِر ، فأنهِ — أيدك الله — حاله ، لينالهُ[1] فى جسده وذات يده ما يُزيل عنــه نزوات البطر ، وغفلات الأشر ، وأنَّى ذلك ! فمن تعدّى طوره ، وتخطّى قدره ، فلا يُنْقَبَض بعد توقيفه ، عن تثقيفه ، وبعد الإنذار إليه ، عن الإنكار عليه ، وامدُدْ على العلوية ظلا من الإعزاز والإكرام ، يؤْمِنهم معارّ الجهال والطغام ، إن شاء الله .

٧ — ولــــه

كتابى — أطال الله بقاءكم — ومولانا الأمير فيما يظاهر الله من عزه ، ويُعلى من رايته وأمره ، على أسرّ الأحوال إلى خَدَمه ، وأنا معافى بدولته ، مكنوف بنعمته ، والحمد لله حمدَ الشاكرين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

وكنت أقدر — أعزكم الله — أن كتبكم تتتابع إلى حضرتى فانقطعت ، وأحسب أن رسلكم تترادف فتأخرت ، وزادت معاذيركم ضيقا لما انصرفتم عن مشايعتكم[2] ، فلم تقدموا أنباءكم إلىّ ، ولم تقرّروا صورة مرجعكم لدىّ .

وقد رسم مولانا أن تَرِدوا الباب المعمور لتجدُّد مناظراتكم ، وتقرُّر معاملاتكم ، وتُمضَى إقطاعاتكم وخِفاراتكم ، ويتوسط أبو عيسى أحمد بن إبراهيم أمور رهائنكم ، وتجروا فى مشايعته على ما عهد إليكم ، ورسم لكم . والخيرَة لكم — أعزكم الله — فى التعجل ، وترك التمهل ، وإغذاذ السير والإعراض عن التوقف ، ففى الإبطاء ، ما يعرّض للأئمة والاستبطاء . وليس يَخْتَلُّ عليكم ، ما سبق من إحسان الأمير المؤيد إليكم ، إذ وطّأكم بساط خدمته ، وكنفكم بجناح نعمته ، ووسمكم بميسم الاصطناع ، ومهّد لكم وطاء التكرمة والإقطاع ،

(١) فى الأصل : ولينالهُ .

(٢) فى الأصل : مشايتكم .

ولولا هنات ، وزلات وعثرات ، لما لحقكم فضل استقصاء فى ارتهان من ارتُهِن ، وامتهان من امتُهن .

وهذا أوان التلافى لفرطاتكم ، والتدارك لغلطاتكم ، لتعود صوركم كأجمل ما عُهِدت ، ومنازلكم كأقرب ما تُعُوِّدت ، فقابلوا مارسم بالمسارعة ، وحسن الانقياد والمتابعة ، ولا تجعلوا كتابى هذا عُرْضَةً لجواب تتكلفونه ، واعتذار تزخرفونه ، وإياكم وسلوك طرق التحكم التى لا تحمد مصائرها ، ولا تستعذَب مواردها ، فإن السلطان إذا استُعطِف كان إسعافه أقرب ، وإنعامه أخلق . وإن ذهب ذاهب منكم عن الطريق الذى نهجته ، وأخلّ بالمذهب الذى أوضحته ، فإلى نفسه قد أساء ، وعليها جنى ما شاء ، وكان بها مُعَرِّضا ، وللنكير متعرّضا ، ولسوالف حُرُماته مُضيعا ، ولدم رهينته مُشيطا .

وأنا أرجو أن يحضركم من التوفيق ما يُصلح فاسدكم ، ويؤلف شاردكم ، ويجدّد ذرائعكم ، ويكثر شوافعكم ، فتدبروا — أعزكم الله — ما أوردته من الخطاب وأصدرته ، وأبدأته من القول وأعدته ، فإنى لم آلكم نصحا ولا تبصيرا ، ولم أدَّخر عنكم تنبيها وتذكيرا ، بل دعوتكم إلى ما عليكم تظهر عائدته ، ولكم تحصل فائدته ، ورجوت معه أن تكون الصنيعة لديكم زاكية ، والنعم عليكم وافية ، فلا تجاوزُنّ عن هذا الخطاب بأن القلوب تنافرت ، والنفوس انزعجت ، لاعتقال من اعتقل ، فإن ذلك ما اسْتُجِيز ولا فُعِل ، إلا بعد جرائر وجرائم ، وكبائر وعظائم ، وبعد أن رَدَعْنا فلم تَرْدَعوا ، ومنعنا فلم تمتنعوا .

ولو لم يكن فى استخدامكم رغبة لما احتيط عليكم ، ولا استوثق منكم ، ولتركتم سُدًى تتفرقون كيف شئتم ، وتنزقون كيف أحببتم ، ولكن مولانا أدّبكم ليستصفيكم ، وهذبكم ليُدنيكم ويخصكم . وعلم — كبت الله أعداءه — أن الذى أسلم أموركم للخلل ، وأفقدكم الصواب فى القول والعمل كان لتحزّب أهوائكم ، وتشتت آرائكم ، وأنفةِ كل واحد من الانقياد لصاحبه ، وذهابه بنفسه عن وطء عَقِبه ، فتحرّى — أدام الله أيامه — جمع كلمتكم على من تقدمت له الرياسة فيكم مكتسبة ومستورثة والإمارة بينكم متقادمة ومستحدثة .

وكل ذلك مما يقتضى صفاء نياتكم وعقائدكم ، واستواء غائبكم وشاهدكم ، وأن تعرفوا حق النعمة فيه بتجنب جحودها ، والقيام بوظائفها وشروطها . وقد تحمّل فلان فى المجلس

العالى ما يؤديه على جهته ، ويحكيه لـكلٍّ على صورته . والله ولىّ التسديد ، وعليه التعويل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٨ — ولـــــه

وصل كتاب السلار قد أعارنى فيه من أوصافه الجميلة ، ما تجاوز أحكام النعم الجسيمة ، إلى ما يَريب اللبيب من لبه ، ويغطّى عليـه مصارف فعله ، و[١] كسانى من التقريظ ما لا أعرف به نفسى ، وإن أمّلت استحقاقه بما نبّه عليه من أمرى .

والسلار ينظر إلى أحوالى بعين الود ، وطالما قد حسّنت القبيح ، وكثّرت القليل ، وعظّمت اليسير ، وإن كانت لى محاسن فهى معدودة فى قطرات بحره ، ومكرُمات فخره ، إذ كنت من تلاد بيته ونعمته ، وفى عداد المخصوصين برأيه وبركته . وأعود لحديث فلان وما قاله السلار فيـه واصفاً مصارف الأيام ، ومواقف الاهتمام ، ومجارى العزم ، ومسالك الرأى والفهم ، وما رآه فى بابه ، وارتضاه له من أسبابه ، فسألت الله للسلار طول المدة ، وتراخى المهلة ، وثبات الوطأة ، وحراسة المهجة ، ما كان للفلك مجرى ، وللنجم مسرى . وصادفتُ ما أنـكر فيه ، مضاهياً عزائمه التى يكنفها التوفيق من جوانبها ، ويلتحف التسديد على أنحائها ومذاهبها .

وعرضت الـكتاب فى المجلس العالى فقال مولانا : إن فلانا كان خاطبنا السلار بذكره ، وخطب ما خطب فى أمره ، وبعدُ فهو نجيب بيته ، ووسيط أهله ، وغصن من شجرته يُرْجى ثمره ، ويؤمل تكثّره ، وطاعة السلار علينا بالأبوة ، والاصطناع إليه فريضة لا تُهمَل ، ولازم لا يُضاع ، ونحن نحب له ما أشير إليـه ، ونشير بمثله عليه . وقد كاتبناه وحضضناه على ما فيه حظّه من حضور السلار متصرفا على حكمه ، وممتثلا لرسمه ، وروسل على لسان فلان ما يزيد فى انشراح صدره ، وإمضاء عزمه . وأقول مع هذا عن نفسى : قد علم السلار أن فلانا وإن كان نسبته إليه أدنى ، وهو بتدبيره أحق وأولى ، فهو لمولانا ولد قد اصطفاه ، وعضد قد ارتضاه ، فالعيون تطمح إلى ما يوليه السلار عند هـذه الحال ، وما كان منه إليه فهو بعين مولينا وأُذُن ، لا سيما إذا كان بعد مشورة من عنده وإذْن .

---

(١) فى الأصل : أو .

٩ — ولـــه

وصل كتابك تذكر موردك على سيدى ملقَّى من الإكرام بتلقيه، ومن الإيثار بتحفيه، ما خصَّنا مَنُّه ولزمنا حَمْدُه، وتصف ما صادفته عليه اهتزازاً لما أدّيته، وارتياحا لما أنهيته، وعلما بأن الذى كُرِّرَ على سمعه، واعترَض بينه و بين حزمه، من اختلاف أعداء لنا، وله، طالما اعترض الشجى فى حلوقهم، وتردَّد القذى فى عيونهم، وظنوا أن الذى يسعون فيه يروّح عن قلوبهم، ويَفسح فى آمالهم وظنونهم، ولم يدروا أن وراء ذلك من تكفُّلِ الله ما يعيد أمانيَهم على أدراجها خاسرة، وأيديَهم دون امتدادها قاصرة. وتمثلنا ما كان منه استقراراً فى مركزه المعمور بالرشد، وتصرفا على أحكام رأيه الصدق، وعزمه الثبت، و إفصاحا بالتزام أحكام الصفاء، وخلوص العهد والوفاء، وقد علم الله أن الذى كان يسوءه مما جرى ويُثقِل، ويُحرج، ويُزعج، ويكدر صَفْوَ النعمة فى الموهوب منه إذ كان قسيم المهجة، والشريك قبل النعمة، فى العمر والمدة، تقديرُ أعداء الدولة أن الذى ابتدأه إلى تمام، وما أنشأه إلى نظام.

فالحمد لله الذى أرى القريب والبعيد والدانىَ والسحيق أن على ألفتنا عينا منه كالئة، ويدا من رعايته واقية، فإذا عنَّت شائبة لم تلبث أن تقشَّع سحائبها عن إضاءة تعاضدٍ وتآزر، و إشراق ترافد وتظاهر، ثم الحمد لله الذى أسْعَدَنا جميعاً من طاعة مولانا بما يحفظ على الأعمار امتدادَها، وعلى الأيدى اشتدادَها، وعلى الدعوة تحصّنها، وعلى الدولة تمكنها، و إياه نسأل أن يطيل بقاء مولاى كما لطف، لإزالة الشبهة عن نفسه، ونَسْخ الشك باليقين عن صدره، وفقنا الله تعالى لإيفائه حقوق المشاركة، وفروض المخالصة، وأرانا فيه غاية محابّه ومحابّنا له، وأناله فى مصالحه مراده وآماله، فرأيك — أدام الله عزك — فى التسرع إلى حضرتنا، والعلم بحسن موقع سفارتك من محمّدَتنا، إذ كنت المتبرِّك بقيامه، المسكون إلى مَنابه، موفقا إن شاء الله.

١٠ – ولـــه

السلار أقوى عزيمةً ، وأصح بصيرةً ، وأحسن بالأيام معرفةً ، وأتم بالزمان خبرةً ، من أن يرضى لأفعاله بالتناقض ، ولخلاله بالتدافع ، ولعقوده بالتهافت ، ولشروطه بالتفاوت ، وحين عاد فلان وفلان فأدّيا ما هو الجميل المقدرُ من مثله ، والرأى المقررُ فى نتائج فضله ، حمدت الله كثيراً ، وشكرت له طويلا ، ووجدت إلى الخدمة فى الجهتين طريقا فسيحا ، ومجالا رحيبا ، وقلت الآن حين أُجَلِّى عن عقيدتى ، وأفصح عن طويّتى ، فلم يلبث الكلام بين السمع والقلب إلا أقلَّ من رجع الطرف ، حتى أتت الأخبار بما شرع فيه أصحابه من بناء حصن بقرب من زَنجان [1] كان الكف عنه واقعاً ، وتوخِّى مرضاة الأمير السعيد — قدس الله روحه — بالإمساك دونه سابقاً ، فوجد مولانا هذا الصُّنْع منافياً للرسائل المتحمَّلة ، متجافياً عن الشرائط الملتزَمَة ، فإن الحصن و إن بناه السلار فى ناحيته ، ورفعه فى مملكته ، فمثله إذا أسس محادًّا لهذه النواحى موحش ، والاشتغال به بعد الإعراض عنه فى سالف الأيام محرج .

والسلار يطيع الرأىَ الثاقب ، لا الهوى الغالب ، والصوابَ الأصيل ، لا الخطأ الدخيل ، ويحرس الحال بين مولينا و بينه عما يريب السامع ، وينطق الحاسد ، و يوقع النِّفار من الجنبتين ، ويقدح فى صلاح ذات البين ، فقدرُ هذا الحصن معروف ، وخطر الجدوى فيه معلوم ، ووزن الضرر فى إعفاء رسمه مضبوط ، وقد بادرت بخطابى إلى حضرته ليصيخ لمودَعه ، ويُحكِم إجالته فى تتبعه ، فإن وجدنى صدعت بالنصح أصغى له إصغاء قابل ، و إن اعترضه الشك أعرض عنه إعراض دافع ، وقد أوحش هذا الفعل كل الإيحاش ، ليس للحصن ومقداره ، ولكن لتصيير أول الصنيع دليل أعقابه . وما أطيل علماً بأن الإيجاز يكفى مع تمثله كل أمر على وجهه ، وسَبْرِهِ بجزالته واستدراكه لغوره ، فإن رأى — أدام الله عزه — أن يجيبنى جواب من يحرس مخاطبَه عن المعارضة ، وناصحَه عن المناقضة ، ويغلِّب مودّات العظماء على بناء المعاقل ، فإنها الحصن فى العاجل والآجل ، فعل إن شاء الله .

---

(١) زنجان : بلد بأذربيجان .

الباب السابع

فى المدح والتعظيم

١ — كتاب إطراء وتعظيم وإظهار عناية

جنابُ السلار مولاى الجنابُ المورود المعهود ، ولقاؤه الطائرُ الميمونُ المسعود ، فعَيْنا كل بعيد عنه تحسدان ناظرَىْ كل قريب منه ، ولا غرو فالواحظ تأنس بالروض مَوْليًا(١) والزهر جَنِيًّا ، والذهب مسبوكا ، والوشى محبوكا ، فكيف أنسها إذا نظرت إلى حدائق مجدٍ دَثْر ، وأنواع عزٍّ غَمْر ، وحظيت بربيع كرم جَمّ ، وشرف ضخم ، حيث البيت رفيع ، والجناب منيع ، والفضل وسيع ، والشِّيَم حِبَر ، والألفاظ درر ، والليل سَحَر ، فلقد افتتحت كتابى مع الشريف وأنا أغبطه ، وإن كنت أعتبط له ، وأنافِسُه ، وإن كانت نفسى نفسه ، لما يأمله من مشافهَة المحاسن بارزة ومكنونة ، ومشاهدة المحامد راهنة ومضمونة .

وحين راسلنى السلار بإصداره إلى حضرته تمنيت لو كنت المستدعَى ، وآثرت أن أكون المستدنَى ، فرؤية أفراد المجد والفضل فرص العمر ، ونهز الدهر ، والأيام شِحاح كعادتها فى التنكد ، وشيمتها فى التعقد ، فأما الشريف فقد جمع شرف منصب عميم ، إلى شرف خلق عظيم ، يستمد المودّات إلى نفسه ، ويستجرّ النيات إلى حبه ، ويسلم على السَّبْر ، سلامة الإبريز على السبك . ثم حاله عندى حال تفتقر الأخوة إليها ، وتُعَدُّ الرحم الماسة عُلاوة عليها ، فإنى خبرته على تصرف الأوقات فكان النقىّ الجيب ، البرىء من الريب والعيب ، يتناسب أصله وفرعه ، ويتناصف نجره وطبعه . وخدمته للسلار قديمة ، وموهبة الله برأيه جسيمة ، إلا أنى أحب أن يكون لمصدره عنى ، وموقعه منى ، مكان أخصّ مما سلف ، وأعز مما سبق ، ليس لأن على الأول مستزاداً ، ولكن قد استحسنوا الفضل معهوداً ومستفاداً . وإذا يسّر الله له من السعادة فى لقائه ومشهده ماقدره ،

---

(١) المولى : الذى أصابه الولى وهو المطر الثانى .

وقضى من تجديد العهد ببابه ومجلسه وطرَه ، فالإذن له فى الاجتماع معى على بث فضائل السلار ، إحدى مُنَنه ، بل واحدة مِننه ، وأمره ونَهْيُه متوقعان لاعدمتهما وجميلَ إحماده فيهما .

٢ — وله تقريظ وتشكر

مكاتبة الشريف — أطال الله بقاءه — من فرص الأزمان وغُررها وحُجُولها ، فالنفوس الشريفة تُنافِس فيها ، وتشاحُّ عليها ، وتُشيح إليها ، إذ كانت مودته تصدر عن عَرْصةِ المجد والكرم الدَّثْر ، وحَوْمةِ الفضل والشرف الغَمْر ، ولا غرو فالعرقُ بين الرسالة والإمامة ، والدينُ دينُ العدل والاستقامة ، والخلقُ سَمْحٌ سهل ، والعادةُ برٌّ وبَذْل ، والأدبُ فائض فسيح ، والعَقْدُ ثابت صحيح ، والعهدُ قوىٌّ لايُثْلَم ، سَوِىٌّ لايُكْلَمَ .

وعرض علىّ قاضى[1] القُضاة فصلا من كتاب الشريف إليه قد أودعه ما أطَابَهُ من ذكرى ، وأطاله سيدى ، فلم أستبدعه من ذلك الخيم الكريم ، والخلق العظيم ، وأين أبلغ إذا اجتهدت واحتفلت ، واحتشدت واستقللت ، مما يلزمنى للسادة من هذه العترة التى ألبسها الله العز تفضيلا ، وردّاها الكمال تقديما ، وأذهب عنها الرجس وطهرها تطهيرا . واتفق أن قرأت تتمة الكتاب ارتياحاً لمساقط لفظه ، واهتزازاً لآثار يده ، فعثرت بالحديث الذى كان كتابى نفذ بذكره ، وما شكاه الشريف أبو الحسن من صِنْوِه ، وآثره من ترتب موثوق به ، مسكونٍ إلى دينه وسَتْرِه ، وسألته عما نتجه خطابى فشكر اهتمام الشريف بما أراده ، وأنّ وقف الأمر لتميّل الرأى فيمن ارتاده ، ونشر الشريف أبو طالب مثل ذلك نشراً حَسَنَ مسمعه وموقعه ، وأضاء مطلعه ومجمعه .

وقد قدمت فى كتابى[2] الأول من وصف الشريف أبى الحسن ما الله العليم بأنى لم أستقص معه حقه ، ولم أستوف حظّه ، إذ كان ممن زان الله به شجرة الوحى والتنزيل ، وعترة الرسول ، والوصى والبتول ، صلى الله عليهم أجمعين ، وإن رغمت معاطس الناصبين . وهذا الشريف أبو طالب يُرَى به علمه وراء سنّه ، وقد زاده الله فضلا إلى فضله ، وجُعِل

---

(١) لعله عبد الجبار بن أحمد الذى مضى ذكره فى ص ٣٤ .

(٢) فى الأصل : كتاب .

حلية بين أهله ، وما اقتضت الحاجة أن أبسط هذا البسط ، وأقصد هذا القصد ، لا سيما مع أشغالى التى أحاسب نفسى معها على اللفظ أقتضبه ، والسطر أكتبه ، ولكنى أجد فى الإفصاح عن محاسن سادتى روحا فى نفسى فيستحضر الهزة ويبرد الغلة ، ويجلو الصدى ويقوّى المُنَّة . وإذا سمحت الأيام منهم بمن يعمر بيته معرفة بالله وتفقها فى دين الله فذاك الطيبُ أصلُه وفرعه ، والزكىُّ بذرُه وزرعه ، يختص بى اختصاص العضو بالجثة ، والبعض بالجملة . وقد نصَّ الشريف لذلك المسمى وهؤلاء الأصحاب على من تقدمت خبرته لأمره ومعرفته بسبره . والشريف قد ابتدأ المِنَّة فليتمم ، وقد أسرج فى العارفة فليلجم ، فلو كان الكلام فى قضاء الجانبين[1] ، والصلاة فى[2] الحرمين ، لكنى ما أصدرته من خطاب ، وخطبته من إيجاب ، وكتاب الشريف متطلّع بخبره ووطره ، واهتمامِه فى هذا الأمر ونظره إن شاء الله .

٣ – وله فى الإحماد والتأنيس والبسط من الأمل

كتابى ومواهب الله تعالى عند مولانا الأمير المؤيد فيما يُمضى الله من حكمه ، ويُسعد من نجمه ، ويُنفذ من أمره ، ويُعز من نصره ، ويرفع من لوائه ، ويظاهر من بسطته وعلائه ، على مايقتضيه تصرف الأقدار على اختياره ، واستجابتها لإرادته وإيثاره ، وأنا سالم فى ظله الظليل ، ورأيه الجميل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

وكتب فلان يخبر بما كان منك حضوراً عنده ، والتقاءاً معه ، وإخباراً عن الحال التى أزالت عن المحجة القاصدة ، والمعاذير التى ألجأت إلى الاختبارات الفاسدة ، وأنك قد تبينت ماهو أحمد حاضرا ومغيّبا ، وتحققت ما هو أسعد بدءاً ومعقّبا ، وألزمت نفسك من فروض الخدمة أضيَقها ، واعتلقت من حبال الطاعة أوثَقها ، حتى تقابَلَ إعلانك وإسرارك ، وتناصف كتمانك وإظهارك ، وعلمت كيف الطريقة المُثلَى ، وأين العروة الوُثقَى . وشهد بما شاهدك عليه صفاء نية ومعتقد ، واعتصامِك بولاء مستخلَص ووفاء

---

(١) لعله يريد جانبي بغداد (٢) فى الأصل : من

معتمد ، و بسَط القول فى ذلك بسطاً سألنى معه أن أكون بحضرة مولانا كفيلا بما بذلته وزعيما بما ضمنته ، وأُنفذَ ماحلفتَ عليه منتهياً إلى أقصى آماد التوكيد ، وسارعت إليه فى ضمـان الرشاد والتوفيق ، فحمدت الله تعالى على أن أحضرك من العزائم أرضـاها ، ومن الآراء أقواها ، وعدل بك عمـا لا تُحمد دلائله ، ولا تؤمن غوائله ، ولا تُرجى محابه ، ولا تسلم مغابّه .

وقد علم الله أنى لم أزل لحقك موجباً ، وفى اصـطناعك مرغباً ، ولتنبهك على حظك مؤملا ، ولتبينك موقع رشـدك متمثلا ، ولمن جاورك من العمال فأساء عشرتك ، وقبح مجاورتك ، ذاماً لائمـا ، ولتوبيخه وتهجينه مكرراً مداوما ، وقد عفا الله عما سلف ، وجلّل صفحُ الأمير المؤيد ما فرط . وأوردت فى مجلسه الشريف عنك ما وثق كل التوثقة بك علما بأن امرأ أُنزله هذه المنزلة من قيامى ، وأرتّبه هذه المرتبة من اهتمامى ، كيف يقابِل بالجد فى تحقيق ما أورده ، وكيف يعاجِل بالاجتهاد فى تصديق ما أضمَنه .

وقد جمع مولانا لك بين التجاوز عما سبق حتى سقطت المحاسبة عليه ، والمراقبة عنه ، و بين إحسانٍ يبلغ المراد ، و يعجّل الإسعـاد ، وتقديم يزيد فى الخطر والرتبة ، ويَنْظم بسط الجاه إلى تقوية المنة ، وستخطب ألسنة الأيام بمـا تلبسه من رياش الحُظْوَةِ ، فتأسف على مافات من أوقاتك ، وتَراخَى من أمد سـعاداتك ، وكل الذى عقده فلان معك مُمضَى على التأبيد ، مُجرًى على التخليد ، لايتعقّبه نسخ ، ولا يتتبعه فسخ ، وأنا بالجميع متكفل ، ولحصوله وحصول أوفر منه متنجز ، ولله المشيئة .

وعليك أن تظهر من إخلاصك ، ما يبعث على اختصاصك ، وتبدى من ولائك ، ما يحث على اجتبائك ، فلن يمضى إلا يسير من الزمان حتى يُحْمَد الله تعالى على المنـاجح التى تصافحك ، والخيرات التى تغاديك وتراوحك ، ومِلاك ذلك أن تحرس طاعتك عن التلون ، وعقيدتك عن التنقل ، ليعرف ثباتك على ما تعتقده ، واستمرارك على ما تصدره وتورده ، وتأتى فى زمرة الأصحـاب ، والتشدد على أهل العيث والفساد ، ما يطيب خبره ، ويحسن أثره ، وتتظاهر أنباؤه ، وتتضح مذاهبه وأنحاؤه ، وتأنس بالخدمة والطاعة أنس الأصيل فيها لا الدخيل ، فيسمع صاحبك — إذا ورد الباب بمشيئة الله — ماتوقن معه أن

الثقة إليك توجهت ، والظنَّة عنك قد صرفت ، وفلان يزيدك فى هذه الأبواب بصيرة ، ولا يدّخر عنك فى النصائح ذخيرة ، وأنا أنتظر ما تنهيه حالا فحالا ، وتَرِد به كتبك تواليًا واتصالا ، مع ذكر أخبارك ، وعارض أوطارك ، إن شاء الله .

٤ — وله تشكر وتزكية وإحماد

كتابى عن سلامة قد هنّأ الإنعام فيها وسوّغه ، وظاهر الإحسان بها وأسبغه ، ما يتابع الله لمولانا من السعادات التى فاتت الأعداد وسبقتها ، ووصلت الموادّ ونسّقتها ، ومن أقربها عهدا صرفه — أدام الله علوه — للأعنة إلى جوار الخلافة ، ومثابة الكافة ، بعد أن تهذّبت فى أحوال الديارات والجزائر عراصُها ورباعها وأطرافها وقلاعها ، ومُحِيت آثار المخالفين المثبورين ، ورتب من استكفى من الأولياء المنصورين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ولئن كان السلار موفقا فى أحواله وآرائه ، مسدّداً فى أعماله وأنحائه ، واضعا أموره مواضع الصواب والرشاد ، مورداً عزائمه مشارع الاستقلال والسداد ، إن الذى أتاه فى أمر الولد الأثير فلان حين استكفاه واستعمده ، واسترعاه وقلده ، وقدمه على أكابر الولد مائلا عن المحاباة إلى الاختيار الصحيح ، وجانحا بالممالأة إلى الرأى الصريح ، هذا إلى ما أسنى له من أعطيته(١) ، وتغمده به من أحبيته ، كذلك من محاسن شيمه ، ومعاطف كرمه ، على ما يتقدّم ألسنة التقريظ ، ويُعَدُّ الواسطة بين الإفراط والتفريط .

ومن اشتبهت عليه صورة ما أراده ولم يعرف فيه نيته واعتقاده ، فالحال لدى واضحة السنة مشرقة السحنة ، لا تستبهم عند التدبر ، ولا تستعجم على التحقق والتصور ، وذلك أنه مع قضائه فى فلان حق الولادة والنجابة ، وذمامَ الأصالة والإصابة ، أجرى بما أتى ، إلى الأسرّ إلىّ ، والآثر لدىّ ، واختص من ولده من كان سببه بحضرتى أقوى ، ومكانه من عنايتى أقرب وأدنى ، فالنية متمثّلة ، والمنة متقبّلة ، والمبَرّةُ معظّمة ، والمقابلة ملتزمة .

وكنت أحسب كتاب السلار ، بما عقده من هذه الحال ، أوّلَ طالع ، فلما أبطأ عن

---

(١) فى الأصل : عطيته .

حينه ، وأخطأ الظن بعد يقينه ، أحسنت التأويل له وقلت ، إنه لما رأى ما جدد مبرةً إلى حضرتى أداها ، وحسنى بعنايتى أهداها ، كره الكتاب بما يجرى مجرى الاعتداد ، الذى يُصَان عنه خلوص الاعتقاد .

٥ — وله فى البر والإحماد

كتابى وأمورُ الحضرة فيما يحرس الله من عِراص ملكه ، وينفذه من أمره وعزمه ، ويمضى على الأرض وبنيها من حكمه ، جاريةٌ أسعد المجارى وأفضلها ، ومستمدة أشرف النعم وأجزلها ، وأنا سالم بدولته — ثبتها الله — ورأيِه — أعلاه الله — والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك فكان ما تصفحته من فصوله صادرا عن العقل الرصين وتوفيق الله اللطيف ، وتلك عادته — عز اسمه — فيمن أخلص للدولة القاهرة نيته ، وعقد بموالاتها عقيدته ، وسرّنى الله بخبرك فى السلامة ، وجَرْى الأمور لك على منهاج الاستقامة ، وهو — تعالى — يوكّد ما منحك وقسَم لك ، ويحرس ما أعطاك وخوّلك ، ولم تُضْفِ من وَصْفِ طاعتك لمولينيا — أدام الله علاهما — إلا بما شهد القلب لصحته ، ودل على وضوح صفحته ، إذ كانت هذه الطاعة تُيسّر لمن كتب فى السعداء ، وأوتى فضل الله فى استمداد النعماء ، فلا يثابر عليها مثابر إلا قرت عيناه وانبسطت يمناه ، وبلغ مراده وصافح مبتغاه .

وقد أوردتُ ما أنهيتَه — فى المجلس العالى — مورده ، وأوقعته من الإحماد الشريف موقعه ، ومولانا واقف عليك من محمدته وارتضائه ، وعنايته وجميل رائه ، ما تصغر أعراض الدنيا فى جنبه ، وتنال مُنَى النفوس ومطالب القلوب منه ، وقد أدّى رسولاك ما تحملاه ، وأعيد إليهما جوابُ ما أورداه ، فكن — أيدك الله — منشرح الصدر ، قوىّ الأزر ، بسيط الأمل ، فسيح الرجاء فى مسلك الوطر ، فإن هذه الرعاية الكريمة ستسفر لك عما يغبطه الولى المصادق ، ويشاحك فيه الأخ الموافق ، واهتمامى بذلك متكفّل ، والموعود به متنجّز بمشيئة الله ، وإذا عاد الجواب عما كتبتُ به [إلى[1]] الحضرة العالية أتاك كتابى على شرح تعتمده ، ومثال تقصده بعون الله .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

٦ — وله فى التأنيس وبسط الأمنة

كتابى — أطال الله بقاء الإستيذار — ومولانا فيما يرفع الله من كلماته ، وينصر من راياته على أسعد ما عوده الله فى مجارى الأمور ومصارفها ، ومشاهد القدرة ومواقفها ، وأنا سالم فى ظله ، والحمد لله ، وصلاته على النبى محمد وآله .

ووصل كتاب الإستيذار ، فاشتد سكونى ، وتضاعف — بما عرفت من ترادف النعم عليه — سرورى ، وسألت الله أن يجعل منائحه عنده حاضرة لا تغيب ، وراهنة لا تعزب وتستجيب ، إن الله تعالى فعال لما يريد .

وعرفت ما وصفه الإستيذار من تصرفه منذ كان على طاعة الدولة القاهرة يسوّى فيها بين سره وإعلانه ، ويثابر عليها مثابرة لياليه وأيامه ، وذلك — ولله الحمد — مشهود منه ، لا يحوج إلى إقامة شهادة ، وموعود لا يضطر إلى استزادة ، ومولانا مُحْمِد لمذاهبه ، راضٍ عن شاهده وغائبه ، ناوٍ فيه ما ينويه — حرس الله ملكه — فى أخص المُعْتَزِين إلى رائه ، والمُعْتَزِّين بولائه .

وقد حضر فلان المجلس فأدّى المشافهات ، وحكى وجوه المهمات ، وسمع فى الجواب ، ما أصـــدره لسان الصواب ، ثم حضرنى فجاوبته ما يؤديه ، ويعرف الإستيذار مقصدى ومعتقدى فيه ، بإذن الله ، فإن رأى أن يواصلنى مواصلة الواثق ، ويسترسل فى المهمات والعوارض ، فعل إن شاء الله .

٧ — وله فى إعظام النعمة فيما يكسب من الإحماد ويوفق فيه من لزوم الطاعة

كتابى — أطال الله بقاء مولانا الملك — والأمير مكنوف بنعمته ، وأنا مسعود بخدمته والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووقف خادم مولانا على ما أهل له من المجلس العالى خطابا ألبس به إحمادا عما أداه وأنهاه فلان ، وفقنا الله معا للخدمة المفروضة وشكر النعمة الموفورة ، وعبد مولانا وابن عبده ، إذا ورد عليه ما يفوت مرمى أمله وظنه لم يكمل لجواب ، ولم يشجع لخطاب ، فيجعل الدعاء جُنّته ، ويَجْمَع عليه سره وعلانيته .

والله يطيل بقاء مولانا مصرفاً للأيام والزمان والأقـدار والأمصار ، فلا يزال خدمه فى ارتفاع نواظر ، وكُفّار نعمه بين مهالك ومحاذر . والمهمات التى رسم مخاطبة خادم مولانا فيها يوكّل بها همّه ، و بصره وسمعه ، و يستنزل توفيق الله فى أداء لوازمها ، وسلوك مناهجها ، و ينهى ما يتجدد فى كل أمر على سنّة أمثاله بمشيئة الله .

٨ — وله إيجاب وإيناس ورفع وتنويه

كتابى ومولانا سابغ ملابس البسطة ، متظاهر الملك والقـــدرة ، وأنا سالم بدولته البهية[١] وكلته العالية ، والحمد لله وصلواته على النبى محمد وآله .

ووصل كتابك سارّ المطلع والموقع ، بارّ المورد والمودَع ، فـكان ما ضمّنته من خبرك فى سلامة — يسوّغك الله موادّها — ونعَمٍ — يثمّر لك أعدادها — زائدا فى الارتيـاح لتدبره ، وانشراح الصدر لمصدره ، والله يوالى إليك منائحه آتيـة من وراء الآمال ، مواتية لأسباب الإقبال .

وقد عرض كتابك فى المجلس وصادف من إيجاب مولانا [ما[٢]] قد بشرتك بوصفه ، وشحنت سابق كتابى بذكره ، و إنه ـ حرس الله أيامه ونصر أعلامه لنا ولك أدام الله عزك ـ وفاك[٣] ما يُوفى على أصفى مباغيك ودواعيك ، إذ كان مَبْنَى سياسته الـكريمة ، على إعزاز ذوى البيوتات القديمة ، وأنت ـ أيدك الله — فى واسطة فضل لا تخفى مذاهبه ، ولا تغمض معاقده ومناصبه ، وعندى من تمهيد هذه الحال عند كل ذكر تقتضيه ، وأمر يسوّغ الشروع[٤] فيه ، ما تطالبنى به محاسنك ومناسبك ، ومحامدك وضرائبك ، وسيعين الله بدولة مولانا على ما فى النفس قضاء للوازمك التى تحض المروءة عليها ، وتُهيب الحرمة إليها .

وفلان يعرفك ما رسمت إخراجه من معاملتك ، فتعلم أنى احتطت لك احتياط الصديق ووضعت النظر والتسويغ وضع ذوى الاهتمام الصريح . وحذفت ما كانت العميدية والقمية ألزمته[٥] من صروف وطالبت به من قروف . وأما المكاتبة عن الديوان المعمور فقد تقدمت بزيادتك فيها والتبليغ بها إلى رتبة لا أعرف أحدا يكاتَبُ بمثلها ، ولا كوتب منذ استقر

---

(١) فى الأصل : إليه .
(٢) زيادة للسياق .
(٣) فى الأصل : وفيك .
(٤) فى الأصل : الشرع
(٥) فى الأصل : وألزمته .

مولانا على سرير ملكه بالرىّ إلا بما هو دونها ، وعنايته — حرس الله ملكه — تضاعف لك على الأيام إكراما إلى إكرام ، وتصل إنعاما بإنعام .

٩ — وله

وصل كتاب مولانا بذكر الحِلف الذى رسم مولانا عقده عند وروده البصرة بين سعد وربيعة ، أخذاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأوس والخزرج حين وافى المدينة ، وقد تحيّفت حروبهم أعدادهم ، وضاعفت أحقادهم ، واستفزت أحلامهم ، وبرَتْ أجسامهم ، وفرّقت أهواءهم ، وأراقت دماءهم ، وتخوّنت أحوالهم ، وانتسفت أموالهم ، فجمعهم على السلم مع الإسلام ، وألف الله بين قلوبهم بيمامن الإيمان .

وقد كان هذا النزاع — أطال الله بقاء مولاى — والنزال ، والعراك والقتال ، تالى ما حكيت فى إحَنٍ تثار ، وعقول تستطار ، وأملاكٍ تنتهب ، ودماء تهدر ، وضغائن لا تَخْلُقُ حتى تُستَجَدّ ، ولا تنحسم حتى تُستَمَد ، قد شابت عليها مفارق الزمان ونواصى الأيام ، واندرج فى مضارّها ومعارّها من لم يكن يضرب فى الحَيَّيْنِ بعرق ، ولا عُدَّ منهما[(١)] فى شِعْب ، سوى خُطَّة جلبها الاشتراك فى الخِطة ، ودائرة ولدها تجاور الدار والحِلّة ، فذكرت بهم الحروب المتطاولة كحرب ابنى[(٢)] وائل وقد دامت ثمانين ، وحرب ابنى قَيْلَة[(٣)] ، وقد بقيت مائة وعشرين ، وكتب الله لمولانا من جمال هذه الألفة وفخرها ، وثوابها وأجرها ، مايوازن الجبال ، ويعادّ الرمال ، فكم خائفٍ أَمِن ، وفضل رهن ، ودم حقن ، وحِمًى حرس ، وصلاحٍ غرس ، وسدادٍ أسس ، ونَشْرٍ ضم ، وشعث لمّ ، وخير أتمّ ، وسيف أغمد ، وضالٍّ أرْشد ، وهدى مهد ، لا زال العالم فى ظل سلطانه ، وفضل زمانه .

وأما الكتاب الذى أنشأه مولاى فى هذا الأمر فعقيلة الدهر ، ويتيمة الفضل ، وزبدة الأحقاب ، وفصل الخطاب ، أقول ذلك متحققاً لا متجوزا ، ومتثبتاً لا مترخِّصا ، قولَ من أتقن شروط الأحلاف ، بين الأسلاف والأخلاف ، فدرى كيف كان حلف المطيَّبين[(٤)]

---

(١) فى الأصل : منها .

(٢) حرب بكر وتغلب .

(٣) حرب الأوس والخزرج .

(٤) حلف كان فى الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام وكان النبى وأبو بكر من المطيبين ويقال إنهم خمس قبائل من قريش .

وحلف الفضول [١] ، وحلف الأحابيش [٢] ، وحلف الأحلاف [٣] ، وروى ما أنشئ بين المضرية والربعية ، وبينهما وبين اليمنية ، ومع ذلك فما قرأت أكمل شروطاً ، ولا أتقن أصولا ، ولا أكثر عيونا ، ولا أمتن فصولا ، ولا أقرب ألفاظًا ، ولا أبعد أغراضا ، مما أنشأه سيدى ، فمن يَعْلَمنى قلت بما عرفت ، وشهدت بما علمت ، وإلا فليدع تمنية النفس الباطل ، وليرتع مع النعام الهامل ، فلا يقدِّر مولاى ما أنجه من نتائج البلاغة ، وثمار البراعة ، فإنى عارف بما يناله وسعهما ويزخر به بحرهما ، وإنما هو إقبال مولاى — كبت الله أعداءه ، وأدام سلطانه وعلاءه — ينفث فى جَنانه ، ويلقى على يده ولسانه ، ولكن الشأن فى طبع يَقْبَل الإقبال ، وخاطر يحتمل الاستقلال .

وليس من فرض ذلك الكتاب أن يختصر على هذا القدر فى الوصف ، ولا يوفى بقدر الطاقة بعض الحق ، ولكن وصوله وافق علّةً قد شكوت — إلى سيدى — أمرها ، وإن كان — كما وصل — مُديلا بالشفاء منها . ومن هذا الذى لا يشفيه ذَوْبُ العلوم وصَوْبُ العقول — حرس الله مولاى — للعبارة عن تلك المكارم والمعالى ، بتلك الألفاظ والمعانى ، وأنا أعتذر إلى مولاى من صدر الكتاب بغير خطى وتخلل الخلل لفظى ، فإن الضعف قبض يدى عن التحرير وخاطرى عن التجويد ، لا عدمته مفيداً ومقيلا ، وآخذاً بالسبق فعلا وقيلا .

١٠ — وله ثناء وتقريظ وإطراء وتعظيم

وصل كتاب مولاى ، فبشرتنى عادة بره بما يتلقانى من المسارّ عند فضّه ، فصدق ظنى بفكه إياه عن محاسن لا تقتصر على جِلاء الطرف ، حتى تشفعه بجَلاء الفهم ، وتمتع السمع ، إمتاعها للقلب .

لاجرم أنى أجدد التباهى بما حاز الله لسيدى من فضائل هجّنت من قَبْله ، وأتعبت من بعده ، وإن كان لا هُجْنَة على من تخلف عن جَرْيِه ، ولا مطمع لتالٍ فى بلوغ هديه ،

---

(١) حلف كان بين هاشم وزهرة وتيم من قريش على دفع الظلم .

(٢) هم أحابيش قريش تحالفوا أنهم يد على غيرهم .

(٣) كان عمر من الأحلاف وهم ست بطون من قريش : عبد الدار وجمح ومخزوم وبنو عدى وكعب وسهم تحالفوا على ألا يتخاذلوا .

أدام الله له ما حباه ، وأوزعه شكر ما أولاه ، فإن الشكر إن كان فرضاً حتما ، ولزاما جزما ، عند نعَمٍ توفر حالا ، وتكثر مالا ، فإنه أُوجب فى مواهب فضل تزيد فى قيمة المرء ، وتملّكه زمام السبق .

وتمثلت ما أجاب به مولاى فى معنى الرّوم ، ولا ارتياب عند من صحبته مُسْكةُ عقل ، أو نصح له لسان حزم ، فى أن همة مولانا لا ترقد عن هـذا الداء العياء حتى تحسمه ، ولا تهجع عن هذا الشتات المسرف حتى تنظمه ، فقد بلغ سيل الدين زُباه ، واستشرى الكفر ونال مناه ، ولم يكن الله وإن أمهل ليهمل . وما تعرف الألباب ولا أربابها لله سيفاً لا ينبو عن ضريبته ، وللإسلام ليثاً لا يُكْذَب عن فريسته ، غير مولانا — أدام الله علاه — فليرهف مولاى خاطره لإنشاء الفتوح شرقا وغربا ، وبرا وبحرا ، لا سيا وقد بشرت القصيدة نسيجة وحدها ، وقريعة دهرها ، وكريمة لِداتها ، وعقيلة أخواتها ، بما أرانى القوة فى أزر الإيمان وساعده ، والضعف فى أدانى الكفر وأباعده ، والله يسهل لمولانا المطالب ، ويحصّن بدعوته المشارق والمغارب ، ويحرز هـذه الفضيلة خصوصاً لأيامه ، حتى يلم شعث الإسلام بمكانه ، فما وراءها حسنة تقاس إليها ، فضلا عن أن تفضُل عليها .

وأعود لذكر القصيدة ، أما تعجب سيدى من تزايد هـذا الشعر ، وإثقاله عواتق الوصف ، وارتفاعه عن أنواع الفضل ، وجمعه بين شرف المصدر ، وسهولة المأخذ ، وعلو المطلع ، ولطف الموقع ، وبعد المقاصد ، وقرب الموارد ، فقد جلبت من الدعاء ، مثل الذى أوجبت من الثناء ، وستصير الدنيا دار نُدْوتها ومنبر خطبتها ، فلا نعمة على المسلمين أعظم من تقوية المُنَن بها ، إلى أن ينجز مولانا وعده فيها .

وسائر من عوّل مولاى على قيامه واهتمامه ، وانتصاره وانتقامه فجوابى فيه أن حرارة الأكباد تبرد بالشراب ، دون لمعان السراب ، جعل الله العالم وقاية ركاب مولانا ، وعمّر عزه عمر النسور والدهور ، إنه فعال لما يشاء .

وعبدُ مولاى — أدام الله عزه — المنحازُ إلى ظله ، المرتهَنُ بفضله ، أبو محمد صاحب مستَصْحِب القصيدة التى خدمت معالى مولانا بها ، وعوّلت على تشجيع مولاى ونشيده لها . هذا ولولا كرم مولانا — حرس الله سلطانه — لما شجُعنا على إيراد هذه البضائع المزجاة أسواقَ مجده ، وإن كان لا تثريب على مستنفِد وسعه ، وباذل جهده ، فإن رأى سيدى أن يجيب بما يعهد أسباب تطوله ، ويصرّفنى فى محابّه على ما أعتد بتحمّله ، فعل إن شاء الله .

الباب الثامن

فى الذم والتهجين

١ - كتاب فى تقبيح آثار غامط نعمة والاعتذار مما ناله من نقمة

وصل كتاب السلار بذكر فلان أحسن الله توفيقه ، فتمثلت ما ذكره ، وتبينت ما صوّره ، وقولُه المسموعُ الذى لا يرادّ ، وكلامه المقبولُ الذى لا يضادّ ، ولكنه بعقله وفضله يعرف ما يجب على المأمور للآمر ، ويلزم المسوس للسائس ، ويتحقق أن الأمير السعيد — رضوان الله عليه — إنما أقرّ فلانا — تولّى الله إصلاحه — وقدّمه ، وبسطه وأكرمه ، ومنحه وأولاه ، وقلّده وولّاه ، استخلاصا لنيته وعقده ، واستصفاء لطاعته فى يومه وغده .

وإنى حين أفضت الأمور فى ظل مولانا إلى تدبيرى ، ووقفت الأعمال على تقديرى ، جريت على تلك السنة إقراراً له على عمله ، وتحقيقاً لظنه وأمله ، بل زدته إكراما فى الخطاب ، وأقساماً من الإيجاب ، لموقعه من سيدى ، فما أفرق بين أقاربه وأقاربى ، ومناسبه ومناسبى ، وكان هو مستمرا على طريقة لاشك فى أن سيدى قد تصورها وأنكرها ، وعلمها وذمّها ، فجعلت أُغضى عليها ، ولا أُخليه من التنبيه فيها ، وصارت كتبه تنفذ إلى جنبات كان ينقبض من قبل عنها ، وبدأ يستمد المعونة والمغوثة منها ، وأمرته غير مرة بالحضور ليزداد تأنساً بالخدمة ، وأزيده من موارد النعمة ، فجرى على شاكلة واحدة إخلالا بالخروج ، وتصرفا مع كواذب الظنون ، فلم أضايقه فى اختياره ، ولم أسد عليه طريق إيثاره ، واستدت على الرعية وطأته ، واشتدت فى نفوسها وأموالها شوكته ، وكانت الاستغاثة منهم تتصل ولا تخف ، والعادة منه تدوم ولا تكف ، فلا أبلغُ فى التنكيل والتغيير المبلغ الذى يلزم تأميلا لارتداعه ، وكراهة لتقصير باعه ، إلى أن دعت الضرورةُ القومَ إلى ممانعته ومدافعته ، فحسبته لا يستنصر إلا بجنبتى ، ولا يلتمس العُدْوى إلا من حضرتى ، وانتظرته لأرده قوى اليد ، ماضى الحد ، فعدل إلى نواح مختلفة ، وورد مشارع مفترقة ، وأنا فى كل ذلك أكره فيه

ما يختار لنفسه ، وأعلم أنه مأخوذ عن طريق حزمه ، وأن سيدى غير مُحْمِدٍ لما بدا من فعله ، إذ النعم لا تقابل بالشرود على موليها ، والغموط لمستدعيها ، ولم يجز ترك العمل شاغراً ، فأخرجت فلانا ضابطا وناظرا .

وكان فلان — أحسن الله رُجْعاه ، ووفقه لما يرضاه — بذل من نفسه تسليم القلعة ، إذ التحصن بذلك البلد — مع انصرافه وانحرافه — لم يَسُغ ، ثم تلوّن جاريا على طريق الممانعة ، ومخاطبا أصحابه بالمنازلة والمقارعة ، ووقع من فلان ضرب من التسرع — حَفَزه له القوم — بابتداء المنازعة ، وتخطيها إلى المنازلة ، وقد علمت أن سيدى يؤثر مصالح الدولة على كل قريب وقُرْبَى ، ولا يحتمل فى مضرتها ذا رحم بعيدة أو دنيا ، أمتع الله بحياته واتصالِ مدته .

٢ — ولـــــه

كتابى — أطال الله بقاء السلار — ونعم الله — تعالى — عند مولانا تجمع سمو المكان ، إلى علو الشان ، وثباتَ الأركان ، إلى القدرة والإمكان ، وما أخدم فيه بحضرته أجلّها الله ، وفى ممالكه ، حرسها الله ، جارٍ على السداد ، مطرد أحسن اطراد ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

وكان كتاب السلار ورد على عادته فى برّ يصل أوله بآخره ، ويجمع بادئه إلى حاضره ، فبشر من اجتماع السلامة والسعادة لديه ، بما سألت الله إدمانه له وإفاضته عليه ، وتطوقت منه كما اعتنقت شكره ، وسألت الله أن يجعلنى بفرضه من الناهضين ، وبحق فضله من العارفين ، وعرفت ما خاطب به السلار أبا الحسن متعرفا خبره ، ومستعلما فيما باشره أثره ، ووقع ذلك بحضرة مولانا أحسن موقعِ مثله ، وعدّه فى المشكور والمنشور من بر السلار ونتائج وده ، وتلك الأمور التأمت أحسن التئام ، وجرت على أسدّ نظام .

هذا وكان هذا المولَى تلك البقعة محظوظا من العناية والقربة ، ومسترعًى تدبير هاتيك النعمة ، ومقدَّراً فيه أنه يشكر بلسانَىْ الطاعة والخدمة ، وأخذ يتلوّن فيُمْهَل ، ويتبدَّل فيُحْتَمل ، ويكاتب أطرافا لم يسوّغ له الانقطاع إليها ، فيُزْجَر ، ثم يُنْظر ، ويحذَّر ثم يؤخَّر ، رجاء أن ينتبه من رقدته ، ويستيقظ من سِنَته ، وكان أشد ما يُنكَر منه ، وأقبح

ما يذكر عنه ، البلوغ إلى أخذ الأموال المحجورة ، والولوغ فى الدماء المحظورة . وكانت المواعظ تصدر إليه فلا تعمَل فى صدره ، والأمثال تقلّب على عينه فلا تؤثر فى قلبه ، إلى أن خلعته تلك الرعية اضطرارا فلم يكن له غناء دافع ، ولا وفاء ممانع ، وحسبناه يرد الحضرة البهية فيداوى كَلْمه ، ويسدّ ثَلْمه ، إلى أن أخذ [إخذ[1]]ه مرة نحو بقاع الجبل فنُفى عنها ، وعدل إلى جرجان فأُبعد منها ، وامتدّ إلى حدود خراسان فلم يسكنها ، وظن قلاعه بناحية الدامغان تحمى أصحابه عن الدمغ والإبعاد ، والقصد والإقصاد ، فما كان إلا رَيْثَماَ أضبّوا على الغىّ ، واقتدوا بصاحبهم فى البغى ، حتى تبرأ منهم حصنهم ، واشتمل عليهم وهنهم ، وقد كان الأحب إلى مولانا أن لا تتكدّر عند ذلك الرجل الصنيعة ، ولا تُرْتَجَع لقلة أمانته الوديعة ، لحقّ أبيه وذويه ، وقبل ذلك لا تصاله بفلان نسبا ، وإن باين رأيه طريقاً ومذهبا .

وهذه — أدام الله عز السلار — الدولة التى حكم الله لها بالاستظهار والاستيلاء ، وأوطأها متن الاستقلال والاستعلاء ، فمن شايعها ربح متجره ، وصفا مورده ومصدره ، وكان بين عيش رغد ، وطالع سعد ، ومن ولّاها ظهره أظلمت عليه مذاهبه ، وخسرت بضائعه ومكاسبه ، وأصبح على جَدٍّ عاثر ، وأمسى بشمل متناثر . والذى وكد الله بين مولينا الملك السيد والأمير المؤيد وبين السلار من حالٍ رفعت كلفة التميز ، وأماطت حشمة التحيز ، يقتضينى بحق السفارة ، وخدمة الوزارة ، أن أهدى إلى سمعه من أنباء جيوشها المنصورة ، وألويتها المنشورة ، ما أتيقنه يرتاح له أصدق ارتياح ، وينشرح صدره به أتم انشراح ، والله يصل هذه الوُصَل بالثبات ، ويكنفها بخلوص النيات ، ويزيد الأعداء سقوطا على الأفواه والشفاه ، والمناخر والجباه .

٣ — ولـــه

وصل كتابك بذكر ما سهلته سعادة الدولة العالية ويمنها ، ولطفُ عادة الله عندها وحسنُها ، حتى استجاب المخالفون المخاطبون من نواحى كذا لما رُسِم ، ووقفوا عند ما مُثِّل

(١) زيادة يقتضيها السياق .

وحُتِم ، فسرنى الله تعالى بذلك سرورا ينتجه ما يواليه عند أولياء النعم من إظهار وتمكين ، واستيلاء على أمد الماضين والغابرين[1] ، وسألته أن يديم لموليدنا من العز أثبته قواعد ، وأرفعه مصاعد ، وأعلاه سماكا ، وأجراه أفلاكا ، إن الله يفعل ما يريد

وأنهيت ما وفقت له قرعاً للأمر من بابه ، وتوثيقاً لدواعيه وأسبابه ، حتى أسمح المراد فيه ولم يجمح ، واستمر المرام فيه ولم يجنح ، واستوفى سعيك من الإحماد ، ما يفوت غايات الطلب والارتياد . وفلان أبَى إلا خذلاناً تعثَّر فى أذياله ، وتمرّغ فى أوحاله . وقد ساءنى ماجرى لا لقدره ، بل للجرأة فيما يذيع من ذكره ، وسيعرف مغبة ما أتاه ، ويجتنى ثمرة ما جناه ، وتسلمه يداه بحيث لا تستقر قدماه ، ولله المشيئة والأمر ، ولأولياء الدولة العلوُّ والقهر ، فمن زاغ عن[2] سراط الدولة المستقيم صَلِيَ بعذابها الأليم . هذه سكرات ولها إصحاء ، وغمرات بعدها انجلاء ، والموفق من لم يُقدِم على ما تسوء مصائره ، ولم يَرِدْ على ما تستوخَم مصادره .

٤ — ولـــه

كتابى وورد من فلان ما أنبأ بأن فلانا حين صار إلى شاطئ البحر فاستوقفه مشتمل الذعر . استولى من ندبهم فلان على موضع كذا ، فلم يجد المخالف وراءه مرجعا ، ولا أمامه مشرعا ، وأنه على جملته فى الحيرة والدمار ، والحذار من سواد الليل و بياض النهار ، وأن أكثر من قدّرهم أنصارَه خذلوه ، وقلبوا له المجنّ وأسلموه ، وقد ترصّدت فرق أخر لتفريق شمله ، وتقطيع حبله ، وهذه عادة عند من جحد إحسان مولانا و إنعامه ، ثم لم يقبل إقالته وقد أعطاه أمانه ، وستنجلى الحال إن شاء الله عن انتهاء أمره وتناهى عمره . إنّ غَمْط النعمة عقال يمنع ، وعثارٌ يصرع . وقد أنفذت الكتب إلى المجلس العالى ، وأنا راجٍ أن أشفعها بكتاب فى ترك فلان آية من آيات الله عبرةً لمن اعتبر ، ومُثْلة لمن ازدجر .

٥ — ولـــه

كتابى والأمور بحمد الله ومنّته ، وماقسم للدولة القاهرة من فضله ونعمته ، جارية على ما يزيد الأولياء قوة مناكب ، والأعداء ضعف جوانب ، ولله الشكر ، وصلاته على نبيه محمد وآله أجمعين .

---

(١) فى الأصل : هكذا : العابرن

(٢) فى الأصل : من ، وسراط لغة فى صراط

ووصل كتابك فأنست لما أتيت ، وأحمدت ما أنهيت . أما فلان فقد كُفِيت شغل الصدر[١] به ، وتوزُّع الخاطر بسببه ، لأن الرجل قد علم بمكان فلان من الخصوص بالدولة ، وأنه رب ذلك البيت وتلك النعمة . وحديث كذا قد عجبت من فكرك فيه وذكرك له : ومن دون ليلى ذو بحارٍ ومَنْوَرُ[٢] : والذى يجب أن يشتغل به فلان حديثُ فلان حتى يذيقه من وبال فعله أمرّ مذاق . وملاكُ ذلك أنْ يُعَان فلانٌ معونة تؤمنه انتهاز فرصة من ناحيته ، أو نفوذ حيلة فى مساءته[٣] ، ثم التجرد لما يحصّ جناح فلان ويبريه ، ويُنكى ضَرْباً من النكاية فيه ، فليس يكفى أن يكون التأثير أجمع قولا لا فعلا ، ووعداً لا نجزاً .

والذى يُحتَاج فيه إلى قيامك واهتمامك أن تراعينى بأخبار فلان فى مقارّ قدَمه وإن كانت دَحْضَ مزلّة ، ومصارف عزمه وإن كانت بين خلّة وذِلّة ، فإن مولانا خاطبنى اليوم بفصل مفرد ، وقال : أوعز إلى فلان ليراعى بأخباره غضّة ، ويجعل إعلامك أحواله نوبة ، فأما اجتماعه مع من اجتمع معه فكما يقال : مثقل استعان بذقنه ، وعَبْدٌ صَرِيخُهُ أَمَةٌ[٤] وإن سفت به الريح فى أثناء الأمواج إلى مكان سحيق فرب طائر بجناحه ، إلى موضع اجتياحه .

٦ — ولـــه

وصل كتابك وعرفت ما أنهيته واقتصصته ، وأبديته ونخصته ، وليس على عناية مولانا بك مستزاد ، ولا وراء إيجابى لك مراد ، ولكن الأمور المنوطة بك منتشرة ، والأسباب الموكولة إليك مضطربة ، وأيدى الأكراد بالعيث والفساد منبسطة ، وهيبتك عن قلوبهم ونفوسهم مرتفعة ، وذلك يثلم جاهك وينتقصه ، فيكدر عليك الأنعام وينغصه ، وليس يمكن ألاّ أصرّح بقصورك ، ولا أخبر عن عجزك وحُسُورك ، وكيف جرت الحال فسبيلك أن تزداد اجتهادا وجدًّا ، وتستنفد الطاقة حتى لا تبقى وسعا ، وتداوى هذا الأمر بدوائه ، وتلطف لحسم أدوائه ، قبل أن يضجر السلطان — أطال الله بقاءه — ويقول :

---

(١) فى الأصل : القدر

(٢) ذو بحارٍ ومنور جبلان فى ظهر حرّة بنى سليم . والشطر من شعر لبشر بن أبي خازم .

(٣) فى الأصل : مساءاته

(٤) يضرب مثلا للضعيف يستصرخ بمثله

اصطنعناه ، ورفعناه ، وأعطيناه ، فلما تركناه وأمره ضاعت المهمات على يديه ، كضياع إحساننا لديه .

وأنا مجتهد مع الأشغال القاطعة ، والمهمات المانعة ، فى إمدادك بمن تطول بهم يدك ، وينبسط معهم أمرك ، ولكن بعد ألآ يطول مكثهم ، ولا يتراخى لبثهم ، ويكون سبيلهم سبيل النجدة التى لا تصل حتى تفصل ، أمراً وَحِيًّا ، ولا تنتظر أمداقَصِيًّا . وهذا يا أبا عيسى خمار سكر كنت أحذر منه ، وأدفع بجهدى عنه أيام القبض على هؤلاء الأوغاد ، الذين ارتضعوا دَرَّ الفساد ، فَفرَّتك الغوارّ حتى توصلت إلى استنقاذهم ، وحلّ عقالهم .

لاجرم أنى ألقيت حبل الأمر على غاربه ، وعلمت أن مشارقه تظلم عليك من مغاربه ، وكيف جرت الصورة فليس بجميل أن تستسلم للعجز ، وتنضو ملبس الكافى الشهم ، فابن بابويه وابن عنترة قد أجريا بنواحى أصفهان إلى منكرات ، وقطعا[(١)] الطرق دفعات ، ولا بأس فسوف يُرى بإذن الله ومشيئته كيف تَرْوَى السيوف العطاش ، من دماء أولئك الأوباش ، وكيف يتركون طُعْمة للسباع ، وأُكلة للضباع . وقد تكون للباطل جولة ، وللفساد مُهْلة ، ثم يأتى من الانتقام ، والاصطلام ، ما يُسْقِط الهام على الأقدام ، وما يُعجزك فى هذين الغارة على أحيائهم ، وسبى أولادهم ونسائهم .

على أن مولانا موعز فى إنهاض سبعمائة رجل من الأتراك والعرب إلى أصبهان لحوط أطرافها ، وصون أكنافها ، فقد طال عهد أكرادهم ، بعادتنا فى صلبهم ، وتنكيلنا بهم . وأنا أتوقع تأثيرك فى هذه الطوائف مُسْقِطا للرقبة ، ومصرفا لهم على أحكام الرهبة ، ولا تفكرنّ فى ابن عكبر فإنه سيشغل بنفسه ، ويسقط ليديه وفمه ، والسلام .

٧ — ولـــــه

قد عرف مولاى أمر عكبر بن إبراهيم فى تمرده منذ حلّت تمائمه ، وسوء معتقده منذ فارقته حواضنه ، وأنه كان لا يقصّر عن الإفساد ما أطاق ، ولا يكف عن الإضرار ما استطاع ، فتى لزّ من جنبه كتَب يظهر طاعةً منبتّة القرائن ، ويبدى موالاة مذمومة

---

(١) فى الأصل : قطعوا

الدفائن ، ويوهم أنه وارد الحضرة ، أجلّها الله ، ومختلط بخدمها ، أيدهم الله ، فإذا أرخى من خناقه عاد لرأيه الذى فيه أوضع ، وعليه وضع ، ورجع لمذهبه الذى به غُذِى ، وعليه أُنشِى ، حتى إذا جرد مولانا عزمه لإبادة هؤلاء المفسدين أبِيَّـةً للملك ، وحميّةً للدين ، قدر عكبر أن أباطيله تروج بحضرته ، ومخاريقه تنفقُ فى جَنْبته ، فواصل تلك الكتب الطويلة الألفاظ القصيرة الأغراض ، مع رسل لا يتحمّلون إلا إفكا ، ولا يتأبطون إلا شرا ، فلم يدع مولانا مع علمه بقصده وعزمه أن قَبِلَ كتابه ، واستمع كلامه ، وصرف أعنة خيوله المنصورة عن طلبه ، ووقف لُجُمَ جيوشه المظفّرة عن الإيقاع به .

فلما وجد إلى المدافعة سبيلا ، وصادف إلى المراوغة طريقاً ، مضى على غرّته ، واستمرّ على شرّته ، وعلمت الخسروية والجرجانية ، أنه متعثر فى ذيول الخذلان ففارقوه ، واعتصموا بحبل الطاعة ولزموه ، ودبر أمرهم بما أثمر أَمْنَ السبل واتصال الرُّفَق ، وعمارة المزارع والدساكر ، وزوال الرقبة عن الوارد والصادر . فكرّ عكبر راجعاً عن مضايقه ، فرسم مولانا تلقيه عنى بكتاب يقطع طمعه عن ورود هذه الحضرة ، ويحذره من دخول الأعمال المدبّرة من هذه الجنبة ، وانتشر ذلك فى أصحابه ، فتخلف عنه[1] أكثرهم ، وتقاعد به معظمهم ، وبادروا إلى الطاعة ، ضارعين فى التماس الإقالة .

ورأى الرجل أن الطرق عليه مظلمة ، والمنافذ دونه مبهمة ، فخرج إلى الحضرة البهية ، تقوده الضرورة التى وصفتها ، وتحدوه الصورة التى كشفتها . وهؤلاء الأكراد الذين ضمّهم إحسان مولانا وأمانه ، وشملهم فضله وإنعامه ، كان من أول ما شرط لهم وعقد ، وألقى إليهم وعهد ، أن لا يجرى لعكبر وإخوته عليهم رياسة ، ولا تملكهم منه قيادة ، ومولانا محيط بأن ركن الدولة يعرف الرجل وخبثه ، وإفكه ونكثه ، وأنه لا يؤهّله لزعامة ، ولا يُحظيه باستنامة ، إلا أنه أشفق من أن يوحى بكتاب يتضمن هذا الذكر ، ولم يكن عن قوة عزم ، ولم يصدر عن أمرٍ جزم . وهؤلاء الشهجان وحشٌ فى صورة الإنس ، فلم يُؤمَن متى طرقهم هذا النبأ أن يتأخروا عائذين فى جهالتهم ، مرتدّين فى عمايتهم ، ويصير ما قد أُنشئ من التدبير حتى انضم النَّشْر وانسدّ الخلل ، بعَرَض الانتقاض وبسَنَن الانتكاث ، وما مراد

---

(١) فى الأصل : عنهم

عكبر إلا هذا ، فإن القوم لو راجعوا غوايتهم لنفقت سوق عكبر بعد ما كسدت ، ولهبّت ريحه بعد ما ركدت . ومولاى يتدبر ما أوردته، ويقف على كتابى إلى أبى إسحق الكاتب أعزه الله فقد بسطته ، وينوب عن مولانا — أدام الله أيامه — بحضرة مولانا الأمير حتى يورد جميعه مورده ، ويبتدئ القول فيه ويردده ، ففى ذلك التقرب إلى الله ، تعالى ، ثم إلى أولياء النعم ، وكلّ طائفة من طوائف الأمم .

٨ — ولـــه

وصل كتابك ، أيها الحاكم ! — أطال الله بقاءك — وعرفت ما أنهيته ، وتمثلت [ما(١)] تشكيته ، وقد خاطبت أبا فلان فى بابك ، بما يؤدّى إلى محابّك ، وقد بلغتنى هنات فلان ، ولا يزال يتردد فى مخازيه ، ويتعثر فى مساويه ، إلى أن أوعز(٢) فى تناول السحت الذى جمعه وأطفاه ، والحطام الذى نظمه وأغواه ، وايم الله لئن أشكاك من بعـد لأتركنه عظةً وازعة ، وعبرة رادعة ، فتقدم بعرض هذا الفصل عليه ، ليكون جاريا مجرى الإنذار إليه ، والذين يريشون نبله ، ويُفوّقون جهله قد أخذت عليهم هذه الرقعة بحجة الإمهال ، وكرهت فيهم(٣) خطة الاستعجال ، فإن عادوا رأوا كيف يكون التقويم والتثقيف والإنكار والتأديب.

وقد بلغنى أن فلاناً اعترض بعض ما حكمت به ، وزعمـه مخالفاً لقول الأمة بأسره ، وأبو على ممن إذا أحسن لم يحسب له ، وإذا أساء لم يحاسب عليـه ، وهو — فى مذهب نفسه — ضعيف الحفظ ، فكيف فى علم أصحابنا ، وهو أوسع من البحر ! ، وقد ناله من الإنكار ، ما ألجأه إلى خطة الاعتذار ، وكان سبيلك أن تزجره زجراً يمنع من التطويل ، والقال والقيل ، فإنك بحمد الله ومنّه ، الموثوق بدينه وعلمه ، ومعرفته وفهمه ، وموقعك لدىّ أخص موقع ، ومشرعك عندى أعذب مشرع ، وكاتب بأخبارك وذكر أوطارك ، إن شاء الله .

٩ — وله ذم وتهجين

اختلف — أطال الله بقاء مولاى — أهل الدين فى خبر الواحـد هل يوجب العمل

---

(١) زيادة يقتضيها السياق

(٢) لعلها أوغرنى

(٣) فى الأصل : فيه

بغالب الظن ، وقد صار مولاى يقول فى خبر الفاسق بإيجاب العلم ، فلست أدرى ما هـذا الرأى الذى حسّن خرق الإجماع لديه ، وحبّب ترك الاتفاق إليه . و بعد فعهدى به وطود يذبل وأنف مُعْتَق ، لا يطوران[١] بمقارنة حلمه ، ولا يُقدِمان على مسابقته فى اجتماع لبه ، فـكيف استخفّهُ[٢] ما لا يرفع السمع أستاره لوعيه ، ولا يكشف القلب غطاءه لحفظه ، وقد ألفت منه رجوعاً إلى رأيى فيما يشاهد ، واستمداداً لمشورتى فيما يعاين ، فـكيف استبد دونى بأمر يغيب عنه وأحضره ، وآثر عزلى عن مهمّ ينأى دونه وأقرب به .

وقد كان هذا الأهوج فلان الذى فقد الحياء صغيراً ، فلم يحظَ به كبيراً ، منذ استبدل أبو محمد — أدام الله عزه — يطلق فيه من القول ما لا يتسع صدر البحر لاجتماعه ، ولا يثبت قلب الصخر على سماعه ، فيتجاوز ويتجوّز ، ويسامح ويترخّص ، ولا يراه [إلا[٣]] كلباً نبح فلا يعرّج عليه ، ولا يلتفت إليه . ثم لا أمسك عن تقويمه إلا استحقاراً ، ولا أنصت عن تأديبه إلا استصغاراً ، حتى صار الإبقاء إغراء ، والإغضاء إغواء ، فجلس — وحياة مولاى التى أعدها غموساً — فى صحن دار مولانا فتكلم فيه بما يوجب الحد ، ويقتضى الجلد ، ولم يكن ذلك منه مساترة ومصاداة ، بل وقع مجاهرة ومباداة ، إلى أن اشترك الخاص والعام فى معرفته ، ووقف الملك والسوقة على جليته ، وحملته القحة بعد ذلك على معارضة أبى محمد — أدام الله عزه — حتى إذا مسه بطرف من تأنيبه صرّح فى وجهه ، بما كان يورده وراء ظهره ، فقنّعه تقنيعاً ضعيفاً بحسب عجزه وضعف قلبه ويده ، و بلغ ذلك الساقط إلى نسوان جمهن حتى حضرن واستغثن ، وما ترك طريقاً للتشنيع[٤] إلا سلكه ، ولا باباً للتقبيح إلا قرعه بل ولجه .

وقد كان خبر ما تلفظ به ترقى إلى مولانا وامتعض ، ورسم معاقبته لولا أن أبا محمد انقبض ، ولم يَغْنِهِ ما أتاه ، ولا أقنعه ما جناه ، حتى أخرج البُرُد تهوى نحو جرجان ، كأنها قد أتت بخبر بشر بن مروان بقتل مصعب ، ونشط مولاى لتلك الأساطير الطوال والطوامير العراض ، ولم يقل ما حمى[٥] دمه : لآل إسحق بن بندار بأصفهان : فلان قدس الله روحه

---

(١) لايطوران : لايحومان حوله ولايدنوان منه
(٢) فى الأصل : استحقه
(٣) زيادة يقتضيها السياق
(٤) فى الأصل : للتشييع
(٥) هكذا فى الأصل . ولعلها : لسامى ذمّه

فلم لا أتوقف ، ريثما أتعرف ، وأحلم ، قدر ما أعلم .

ولو جرى هناك ما يُسْتَعْظَم هذا الاستعظام ، ويَسْتوجب هذا الملام ، لكان ذلك الصديق الصدوق ينكر أو يخبر ، ويؤدّب أو يُغَيِّر . لا جرم أن هـذا الوقاح أخذ الكتابين بيده يطوف بهما على كل باد وحاضر ، وحاف وناعل ، ومستغش وحاسر ، حتى ترك أبا محمد مضغة ، وألبسه فى الخدمة الشريفة هجنة ، وكاد يُدَرِّع جاهه وَصْمَة ، ويوسع بناءه ثُلْمَة ، وبلغنى ذلك وهو لا يقلع عن الإذاعة ، والنشر والإشاعة ، فبعثت من تناول الكتابين منه وإن كان على ما بلغنى فرّق من نسخهما[١] ما صحيفة المتلمس أقل منه ضررا ، وكتاب قريش فى مباينة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحسن منه أثرا ، والله المستعان .

وأنا أكتب — يعلم الله — ويدى تتعثّر غيظا مما ورد ، وحنقا مما اتفق ، ولأن مولاى تبلغ به سلامة الطبع وسلامة الخلق إلى أن يُتَلاعَب بحلمه ، ويُتَعَبَّث بصفحه ، أيقدّر مولاى أن هذا اللعين استبقى موضعا للتظلم لم يطأه بأعقاب عترته ، وغادر مكانا للتألم لم يعمره بأشخاص أسرته ، وأنه لم ينظم نسوة يتضاغين[٢] بباب الميدان العالى ، فلو لم أستكفّ سطوة مولانا عن هـذه الشجرة الملعونة فى القرآن لـكانت تجتث من أصولها ، وتقتلع بعروقها . وكنت على ترك المكاتبة استيحاشا إلى أن يحضنى مولاى عليها لما أنكره من أنباء الكتابين الواردين . وما[٣] عرف مولاى جلية الحال ، ولا اطلع على صدق المقال ، ولا غرو فإن ذا الحلم قرعت له العصا ، وقعقعت له الحصا .

وأقول أخرى : إن مولانا قطعنى بقدر ما وصل ذلك الحر النفيس ، وأوحشنى بحسب ما آنس ذلك الأخ العزيز ! ، ثم ورأيت مولاى يشهد له فى فصل من كتابه بالفضل ، وأظنه لم يكتب بذلك حتى استغفر الله سبعين مرة ، ثم لم يجد مغفرة يرجى نفعها ، ويحسن وقعها ، ومن الكبائر أن أبا محمد يقطع مكاتبته لهذا الزور الذى قام مقام رأى العين ، وعاد عثمان فيه ذا الشهادتين . لست أرْوَى من التقريع ، ولـكنى أمسك ونيران قلبى تفور ، وأرض صدرى تمور . وأنتظر كتاب مولاى أبى محمد بما يمسح وجه الظلم بيد العدل ، وإلىّ بألف[٤] طومار من التنصل ، إن كان سمعى ينفتح للعذر ، والسلام .

---

(١) فى الأصل : نسخها

(٢) فى الأصل : يتصاغين

(٣) فى الأصل : لما

(٤) فى الأصل هكذا : وإلى نالف

١٠ — وله فى تهجين غاش لولىّ النعمة وذم طريقته

كتابى — أطال الله بقاء سيدنا — ونعم الله لمولانا الأمير المؤيد متضاعفة ، ودواعى التوفيق والتأييد إليه مترادفة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وعاد الجواب عما طالعت به حضرة سيدنا — أحضرها الله المناجح — فعقد لى أنواعا من التشريف لا تكمل الهمم لاقتراحها ، ولا تقوى المنن على التماسها ، وسألت الله الكريم أن يجعلنى لأنعم مولانا من الشاكرين ، ويمد ظله علينا كافةً خدمه المغمورين بأياديه ومِنَنه ، والمستظهرين على الدهر بحسن رأيه وعنايته ، وكرم إيجابه وشرف رعايته ، إنه إذا شاء فعل.

وعُرِض ما لم يجز الإعراض عن إنهائه ، وهو أن إبراهيم بن القاسم كان ، كما عرف سيدنا ، يلبس هــذه المدد طريقته ، ويغشى بأنواع الحيــل صورته ، ويتصرف على أصناف من الخيانة صارت السبب فى ضياع الأموال ، وتبلد الأعمال ، وتحجز الناس كافة عن التنصّح ، بما اتفق له من فضل رتبة ، وتحسم الأطماع جميعا عن التقرب بمـا اتجه له من مزية القربة ، وتقسم ما استُرْعِيه بين تضييع اقتضاه عجزه ونقصــه ، وتغميضٍ أوجبه ارتشاؤه وغشه .

وقد كنت ألقيت إلى سيدنا الأستاذ اطلاع مولانا الأمير على بعض ما أتاه بامتداد الأيام ، وجناه بمساعدة الزمان . هذا إلى ما كان يشير به من أسباب حدّثت المغابُ والمصائر عن مغزاه منها ، ويبعث عليه من أحوال أخبرت[1] النتائج والعواقب عن مرماه فيها ، فلما بسطنى مولانا لمشارفة هذه الأمور بجميل هدايته ، ونشطنى لمطالعة هــذه المهمات بموفور عنايته ، لم أدع أن أزلت الشبهة على هذه الأوقات فى احتياله واختيانه ، ودفعت المرية فى اقتطاعه واحتجانه ، وكشفت عن حقائق ارتفاقه عن الحقوق المنتهية ، وارتشائه عن الأموال المقتسمة ، وأبنت عن أخذه من بيت المال أكثر ما وصلت إليه يده ، ومن مستضعفى الرعية ما أوهمها أنّه يوفره ، مقبحا للأحدوثة عن ولى نعمته ، وواقفا فى مهبط سخط الله ونقمته .

وقد كان هذا أجمع يُتجاوز عنه ، ويُغضَى عن سالف ما بدر منه ، ويُقتَصر على قبض يده عن التبسط ، وغضّ منزلته عن التسلط ، حتى أحبّ أن ينتعش من عثرته بأيمان

(١) فى الأصل : احرت

يجدّدها ، ويَرُمّ من رتبته بأقسام يؤكدها ، فحلف بحياة مولانا — أطالها الله — على أشياء لم يتجاوز يومه حتى أقرّ فيها بحنثه ، ولم يتخطّ نهاره حتى أفصح بكذبه وبَهْتِهِ ، فوُجِد الإغضاء عن هـذا عجزا لو كانت سيئاته السابقة حسنات مقبولة ، وجرائمه السالفة مساعى مشكورة ، فكيف وهو رهين جرائر تَحْرَج بها الصدور ، وغريق كبائر تضيق عنها الحلوم .

لا جرم أنه أذيق وبال تلبيسه بالصرف عما كان يلابسه ، وقلّد طوق الخزى بالإبعاد عما كان يتقلّده ، وحُلّ إقطاعه جزاء لما يقتطعه . فأما الحنث فى اليمين فقد علم سيدنا أن يمينه لو أُخِذت فى مقابلته ، لما تُعدّى أيسر الواجب فى معاملته ، غير أن مولانا لم يفارق كريم طبعه ، ولم يَحُلّ كبر الخيانة حَبْوَة حلمه ، ورسم أن يُقْتَصر من مراقبته على طرده ورده إلى قيمة مثله ، وتَرْكَ مطالبته بعظيم ما ضمّ عليه يده ، وملأ منه حِضْنَه ، وذكرت جملة الحديث على رسمى فى الخدمة ، أنهضنى الله بحقوقها ، ووفقنى لشروطها ، إن شاء الله تعالى .

الباب التاسع

فى التهانى والأجوبة عنها وما يجرى مجراها

١ — كتاب فى تهنئة بولادة وزيادة رتبة

كتابى —أطال الله بقاءك— عن سلامة ، قد وصل الله أسبابها بالنعم راهنها ومؤتنفها ، ووكّد أطنابها بعزة البسطة وشرفها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك مفتتحاً بما عوّد الله العزيز أمره ، العليّ ذكره ، من اعتزى إلينا برأيه ورويته ، وعوّل علينا فى سر أمره وعلانيته ، وكان على الإخلاص لنا مثابراً مواظباً ، وفى التحقق بنا ثابتاً راتباً ، من تيسير المحابّ وتسهيلها ، وتقريب الآمال وتعجيلها ، ليتناول أمانيه بطراوتها وطلاوتها ، ويجتنى ثمار زكائها وحلاوتها ، لا يعتاص عليه بعيد ، ولايتوعر دونه شديد ، وبوصفِ ما كان من السلار إليك حين راعى مع حق النجابة التى أفردك الله بمزيتها ، والكفاية التى توحّدك الله بحليتها ، حلولكَ لدينا محل أعز الأولاد ، وآثر الأعضاد والأنجاد ، فألقى إليك بعهده ، ووصل ضمانه بعقده ، واسترعاك معقّب أمره ، وأوطأ عقبك كافة أهله ، ومكّنك فى حاضر الوقت وعاجله ، الأمرَ من عدة قلاع ، شفعها بعدة من الضياع ، إلى ضروب من التكرمة صارت ألسنة نيته فيك واعتقاده ، واعتضاده بك واعتداده .

وشرح فلان الصورة وفتقها ، ولخّص القصة وحققها ، فحمدنا الله كثيراً على ما عودناه فى المؤثَرين لدينا ، والأقربين إلينا ، تمكيناً وتمهيداً ، وتقديماً وتأييداً ، لتتسابق المنائح إليهم متصلة الورود ، وتتظاهر المناجح عليهم مرتفعة الجدود ، واعتددنا للسلار بما اعتمَد فيه توخى مسرتنا والزيادة فى دواعى الثقة بحضرتنا ، وذلك هو المأمول من مثله ، فى وفور فضله ، وعرفانه بالدهر وحكمه ، وعلمه بالتقرب أين مفضاه وممره ، ومجاله ومستقره .

وسرّنا له فيما دبر به أمره ، وحفظ[١] فيه نيته ، أن عزل الهوى عن زمامه ، وعدل

---

(١) فى الأصل : وحففه

عن الرأى وأحكامه ، فولّى من كان أشد أزرًا ، وأثبت حِجْرا ، وأطيب خَبراً ، وأكثر نفرا ، وهو منتمٍ من صلة السبب بنا إلى ظل لا انحسار لمداه ، وحبل لا انحلال لقواه .

وسألنا الله له إطالة العمر وتأخير الأمد ، وإدامة السلامة وتبليغ الأمل ، وارتحنا لما ألقيت إليك مقاليده استيجاباً واستحقاقاً ، لا إيجابا واتفاقا ، فإنك بحمد الله ومنّه النجيبُ الذى لا يفصح قادحه ، واللبيب الذى لا يمسك مادحه ، قد اكتنفتك بواعث الاستقلال ، وشملك الغَناء فى كل حال ، أنال الله فيك المراد ، وحرس عليك إحسانه المعتاد ، وضاعفه بعد ذلك وزاد .

ويجب أن يتلقى ما كان من السلار بحقه من التقبل والإكبار ، وحسن القبول والائتمار ، فقد قضى الحق وبالغ ، وتناهى فى الجميل وسارع ، واستعمل ما يستعمله الجامع علماً بالأيام وخبرا بالنقض والإبرام ، وإتقاناً لأسباب السياسة ، وكمالا فى السَّبْر للعامة والخاصة ، وقد كاتبناه نشكر له ما قدمه ، ونلتزم له المنة فيما تجشمه ، ونعلمه أن الذى أتاه زيادةٌ فى التمازج ، ومادة للتصافى والتواشج .

٢ — وله تهنئة بحمل ولد ولىّ عهد

كتابى — أطال الله بقاء السلار — وأمور ممالك مولينا الملك السيد والأمير المؤيد فى الاستقامة والاطراد ، كفاء ما عودهما الله من الإنجاح والإسعاد ، وأنا فى ظلهما حامد لله رب العالمين ، وراغب إليه فى الصلاة على النبى محمد وآله أجمعين .

ولولا أن صفوة الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — وخَيَرة الله من الخلفاء الراشدين أفضيا بالعهود إلى ذوى الاستقلال ، ورأياه من أصالة الرأى وآلة الكمال ، وصار ذلك دُولة فى دول العرب والعجم ، وسائر الملوك والأمم ، حتى عُدّ المغفِل له[٢] مضيعاً عزمه ، والمقدّم له مطيعاً حزمه ، لما كتبت مهنئاً عما رآه السلار من إلباس فلان جمال العهد والتفويض ، مشفوعاً بإحسانه السائغ المستفيض ، مع ثقتى بأن الله يحفظ الجمال بمكان السلار أبدا ، ويصل فى البقاء بعد أمدٍ أمدًا ، ولكن أسأل الله أن يديم أيامه عامرا مكانه بنفسه ، ومصرفاً أمره بيده ، ورافعاً وُلده بامتداد من عمره ، وبالغاً فيهم ما يحاول بمرأى طرفه ، ويجعل

(١) فى الأصل : عنه

ما عقده أيمن معقود ، ومن اعتمده أنصح مفوّض إليه استحقاقاً . وحصل من اعتداد مولانا عما أتاه ما لا يقارَع على وفور أقسامه ، ولا يزاحَم على مشارعه وجمامه .

٣ — وله تهنئة بولاية عهد

كتابى ، أطال الله بقاء السلار ، ومولانا سابغ ملابس العز والاستظهار ، مسعود بمواتاة الأيام والأقدار ، وأنا سالم فى ظله الظليل ، وبرأيه الجميل ، والحمد لله وحده .

ووصل كتاب سيدى مخبراً بما أتاه السلار فى معناه ، وتوخّاه من وفاق مولانا وتحرّاه ، حتى جعله ولىّ أمره وعهده ، ومرجوّ يومه وغده ، وأفضى إليه بسدّ خَصاصِه ، وأوطأ أعزّته أثره زيادة فى اختصاصه ، غير ذاهب عن الجلية إيثاراً للأقرب نسباً ، بل ماضياً مع الصواب أين صادف مطلباً ، فسرّنى الله بهذه المنح المترادفة ، والمِنن المتناصفة (١) ، وسألت الله إطالة بقاء مولينا لتبلغ فى ظلالهما الآمال ، ونكتسب بعزهما الجلال والجمال ، وشكرت له أن أحضر السلار من العزائم أثبتها قواعد ، وأوكدها معاقد ، ومن الآراء أرفعها مراقب ، وأحمدها عواقب ، وحمدته — تعالى جده — أن سنىّ (٢) لسيدى ما أحبه ، وأسنى حظّه فيما آثره وطلبه ، وأعلم من خَبَرعن قرب ، أو نظر عن بعد ، أن فضيلة الولاية ، طبّقت مفصِل الكفاية ، وولاية العهد حصلت للمستقلّ الفرد ، وحماه عن أن يكون الهوى رائداً فى اصطفائه ، وقائداً إلى استرعائه .

وقد أنهيت إلى المجلس العالى ماورد ، فاهتز مولانا لسماعه ، واستشرح فلانا حقيقة أحواله وأوضاعه ، واعتد للسلار اعتداداً طال عنانه ، وَحُسن ارتهانه ، وسكن إلى ما أوتى سيدى من الأمر الذى كان متربصاً به حتى استقر قراره الاستحقاق (٣) ، واستمر بأحسن اطراد وأجمل مساق ، لخار الله لسيدى فيما لابسه وتطوّقه ، وبلّغه فى كل حال أمله وحقّقه ، وأعانه من طاعة مولانا على ما هو ملاك النعم وقوامها ، ومِساك الرتب ونظامها ، ووفقه لمقابلة اعتماد السلار إياه ، بقضاء الفرض فيما استكفاه وولّاه ، إنه يفعل ما يريد .

وسيدى يجعل عماد ما أوتيه ، والعتاد فيما أوليه ، الانقطاع إلى الله تعالى فى سر أمره

---

(١) فى الأصل : المتنا . ثم واءها بياض قليل .

(٢) سنّى سهّل وفى الأصل : يسنى .

(٣) فى الأصل : لاستحقاق .

وجهره ، و بطن أمره وظهره ، وينوى الخير ، فإنها نية تحفظ الرغائب عن الشرور ، وتحرس المواهب عن الندود ، ويخاطبنى بخبره ووطره ، إن شاء الله .

٤ — وله تهنئة بتجدد نعمة وعلو رتبه

أما قبل أطال الله بقاء سيدى ، فالحمد لله مُولى النعم ، ومُسْدى المِنَح ، منه ابتداء الإحسان ، وإليه مرجع الشكر آخر الزمان ، وصلى الله على النبى محمد وآله الأخيار .

وأما بعد فهنّأ الله سيدى الموهبة التى ساقها إليه ، ومدّ رواقها عليه ، إذ[١] كانت من عقائل المواهب ، مسفرةً عن خصائص المراتب ، وكيف لا تكون كذلك ، وقد صدرت عن مالك الأرض ، وولىّ البَسْطِ والقبض ، ومصرّف الثقلين ، ومدبّر الخافقين ، مولانا الملك السيد ، مكنوفة بكرم رائه ، وشرف اختصاصه واحتبائه ، وخطبتها عناية مولانا الأمير المؤيد ، وحلّت من سيدى محل الإيجاب ، والاستيجاب ، والاستحقاق ، دون الاتفاق ، فعرّفه الله ميامن أعزر شريعة بأشرف ذريعة ، وأجرع فضيله حصّلها بأرفع وسيلة ، كما عرفنى فيه ما لم أزل أوثره وأرتجيه ، وأعده به وأمنيه ، فحقق الله ما قدرته ، وصدّق طيرى الذى زجرته.

وأتانى كتاب مولانا دالاً على أنواع التكرمة التى أهّل سيدى لها ، وأصناف الأثَرَة التى اختصه بها ، فقوى أملى وامتدّ ، واستحصف أزْرِى واشتد ، ودعوت له ثم لمولانا الأمير بثبات الوطأة ، ودوام القدرة ، واتصال السلطان والبسطة ، لنبلغ المنازل السامية باستيطان طاعتها وخدمتها ، وشكر فضلها ونعمتها ، لما به تُسْتَدام النعم دون الشرور ، وتُحفظ المِنَن عن مشارع الكنود ، والله يسمع ويجيب .

كتبت هذه الأحرف من بُوزَنْجِرْد[٢] ، وإذا يسر الله وصولى إلى الحضرة العالية عنه ، ومثولى فى المجلس بإذنه ، قمت عن سيدى بحق الشكر ، وخاطبته بمزيد تخليص وشرح ، وأقول قولا مجملا ، ليقابل سيدى هذه الرعاية بما يُرْغب فى تشييدها بأشباهها ، وتشييعها بأمثالها ، فقد علم أنى لم أُجَلّ له قط عن صورة إلا أرته الصواب ولم أجِل قلمى إليه بمشورة إلا لقّته الرشاد والله حسبى وصلواته على محمد وآله .

---

(١) فى الأصل : أو

(٢) فى الأصل هكذا : بررىحرد . وبوزنجرد : قرية من قرى همذان

٥ — وله جواب تهنئة بمزيد رتبة

كتابى ، ونعم الله متظاهرة ، فى الدولة القاهرة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابك يبسم عن ثغر الإخلاص الصادق ، ويصل طارىء الحق الواجب براهن الذمام السابق ، قد وصفت فيه مورد البشرى عليك ، وعظم النُّعْمَى بها لديك ، فيما جدّده لى مولانا تشريفاً لم تخاطبْه طوالع الآمال والطِّلِبات ، ولم تخطبه نوازع الهمم والرغبات ، بل تطوعت به سماء المجد ، وجادت له أنواء الملك ، فتضمن من الخلع أسناها ، ومن السيوف أمضاها ، ومن الأفراس أجراها ، ومن المراكب أبهاها ، ومن الإقطاعات أوفرها وأنماها ، ثم لم يقنع بأن جاد أرضى ، ونوّر روضى ، حتى تتبع كل وارد فى جملتى ، وناهضٍ لخدمتى ، فطبّقه بغيث خصّه بسقياه[1] ، وفضلٍ توحّد سناؤه وسناه .

وهذه المواهب والرغائب ، وإن علت بها المنازل والمراتب ، وتجدّدت معها المفاخر والمناقب ، وكان فيها العز الراهن الراتب ، فإن الملك السيد أتبعها بعارفة فَغَمَ الخافقين عَرْفُهَا ، وأفعم المشرقين وصفها ، وتوضّحت جباه التاريخ بغررها ، وافْتُتِحَت صفحات السير بخبرها ، إذ ركب — أدام الله سلطانه — إلىّ بنفسه ، غلوًّا فى الكرم ، وإسداء لقاصية النعم ، وتوخّياً لوفاق مولانا فى خادمه ، وربيب مكارمه ، فكان يوماً غبطت سماؤه أرضه ، ونجومه تربه ، ووقع الإجماع ، بحيث ارتفع النزاع ، على أن هذه المكرمة لم تُقْسم لأحد قبلى ، فيجاريني فى رهانها ، ويجاذبنى على عنانها .

والحمد لله مسنى المنن ومتيحها ، ومجزل الفواضل ومبيحها ، حمداً يوفق لشكر نظره الجميل ، وإنعامه بما يوفى على التأميل ، وإياه أسأل أن يصلى على النبى محمد وآله ، ويطيل بقاء مولانا ملك الملوك ما رُويت أخبار مساعيه ، وتُليت آثار معاليه ، مشبوح الباع بتصريف أزمّة[2] الزمان ، يدين له الثقلان ، ويتصرّف — كهمّه — الملوان ، ويديم أيام مولانا الأمير المؤيد ، ورايته تفرع الرايات ، وولايته تسع الولايات ، نافذ الأوامر ، ضاحك

---

(١) فى الأصل : سقياه . (٢) فى الأصل : أزمنة

المآثر، مخدوماً بأيدى الأقدار، مبلَّغاً فى أوليائه وأعدائه قاصية الإيثار، ومعونتى على أن أكون لها خادماً تزكو لديه الصنيعة، وتحرس عنده الوديعة، وتعتمد منه النصيحة، وتشهد لديه النية الصريحة، والله سميع مجيب.

وأنت — أيدك الله — مستغن عن أن تصف حالك فى قوة أملك، وشدة جذلك، إذ كنت أعرف ذلك منك بالاختبار، قبل الإخبار، وبالمشاهدة قبل شهادة البيان، لاعدمتك، وأعان الله على المنوىّ فيك.

٦ — ولـــــه

كتابى وأروقة العز علينا ممدودة، وأفنية الملك لدينا ممهودة، والحمد لله وصلواته على النبى محمد وآله.

ووصل كتابك مخبراً بانكفائك عن وجهتك، متعرّفا المناجح فى عزمتك، ملقّى المحابّ فى نهضتك، ربيح السعى فى مسيرك وأوبتك، فآنسنا الله بما ألبسك من أثواب الجمال وأفاض عليك من مدارع الإقبال، حتى عرف البعيد عرفان القريب، وأيقن الغريب إيقان النسيب، أن الدولة القاهرة حين عُددت ابنها وفتاها، وصنوها وأخاها، منحتك من السعادة ما يفوت الآمال أن تخطبه، والظنون أن ترومه وتقتضبه، وتلك حالها وحالك ما أردت، وأين توجهت وقصدت.

فالحمد لله ولىّ الحمد ومستحقه، وقاسم الفضل لمن فضّل من خلقه، وزاد الله أيام مولانا الملك امتداداً، وأركان عزته اشتداداً، وقوّانا على طاعته التى من استشعرها امتطى النجم تمثيلاً، وأوسع الدهر تذليلاً، وأوزعنا الله أن نشكر ماعوّدناه فى أنفسنا إيراءزند، واعتلاء جند، واتصال سعد بسعد، ثم فى المخلِصين لنا والأخصّين بنا، تمكناً من الرغائب، وتدرّجا فى المراتب، واقترانا لمحاسن الزمان، واتساعاً فى المكان والإمكان، وزادنا ابتهاجاً بما أوتيته وأتيته وانتهيت إليه وأنهيته، فأكمل به فلان سيدى رِفْدَه، وأنجز معه وَعْده، وتجاوز به الاقتصادَ إلى الإكثار، وجمع فيه الإيثار إلى الاستبصار[1]، حين

---

(١) فى الأصل: تراءِ الاستبصار

اختصك بالقلعة التى كان قدّمها على قلاعه ومعاقله ، وجعلها أخصَّ رباعه ومنازله ، مبالغاً فى التنويه ، ومتحريا من الجميل مالا ينازع فيه ، ومِثْلُهُ آتٍ من المآثر ما يطيب شكره ، ويطير ذكره ، ويحصل به من إحماد مولانا ما تنافَسُ عليه القلوب والنفوس ، ويشترك فى استمداده الرئيس والمرءوس ، ومن اعتدادنا ما لا تميل قواعده ، ولا تحول معاهده ، فهنأك الله ما أطْرِفْت ، وعرفك بركة ما استأنفت ، ومنحك أضعاف ما استزدت واستضفت ، ونحن نتوقع ما يرد منك بتخليص الصورة وإيضاحها ، وإنهاء جليتها والكشف عن أوضاحها ، مع أخبارك وأوطارك ، إن شاء الله .

٧ — وله تهنئة بتجدد الوزارة

كتابى — أطال الله بقاء الشريف سيدى ومولاى — والأمور بمضاء (١) رأى مولانا وعلو رايته ، ونفوذ حكم مولانا الأمير المؤيد وعلو حكمته ، على ما عودهما الله الكريم نجما صاعداً ، وعزا زائداً ، وسلطاناً متيناً ، وفضلا مبيناً ، وما فوضاه إلى منابى ، وناطاه باستخدامى ، جارٍ بعون الله تعالى على ما النجح فيه مضمون ، والخلل عليه مأمون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب سيدى مهنئاً بالنعم التى ألبسنى الله — تعالى — أجدّها ، ومنحنى أجلّها ، فيما أهلنى له مولانا من إكرام اقترن طارئه براهنه ، وناشئه بقاطنه ، وإنعام هو ، وإن كانت شعابه تسيل إلىّ منذ صحبت الزمان ، وتقر عندى منذ عرفت الأيام ، فإنّ موافيه أوفى (٢) على ماضيه ، وحاضره أرمى (٣) على منقضيه .

وشرّفنى به مولانا من اختصار طرق الآمال إلىّ ، وجمع شعب الأعمال فى يدىّ ، إلى ضروب من الإحسان ، إن استنجدت عليها الوصف تقاعدنى ، وإن استمددت لها بالشرح لم يهتز لى ، وعرفت ما أنبأ عنه الشريف من طاعته سلطان الغبطة ، وبذله الإمكان فى إكبار المنحة ، وتصرّف فيه من الأدعية التى مواثيقها مأخوذة ، ومواقيتها معلومة ، وصحفها منشورة ، وكتبها مرقومة ، فهى بالإجابة متقبّلة ، وبالسعادة متكفّلة .

---

(١) فى الأصل : بمصار ابى هكذا
(٢) فى الأصل : أفى
(٣) أرمى : أربى

وفهمت الجميع ، وأما تفضل الله على فقد جاوز حدود النعم المعهودة ، والقسَم المشهودة ، التى تضمن آيات عز[١] وسعادة جد ، ومساعدة قدر ، فإنه — وله المنة — شفع كل منحة سوّغنيها ، بمحنة ردّى[٢] المنابذين فيها ، وكل رتبة فتح لى بابها ، بنكبة مكن منهم أنيابها ، فنلت[٣] بحوله وقوته ما ابتغيت ، وقد بُغِيَ على وما بَغَيْتُ ، و بقى أن أؤدى فرائض هذا الطَّوْل العظيم والمنّ الجسيم .

وأما إفضال مولانا الملك السيد فهو الذى لو استعرت له كواهل الأطواد ، ومتون السبع الشداد ، لما أقلّته عظما ، ولرأته[٤] أمما ، ولو كان البحر مداداً ، والشجر أقلاماً حداداً ، لما طمعت فى الإخبار عن قدره ، والإفصاح عن علو أمره ، ولـكنى أَكِلُ إلى ما يرويه الركب ، و ينطق به الشرق والغرب .

وأما ماجدده مولانا لخادمه وغذىّ مكارمه من التشريف الذى لو ضربت به الأمثال لقلت جاز الجوزاء سمتاً ، وعزل السماك الأعزل سمكا ، فإن لم يكن ذلك فقد أتى بما أناف على الحساب والحسبة ، والمنح الراهنة والمكتسبة ، وجاد[٥] من المواهب بما لايطول به باع الدهر ولا يتسع له صدر البحر .

والله تعالى يضاهى عليهما ملابس التمكين ، ويحرس سلطانهما على الدنيا والدين ، لتدوم الحَوْزة محفوظة فى أيامهما ، والبيضة محروسة فى ظلال أعلامهما ، إنه فعال لما يريد .

والشريف مستغن بما جمعنا الله عليه من حال لولا أنه من مضر فى سويداء قلبها ، ومن هاشم فى سواد طرفها ، ومن الرسالة فى مهبط وحيها ، ومن الإمامة فى موقف عزها ، لقلت هى القربى والرحم الدنيا ، فلا غرو أن أكون عند النعمة أسوّغها ، والدرجة أبلّغها ناظراً فى عطفى مسرة واغتباط ، وعامراً طرَفى بهجة ونشاط . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق فرسه فجثا ونعر ، وهذا جعفر بن أبى طالب أُثنى عليه فحجل . بلّغ الله الشريف فى نفسه وأحبته ، نهاية مراده ومحبته ، ولا أعدمنى وده[٦] الذى لو مُثّل شخصاً لأوطأه الوفاء خده وجبهته ، ولو أصبح الزمان أدهما لـكان قرحته ، لا بل والله غرته ،

---

(١) فى الأصل : وعز

(٢) فى الأصل : ردّ

(٣) فى الأصل هكذا : قبلت

(٤) فى الأصل : ولا رأته .

(٥) فى الأصل : وجدت

(٦) فى الأصل : اده

ولكن على الشريف ، بعد هذا تكليف منى وتوظيف ، وهو أن يُنهِض لى لسانه وقلمه ، ويتعب بنانه وفمه ، شكرا للأمير الجليل صاحب الجيش مولاى ومن أنا عبده ، عن أياديه التى هى مشارق الجدّ ، وأثمان الكرم المحض ، ولقد ملأنى منها آنفاً ، بعد الذى أولانى سالفاً ، ما يُحْصَى رمل عالج قبله ، ولا يستطيع غيرُ الحفظة حفظه ، وهذه جملة تغنى من ألقى السمع ، وأخْلَى لها الذرع :

وقد يُدْرِكُ الموحى لُبَانَةَ نفسِهِ ... وذو القول لم يدرك من الأمر طائلا

الأشغال — أيد الله الشريف — علىّ مزدحمة كالعادة فى باكورة الأعمال ، وكرهت تأخير الجواب طلبًا للجمام ، وانتظارا لخلو الفكر وتوقعا لانتجاع القريحة فأمليت إملاء من يسابق لسانه قلم كاتبه ، ويسترسل فيلقى الكلام على عواهنه ، علماً بأن الشريف إن رأى جميلاً أراه ، وإن شاهد تقصيراً واراه .

٨ — ولـــــه

كتابى — أطال الله بقاء الأمير مولاى — ومولانا بما يكنفه من تفضل الله وإحسانه وبركة الملك السيد وسعادة أيامه معافًى موفور ، والله محمود مشكور ، وصلاته على خِيرته محمد وعترته ، وقد جمع الله للأمير صاحب الجيش من علوّ الخطر ، وحسن الأثر ، وارتفاع المكان ، وانقياد الزمان ، والرأى المستنبِط دفائن القلوب ، والعلم المستخرج ودائع الغيوب ، والفضائل التى لوقسمت على البرية ماضيها وغابرها ، وبَرها وفاجرها ، لو سعت جماعتهم ، وكفَت كافتهم ، ما يكبر معه محله عن التهانى بما يتجدد لديه من النعم ولو كانت القطر عداً ، وأعجزت الألسنة وصفاً ، وتخطّت الشكر سبقاً ، وأتعبت الأيدى حَسْبا ؛ إلا أن للأولياء المخلصين والأوداء المختصين أن ينبئوا عن إكبارهم لما يضاعف الله الكريم من بسط يده وإسعاد جدّه ، والزيادة فى ارتفاع قدره ، وانبساط قدرته وأمره .

وعرفت خبر الوصلة التى لا مرمى يطلب وراءها للجلال ، ولا نُعْمى تقف إزاءها فى الجمال ، ولا شملَ أشرفُ منها [1] اجتماعًا ، ولا مزية أتم منها [2] ارتفاعًا ، فبينا أنا فى توفية هذه الحال حظها من الاستبشار بها ، والتبشير بكرم منصبها ، إذ عرفت خبر البلد الذى أحسن

(١) فى الأصل : فيها (٢) فى الأصل : منه

الله إلى أهله ، وعطف عليهم بفضله ، إذ أضيف إلى ما يلاحظه الأمير بعين إيالته ، وينفى خلله بفضل أصالته ، فلزمتنى فروض شكر أسأل الله المعونة على أدائها ، والتوفيق لتحمل أعبائها ، ومن سُرّ — أدام الله علو الأمير — فى هـذه الحال لنعم مستفادة ، ورُتب مزدادة فسرورى لما أعلمه — أدام الله عزه — يكتسبه فى كل عمل يدبره ، وأمر يقرره ، من أحدوثة جميلة ، ومثوبة جزيلة ، ويؤثره من إحياء عدل وإماتة ظلم ، ونشر نَصَفَةٍ وطى غشْم ، ورفق بضعيف ، وإغاثة للهيف ، وعمارة لسبل الخيرات ، وإيضاح لطرق المبرات ، فبارك الله للأمير فى الأمر الذى عقده ، وأحمـده إياه وأسعده ، وجعله موصولا من زكاء الولد ، ونماء العدد ، واتصال الحبل ، وتكثير النسل ، وعرّفه ، من يُمن ما باشره ، بتدبير الخـير والخيرة ، والبركات الحاضرة والمنتظرة ، وجعل المنائح إليه أرسالا ، لاتملّ تواليا واتصالا ، وعين كلاءة الله ترعاها وتراعيها ، ويد حراسته تحفظها وتقيها ، إنه فعال لما يشاء ، فإن رأى أن يُصَرّفنى على أمره ونهيه فعل إن شاء الله .

٩ — وله تهنئة بالوزارة إلى أبى الفتح بن أبى الفضل بن العميد

أنا أهنىء — أطال الله بقاء مولاى — الوزارة بإلقائها إلى فضله مقادتها ، وبلوغها فى ظله إرادتها ، وانحيازها إلى جَنَبَتِهِ واضحة المجد والفخر ، وتوشّحها من كفايته بغرّة سائلة على وجه الدهر ، وأشكر له — أدام الله نعمته — حنوّه عليها ، وعطفه عنان الفكر إليها ، حتى قرت لديه قرارها ، وأثقبت بيديه نارها ، بعد أن هفا قلبها إشفاقاً من استشراف أَنَاسِ النقصِ لها ، وحرج صدرها من تحدث أحلاس الجهل بها .

ولا غرو فهى وليدة داره ، قد آلت لاتخطّت خطّته ، وعاهدت لا برحت عَرْصَته ، فالحمد لله الذى أقرّ عين الفضل ووطّأ بهـا دار المجد وترك الحساد يتعثرون فى ذيول الخيبة ، ويتسقطون فى فصول الحسرة ، حمداً يديم أيام الأمير السيد ويطيل بقاءه ، ويحرس عزه وينصر لواءه ، فلقد شرح صدور المحاسن ، وشدّ ظهور المحامد ، بتفويض الصدر إلى من وليه بحقين : قديم وحديث ، وأوليه بفضلين : مكتسب وموروث ، لأن مولاى وإن كان بكفايته ، مستغنياً عن التعويل على أوّليته ، فليس الاعتزاء إلى العميد — قدس الله روحه — بيسير فيُحْتَقَرَ أمره ، ولا الانتماء إلى الأستاذ الرئيس — برّد الله ضريحه — بقليل

فيترك ذكره . هيهات ! إن الرياسة خيّمت ثَمّ متشبّثة بأعطافهم ، متنقلة فى أكنافهم ، حتى استكمل مولاى جلالها ، ووفّاها حظها وجمالها :

فلم تكُ تصلحُ إلا له ولم يك يصلحُ إلا لها

وفقه الله لطاعته التى هى أسعد متجر ، وأعظم مفخر ، ثم لطاعة ولى نعمته ، فهى حتم لا يُرفَع مكتوبه ، وفرض لا يُنْسَخ وجوبه ، ولقّاه فى نفسه الكريمة نجْراً وطبعاً ، الشريفة أصلاً وفرعاً ، أفضل سَعادة قسمت لوالى عمل ، وأحضر بركة أسهمت لمسامى أمل ، بمنه .

أنا مستغن — أطال الله بقاء مولاى الأمير — عن أن أصف ما خصنى من بهجة هذه المنحة ، وخلص إلىّ من جدّة هذه النعمة ، فإنى والوزارة فى خدمة الأستاذ الرئيس أخوان ، وردناها[1] جميعاً ، وورّثناها مولاى معاً ، غير أنى قد جلوت من الشكر لله ما رجوت أن يحمينى مواقف الجحود ، ويؤذن مولاى بعوارف المزيد ، وصدّقت نذوراً أسلفتها منذ مدة ، وأنجزت شروطاً قدمتها منذ برهة ، وآخر دعواى أن الحمد لله رب العالمين .

١٠ — وله تهنئة بمولود

من المواهب التى يجب علىّ إشاعة ذكرها ، والإطناب فى شكرها ، وارتياح نفوس أولى الأخطار لها ، وانشراح صدور ذوى الأقدار بها ، موهبة كثّرت محاسن الأرض ، ووفّرت أعداد أبناء المجد ، وأطلعت مزيداً فى نجوم السرور كالموهبة عندك يامولاى ! — أدام الله عزك — فى الفارس الذى بسط البشر على وجوه الزمان ، وأرى الطلاقة فى مطلع الأيام ، وضاعف المسرة فى قلوب الأودّاء ، وأهدى الكمد لنفوس الأعداء . وإلى الله — عز وجل — أرغب فى تعريفكم معاشر سادتى وآبائه ، أعظمَ السعادات فى طلوعه ونمائه ، فإنكم أهل بيتٍ تقوَى بهم مُنَن المكارم ، ويشتد فيهم أزر المحامد ، وتَقَر لهم أعين المحاسن ، ومن هذا الذى لا يمتلىء بهجة ولا تغصّ أعضاؤه غبطة ، وقد طلع فى أفق الحرية أسعدُ نجم ، ونجم فى حدائق المروءة أزكى غصن . وأقول الحمد لله ، كلمةً رضى الله تعالى بها من خلقه على عظيم منّة ، وجسيم إحسانه وطَوْله ، وأتبعها بالشكر لله استدامة للطيف صنعه ،

---

١) فى الأصل : وردناهما .

واستزادةً من كريم فضله ، وأسأله — بعد الصلاة على النبي محمد وآله — أن يعمّرك يامولاى ! حتى ترى هذا الهلال قمراً باهراً ، وبدراً زاهراً ، تكثر به عدة حَفَدتك ، وتعظم به غُصّة حسدتك ، ثم تهنّأ في أسباطه بعد أولاده ، وتكفل الجميع على مرادك ومراده ، من حيث لا تهتدى النوائب إلى عراصكم ، ولا تطمع الحوادث فى انتقاصكم ، والمسئول ، أكرم مأمول .

أنا أشكو — يا مولاى ! — تأخر المبشِّر عنى مع المشاركة التى وكد الله أسبابها ، والمشابكةَ التى مهد أنسابها ، وقد كان يجوز أن يُحسَن الظن بمساهمتى ، ويُجمَل التقدير فى مخالصتى ، ولا أُحلُّ بمنزلة الأباعد عن الأهل والعشيرة ، وأقابَل عما عندى من صفاء العقيدة والسريرة . وأعتذر من تأخرى لملازمتى المدينةَ ، على خدمة الحضرة الجليلة ، وأسأل تعريفى اسم الفتى — أيده الله — وكنيته ، فغرة الفضل لا يخفى اسمها ، وقرحة المجد لا يطوى ذكرها ، ولو ترك غفلا لوسمته المفاخر ، وسمّتْه المناقب ، وقيل : هو الشعرى العبور والنجم الثاقب .

١١ — وله إلى أبى الفرج الحناط

وصل كتابك ياسيدى وولدى ! — أطال الله بقاءك — فأهدى مسرة طال بها العهد واشتد قِبَلها العتب ، وفككته عن التهنئة بهذه النعمة التى جلّت عن النعم ، ووسعت بفضلها كافة الأمم ، فلا فتح يُقرَن إليها مذ عرفت فتوح الأمصار ، ولا بشرى تقاس بها منذ رويت السير والأخبار ، منّاً من الله أصفاه لمولانا الأمير المؤيد ، مؤيد الدولة — أعز الله نصره وأدام ملكه — حتى أعلن كلمته ورفع حَكَمته ، وأعلى يده وجنده ، وجمع أسباب السعادات عنده ، وعرّف القريب والبعيد ، والضال والرشيد ، أنه راع دولته[1] ما اتصلت الأيام والليالى متوالية ، وحافظٌ رايته ما اعتقبت الظلم والأنوار متنافية ، والله منجزٌ ميعاده ، ومسترعٍ من يرتضيه عبادَه وبلاده .

وأما اغتباطك بما جدد الله من فضله ، ومنحنى من طَوْله ، فجارٍ مجرى المشاهَد الذى

---

(١) فى الأصل : وما

لا يقام عليه شهادة ، ولا يلتمس فيه أمارة ، إذ كنت آخذ بنصيبك فى أبناء الدولة ، ثم مكانُك مكانُ أخص الأولاد وأعز الإخوة ، بلى تعجبت من فصاحتك كما أعجبت ببلاغتك وتخيل إلى أن روح عبد الحميد انتقلت إليك ، وقريحة ذى الرياستين[1] خلعت عليك ، وخاطر الحسن بن سهل أعيد فيك ، وبديهة إسماعيل بن صبيح[2] حُصِّلت لك . وأرجو أن تكون قد اكتسبت من الفضل بعدنا ما أوجب هذه البراعة العجيبة والصناعة ، أو شاهدت ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر ، فسألتَ أن يجعلك الله إمام الكتابة ، وزمام الخطابة ، فصعد الدعاء إلى الله سريعاً ، ونزلت[3] الإجابة تحمل من الله فضلا وسيعاً ، فإن يكن ما أؤمل كما أؤمل ، فالحمد لله مؤتى الفضل من يشاء من عباده ! وإن يكن سقياك من غير غمامك ، وجِلادك بغير حسامك ، فلا بأس قد يجيد الفارس الطعن برمح مستعار ، ولو شئت لقلت من ألقى النسخة إليك ، وأملاها على يديك ، فتعلم أن بجرجان قوماً يعرفون عيب أصبهان ، وهذا مزح ولكنه صدق ، وانبساط ولكن تأويله حق ، كفانى الله بُعدك ، وأرانى وجهك ، وسلّم عليك وسلمك ، وأبقاك ما أحببت وأغنمك ، وحسبنا الله نعم الوكيل .

---

(١) هو الفضل بن سهل وزير المأمون وكاتبه

(٢) من جلة كتاب العصر العباسى ، كتب ليحيى البرمكى ثم للرشيد ثم ابنه الأمين

(٣) فى الأصل : نزعت

الباب العاشر

فى التعازى

١ – كتاب تعزية

سيدى يعرف من شروط الزمان وعاداته ، وشئون الدهر وتاراته ، ويخبر من شيمة الأيام فى تبعيد القريبين ، وتفريق ذات البين ، ما يملك معه حلمه ، ويراجع له حزمه ، متى أتت الليالى بما تعاقبت القرون على مثله ، وأعيت الحيل دون دفعه . ولولا أن الحال الناظمة لنا تتصل باللحمة ، وترفع حجاب الحشمة ، لأوجب أدب التوقير فى بعض ما يقتضى تسلية ، ويستدعى تعزية ، فضل الانقباض عن الذكر ، والتعويل على مودَع الصدر ، ولكن تجاوز المودة الصادقة ، إلى الأسباب المتلاحقة ، يجرى مجرى النفس الواحدة ، فى المسرّة إذا اتفقت ، والمساءة إذا طرقت .

وبلغنى من خبر المفقوده السعيدة ، أحسن الله منقلبها ، ورفع مع الصالحات رتبتها[1] ، فكان جزعى عليها جزع المرء على كريم الأمهات ، وعقائل العمات ، وشاركت سيدى فى الوحشة مشاركة من لا يتميز فى منَحه ومِحَنه ، ولم أُطِل فى الإبانة عن صورتى علما بما يتمثله منى قبل التمثيل ، ويتيقنه عندى أمام التطويل ، فللضمائر ألسنة ناطقة ، وعبارة سابقة وسيدى أصدق رأياً ، وأثبت قلباً ، وأحضر عزما ، وأجمع لبا ، من أن يُكَفَّ عن الجزع بلطيف التذكير ، ويُصَدّ عن القلق بحسن التبصير ، فأطال الله مدته ، وحفظ مهجته ، وحرّم على الحوادث أعزّته ، وجعل ماعرض خاتمة الرزايا قبله ، وبلّغه فى دينه ودنياه أمله

وكان فى الحق إذ تعذرت حال المشافهة ألاّ أقتصر فى التعزية على المكاتبة ، حتى أُصْدر أوجه كتّابى ، وأُنْبِهَ أصحابى ، ولكنى عرفت ما فى التخفيف فآثرته ، واقتصرت على هذا الخطاب فأصدرته . وسيدى يعرفنى ماأتاه الله من التوفيق الكريم ، فى جميل العزاء وحميد التسليم ، لأنصبه حيال طرفى ، وأجعله مثال فعلى .

---

(١) فى الأصل : رويتها

٢ — ولـــه

أنت — ياشيخى — أثبت عقلا ودينا ، وأحضر فضلا ويقينا ، من أن تتصدى لما يولى الله من نعمة إلا تصدِّىَ الشاكر ، وتتلقى ما يُبْلِى الله من محنة إلا تلقِّىَ الصابر . ذلك هو الهَدْى الصالح ، والمتجر الرابح ، وعنده تحصل مرضاة الله فتكثر الحسنات ، وتُتَبَّع إرادة الله فتكفَّر السيئات .

وعرفت ما أزعجك ، أيدك الله ، من الفجيعة فى قرين الخير -- جعل الله المنقول إليه خيراً له من المنقول عنه — فساءنى ذلك لا تسخّطا لقدر الله وهو عدل، ولا تكرُّها لقضاء الله وهو فصل ، بل لما علمته يصل إليكم ، أيد الله الجماعة ، من جزع لاتخلو منه قلوب البشر عند طروق النُّوَب .

وشاهدت من انزعاج فلان مازاد فى الوجوم زيادةَ قُربه إلى ، وتقدّمه أهل الخصوص لدىّ ، ولك[1] فى بقائه مع إيفائه على أكفائه ماسدّ ثلم الرزية ، وأغنى عن إطالة التعزية ، وقد أطلت عند ركوبى إليه وعظه ، وأذكرته فى التسليم لله حظه ، جبر الله مصابكم وقد فعل ، وألهمكم التسليم لما حكم به فعدل .

٣ — ولـــه

كتابى ، والأمور بالحضرة العالية ، وهذه الحضرة البهية ، مستقرة على ما عوّد الله فيها وأسعد من مجاريها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

وتهيّبُ الأكابر — أدام الله تأييد الأمير — فرضٌ وكيد ، وحَتْمٌ على من ألقى السمع وهو شهيد ، ومن قضاياه الانقباض عن الإكثار ، عند حوادث الأقدار ، إجلالا ، والاقتصار على الدعاء بكراً وآصالا ، لتحصل مزية التقرب ، ولا تُغْفَل قضية التهيّب .

ولما عرَض بحضرته — أجلّها الله — ما أوجب التسلية عن السعيدة رحمها الله ، فزعت من المطاولة بالتعزية إلى مواصلة الأدعية ، فأطال الله بقاء الأمير مسرورا غير مهموم ، وموفورا غير مثلوم ، وكتب له عن أجر ما قدره وأجراه ، واقتضاه وقضاه ، أفضل ما كتبه

(١) فى الأصل : وذلك .

لمن سلم له تعالى أمره وحكمه ، ولم يتسخط قدَره وحتمه ، وورَّثه الله عمر من قدمه ، وغفر لمن اختار له جواره واستقدمه ، وما أذكر ما مسنى فى هذه الحال ، ذهاباً مع فريضة الإكبار والإجلال .

٤ — ولـــــه

ورد كتاب مولاى بذكر مضى فلان ، فوجدت نفسى كالمصاب بنجيب من أبنائه ، أو عزيز من أعضائه ، وورد على قلبى ما غشَّاه كرباً يتعذر دواؤه ، ويتعسر جلاؤه ، فما أدرى بعد هذا ما أكتب وما أقول ، وكيف يُذَمُّ هذا الزمان الخؤون ، ولكنى أنشد :(ما أعلمَ الدهر بمن أُحِبُّ) : وأردِّد :

هذا الزمانُ يسوءنى فجعا بكل خليـــلِ
فـكأنه يمضى إلى ما ساءنى بدليـــلِ

والله أسأل أن يطهرنا للقائه ، فكلٌّ — لابد — وارد هذا الحوض ، وإن مدَّ فى أجله وأخَّرَ فى مهله ، ونعوذ بالله من طول الآمال وقصر الآجال ، وشرور النفوس وسيآت الأعمال ، ورحم الله فلانا فلقد كان قليل النظير فى أشكاله ، بل عديم المثل فى أمثاله . وسأكتب إلى فلان معزيا ، وإن لم أجده أولى منى بالفجيعة ، فإخاء المودة الخالصة فوق الرحم الماسة .

٥ — ولـــــه

كتابى — يا أخى ! — وأنا لا أعـلم أعزّيك أم نفسى ، فليس المصاب عندك بأعظم منه عندى ، لأن فلانا وإن كان أخاك ميلاداً ، فقد كان أخى إخلاصا ووداداً ، وإن فجعتَ به وفقدت كبيراً يُعْوِز البدل منه ، فقد رُزِئْتُه فعدمت أثيراً يُعْوِزالعوض عنه .

وقد مضى لى أقارب ، ضمتهم إلىَّ المناسب ، فلا أذكر فجيعة بهم أخذت مأخذ هذه من صدرى ، وأثرت تأثيرها فى صبرى ، وما أرْضَى خاطرى — مع استيلاء القلق واستعلاء الجزع — لإطالة الـكتاب ، والإبانة عن قدر الاكتئاب ، فرحم الله فلانا رَحْمَته أولياءه ، وأجزل فى أكرم داريه جزاءه ، وعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل تطهيرنا لما نترقبه ، فهذه آجال — لابد — متناهية ، وإنما هى آماد دانية ، وأُخَر متراخية .

ومخاطبتى لك تنظمك وسائر الإخوة والولد ، والله يجبر كسركم ، ويوفر أجركم ، ويلهمكم فضل التسليم ، ويحرسكم عن الإصرار والتصميم ، وأنا لكم ولفلان[١] ، رحمه الله وأعزكم ، كما تأملون ، وأزيد مما تحاولون ، بل يتضاعف اشتمالى واهتمامى بفقد من فقدتم ، وتجدون شفقتى وإيثارى أين أردتم . وفلان ينوب عنى فى صغير مهمكم وكبيره ، وقليل أمركم وكثيره ، فعرفونى ما يهدى الله إليكم من رَوْح تسليته وحسن الانقياد بمشيئته ، إن شاء الله .

٦ — ولـــــه

قاضى القضاة الأجل — أطال الله بقاءه وأحسن عزاءه — يعرف من وجوه حكم الله فى عباده ، ونفوذ مشيئته فى أنواع مراده ما يدعوه إلى التسليم إذا أتته نائبة تزعج فكره ، ويحدوه على الصبر الجميل إذا اعترته حادثة تحرج صدره ، ويحرسه عن التناهى فى الجزع إلى ما يحظره الدين ولا يسوغه ، وينازع القليل البصيرةِ فيبلغه .

وإن امرءاً علم أن الإحياء والإماتة يجريان بأمر من لا يتهم عدله ، ولا يصدر إلا عن الحكمة فعله ، لخليق بأن يقدِّم الصبر والاسترجاع ، ويؤخر التفجع والالتياع ، فكلنا عوارىّ بعرض الاقتضاء ، وأغراض لأسهم القضاء ، والله يوفقنا للقائه ، ويجعلنا من الصابرين لبلائه ، إنه رؤوف بعباده لطيف .

وبلغنى نفوذ قضاء الله فى الخال — رحمه الله — فشاركت أقضى القضاة فيما مسّ قلبه ، وساهمته فيما تحيّف صبره ، وتصورت استيحاشه — كان — منه فازددت استيحاشا لانتهاء أجله ، وانقضاء مهله . على أن أيام العمر ، وساعات الدهر ، كمراحل معدودة ، إلى وجهة مقصودة ، فلا بد مع سلوكها من انقضائها ، وبلوغ الغاية عند انتهائها ، والله يغفر للمتوفَّى ويرحمه ، ويحرس قاضى القضاة ولا يثلمه ، ويصونه فى نفسه وسائر أعزته وأهله بلطفه ، وعطفه .

وقاضى القضاة — أدام الله تأييده — يمدنى بذكر ما يستحضره من عزيمة ، تفل غرب المصيبة ، وتقوى نفس ابن الخال — أعزه الله ورحم أباه — بنصبه منصبه وإجرائه مجراه ، ليتدارك ما ضعف من مُنَّته[٢] ، ويتماسك ما خار[٣] من قوته ، إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل هكذا : ولعسان .

(٢) فى الأصل : منيته

(٣) فى الأصل : خامر

٧ – ولـــه

للفجائع ، يا شيخى — أطال الله بقاءك — اختلافُ مواقع ، وللمصائب تباينُ مراتب ، ومن أشدها لذعا ، وأعظمها وقعاً ، فجيعة أحرجت صدور قوم مؤمنين ، ومصيبة خصت العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرين ، أبى عثمان — رحمه الله وأكرم مأواه ومثواه — فقد كان للإسلام جمالا ممتداً ، وللدين ركناً مشتداً ، وللعلم شهابا لا يخبو ، وللأدب سهما لا ينبو ، يذبّ عن حق الله القائم ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم . عاش عظيم الخطر ، ومات جميل الأثر . التقوى شعاره ، واليقين دثاره ، وحجج الله مَفْزَعُه ، وآيات الله مَرْجِعُه ، فياله مصابا ما أعظمه على الموحّدين ، وأسرّه إلى الملحدين ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار ، ونقول — كما أدبنا الذكر الحكيم — إنا لله وإنا إليه راجعون . ونسأل الله العدل فى قضائه ، الرحيم بأوليائه ، أن يتغمد الماضىَ بغفرانه ، ويُفسِح له فى رضوانه ، ويجزل حظّه من حسناته ، ويرفع درجاته فى جناته ، فلقد كان واسع الحظيرة ، نقىّ السريرة ، قوىّ البصيرة ، لا تتغير به فى خشية الله عادة ، ولا تملكه فى مخافة الله هوادة ، ولولا أن الموت طريق يسلكه البرىء والسقيم ، ومشرع يرده البرّ والأثيم ، لما انشرح بالعزاء صدر ، ولا صُحِب مع البلاء صبر ، غير أنها سنة الله فى أنبيائه — صلوات الله عليهم — وأوليائه ، يُبقيهم ما كان البقاء أعمر لمكانهم ، ويتوفاهم إذا كانت الوفاة أصلح لأديانهم ، وإن تشمّت ملحد فى كلمة الله ، ومعترض لنقمة الله ، فتلك عادة من خُتِم على قلبه وسمعه ، فى الشماتة بالمؤمنين وما يحل بهم .

كتب بعض الثَّنَوية إلى موافق له فى ضلالته ، مطابق له على جهالته : كتابى وقد وَهَى عمود الإسلام ، وانقضت دولة الكلام ، وشاخ أبو الهذيل ومات النظام ، فأبى الله إلا أن جعل من أخلافهم من صدع بالحق ، وذبّ عن حوزة الصدق ، فاعلم يا أخى — أدام الله عزك — أن أبا عثمان ، رحمة الله عليه ، وإن كان لك أبا ، فقد كان لى عمّاً حدبا ، وأخا فى دين الله منتجَباً ، ما وزنت به أحداً قط إلا رجح ، ولا أنهضته لمسعاة فضل إلا أنجح ، وقضى نحبه ، لما أنزل الله أمره ، فسنى من ألم المصيبة ما أجرى الدمع ، وشَغَل الذَّرْع ، وأنفذ

ذخيرة التماسك ، وكاد يغرى بقبح التهالك ، لولا التأسّى المكتوب ، والتعزّى المفروض ، والتسلّى المحتوم ، فإن كنت فقدت منه — قدس الله روحه — شخصه ، فما فقدتَ مع اهتمامى إشفاقه و بره ، وحنوّه وفضله ، وستجد ، إن شاء الله ، عندى من الإكرام لك والرفع منك ، والبسط من جاهك ، مايُخوِج كثيراً من الناس إليك حاجتهم إلى الشيخ ، رحمه الله ، قبلك .

وقد خاطبت فى حاضر الوقت مولاى أبا العباس ، أدام الله تأييده ، فى ذلك بما يصير عنوان رأيى فيك ، ورعايتى لدواعيك ، وإن كان هو — أدام الله عزه — بفضله وعقله ، من الاهتمام بالدين وأهله ، على حال تغنى عن البحث ، وتجزىء دون الحث ، فادّرع — أيدك الله — التسليم لما قضى الله وأمضى ، وتلقَّ حكمه بحسن الصبر والرضا ، فلولا استئثار الوفاة بالآباء ، لما علت درجات الأبناء . وعَرِّفْنى ما تُوَفَّق له ، ثم كاتبنى فى حاجاتك خصوصاً ، وحاجات كل متوسل بك ومتقرب إليك عموما ، فسيأتيك من الجواب والإيجاب ما يزيد على العادة المألوفة ، والخليقة المشهودة أيام أبيك ، أحسن الله خلافته فيك ، إن شاء الله .

٨ — ولـــه

هو الدهر — يا شيخى وكبيرى ! — فلا تعجب من طوارقه ، ولا تنكر هجوم بوائقه ، عطاؤه فى ضمان الارتجاع ، وحِباؤه فى قِران الانتزاع ، بينا يمنح المرء حتى يَسلُب ، و بينما يعطى حتى يحرِب . واللبيب يستشعر الفجيعة ، حين يولى الوديعة ، و يتمثل الفقدان ، ساعة يصافح الوجدان ، علماً بأن الله تعالى جعل الدار دار امتحان لا دار مقام . و بلغنى من مضىّ الفتى — قدس الله روحه و برّد ضريحه — على حين أملته لأحوال ، ورجوته لكفاية واستقلال ، ما أجرى الدمع ، وأعظم الفجع .

ولم أدر أأتصور[1] حاله ؛ وقد اختُضِرَ شبابه ، وتقطعت أسبابه ، ولم تُغنِ عنه طراوته ، فى العيون وحلاوته ، وعزه على العشيرة ، وكثرة الحامين له دون العظيمة ، فلا يملك عن روحه دفعاً ، ولا يستطيع للحتم ردًّا بنفسه ولا بذويه ، أم حالك وقد أُخِذَ عن عينك قرتها ،

(١) فى الأصل : أتصور بهمزة واحدة .

وعن نفسك ثمرتها ، وعن دنياك حسنتها ، وعن مناك غايتها ، فلا القلق ينفع ، ولا الحيلة تدفع ، ولا الفدية تُقْبَل ، ولا البليّة تُمْهَل ، وكل ذلك يزيد المؤمنين إيمانا ، والموقنين إيقانا ، فَيُعْلَمَ أن الأمر كله لمن يَغلب ؛ ولا يُغلب ، وكيفما شاء يفعل ويقلّب ، إلا أن الأرضى خليقة ، والأهدى طريقة ، من علم أن اللطيف الرءوف لا يعطى إلا إذا كان العطاء أربح ، ولا يأخذ إلا إذا كان الأخذ أصلح ، وابنك وإن كان طهراً ، فقد عاد أجراً ، وإن كان فخراً ، فقد رجع ذخراً ، فأحسن العزاء وأجمل الرُّجْعَى ، فما عند الله خير وأبقى .

واعلم أن الناس قبلك فجعوا فجزعوا ، ودُهُوا فَدَلِهُو ، ثم لم يردّ التسلب من مات ، ولم يَرْجع التهالك كلّ من فات ، فعادوا إلى التسليم ، وفوّضوا إلى القادر الحكيم ، وإن المرء ليقدّم السلوة فيجبر مصابه ، كما يؤخرها فيحبط ثوابه . أخذ الله بك إلى ما هو أولى بسنك ودينك ، وحسن عقيدتك ويقينك . أُحِبّ أن تعرفنى خبرك فى التفويض إلى الله ، فإن الرزء ما كان أفظع ، كان العوض أوسع ، وأنت وإن احتجت إلى الأولاد فحاجتك العظمى إلى حسن المعاد ، والله أسأل لك ولنفسى التوفيق والتسديد ، إنه فعال لما يريد .

٩ — وله

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر ، وكذا — أطال الله بقاء مولاى — فلتتقطع على أبى القاسم ، برّد الله مضجعه ، الأكبادُ والقلوب ، وتتساقط الأعضاء والنفوس ، وعند هذا الرزء فليحسن اطراح الصبر ، وليقبح التمسك بأسباب الحزم ، فوالهفاه على أن بقينا بعد ما رزئنا حتى نتشا كى القلق ، ووا أسفاه على أن حيينا بعد ما ذهبنا حتى نتواصف الجزع ، وليت المنايا قدمت منا من أخرت ، قبل أن أقدمت على من تخيرت ، ويا حزناه على أن لا نملك الأعمار فنتبرأ منها إذ أتى ما لا يطاق ، ولا نخير فى الآجال فنتفصّى عنها إذ دَهَا ما لا يستطاع ، وليت الخطوب إذ أقبلت جاءت بما كانت الأفهام تجوّزه ، والصروف إذ تمكنت هجمت بما كانت الأفكار تَخْطِره ، بل جرى المقدار على ما لم يقدّر ، وتجرّأ الزمان على ما لم يتخيل ، فما أقبح العيش من بعده ، وما أنكد العمر مع فقده ، أفحِمْ

ما أشاهده وقد سخنت العيون ، أم حقٌّ ما أرى وقد طرقت المنون ؟ فيالها فجعة بأكرم مقبوض ما أنكأها فى الصدر ، ورزيئة بأنفس مفقود ما أقصمها للظهر .

كتبت — أطال الله بقاء مولاى — وحالى حال من كانت له بالأمس يد عالية فسُلِبها ، ونفس سامية فحُرِبها ، فهل فى الخلق أخسر صفقة ممن دفن يده بيده ، وأهدى نفسه لمَلْحَده ، وهل فى الخلق أعظم كربة ممن رأى سيده يجود بروحه ، وولده يَقْضِى حتف أنفه ، ورام أن تُقْبل فدية من قِبله ، فدفع القضاء فى صدره ، وتركه مفرداً بيثه ، فلا عزاء مريح ، ولا فناء سريح .

وأدع وصف ما لقيت وألقى ، وأعلم أن ما عند الله خير وأبقى ، وأقول : ياسوء صباح أتى مولاى فيه الخبر فرأى الرجاء وقد انقطع ، وأصمّ الناعى وقد أسمع ، ليت شعرى ماذا يصنع ! وإلام يفزع ، وأى تجلد يجد ، وعلى أى سُلوان يعتمد ؛ وكيف يستقر على الأرض وفلذته فى بطنها ، ويراجع الأيام ومهجته فى كفها .

قد قلت يسيراً ، وأخرت كثيراً ، ولا بد من الرجوع إلى الله عز اسمه ، ولا مهرب من الأخذ بأدب الله ، تعالى ذكره ، وسيكثر فى مجلسه عدد المعزّين ، وتطول بحضرته خُطَب المسلّين ، لكنى أقتصر على فصل أحسبه أوقع ما يذكر ، وأظنه أنجع ما يورَد : مولاى يتدين[1] بتعديل ربه ، ويعرف موقع اللطف فى صنعه ، ولا يشك فى اقتران الصلاح بفعله . وترك[2] التسليم اعتراض على حكمه ، وارتياب بعدله ، وقد نزه الله قدره عن أن يقول مالكه : دبرتُ فتسخط ما قضيت ، وحكمتُ فتكره ما أمضيت ، حاش لله ! فما مولاى ممن يدع تذكر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذا وعليه من سادتى أبى الحسن وإخوته نعم تستحفظ بحسن التماسك ، ومنح تستبقى بترك التهالك ، والله يغفر لتلك النفس الزكية مغفرة تحتفُّ بالروح والسلام ، وتفسح له فى دار المقام ، ويعظم لمولاى من الذخر ، وجزيل المثوبة والأجر ، بعدد محاسن من فقد ، ومحامد من عدم ، ويبقيه موفوراً فى أعزته ، محوطاً فى نعمته ، لاتهم النوائب ، بعد ما اجترحت ، بفنائه ، ولا تتعرف المصائب ، بعد ما أتت ، إلى أفيائه ، آمين ، اللهم اسمع واستجب .

---

(١) فى الأصل هكذا : سدىل .

(٢) فى الأصل : ترك بدون واو .

١٠ — وله إلى أبي القاسم على بن أحمد الحراويني (١) يعزيه بابنه

إذا شاركتُكَ ياسيدى — أطال الله بقاءك — فى الرزيّة ، فكيف أخاطبك بالتعزية ، إلا على رسم من الناس معهود ، وطريق فى التخاطب ممهود ، وأنت وإن لحقك على ذلك الفتى — رحمه الله — وجدُ الآباء وما ينالهم فى فقد الأبناء ، فقد كنت أقسم له إشفاق الأولاد ، وألصقه بالنفس إلصاق الأكباد . لا جرم أنه بَدَه قلبى من خبر نعيه ماملأ الصدر ناراً ، وأنفق الصبر إسرافاً ، لولا فكرى فى أن الله تعالى وإن امتحن بالبلية ، فقد أحسن فى البقية ، حراسة لك فى مهجته ، وسائر أعزتك ، مدّ الله فى عمرك وأعمارهم ، ونقل النوائب عن جوارك وجوارهم ، والدنيا مصحوبة على شرط العطاء والارتجاع ، والحباء والانتزاع ، وليس الجزع برادٍّ من خُتِم عمره ، ولا القلق بمفيد من تناهى أمره ، فاستغش ثوب الصبر فإنه أستر ، واستجزل حظ الأجر فإنه أوفر ، وسلم لأمر الله فإنه فضل ، وارضَ بحكمه فإنه عدل ، وطالعنى بما توَفّق لك ، لأوافق رأيك فيه ، فإنى إلى حيز التأسى أحوج ، وإن كنت بالبعث على التسلى أنطق ، والسلام .

وله أبيات

يا أصبهانُ سُقيتِ الغيثَ عن كثَبٍ ... فأنتِ مجمعُ أوطارى وأوطانى
والله والله ما أُنسيتُ برّكِ بى ... ولو تمكّنت من أقصى خراسانِ
ياحبذا أرضُها ، والشملُ مجتمعٌ ... والدهرُ ماخاننى فى حزب إخوانى
ذكرتُ دِيمَرْتَ (٢) إذطاب الغناءبها ... يا بُعْدَ ديمرتَ من أبواب جُرجانِ

١١ — وله تعزية فى أبي محمد يحيي بن محمد بن زيادة العلوى

كتبت وياليتنى ما كتبت فإنى ناعٍ الفضلَ من أقطاره ، وداعٍ (٣) المجد إلى شق ثوبه وصداره ، ومخبر بأن شمس الشرف كاسفة ، وأرض الكرم راجفة ، والمحاسن منقضية ، والمناقب مودية ، والمآثر مودّعة ، و بقايا النبوة مرتفعة ، وآمال الأمامة منقطعة ، وأن العِترة

(١) هكذا فى الأصل .
(٢) ديمرت : من نواحى أصبهان .
(٣) فى الأصل : وادع .

تندب وارث شرفها ، وتبكى حافظ كنفها ، والمروءة قد تضيَّف نهارها للغروب ، وآذنت شمسها بالوجوب ، والدين منخزل واجم ، وللتقوى دمعان : هام وساجم ، والسماحة تشكو إلى السجاحة بثّها وحزنها ، وتصف كيف أوهت الفجيعة أزرها ومتنها ، والأدب منزوٍ إلى جانب مهجور ، ومعصَمٌ بدمعه[١] مستسلمٌ مقهور[٢] ، والحلم قائلٌ : لاطود بعد الذى تزعزع ، ولاركن بعد الذى تضعضع ، فأما قِرَى الأضياف فقد شمت به البخل واستولى على طرْفه الذل ، وجلّل الكسوف جوانب هالته ، ونادى الشُّحُّ فوق دارته ، فلا نارَ ترفع للضيفان ، ولا أجفان تقع على الجفان ، ولا هُداة للركب ولا حُداة ، ولا نُصَفاء ولا طهاة .

وأما الجاه وبذله لمرمل[٣] واقف حتى يهبَّ عليه نسيم الثروة ، وعائذٍ حتى يُكفَى مساس الحلّة ، وحائرٍ حتى يأمن استمرار النكبة ، ولهفان حتى تُزَحْزَحَ عنه عُشَوَاء الحيرة ، فهيهات هيهات ! . مرّ والله صاحبه ، وقام نادبه ، واضطربت أسبابه ، وقيل ذهب فكيف كان ذهابه . وأما الرأى يُعمَل جليله ودقيقه ، ويستطاع تصميمه وتحقيقه ، حتى يُكادَ العدو وهو غارٌّ غافل ، ويَقْتَلِت الحسودُ وهو قارٌّ[٤] ذاهل ، فأمرٌ حمّ حِمامه ، وانقضت أيامه ، وسُلِّم عليه وأُسْلِم ليديه .

فإن يقل متبرِّمٌ بما قلت ، أو متضجر وقد أطلت : من المندوبُ لنعرفه ، ومن المفقودُ لنعلمه ، ومن الذى هذه أوصافه ، فقد تراخى تبيينه ، وتمادى تعيينه ، أَقُلْ حاشاه أن يعرَّف باسمه ونعوته دون حِلاَه ، أو يَسِمه غيرُ مكارمه وعُلاه ، نم سأكنيه ونم المُكَنَّى ، وأسميه ونم المسمّى : ذلك الشريف السيد بالإطلاق ، العفيف بالاتفاق ، الكريم بالإجماع والإصفاق ، السجيح الأعراق ، شريف خراسان ومنظور العراق ، أبو محمد يحيى بن محمد العلوى — قدس الله روحه — وقد فعل ، ولقّاه ماقدّم وعمل ، عاش[٥] بين دينٍ يحميه ، وخير ينميه ، وعلم يَقْتَنيه ، ومجد يبتنيه ، وإحسان يوليه . ساعاته برٌّ ، ونظرته بشر ، وداره نَدْوَةُ العلم والبذل ، واستقراره على قمة العلياء والفخر ، كأن الشِّعْرَى علقت بين عينيه تلمع للمنجد والغائر ، وتهدى ساريا إلى سائر .

---

(١) فى الأصل : بدمه
(٢) فى الأصل : معمور .
(٣) فى الأصل : للمرمل
(٤) فى الأصل : مار
(٥) فى الأصل : وعاش بزيادة واو .

ألا فليبكه الشبان والشيب ، والبعيد والقريب ، والقاطن والغريب ، والعالم والأديب والسائل والمعتاف ، ومن ضمّه الأوساط والأطراف ، بلى[1] فليبكه المعرّف والمحصّب ومِنَى والمشعَر والبيت العتيق المعظم ، والركن والحطيم وزمزم ، أليس بالأمس اجتمع وفدُ الله فى حرمه ومهبط وحيِه وأوّل رسله ، ومقامِ خليله ، ومضجع ذبيحه ، ومولدِ حبيبه صلى الله عليه وعلى إبراهيم وعلى آلهما أجمعين ، فلما درى يمانٍ ومُعْرِق وتهام ، وفصيح وأعجم ومبين ، أن هذا الشريف بمحاضر الموسم تطابقوا على أن يصلى بهم إماما ، ويتخذ من مَقَام إبراهيم مَقَاماً ، فأقام عدة صلوات رفعتها الملائكة البررة ، والأرواح السَّفَرة ، إلى حيث البيت المعمور ، واللوح المحفوظ ، ذخيرةً إلى يوم نشر الصحف ، وتطاير الكتب ، يوم العرض ، ويوم ردِّ القرض ، فإذا تصفح أبوه رسول الله صلى الله عليه وعلى ذريته الهادية ، وعترته الزاكية ، وجوهَ بنيه وأقربيه ، كان هذا الابنُ — إن شاء الله — من النجباء السعداء ، ثم وفى جملة الشهداء ، والأثر المقبول شهيد ، بأن المقبوض غريباً شهيد .

لم أفتتح كتابى وأنا واثق بأن لسانى ينطق بحيث ينطلق ، وأن بنانى بحيث يسترسل مع حالى فى الوجوم الذى برانى بَرْىَ الأخِلَّة ، ونقَصَنى نقص الأهلَّة ، وتركنى حَرَضاً ، وأوسعنى مرضاً ، وغادرنى والخيالُ أكثفُ منى جثّة ، والطيفُ أوفرُ منى قوة ، ولكن فضائل المفقود — رحمه الله — تمثلت لعينى فاستعبرت من غمرها ، واغترفت من بحرها ، واستقت من سيلها ، واهتدت بقمر ليلها ، وهى التى لو تعاطت الخرسُ الخبرَ عنها لعادوا بألسنة طوال حداد ، وعوارض صلاب شداد ، يَسِمون جباه المنابر ، ويَشْحَنُون صدور المحاضر ، وإنما أردت — وقد اقتضبت الخطاب — أن أقيم للشريف رسماً فى التسلية ، وحكما فى التعزية ، وأين السلوانُ منى أو منه ، يابُعْدَ مابيننا وبين الصبر ، وقد رُمينا بواحدة الفجائع ، وواسطة المصائب ، وفادحة الفوادح ، وقادحة القوادح .

ولولا أن حالى فيما نالنى هضٌّ وهاض ، وأطال الانخزال والانخفاض ، ولم يرض بأن فضَّ الأعضاء ، حتى أفاض الدماء ، وتتابعُه أمراضٌ تركت جسمى لحما على وضم ؛ وأعلالٌ أسلمنى عَلَلٌ منها إلى نهل ، وأنا منذ مضى ذلك الطود الأشم ، ومال ذلك الجبل الأصم ،

---

(١) فى الأصل : فعلى أن يبكه .

وفَقْدِ[١] ، كاد الدهر يجنى علىّ بعواديه ، ويُجنينى ثمرة اليأس فيه ، لولا أن الله تعالى مَنَّ بلطيفة من لطائفه ، وجعل هبة الروح عارفة من عوارفه ، لاحتجت فى الإبانة عن صورتى إلى قول لايلتقى طرفاه أو يلتقىَ الجبلان ، ويفترق الملوان . ولعل سامعاً ما أقول لم تتصور له شيمتى ، ولم تتمثل له فى نفسه همتى ، يظننى كمن سبق[٢] أو لحق من أبناء الكتابة ، وآباء الخطابة أفخَمَ الأمر جَذْباً بضَبْع البلاغة ، ورفعاً من طرف الفصاحة ، وقد نزهنى الله تعالى عن هذا الظن ، فإنى — منذ كنتُ — أستهين بشرار الدهر حتى أراه مسكيناً ، ويرانى مستكيناً ، وأعده ضعيف الكيد ، ويعتدّنى قوىّ الأيد ، لا تطمع مسارُّه منى فى اهتزاز ، ولا مضارُّه فى استفزاز ، إلا أن هذه النازلة خصوصاً ثبتت لى ، فطامنت من طاحى ماشاءت ، وأجاءتنى إلى أضيق المنافذ وقد جاءت .

وكان الداعى الأقوى إلى مامُنيت به منه بسَمِّ الأرقم ، وجرَّعت فيه طم العلقم ، أنّ الشريف — أكرم الله مثواه — لما قضى حَجَّه الذى تجشَّم له أصعب الطرق ، وركب إليه أبعد السبل ، والتزم عنه أثقل الكلف ، وجدّد به أشرف القُرَب ، واستوجب عنه أقرب الزُّلف ، عدل إلىّ قبل[٣] وطنه ووطره ، وولده و بلده ، وطلع — رضى الله عنه — كطلعة الرضوان وتُرْعَة[٤] الجنان ، وقد زادت معاليه فصفا على طول العمر ، صفاء التّبر على مُنْبَتِ الجمر ، وشهدته فرأيته قد أخذ من وقار النبوة بقدر إرثه ، وازداد تواضعا أفاضته سماوة عزه ، وعادت صحيفته بيضاء نقية كصدره ، ولذلنا العيش وطاب ، وولّى رقيب الغمّ وغاب ، ونحن لا نعلم ما الذى تجنة ضمائر الغيب ، والذى خبأته المقادير لأبى خُبَيْب .

فبينا نحن فى أنسٍ ونعيم ، وخير ناضر مقيم ، نُصْبِح على مذاكرة بأصناف العلوم ، ونمسى على جدال بين خصوم ليسوا بخصوم ، إذ مرض — قدس الله روحه — فلحقتنا رَوْعة ، وملكتنا لَوْعة ، ثم أبلّ — رحمه الله — فانشرحت الصدور ، وركب فشمل السرور ، ونُذِرت على صحته النذور ، ثم أبى الزمان إلا نكداً ، وأن يَتْرُكَ شَمْلَ الفتى طرائقَ قِدَداً ، ونُكِسَ فنكست الرءوس ، وزهقت النفوس ، وأُشعِرت الصدور مخافة ،

---

(١) فى الأصل : وفقد .

(٢) فى الأصل : سبقه .

(٣) فى الأصل : ما قبل .

(٤) الترعة : الروضة فى مكان مرتفع .

وملئت القلوب كآبة ، ونحن مع ذلك على طمع ، ينهض على ظَلَع ، فلما كُتبت له سعادة المحتضر ، وانتهى به العمر إلى الأجل المنتظر ، نعته السماء صائحة ، والأرض نائحة ، ولحقت الناس دهشةٌ عمياء ، وغشيتهم خُطَّة صماء ، وانقبضت اللهجات عن القول ولم يرشخوص[١] قوم تشخص إلى قوم .

ثم انبعثت الأحزان والهموم ، وانطلقت الألسن والعيون فلا تسمع إلا أنةً أو رنةً ، وإلا نشيجاً أو زفرة ، ولا ترى إلا صارخاً أو صارخة ، وشادخاً بالدم فى وجهه أوشادخة ، كأنا نرى رسول الله قد احتضر ثم قُبض ، وأمير المؤمنين عليه السلام قد طُعِن ثم احتمل ؛ أو كأنا بالطَّفِّ[٢] نشاهد تلك الأجسام العظيمة كيف تذال وتبتذل ، وتلك الدماء الكريمة كيف تراق ، فالدنيا دهماء ، والخضراء غبراء ، والأصابع تشير إلىَّ علماً بأنى أعظم الحاضرين اكتئابا ، وأكثرهم مصابا ، وأقلهم اصطباراً ، وأشدهم جزعا مثارا ، أو صبراً مطارا ، وقد زممت نفسى زمَّ السكينة ، لو لم تنطق الدموع بلسان النميمة .

وحضرنا المُعَزَّى ، فإذا اليوم يوم [أيْوَم] ، وذلك الشَّقُّ شق مظلم ، ولم أدر كيف السبيل وقد علت الأزمات[٣] على الألباب ، وامتنع جانب التسليم والاحتساب ، ففزعت إلى كتاب الله عند اشتداد الفزع وامتداد الجزع ، وأمرت القراء بتناوب التلاوة ، فهدأ الناس إعظاماً لكلام رب العالمين ، يسمعون له منصتين إلى أن قيل : قد جُهِّز ذلك الشخص الزكىُّ ، والسيد النبوىُّ . وأُقبل به وقد ركب الأعناق ، بعد العتاق ، وعلا الأجياد ، بعد الجياد ، وفاح فتيتُ المسك من مآثره ، كما كان يفوح من مجامره ، وقام الناس له كقيامهم — كان — إليه ، واصطفوا للصلاة عليه[٤] اصطفافهم للسلام عليه ، وصلى الله عليه برحمته ، وملائكته بإذنه ومشيئته ، والخلائقُ أفواجا بعدأفواج ، وبحوراً ترمى بالأمواج ، ولاموج إلا حَلَبُ العيون والأحداق ، ودمعٌ كالدم المهراق ، فلم يمر سريره بأرض إلا ودّت لوحُطَّ عندها ، وأُودِع ثَدْيَها ، لتسمو على جاراتها ، وتعد ثانية طَيْبة فى طيب التربة[٥] ، وثالثة الغَرِيَّيْنِ[٦] ،

---

(١) الشخوص جمع شخص وهنا معناه سواد العين .

(٢) الطف : المكان الذى قتل فيه الحسين بقرب الكوفة .

(٣) فى الأصل هكذا : الارماب بدون نقط .

(٤) أصل الجملة : واصطفوا للصلاة اصطفافهم للصلاة عليه وحذفنا اصطفافهم للصلاة ليستقيم السياق .

(٥) فى الأصل : الترب .

(٦) الغريان : بناءان بظاهر الكوفة قرب قبر على .

والحائزة عُلاَ أخواتها فى شرف الرتبة ، فحسبنا البلاد تتجاذب وتنتضل ، وتتغاير وتقتتل ، وأبى الله إلا أن يكون ثواؤه حيث اختار له بل اختار لمجاوريه وزائريه ، ويُسعِد به وارديه وصادريه ؛ فهناك ينزل الرضوان ، وثَمَّ تهبط الجنان .

لقد فارق والله أحياء نيسابور رجل فيه يقال : فَذٌّ فرد ، وأسد وَرْد ، وشهاب لامع ، وصبح ساطع ، وماء [و[1]] رُوَاء ، وكرم ما شئت وحياء ، ووصَل أمواتها قادمٌ تَقَدُمه حسناته ، وتحفه قرباته ، وتصلى عليه صلاتُه وصِلاته ، وتزكّيه صادقةً زكواتُه وصدقاته ، ويشفع له جِدُّه فى الدين واجتهاده ، ويَخصِم عنه حجُّه فى الله وجهاده . ثم أطال الله بقاء سيدى لو أن الكلام سهلت حزونه ، ولانت متونه ، وطاعت عيونه ، ودانت أبكاره وعُونُه ، ثم عُمِّرْتُ عُمْرَ العصور ، وعمر النسور ، أَمَدٌّ بخاطرٍ لا يُنزَف ، وطبع لا يُنزَح ، ثم شغلت عمرى بالثناء على من رزئناه ، شرّف الله مأواه ، لكنت بعد الإكثار والإطالة ، وخوف السآمة والملالة ، قاصرَ السعى قصير باع القول ، فصاراى أن ألوذ بذمّة الصمت ، وألبس ثوبين : من إقصار وعجز .

وإنما أنفث بنفثة المصدور ، وألقى بَثِّى على حواشى الصدور ، وبالله العياذ من استشراء الحزن حتى لا أجْرَ ، واستعلاء القلق حتى لا صَبْرَ ، إن ذلك من مواقف الجهال الذين تستهويهم يدُ الغرور ، والكفار الذين ييأسون من أصحاب القبور ، فرجوعا إلى الله رجوعا ، وَرِضًى بحكم الله وخضوعا .

والحمد لله الذى لما عمّر الشريفَ أبا محمد صلوات الله عليه عمّرَه عزيزا ، وفطره عظيما ، وجعله بنفسه وجنسه شريفا كريما ، أعماله بيضٌ ، وإفضاله مستفيض ، وذكره سائر ، والثناء به طائر ، وحين قبضه قبضه سعيدا ، وتوفاه حميدا ، وختم له بحالٍ يُغْبَطُ عليها للدار الباقية ، وإن لم يُغْتَبط بها فى هذه الفانية . ثم الحمد لله على أن سدّ خصاصةً من الشريف بمن مكانُه محتشَم ، ومقامه مقدَّم ، وخلقه وفضله مرموق ، وأدبه مشهور ، وسبقه معهود ، يروى المكارم مرفوعة العماد ، موصولة الإسناد بالإسناد ، قد ورث الشرف جامعا عن جامع ، وشهد له نداء الصوامع .

---

(١) زيادة للسياق .

فإنْ تك أيدينا بالأمس أمسكت على القلوب خوفَ انصداعها وانزعاجها ، لقد مسحت اليوم على الصدور عند انشراحها وانفراجها ، ولئن سخنت عيونٌ حين حدث الحادث ، لقد قرّت عيون حين انتصب الوارث ، وتلك الرياسة منتقلةٌ إليه ، وحاصلة بيديه ، يتوارثها غصنٌ عن شجر ، وهلال عن قمر، ونحن معاشرَ إخوان الماضى وكافةَ شيعته — أكرمهم الله — أيدٍ وراءه طوال ، بل جبال إذا أريدت الجبال ، تُشحَذ له البصائر ، وتُبتَذَل فيه الذخائر ، ويدعونى الإشفاق — مع ذلك — إلى أن أقول : حَتْمٌ على سيدى أن يلبس مَعْرِضا لهذا الأمر يستقلّ معه بفرائضه ، ويضطلع بوظائفه ، ويثابر على لوازمه ، ويقسم الشهوات على شرائطه ، فلقد كان حتى اليوم ابنا وهو الآن أب أو جد . وفى صُعَداء المجد مسلكٌ وعر ، ومذهب حَزْن .

ولن يفرع الذروة إلا بتقوى وحلمٍ لا يميل إلى جانب الخُرْق ، ولا ترتقى إليه همة الذل ، وبَذْلٍ لا يذوب صاحبه مع التبذير ، ولا يجمد مع التقتير ، ومنافسةٍ فى اقتناء المودّات حتى يعطى مَن فوقه حظَّ التوقير ، ويسمح لمن كان مثله بفضل التقديم ، ويَجذِب بمن يدانيه إلى رتبة النظير ، ويكون للباقين أبا يدافع عنهم مدافعته عن تلاده ، ويناضل مناضلته عن أولاده ، فيزورُ منهم الصحيحَ ، ويعود المريضَ ، ويغيث المنكوب ، ويعين المحروبَ ، ويشفع فى المجرم ، ويسأل فى المذنب ، ويتحمل مضرّة القوم ، ويراه الغنم كل الغنم ، طاهرَ الأثواب ، سَهْل الحجاب ، مؤدَّب الأصحاب ، يستحفظ رأى سلطانه ، بغاية إمكانه ، ثم لا يدع بينه وبين أقاربه ، والمساوين له فى مناسبه ، تِرَةً ولا دَخَلاً ، ولا يسيئ فيهم قولا ولا فعلا ، ويُشعِر الذين يَهْذِجون بالنميمة أن أسواقهم بائرة ، وعليهم الدائرة . والعلماء يَسْعُون العلماء ، فهم الأركان والأعيان ، والإخوان والأعوان ، والمشايخ والصدور ، وإليهم تؤول الأمور ، فليعظمهم كُنْهَ الإعظام ، وليكبر صغيرهم فوق أكابر الزمان ، فإن فقيه العرب علىَّ ابن أبى طالب — رضى الله عنه — فضَل أكفاءه بالعلم فصار أفخم شانا ، وأعز سلطانا ، وأعظم نفرا ، وأبهر شمسا وقمرا ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

ولست أريد بهذا القول طائفة دون أخرى تقابلها ، ولا فرقة سوى فرقة تماثلها ، بل أرى العلم أين حلّ بأعلى نسب ، وأقوى سبب ، والأمة وإن اختلفت مذاهبها ، بين محق

ومبطل ، ومسهل ومحزن ، ومخطئ ومصيب ، وأصمّ عن الحق أو مجيب ، فحُرْمة المعرفة لا تضاع ، وسَوَام الدراية لا تراع .

وكان سبيل كتابى أن يرد على سيدى الشريف خامسَ وفاة الفقيد رحمه الله ، لولا أن المرض أخذ بالجوانح ، وثقل على الجوارح ، والآن حين استقللت وأبللت ، فكتبت لا بل عجزت وأمللت ، فليقبل العذر كما عرفه ، وليُقبِل على ما يحوط دينه وشرفه . ومع كل الذى تصرّفت فيه فإن الأسف على من فَقَدْناه إزاء ناظرى ، وشُغلَ خاطرى ، لم أرضَ عن الليالى ، وقد سخطتها المعالى :

فما جانبُ الدنيا بسَهْل ولا الضحى بطَلْقٍ ولا ماءُ الحياة ببارِدِ

الباب الحادى عشر

فى الاخوانيات والملاطفات والمداعبات

١ — كتاب شوق واستزادة وبِرّ وتوجُّع لعارض علة

أنا إذا وجدت لمكاتبة الشريف بخطى فراغا ، وإلى مطاولته بما فى نفسى مساغا ، أسغت غصة ، وانتهزت فرصة ، وإذا حجزتْ العلائق ، ومنعت العوائق ، لم أعدم حجة ، ولا يعدمنى رخصة ، وأنا والله من الشوق إليه بما أُ كْبِره عن كشفه ، ويدفع أدب الوقار عن وصفه ، إذ هو فى قبيل ما يسمى كلفا ، وطريق مايدعى شغفا . هذا وفرط الغرام بقرب مولاى وَلوع بالفضل ، فلا تبرُّأ منه ، ولَهَجٌ بالمجد فلا تنزُّهَ عنه ، ولله عواطف وعوارف ، ومواهب ولطائف ، تعين الشمل على اجتماعه ، وتُديل القلب من نزاعه .

ووصل كتاب الشريف مع فلان فحسبته سافر إلىّ قريب العهد ، ببنانه وبيانه ، وفِقَريده ولسانه ، واهتززت لنشره ، وارتحت لفضّه ، وتهيأت لاجتناء وَرْدِه ، والارتواء من شرْبه ، فلما ألفيته بغير خطه عرانى فتورٌ مسرف ، وكسل مجحف ، فعدلت إلى التذكرة ، إذ كانت بين مساقط أقلامه ، وتساقط الدر من كلامه ، وبرّدتْ غليلا ، وجلتْ ناظر اً كليلا ، واستعديتها على الشوق ، فلولا أنها هاجت مزيد تذكر ، وأثارت قديم تحسر ، لكان ما أهدت من غبطة ، وأدت من بهجة ، حقيقاً بأن يذكر ، وخليقاً بأن يشكر .

وقد تقدمت فى الأبواب أجمع بما يجمع المراد ، ويصدق الارتياد ، وفلان يفصّل ما أجملت ، ويلخّص ما أبهمت ، بعون الله . ومولانا الأمير لمولاى محمد ولمنزلته مُكْبر ، وعلى قديم تحققه محافظ ، ولما عاد بسداد أمره مؤثر متخيِّر ، مدّ[1] الله أستار ظله ، على أتباع فضله ، بمنّه .

---

(١) فى الأصل : ومد .

عند انتهائى إلى هذا الفصل عرض فلان كتابا إليه من مولاى صَدَرَ عن عارض تألمُّ ، فطوانى على جزع وتحرُّق ، إذ لا فرق — يشهد الله — عندى بين سُقمه وسُقمى ، وما يُقْسَم بجسمه وجسمى ، وإنى لأستنزل العافية على أن تكون له مشروطة ، وأستمد السلامة على أن تدوم به منوطة ، والله يبلِّغنى فيه وفى نفسى خير المطالب ، ويكفينى وإياه كدر المشارب ، واعتراض الشوائب .

وأعود لنسق الجواب : إن الذى يصفه مولاى عن الأمير إجلالا لقدره ، وإشبالا على أمره ، وإجزالا لحظه ، لرافعٌ طرفى ، وفائت شكرى ووصفى . ذلك دليل ثبات الدولة ، وتزايد النعمة ، وتضاعف البسطة ، ونيل البغية ، والله يُوَفِّق مولاى لما يوافق هذه الحال التماسا للقربة ، واختصاصاً بالطاعة والخدمة . ومتى لم أعاتب سيدى على ما يضيق به صدرى ، خشيت أن تبقى غُبْرَة فى نفسى . وقد حمَّلت فلاناً إليه ، ما يورده ، وإن كان فجًّا عليه ، فليتصور مولاى إخوانه بحيث تقديم الله وتفضيله ، أومن حيث تقريب السلطان وتأهيله . وأنا أقطع الكلام فإنى أخشى اللوم يلج بى ، ويستفز قلمى ، وأسأل مولاى أن يخاطبنى بخبره ، فهو أخصُّ ما أترقب ، ويباسطنى فى وطره ، فهو أسرُّ ما أقدِّم ، إن شاء الله .

٢ — كتاب تأنُّس ومداعبة

أنا ألطفُ — ياشيخى ! — الكاغد فى مكاتبتك ، بحسب ما أوجب من لطف منزلتك ، وأعتذر إليك ، من تأخر الأجوبة عنك ، عما أعتدُّ لك باتصال الابتداءات منك ، فإنى إذا قرأت من خطك حرفا وجدت على قلبى خِفًّا ، وإذا تأملت من كلامك لفظا ، ازددت من أنسى حظا . ودليل الشوق إليك ما تجده من نفسك ، وتستمليه عن صدرك ، وكلا ! فإن الذى عندى أحرّ وقعا ، وأحدّ لذعا ، وقد زاد فيه ما استشعرته من ترفيهك عن السفر ، وتوفيرك على الوطر (١) .

وأجزيك الخير فإنك تُطْفِىء بكتبك لهب البعد وترشّ على نار الحنين ماء الوصل ، فلا تتشبه بمن يوصَلُ فيَقطَع ، ويُسأل فيَمنَع ، ويُقبَل عليه فيُعرِض ، ويُبسَط إليه فينقبض ،

(١) فى الأصل : الوطن

ويُلان له فيشتد ، ويُعتد به فلا يَعتَد ، ومَن التيه(١) ثوبه ورداؤه ، والنجمُ أرضُه وحذاؤه ومن الخضراء له عُرِشت ، والغبراء باسمه فرشت ، ويظن الشمس أخف سرجه ضياء ، والأنام عبيدا والليالى إماء ، ومن ينظر فى عِطفه ، ويرمق العالم بمُؤْخِرِ طرْفه . فإن تسأل عنه لم أشجع لذكره ، مع ماقلت فى فخامة أمره ، لكنى أثق بالسميع العليم ، وأستعيذ به من الشيطان الرجيم ، فأقول : هو أبو سعيد ، وليس بالمهلب ، ومحمد وليس بابن الحنفية ، وابن المرزبان بن الفرخان ، اسمان لم يشهدا بيعة الرضوان . وحقك إن كنت قرأت له كتابا منذ مدة قد تجاوزت عِدَد النساء وبلغت حولا كاملا أو كادت ، ولا أدرى لِمَ اعترض اسمه فى كتابى إليك حتى أضعت من بياضه(٢) ماتراه ، ومن كلامى ماتقراه .

٣ — ولــه تودد وتشكر

كتابى — أطال الله بقاء سيدى — ومولانا فسيحُ مجال العزم ، رفيعُ مناط الملك ، وأنا بدولته وعزّ خدمته سالم ، والحمد لله رب العالمين .

ووصل كتاب سيدى مبشرا بما كان الأمد واقفًا عليه لا يتعداه ، والرجاء منصبًّا إليه لا يتخطّاه ، ونوازع النفس تنهض له خاطبة ، وبواعث القلب تلهج به طالبة ، من قربه الذى يجمع أسباب المحاب موفّاة ، وينظم أشتات المسرة مهداة ، فيعلم الله ما استسلفتُ من البهجة التى لم تدع منى جارحة إلا طبّقتها ، واستأنفت من الغبطة التى لم تترك منى جانحة إلا ملكتها ، فألفيتنى كمن حُكّم فى أوطاره فتحكّم ، وأسرجَ فى آرائه وألجم ، وأزاحت الأيام علته كيف أراد ، وارتاحت له الليالى بما شاء وارتاد ، فقد كنت من بُعْد سيدى فى وحشة تدع حظوظ النفس منحوسة ، وغمّة تَرجع حقوق الأنس منقوصة ، وكيف لا أتشوف سيدى بعيدا ، ولا أتناول به الأمانى قريبا ، وقد أتانى الله من وده ، وكريم عهده ، ماتحار فيه النواظر ، وتُعقَد عليه الخناصر ، فغيبى محروس بحضوره عن الألسنة الجارحة ، والعيون الطامحة ، وذكرى محفوظ بمنابه الكريم ، وقيامه الجميل . ولولا أن الإكثار يزرى على الإخلاص ، وينقص جدّة الاختصاص(٣) ، لأطعت مايمليه ويطالبنى

---

(١) فى الأصل هكذا : التيه بدون نقط .

(٢) فى الأصل : بياضى .

(٣) فى الأصل : للاختصاص .

به فكرى ، اعتقادا لم يُهجِّنه التصنع ، واعتمادا لم يعترضه التعمد ، والله يديم النعمة لديه كما أدامها لإخوانه به ، ويهنيه ما قسم له كما هنأهم العارفة عنده ، بمنّه .

وقد أكثر الناس فى وصف ما يهيجه الشوق إذا أخذت الدار تتقارب ، والمحالّ تتجاور ، وصحائف البعد تُدْرَج ، وملابس القرب تُنْشر . وما أوضح براهين ذلك ، فإنى مستقيها من صدرى ، ومستمليها من قلبى ، لاستبعادى الشقة ، هذه المدة ، وتقديرى بأن اليوم الواحد أمدّ من الحول الكامل ، والعام المتواصل . والله يقرب لنا البعيد ، ويلقّينا الفأل السعيد ، ويُكمل الرغائب بمشاهدته ، ويُسْبغ المواهب بمشافهته ، إن الله يفعل ما يريد .

ومما أبشر به سيدى اهتزازُ مولانا لمورده ، وارتياحه لمقدمه ، فإنه منذ أول ماوردت الكتب بنبأ توجهه إلى هذه الحضرة ، يقول فى هذا الباب أقوالا تخلّد الشرف وتؤبّده ، وتَذْخَر المجد وتمهّده . زاد الله مولاى عنده قربة ، وضاعف كل يوم له رتبة ، فإن رأى أن يجعل كتابه مقدمة النعمة فى وصوله ، وتعريفى خبره عُنْوان المنحة فى وروده ، ويذكرلى أخباره ، ويكلفنى أوطاره ، فعل إن شاء الله .

٤ — وله

كتابى — أطال الله بقاء سيدى — ومولانا سابغ السعادة ، متناولٌ بيد القدرة مبالغ الإرادة ، والحمد لله .

فأما أنا فإن حُمّيات اختلفت بى ، وأعلالا تصدّت لى ، وكنت منها فى أحوال تحوّنت القوة ، بقدر ما تحيّفت به الصحة ، وقد تفضل الله الكريم بالإقالة ، وأعادنى إلى جميل العادة ، ولم يبق إلا الضعف الذى يزول على الأيام ، والله ولى التطوّل به والإحسان .

ولولا هذا العارض لقد كنت تلقيت سيدى بعدة كتب على أيدى الرسل استعجالا للموهبة فى مشاهدته ، وإكباراً للمنحة فى مكاثرته وتعرفا لخبره ورأيه ، ووقت وروده ، وصله الله بأسباب سرّائه . وبالأمس تهيأ لى الركوب إلى سيدى ذاكراً للصورة ، وراغباً إليه فى إعلامى حال سلامته ، واطراد أموره على إيثاره ومحبته ، وإن جاز أن يعرفنى الوقت الذى يكون انفصاله على طالع البركة منّ به ، فمولانا يهتم بذلك ، ويرسم مراعاته ، ولذلك

أمر ، أعلى الله أمره ، بإصدار هذه المخاطبة مع أحد الترّاسين .

وتشوفى لغاية المحبة ، ونهاية البغية ، وبلوغ المراد والطلبة ، بلقاء سيدى ، يحدونى على الاهتمام ، ويهزنى للاستعلام ، ولا أحتاج إلى تعريفه زيادة تُراعَى بتزايد الدار قربا ، فإنه يستَمْلى من كرم عهده فى ذلك ما تجده شاهداً عدلا ، فإن رأى أن يخاطبنى بما التطلّع له شديد ، والطرْف إليه حديد ، ويذكر لى من مهمِّه ما يبعث عليه خلوصُ من وده ، فعل إن شاء الله .

٥ — ولـــه

ذكر فلان أنه يخرج على طريق المفازة إلى حضرتى ، مجدداً العهد بخدمتى ، وذلك صواب ، ولكن بعد أن يكون معه دليل ، قد استاف أخلاق الطرق ، ولقب بدَعَيْمِيص الرمل[١] ، وضرب فى عامر[٢] بن فُهَيْرَة بعرق ، وأجال مع عبد الله[٣] بن أريقط قدحا ، وبارى الشنفرى[٤] ، وبات بموماة وأمسى بغيرها ، وكانت خؤولته لتأبط[٥] شراً ، وعمومته فى عمرو بن براق[٦] ، ورضاعه فى سليك[٧] المقانب . ووصفَه العرب أنه كالكُدْر يرد المشارع ، وأنه أهدى من النجم ، وأنه لا يضل حتى يضل النجم ، وقالوا فيه الخرّيت[٨] ، وسموه بالأحَذّ المِصْلات[٩] ، أو خير من ذلك جمّال من أرْدِستان[١٠] يُجْمَع على علمه بالطريق ليركبه على بصيرة ويقين .

وسيدى يجهزه فقد علم أنه جهيزة ، ويعينه على الظّعَنِ فقد علم أنه ظعينة ، ويذكر قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رفقاً بالقوارير ، ويقول لأبى الفتح : هـذه ثم ظهور

---

(١) دعيميص الرمل : اسم رجل كان داهيا يضرب به المثل ، يقال هو دعيميص هـذا الأمر أى عالم به .

(٢) مولى لأبى بكر الصديق قتل فى يوم بئرمعونة.

(٣) دليل النبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة إلى المدينة .

(٤) شاعر جاهلى يضرب به المثل فى العدو فهو أحد العدّائين .

(٥) تأبط شرا مثل الشنفرى من صعاليك الجاهلية وعدائيها .

(٦) عمرو بن براق مثل صاحبيه .

(٧) سليك المقانب هو سليك بن السلكة وهو مثل سابقيه .

(٨) الدليل الهادى .

(٩) الأحذ : القاطع : المصلات : الماضى فى الأمور .

(١٠) أردستان : مدينة بين قاشان وأصبهان .

الحُفَر ، وليوصه ليستظهر على الفلاة ، بناقة كالعَلاَة ، وبالزاد ، والمَزَاد ، كما وصفت . أنفذ من عبد الجبار[١] بن يزيد وخالد بن دثار[٢] وأصيدف بن فلان ، ولا أدرى ماأبوه ، ولكنه الذى كَلَّ على المهرب من سجن الحجاج ، والله يؤيده ويهديه .

٦ – وله

وصل كتابك أيها الشريف — أطال الله بقاءك — ولكن بعد ماذا ، بعد أن كددتك بالعتْب الوجيع ، وقرّعتك بعصا التقريع :

وكأنّ الأكفّ قد عَصَرَتْهُ بعد كدٍّ من ماء وجه البخيلِ

وما كذا كان الظَّنُّ بك ، وخلقك الخلقُ الرحب ، وأنت الحلال الحلو والبارد العذب ، وقد ينسى المرء أبعد خليليه داراً وحِلّةً ، وإن كان أصدقهم عهداً وخُلَّةً ، غير أنى لم أحبك ترضى بالرتبة الدنيا فى كرم العهد وترعى روضة الهُوَيْنَى فى صحة العقد ، فملأتُ يدى ثقة ورجاء ، حتى أعدتَها علىّ صفراً خلاء .

وبعد ذلك فليت شوقى إليك على قدر حظى منك ، كلا ! بل أنت خَدِينُ فكرى وسميره ، وأمين قلبى وأميره ، تصرّفه[٣] كيف أحببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الأفعال بالأسماء[٤] ، فإذا استنزلتك عن كتاب تصدره ، أنفقتَ بالمعروف ، وجُدت بالنزر المشفوه[٥] ، حتى كأن بياض قرطاسك من شيبة الحمد ، وسواد أنفاسك من سواد الناظر والقلب . فلا تفعل ، جعلت فداك ! ، فبغير هذا نزلت السور، وتليت النذر ، وتكررت العبر ، وتربعت ربيعة وتمضّرت مُضَر ، وآخر دعواى أن كيف شئت فكن ، وقل : إذا عزّ أخوك فهُن . سقى الله عهدك غيثاً كغزارة فضلك ، وسلامة طبعك ، وصفاء ودك ، ولا عاشت المحاسن من بعدك .

---

(١) لعله أخو الوليد بن يزيد : انظر الأغانى ط . دار الكتب ٧/٥٠ ، إذ طلب الوليد إلى إحدى المغنيات أن تغنيه صوتا وطلب عبد الجبار منها صوتا آخر فاستجابت له وتركت أخاه وطلبته .

(٢) انظر ترجمته فى تاريخ ابن عساكر ، نسخة المكتبة التيمورية الورقة ٢٩ من المجلد الثانى عشر .

(٣) فى الأصل : وتصرفه بزيادة واو .

(٤) فى الأصل : الأسماء بالأفعال .

(٥) المشفوه : القليل .

٧ – ولـــه

كتابى — أطال الله بقاء صاحب الجيش — ونعم الله عندى بدولة الملك السيد متوالية ، وموادُّ الخير نامية ، والحمد لله رب العالمين .

وكان كتاب صاحب الجيش ورد مع فلان جامعاً من الفوائد أشدها للشكر استحقاقا ، وأتمها للحمد استغراقا ، وتعرفت من إحسان الله فيما وفره من سلامته وهنأه من كرامته ، أنفسَ موهوب ومطلوب ، وأحمدَ مرقوب ومخطوب ، وأدى فلان ما تحمَّل من مشافهة صادرة عن مطلع الود الجلىّ ، ومستودَع العهد الوفىّ ، صاحب الجيش ، أصحبه إياه متجاوزاً حد الإلطاف ، إلى طرف من أطراف الإسراف .

وصاحب الجيش بما عوّد من كرم نفسه ومحامد فعله ، وإيفاء يومه على أمسه ، وعِدَته بالمزيد فى غده ، لا يستكثر منه البلوغ إلى أبعد آماد المبار وأرفعها وأوقعها بحسن الاختيار وأبدعها ، فقد أفرده الله من خلال الفضل بما أمِنَ فيه شَرِكَة أولى المجاورات ، وسُهْمَة ذوى المساهمات . والإقصار عن التناهى فى مقابلته ، إلى التباهى بما فضل الله من شاكلته ، أسدُّ منهاجا ومذهباً ، وأسعد منالا ومطلبا ، والله لا يُخْلى من التجمل بمكانه ، ويحفظ التكثر به على إخوانه .

ولو كانت الكتب والرسل كفاء مودَع الصدور ، وموقع الود الموفور ، لصدرت تباعا ، ونفذت سراعا ، لا قصور فى الإدمان دونها ، إلا أن الثقة بالتصافى المتزايد ، والتناجى بخلوص السرائر والعقائد ، يفسح فى طرق العذر ، إذا وقع تعويل على المشاركة المحضة ، والاستنامة الغضة ، وما تجشم صاحب الجيش إنقاذه من تُحْفَةٍ كبّرها قدراً ، وصغرها ذكراً ، وكثّرها إصداراً ، وقلّلها إخباراً ، فقد زاد فى حسن موقعها فَتْحُها للأنس بابا ينضاف إلى أبواب المباسطة التامة ، والاسترسال فى الأوطار الخاصة والعامة ، وإن كنت — يعلم الله — بما لديه ، أوثق منى بما تنضم اليد عليه ، علماً بأنه — أدام الله عزه — لا يفرق بين النعم التى سوغنى الله صفوها ، والمنح التى أسبغ عليه عفوها ، أدام الله الموهبة بمواصلة أيامه ، وحرس ما أودعه من غرر إنعامه . وقد أتت المشافهات على جواب الرسالة الواردة ، وفلان يؤديها بإذن الله على السُّنَّة الجارية ، إذ كان صحيح الأداء ، حميد الاستيفاء .

٨ – ولـــه

وصل كتابك الموثوق بثبوت عهـده على تَلوُّن الحالات ، المسكون إلى رسوخ وده على تباين الأوقات ، وكان موقعه بحضرتى موقعَ آنس مايتوقع ، ومطلعُه على مجلسى مطلعَ أسرّ ما يتطلع ، وتحمَّل من خبرك فى السـلامة ما أعده أخص غنيمة ، وأعز منحة كريمة ، فقـد كنت ، يشهد الله ، عنـد اختلاف تلك الأحوال بأغمار مالوا على النباهة للخمول ، وأذنابٍ خافوا على الرءوس والصدور ، أشفق عليك من بَدَرَات الجهلة ، وبَدَهَات العجزة ، وأراعى خبرك مراعاة المرء لأمسّ ذوى رحمه غيرةً على تميزك وبراعتك ، وتبريزك على أهل صناعتك ، ووقوع التسليم لك ممن شاهدتهم يومئذ والعراق مغتصة بالأفاضل ، مختصة بوجوه العمال والمشايخ ، فلما أطلع الله رايات الحق ، ورفع غايات الفضل ، بماذلل لمولانا من مقادة البلاد ، وأحيا بأيامه من مصالح العباد ، أيقنت أن زندك فى الزنود الوارية ، وسعدك مع السعودالجارية

وترقبت كتابك ياسـيدى فكان بغية الطالب ، ومنية الراغب ، وتصرفتَ فيـه فى وصف عقيدتك وأنا بهـا عليم ، وبخلوصها زعيم ، ثم فى اعتذارٍ قد كفاك الله أمره ، ووضع عنك إصْرَه ، إذ كانت تلك العوائق توجب الانقباض عن المواصلة ، والتعويل على الضمائر المتقابلة ، وأريد الآن — سيدى — أن تكاتبنى مكاتبة الصديق المتحقق ، والأخ المتخصص ، وتبشرنى بما يتجدد لديك ، فإن فواضل الملك غمامٌ يدرّ على الأيام ، والتنصّح فى يسير خدمته يرقّ إلى كثيرها ، والتقرب فى صغير طاعته يرفع إلى كبيرها ، والله يؤتيك ماتؤثر وأوثر فيك بمنّه . ومن أوضح ما تدلنى به على مودتك أن تسترسل إلىّ فى مهماتك ، وتحسر ذراع الانقباض فى حاجاتك

٩ – ولـــه مداعبة وعناية

أبو الفرج عبّاد بن المطهّر — أعزه الله — يزعم أن الشيخ الأمير رضى الله عنه سمـاه عبادا والناس يروون :

لشتانَ ما بين اليزيدين فى النَّدَى   يزيدِ سُـليمٍ والأغرِّ بن حاتِمِ

وفيهم من لايعلم أنه لربيعة الرق ، ولا أن اليزيدين يزيدُ بنُ حاتم المهلبى وهو الممدوح ،

ويزيدُ بن أسِيد وهو المذموم ، وكما لا يدرى أن الشعر بلغ أبا الشمقمق فقال ، وفضل عليهما يزيد بن مزيد الشيبانى :

لشتانَ ما بين اليزيدين فى الندى … إذا عدَّ فى الناس المكارمُ والمجْدُ
يزيدُ بنى شيبان أكرم منهما … وإن غضبت قيسُ بن عَيْلان والأزْدُ

وقد قال الآخر :

يزيدَ الخير إنَّ يزيد قومى … سميُّكَ لا يزيدُ كما تزيدُ

ويَذكُرنى مولاى أنشد كثيراً لأبى الهول الحميرى فى الفضل بن العباس والبرمكى :

فضلانِ ضمهما اسمٌ … وشتَّتِ الأخبارُ

كما سمعنى أنشد لبشار :

رأيت السُّهَيْلين استوى الجود فيهما … على بُعد ذا من ذاك فى حكم حاكِمِ
سهيلُ بن عُثمانٍ يجودُ بمالِهِ … كما جاد بالفعلاء سهلُ بن سالِمِ

ومن المبتذل فى هذا :

شتان بين محمدٍ ومحمدٍ … حىٌّ أمات وميتٌ أحيانى

والمحمدان محمد بن منصور بن زياد ومحمد بن يحيى بن خالد .

ولا أحسب عباداً هذا يعدُّ ما قلته تفضيلا لعباد بن العباس عليه ، وإضافة له إليه ، ولا أن يقول كما قال يونس بن حبيب : أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وذلك كما قال صديق مولاى القريب ، وابن عمته النسيب ، الفرزدق بن غالب ، وقد قيل له انزل على أبى قطن قبيصة ، فحسبه ابن مخارق الهلالى ، فإذا هو آخر لا يحضرنى نسبه ، وذم قراه وجواره ، فقال :

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ، ثم وافقت … أبا قطنٍ ليس الذى لمخارقِ
وقد تلتقى الأسماء فى الناس والكُنى … كثيراً ولكن لا تلاقى الخلائق

فأما التفضيل الذى أومأتُ إليه ، فقد أعجبنى منه أن الحطيئة قال :

فلما أن مدحتُ القومَ قُلْتم … هجوتَ وهل يحل لىَ الهجاء
فلم أشتم لكم حسباً ولكنْ … حدوتُ بحيث يُستمَع الحُداء

حتى زعم بعضهم عن الزبرقان أن هذا أوجع له من قوله :

دعِ المكارمَ لا ترحل لبُغيتها　　　واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

وعلى ذكر هذا البيت فلا أدرى لم ترك ماقيل قبله ، فقد سبق الأعشى بقوله :

فدعنا وقوماً إنْ همُ عمــدوا لنا　　　أبا ثابتٍ واجلس فإنّك طاعمُ

لست أدرى — أيد الله مولاى — ما هذا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، وإنما حضر هذا الفتى ، وله حق الغربة ، وأعظم به حقا ، ثم حق الأدب وأكرمْ به فخرا ، وقد خدمنى طفلا ، والآن كهلا ، وهاجر إلىَّ ، فتظاهرت حرماته لدىَّ ، وهذه التسمية أيضا لهـا ذمام يُرْعَى ، وذمار لا يُنْسى ؛ وســألنى أن أخاطب مولاى فى بابه ، وأُسيمه فى مرعى جنابه ، وتصور لى الأنس بمطاولة مولاى ، وحسبتنى أناجيه عن قرب ، كما أنا مكاتبه عن بعد ، فلجَّ الطبع والقلم ، وحضرت هذه الأبيات والعِبَر ، ومولاى وَلِىّ مايُوليه ، ويختصه بالجميل فيه ، فقد كان أبو عيسى النوشجان بن عبد المسيح أنشد والدى :

وإن ائتــلاف النفس أدنى قرابة　　　لمن يدّعى القربى إذا كان ظالما

١٠ — وله إلى الخطيبين

[كتاب[1]] شيخى أبى حفص وولدى أبى مسلم كتاب شيخ الفضل شاب الظرف ، وخطاب شاب السنّ شيخ العقل ، آنس أصــدق الإيناس ، واختص أبلغ الاختصاص ، فلا عدمتهما معا ، ولا عدما البر جميعا . فأما شكرك لســيدى أبى العباس — أدام الله تأييده — فـكلفة قد حط الله عنك وزرها ، ووضع دونك إصرها ، إذ كنت شيخ الدار والأهل ، ولى بمنزلة الأخ وله بمنزلة العم ، فـكيف يُدّخر عنك البر والبشر ، وكيف يجب عليك الثناء والنشر ، بل أنا مستبطئٌ له — أدام الله تأييده — أو لك ، فما أقل ما أسمع باجتماعه معك ، وإن يك ذاك بقلة استدعاء منه فقد أضاع حظا ، وإن كان لسوء استجابة منك فقد أضعت حقا ، فمن كان منكما[2] مقصراً فليُعْتب والسلام .

وأما البشرى فقد وصلت منك إلى معمور القلب بالود ، فلابد أن يكون مشروح الصدر بالأنس ، وختمت على موفور الحظ من خلوص العقدة ، فـكيف لا يكون

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .　　(٢) فى الأصل : منكم .

وافى القسط من عموم البهجة ، فتعال أيها الشيخ نشتغل بالحمد لله ، وننقطع إلى الشكر لله ، فما أحسن ما صنع ، وما أعظم ما دفع ، وما أجزل ما منح ، وما أوسع ما فتح ، اللهم فوفّق لما يوافق رضاك ، واجعلنا ممن يرجوك ويخشاك ، إنك سميع الدعاء ، فعال لما تشاء .

علقت هذا الجواب ليحرَّر ، ثم رأيت إنفاذه بخطى على اضطرابه ، آنَسَ لك ، وأبرَّ بك ، إن شاء الله .

الباب الثاني عشر

فى التشكر وما يشاكله

١ — كتاب شكر وإنباء بتجدد النعمة فى مؤتنف تبجيل ومزيد ترتيب

كتابى — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — ومولانا الملك السيد مصرِّف أعنة الأيام، معدّل أقسام الزمان، مكنوفٌ من الله الكريم بانفاذ الأمر، وإعزاز النصر، وتيسير المطالب، فى أرجاء المشارق والمغارب، والحمد لله وصلواته على النبي وآله .

ووصل كتاب الأمير قد ابتدأنى به كما ابتدأ بالغُرّ من مِنَنِه، والزُّهرِ من مِنَحِه، واستغرق الشكر ببيض نِعَمِه، وجرى فى استنفاد الحمد على خصائص شيمه، فازدادت أياديه شمولا ووفورا، وعوائد طَوْله بُدُوًّا وظهورا، وأنبأ الخطاب من أحوال حضرته منبع الفضائل ومعدنها، ومرتع المحامد وموطنها[1]، عما بمثله يرتفع ناظر المخلص له موالاة لايستحلّها فتور، ولايعترضها تقصير ولا قصور، وسألت الله تعالى أن يعتمده، من سابغ المزيد فى كل حال مرقوبة، ومزية مطلوبة، ومنقبة محبوبة، بما يصدِّق الرجاء ويحققه، ويُشفعه، من بعدُ، مايفوته ويسبقه، إن الله سميع مجيب .

وكنت ذكرت للأمير خبرى فى المسير إلى الحضرة العالية، لتجديد العهد بالخدمة السامية، ووردت من تفضل الملك السيد وإكرامه، وبسطه وإنعامه، وتقريبه وإيناسه، ورفعه واختصاصه — بعد أن أهّلنى للاستقبال والتلقى، وشرّفنى بالسؤال والتحفى — على ماحصل الإجماع، ورُفِع النزاع، فى أنه لم يحظ بمثله أحدمن واردى هذه السدّة الكريمة، وقاطنى جوانبها العظيمة[2]، مع أنها كعبة الآمال، ومحط الرحال، ومقصد غُلْبِ الرجال، وأعيانِ ذوى الجلال والكمال .

---

(١) فى الأصل : مواطنها .

(٢) لعله يشير هنا إلى وروده عام ٣٧٠هـ إلى خدمة عضد الدولة عن مؤيد الدولة وعن نفسه، فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد، وبالغ فى إكرامه .

هذا وأنا من أنشاء الخدمة ، وأغذياء النعمة ، ومن لو اقْتُصِر به على الإيماء إذا حضر ، والمثول من بُعْدٍ إذا وصل ، لكان له فى ذلك الشرف الصميم ، والمجد البالغ العميم ، لكن أريحية الملك ، وهزة المجد ، قسمتا لى ما يُعَدّ مَنْقَبةَ العمر ، وواسطة الدهر . ولولا علمى بأن الامير يتطلع صورتى تطلعاً يَقْتَضِيه علمه بموالاتى ومماحضتى ، لما أطلت فيما خصّنى ذكره ، ومسنى أمره . على أنى قد اقتصدت واقتصرت ، ثقـةً بأن الذى أُوليتُه أعظم خطراً ، من أن يخفى نبا وخبراً ، فأطال الله بقاء مولانا الملك لإنهاض المُنَن ، وعقد المِنَن ، ورفع الخِدَم ، والجذب بأنواع الهمم ، وأدام أيام الأمير مؤيد الدولة ، لنصافح الميامن بفضله وفى ظله ، ونستخلص المناهج باعتلاق حبله .

والأمير الجليل — بحق اعتمادى رأيه ووده ، واعتقادى بلوغ المحاب به وعنده — أولى من تجشّم الشكر عنى فإنى عاجز عن الواجب ، قاصر القوة عن أداء اللازم . وكتبى تتصل — والله المشيئة — إلى الأمير من الحضرة العالية مدة لُبْثى ، ثم من حضرة مؤيد الدولة عند عودى ،أُنهى فيها ما يتجدد ، وأنتهى إلى أمر يرسم فى الجواب وردّ . فأما كتاب الأمير إلى مولانا ، فقد كان أوصله المجمّز فى اجتيازه ، واستغرق أوفى السهام من اعتداده ، وحل فى التقبُّل ،وشُكْرِ التفضل ، أخصّ مواقع أمثاله ، وهو يستصحب الجواب فى انصرافه ، بإذن الله عز وجلّ .

٢ — وله تشكر وإظهار اعتداد

كتابى —أطال الله بقاء السلار— ومولانا فيما يَحْكُمُ الله له به من الاستظهار، وعلو المنار، ومساعدة الأقضية والأقدار ، على ما يسرّ الله به أولياء الدعوة المسموعة ، وأبناء الدولة المتبوعة ، والحمد لله حقّ الشاكرين ، وصلواته على النبى محمد وآله الطاهرين .

ووصل كتاب السلار فتطامن له شكرى ضئيل الشخص ، راضياً بخُطّة الضعف ، وقد كنت أدَّعى ، ويُدَّعَى لى ، مطاولةَ الأفعال وإن بهرت حسناً ، وقهرت فضلا ، بلسان ينتصف قولا ، ويستعلى شكراً ، حتى زحمنى من مكارم السلار ما يحصِر عنه المُبين ، ويصحبه العىّ وبئس القرين ، لكنى إذ فكرت فى أن انبساط يده بالمحامد ، ورحب بلده بالمآثر ، منقبة تُجَال فيها سهامى ، ويُفَاض عليها بقداحى ، لم أخش وصمَةَ العاجز ، ولم أخفْ

هُجْنَةَ القاصر ، فللتابع من جمال المتبوع حظوظ يُجَادُ بها روضه ، وحقوق تضحك عنها أرضه . فأما الذى قاله السلار واصفاً اعتقاده بالخلوص لمولييْنا فَبَرْدُ اليقين ، مغنٍ فيه عن الوصف المبين ، لولا أن السلار يضيف شرف الفعل إلى كرم القول ، ليأخذ بحاشيتى الفضل ، ويتناول بيمينه راية السبق . ومولانا معتدّ بذلك اعتداداً إنْ قُدِّرَ أن الخبر يضطلع بتمثيله ، والنظر يتسع لإقامة دليله ، فهيهات ! وعلى الضمائر من الضمائر شواهد ، براهينها أنطق ، وأسبق ، والرجوع إليها أحزم ، وألزم .

وأما الاسترسال الذى قد عمر السلار طرقه بمبارّ وافية القدر ، موفية على القَطْر ، فمنان شرف لايجاذب عليه ، ورِهان فضل لايسابق إليه ، وموقعُ مايتجشمه بحضرة مولانا موقعُ ما إذا تأمله تقبّله ، وإذا نشر بره تشكّره . والله يحرس هذه الحال ، فما أنضر عودها ، وأثبت عمودها ، وأحسن مطلعها ومبداها ، وأشبه مراحها بمغداها ! . والشبلان قد اشتد الإعجاب بهما إلى التعجب منهما ، وحقا أقول : إن الأسْد لا تذل إلا لأشد منها قوة ، وأحضر منها نجدة ، وإن من يأمر الليوث فتطيع وتسمع ، ويطلق الأسود فتصيد وترجع ، لقوىٌّ أَيْدُه ، خَفِيٌّ كيده ، أمتع الله السلار مولاى بما أتاه من أبكار الفضائل وعُونها ، وأفراد المادح وعيونها .

٣ — وله تشكر واعتداد

كتابى ، أطال الله بقاء سيدى ، ومولانا فيما يسدد الله من رائه ، ويرفع من لوائه ، على مايُعلى نواظر أوليائه ، ويوهى قواعد أعدائه ، والحمد لله وصلواته على محمد وآله .

ووصل كتاب سيدى فملكنى به ملكا مجدَّدًا ، واسترقّنى معه استرقاقا مخلدا ، لما ظاهرَه فيه من أياديه التى تثقل عواتق الأطواد ، وكواهل السبع الشداد ، ولو كنت نهضت بفرض إحسانه فيما أسلف ، لرجوت أن أنهض بعض النهوض بحق ما استأنف ، ولكن لى فى ماضى تفضله ، ما يصدُّنى عن لوازم مستقبله . لا زالت يده العليا ، ومِنّتُهُ الطولى ، ولا انفك الشكرُ فى إسار إنعامه ، والحمدُ فى ذمام إكرامه ، لا ينالان من ذُرَى مكارمه ذروة ، ولا يَحُلّان من عرى فواضله عروة .

فأما الذى اعتمد به سيدى حضرة مولانا من الألطاف التى ابتسمت عن حسن التوصل ، وتنزهت عن قبح التمحل ، فقد صادف من تقبله الكريم ، واعتداده العظيم ، مالا ينال بإهداء الأمصار إليه ، وافتتاحها له و بين يديه ، وعُدَّ انبساط سيدى من أقوى دلائل المودة الخالصة من الشوائب ، المشفوعة بالصفاء الدائب .

والرسول يذكر ما وعاه ، من المجلس أعلاه الله ، وفكرُ سيدى فى أن أُسهم لى من هذا التعهد ، وقُسِم لى من هذا التفضل ، مستعظَمٌ مستكبَر ، تكاد الأمانى تقعد عن اقتباسه ، والآمال تصغر عن التماسه ، إلا إذا تصوَّر سعة صدره بالمنائح وقد ضاق البحر بالإضافة إليه ، وطول يده بالمكارم لا زالت راهنة لديه ، والله يعيننى على الدعاء ، فإنه أقرب مأخذاً ومتناوَلا ، وأحضر نفعاً وطائلا .

٤ — وله تشكر واعتداد

كتابى عن سلامةٍ إحسانُ الله بها مقرون ، والمزيدُ فيها عن فضله مضمون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

وكان كتابك وصل حَسَن الموقع لطيفه ، وأتبعتَه تصنيفاً رائق المودَع شريفه ، فأنست بمخاطبتك ، واعتددت بتحفتك ، وقد زاد برك حتى كاد يجهد الاعتداد ، ويسبق الأعداد ، والفاضل تنازعه نفسه إلى أقاصى المحاسن ، والتناهى فى دَرَج المحامد ، والله يزيدك من فضله بمَنّه وطوله .

ومما يحتاج فيه إلى اعتذار ، واسع الأقطار ، تأخر الجواب عن الكتاب إلى الآن ، وما كان ذلك إهمالا و إغفالا ، ولكن أشغالا عرضت وأعلالا ، ومن اتسع صدره بالبر ، لم يضق عن قبول العذر ، وأنت تديم إينامى بمخاطبتك ، مشفوعة بنتائج فضلك ، وثمرات علمك وفهمك ، فإنى أرتاح لسماع كلامك ، أُنْساً بأن علوم الطبيعة ، لم تُخِلَّ عندك بحقوق الشريعة ، كفعل قوم حرموا مزيَّة السداد ، وضُرِب على بصائرهم بالأسْداد .

٥ — ولــه

كتابى ، أطال الله بقاء مولاى الأمير ، ونعم الله عند مولينا الملك السيد والأمير المؤيد على ما يؤثره الأمير مولاى بحكم المشاركة التى رفع الله بنيانها ، وشيد أركانها ، فلله الحمد رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير بعد أن أخطأنى مدة ، وتخطانى برهة ، وما أقول ذلك استزادة لكرمه ، واستبطاء لشيمه ، فقد أسلفنى من طوله ما أعجزنى شكره ، كما أعوزنى حصره ، غير أن العادة عند السادة مطلوبة ، والزيادة من السعادة مخطوبة ، ولو قد فسح — أدام الله نعماءه — فى المكاتبة والمناوبة ، والمراسلة والمواظبة ، لاستمددت التطول بفضل الإكثار ، ولو كدَّتُ الإذكار ببعض الادكار ، ولكنى أقف حيث أمره ورسمه ، وأقتصر على ما يقصُرنى عليه حكمه ، فإذا صرَّفنى على ما أنا نازع إليه من مهماته تصرَّفت ، وإذا صرَّفنى إلى جانب التوقف خدمت بالنية وخفَّفت .

فأما نعمته علىَّ فى آنف مارسم إلقاءه إلىَّ ، فنعمة سامية المطلب ، سائغة المشرب ، إذ رأى إشراكى فى المشورة ، بعد إعلامى جليَّة الصورة ، وقد أغنى الله الأمير بعزمه الذى خصته المناجح المنتظمة ، وارتهنته الميامن المزدحمة ، عن تجاوز فاتحة الاستخارة ، إلى واسطة الاستشارة ، إلا أنه يزيد بسط أهل ثقته ومشايعته ، بما يؤهلهم له من مشاورته . وقد استمعت من فلان ما أدَّاه ، وشكرت شرف لفظه وكرم معناه ، وخدمت طاعة الأمير مولاى بقدر ما اتسع له علمى ، واضطلع به فهمى ، والسلام .

٦ — وله جواب تشكر عن متجدد رتبة بمستخلَص ومتحمَّل نعمة

كتابى ، أطال الله بقاء الأمير مولانا [1] فيما يرفع الله من قواعد ملكه ، ويظاهر من نفاذ أمره على ما يفوت أقصى النعم ، ويجوز مرمى الهمم ، والحمد لله وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

---

(١) يظهر من سياق هذه الرسالة أنه يريد بمولاه هنا ركن الدولة .

ووصل كتاب الأمير على عادته فى تأهيل عبده ، لجزيل رِفْدِه ، والرفع من قدره وهمته ، بتصريفه على عوارض خدمته ، منبئاً عن استبشاره لما أنعم به مولايانا [١] على خادمهما أبى العباس [٢] أحمد بن إبراهيم ، إيعازاً إلى الكافة ، من عظماء الدولة القاهرة ، وكبراء الكتاب والحاشية ، فى استقباله معظمين لمورده ، ومراعين فى التخفف لموقعه ، إلى ماراآه مولانا — لا زال على الآراء ، مصرّفا أعنّة القضاء — من تجليل مقدمه شرفَ تلقيه ، وإلباس مدخله كرم تحفّيه ، ومثّله لى الأمير من إنهاء مكان ذلك من نفسه ، لا زالت محروسة فى ظل الملك والقدرة ، إذ كانت بركة حضرته سبب هذا الجمال وهذه القربة ، فلم أدر بأى مواهب الأمير عندى أُثنى وأمدح ، ولا عن أيها أُعرب وأفصح ، أباعتماده إياى لمهمه ، أم بما قسم لخادمه ، أبى العباس أحمد من كريم همه ، أم بمخاطبه هذا الذى قمت بفرضه ، وخدمت فى حسن عرضه . وقد قلت فى ذلك ما حسن إصغاء مولانا له ، وصادف اهتزازه وتقبّله ، وقال ، حرس الله ملكه ، إن أبا العباس ، أيده الله ، وإن كان تليد خدمتنا ، ووليد نعمتنا ، ومن خُلِّدَتْ له فى صحفِ رعايتنا التى لا تجارى إلى أمدها ، ولا يفتر يومها عن الإشارة إلى غدها ، فإن الذى رسمناه به من ذلك المقام لمقتضٍ له من فضل التقريب ، وقاض من مزيد الترتيب ، بما يوجب على الأيام ، قاصية الإنعام ، والغايةَ المتناهية فى الإكرام .

وخادم الأمير مولاى أبو العباس ، لا زال فى كنف استخدامه ، وشرف ذمامه ، منذ ورد ، فأورد فى المجلس العالى من وصف خصائص نعم الله التى سوّغها الأمير مولاى فاحتل رُباها ، واختط ذراها ، من رأى جميع ، وصدر وسيع ، ومعرفةٍ بالإيراد والإصدار ، وعلمٍ بالمراتب والأقدار ، واشتغالٍ بخصال ، هن درج الكمال ، من حَزَامة تثنى السياسة بها صادقة ، وفروسة كانت الفراسة بها سابقة ، وآداب نفسٍ تحلّيها النحائز الكريمة ، وتستوفيها الغرائز العظيمة ، إلى آداب مكتسبة ، هى تكلمة للألباب ، وتبصرة الملوك والأرباب ، وتنشر عن الأميرين ما يقتديان فيه بمولاى طلباً لآماد الاستقلال ، واستكمالا

---

(١) فى الأصل : مولانا ، ولعله يقصد عضدالدولة ومؤيد الدولة .

(٢) هو أبو العباس الضبي ، خليفة الصاحب بن عباد فى الوزارة ، وقد خدم فى دواوين البويهيين حتى وصل إلى هذه الرتبة .

لحظوظ النجابة والإقبال . وأنا أحمد الله على مايسَّره ، وأشكر له على ما قدّره ، وأسأله أن يُرى مولانا ، أعز الله رايته ، فى الأمير مولاى والأميرين ما تخطبه همتـه الواطئة أخادعَ النجم ، السامية عن منازع الدهر ، وكنفهُ ، حرس الله ملكه ، عليهم ممتـدّ ، وأَزْرُهم بجميل رأيه مشتد ، فإن رأى أن يُصَرِّف عبدَه من أمره ونهيه ، على ما يقف عنـده ، فعل ، إن شاء الله .

٧ — وله تشكر وتودد

كتابى — أطال الله بقاء الأمير صاحب الجيش — وأحوالُ حضرة مولانا الملك منتظمة انتظام نعم الله عنده ، ومواقعُ آرائه مسعودة كما أسعد الله جدّه ، ومواهبُ الله لمولانا الأمير المؤيد متضمنة من العز أمنعه ، ومن الخير أوسعه ، والحمـد لله رب العالمين ، وصلاته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير فى تأهيل عبده ، لجزيل رِفْدِه ، والرفع من قدره وهمته ، بتصريفه على عوارض خدمته ، فلأنى من منائحه ما يرجع العدُّ دون تقصيه[١] وأحصائه ، وأولانى من فواضله ما يقصُر الحق قِبَلَ حقِّه وقضائه ، وبشّر من استجابة أمور حضرته ، لقضايا إرادته ، بما أنجز وعدَ الله تعالى فى إدامة سعادته وزيادته ، ورغبت بأحب الوسائل لديه ، فى إطالة بقاء الأمير لمكارم يُشَيِّدُها ويُعَمِّرُها ، وعوارف يجدّدها ويُمهّدها ، وسألت لنفسى التوفيق فى فروض موالاته ومشايعته ، لأباشرها باستنفاد الطاقة ، واستغراق الوسع ، وتجريد النية ، وإخلاء الذرع ، والمسئول قريب مجيب .

وانتهيت إلى الفصل بذكر فلان فى مورده ومنصرفه ، وما قصده الأمير فى إنفـاذه ، وأنهاه فى عوده إلى مركزه ، واستكثره — أدام الله عزه — من الإكرام الموجب له فى وصوله، وعند رجوعه . والأمير بما آتاه الله من الطبائع المتناهية فى الـكرم والسجاحة ، والأخلاق المستوفية للعظم والسماحة ، يعمد لـكبير مايوليه فيَصُغِّره ، وصغير ما يُتَوَخَّى رضاه فيه فيكْبِرُه ،

---

(١) فى الأصل : تقضيه .

فِعلَ من يملك القلوب بفضله ، و يعمر الصدور بوده ، و يستوقف الألسنة على شكره ، و يشغل الأقوال بحمده .

وقد عرض ما ورد ، ووجدت مولانا يستعفى من استيفائه ، للبر المسرف فى أثنائه ، قال: إن ذلك الغلام صدر ، والاستقصار لما أُتى فى بابه يوجب تذمماً ، و يقتضى تندما ، لولا أن التعويل واقع على ارتفاع التعمل عند المشاركة السابقة ، واطّراح التصنع مع المخالصة الصادقة .

وأما الذى خصّنى به الأمير من نتائج الفضل ، فى هذا الفصل ، فمنظوم إلى أياديه التى توفرت علىّ حتى غمرت ، وتوالت إلىّ حتى عالت ، فأنا رفيق شكرها ، ورهين مَنِّها ، أثنى عليها ما التأم[1] الأمل ، وأشكر عنها ما أُخّر الأجل ، غير شاكٍّ فى أنى لا أبلغ الأمد المقصود ، ولا أطبِّق[2] الغرض المطلوب ، ولكن لكل عامل قدر اجتهاده ، ومزية عزمه واعتقاده ، حرس الله على الدنيا نضرتها وجدتها ، وعلى الخلائق عدتها وعمدتها ، بإطالة بقاء الأمير و إدامة نصره ، ومواصلة أيامه و إنفاذ أمره .

٨ — ولـــه

كتابى — أطال الله بقاء الأمير — غرة شهر رمضان ، جعل الله أيامه غُرًّا ، وأعوامه زهراً ، وأوقاته أسعاداً وساعاته أعياداً ، وآتاه فى هذا الشهر الكريم مورده ومأتاه ، أفضلَ ما قسم فيه لمن تقبَّل أعماله ، فبلّغه آماله ، فأصلح به وعلى يديه ، فحرس الله منائحه ومناجحه لديه . وأنباء الحضرة العالية واردة بما يظاهر الله للملك من نعم تحرس حريم الخلافة ، وتعود بفضلها على الكافة ، ومولانا الأمير بين تفضّل من الله يديمه ، وحق من مصالح الدين والدنيا يقيمه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير قد ابتدأنى فيه من سابغ آلائه ، وفائض بره واقتضائه[3] ، بما لو وقفه مقسوماً بين أمم لوسعهم فضله ، وأثقلهم حمله ، وألجأهم إلى الإقرار بالعجز عن بلوغ قدره ، والاضطلاع لشكره ، عند ترافد قواهم وقُدَرهم ، واجتماع أولهم مع آخرهم ، فابتدأت بالحمد لله

---

(١) فى الأصل هكذا : مالسام .

(٢) أطبِّق : أصيب .

(٣) فى الأصل : واقتفائه .

عُدّةِ الشاكرين وعمدتهم ، ومفزعهم فى رخائهم وشدتهم ، وسألته أن يطيل بقاء الأمير الجليل كما جعله للإسلام عماداً ، وللثغور سِداداً ، وللملك يدا باسطة قابضة ، وللدين عيناً حارسة حافظة ، ليتملّى الدهورَ وأمره ممتثل ، ورسمه متقبَل ، وعزه مؤثّل

ولما استتممت قراءة ما شرفنى بإصداره ، ووقفنى على شكر إفضاله به و إيثاره ، أدّى إلىّ فلان ما تحمل عن الأمير من رسالته التى ملكنى بها ملكا مجدداً ، واسترقنى معها استرقاقا مؤبداً ، فخرت بين مفاخر تفرَع النجم ، وفواضل تكثُر القطر ، ولم أدر أبمكانى من رأيه الشريف أسامى وأفاخر ، أم بموضعى من إشفاقه الكريم أباهى وأكاثر ، أم أشتغل بما أهلنى له من أوصاف هى مستقاة من سعادة ملاحظته ، ومستملاة من زيادة محافظته ، وإذا كان الله تعالى قد نصب الأمير[1] علَمَ حق ، وجعله لسان صدق ، وألبسه المجد قشيباً لا يُنْهِج ، وآتاه الكمال وافياً لا يخدِج ، فلا عجب أن أفاض علىّ بحر اهتمامه ، وساق إلى سحب إنعامه ، كما أودع ، تعالى ، قلبى من الإخلاص لأيامه ، بقدر ما بسط من لسانى فى الثناء على زمانه .

هذا و اعترافى بالعجز عن فرضه ، وانصرافى إلى التسليم لطَوْله ومَنّه ، يُعربان عنى ببيان يقول متى سكتّ ، وينوب متى أمسكت ؛ وقد حضر فلان مجلس مولانا ، فصادف ماأوصله ، ثم ما تحمله ، اعتداداً[2] اتسعت منافذه ومناهجه ، وكثرت بواعثه ونتائجه ، لا زال هذا الحبل موصولا ، وزاد الله النعمة فيه سُبوغا وشمولا ، وهو صادر فى غد بإذن الله ، وسائر فى كنف الكرامة بعون الله .

٩ — وله تشكر وتحدث بالنعم

كتابى — أطال الله بقاء الأمير — ومواد البسطة والقدرة للملك السيد راهنة ، والدنيا لعالى رأيه دائنة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير قد ألبس به عبده من حسن رائه ، بكرم ابتدائه ، ثوبا من العز لا يبليه الدهر ، ولا ينحسر عنه الفخر ، فكان المفزع إلى الدعاء ، شِيمةَ مُخلص الصنائع والأولياء ؛ وقد قرعت باب السماء منه بما الله ولى استجابته ، والإجراء فيه على حسن عادته ، وما أخر كتابى عن حضرة الأمير تقصير — بالله العياذ منه — فى خدمته ، ولا ذهاب عما

---

(١) فى الأصل : للأمير .

(٢) فى الأصل : اعتذارا .

لى من الشرف بإجابته ، إلا أنى خدمته ــ أدام الله علاه ــ خدمتى لمولانا ، فكتبى لا ترد مجلسه الشريف إلا إذا بُسِطْتُ لها ، وكانت أجوبة لمهمات أستخدَم فيها ، وإذ قد رآنى سيدنا أهلا لأدعى الحالين إلى التخصص ، وأبعدهما عن التقبض ، فسأ كتب متشرفا وأنتظر الجمال بالجواب مستشرفا بإذن الله .

فأما إنعام مولانا على عبده ، وصنيع يده ، واستقباله بنفسه والدنيا تسير بسيره ، وخدود النجم مع سنابك خيله ، وتلقيه إياه بوزراء بابه وأمراء أجناده ، وعظماء قواده ، متصرّفين مع الإعظام ، ومتحفين فى اللقاء والسلام ، ثم [ما[1]] رتّبنى به فى دخولى إلى الدار المعمورة بالعز ، وحضورى المجلس المحفوف بالملك ، والتبليغ بى إلى رتبة لم يقسمها ــ حرس الله ملكه ــ لأحد ممن غشى بابه المأمول من أطراف الأرض ، وأعيان الشرق والغرب ، واستجلامى بحضرته التى يقف بها القمران ، على النواصى والهام ، إلى ضروب من الإنعام ، أستعظم ــ والله ــ وصفها ، وإن كانت الأخبار قد سارت على متون الرياح بها ، فهو ما لا يرحب به إلا صدر من عَضَدَ الله دينه بعزته[2] ، وجعله تاج ملته ، وحكم بأن يملك الأقاليم بلا استثناء ، وتخدمه ملوكها بتطامن واستخذاء .

ولولا أن سيدنا يأنس لعبده بمارفع من ضَبْعه ، وبسط من يده ، إذ كانت النعمة من عند مولانا صَدْرُها ، وبعناية الأمير المؤيد توفرها ، وببركة سيدنا تيسرها ، وعند أعرق الخدم فى الدولة القاهرة تقررها ، لكان فى الشرح إخلال بأدب الخدمة ، وإسراف مع مُعْتَقَد الحشمة ، والله يطيل بقاء مولانا مصرفا الدنيا بحذافيرها ، ومستعليا على تقريرها وتدبيرها ، ويواصل أيام الأمير المؤيد للملك وحراسته ، والزمان وسياسته ، ويديم فى ظلهما لسيدنا المواهب المنسوقة ، والمراتب المرموقة ، ويوفق عبدهم لحفظ حمله بشكر يديه ، وفرض للطاعة يقيمه ، إنه فعال لما يشاء .

١٠ — وله تشكر وإطراء

كتابى — أطال الله بقاء مولاى صاحب الجيش — وما يمهد الله لمولانا الملك السيد من

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) يشير فى هذه الرسالة إلى استقبال عضد الدولة له ، وقد مر ذكر ذلك فى ص ١٦٣

مراتب العز والمجد ، وقواعد العلو والملك ، مهنئ ماقد أتانى الله من منحه ، وملانى من نعمه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب صاحب الجيش قد أجرى فيه من البر إلىّ مايقصر الوصف عن تقصّيه ، ويتقاعد الشكر عن المفروض فيه ، وأنبأ خطابه من خبر سلامته عما أجده من أخص مواهب الله وأكرمها ، وأجل رغائبه وأعظمها ، لا زالت يد الله حامية عراصه وجنباته ، وعين الله كالئة أقطاره وجهاته ، إن الله تعالى كريم .

ووجدت صاحب الجيش قد كتب من تقريظ فلان وإحماده ، وحسن تخففه ببابه ، وبين يدى ركابه ، ما أطاع فيه شرف الشيم ، وأرسل به عنان الإحسان والكرم ، وكل غاية يبلغها خادم ، وإن اكتنفه السداد ، ولم يقعد به جد واجتهاد ، تصغر عن أن يعيرها صاحب الجيش فكره ، فضلا عن أن يتجشم لها ذكره ، ولكنه — أدام الله عزه — لايقنع فى مآثره ، ترفع لمتحرم بها عمادها ، وتعلى لمتخادم لها نجادها ، إلا بإيالته منها أكثر ممايغلو فيه التماسه وتمنيه ، ويرقى إليه اقتراحه وترجيه . وحالة أخرى أن صاحب الجيش يرمق جميع مايصدر ومن يصدر عن حضرتى بعين مودة قد وفر الله علىّ موادّها وقُواها ، وأحصد لى مرائرها وعُراها ، فهى إن رأت يسيرا كثرته ، وإن شاهدت دميا سترته ، والله يديم لى ما سوّغنى من حسن عهده الذى تزيده الأيام خلوص عقائد ، وصفاء موارد .

وكان كتاب فلان ورد بما ألبسه صاحب الجيش من أثواب التقريب والإكرام ، ثم التخويل والإنعام ، وشرح ضروبا من ذلك أجد تكريرها ذهابا مع التصنيع ، وقد أغنى الله عن تعاطيه ، وقضى بترك الإفاضة فيه . ومن استبْدِعت مكارمه ، واستغربت محامده ، فصاحب الجيش مألوف المحامد ، معهود المناقب ، لتظاهرها وتواليها ، مُعَوِّدُ النفوس اتصال أعجازها بهواديها ، لازال كذلك .

الباب الثالث عشر

فى الاستزادة والتقريع وما يجرى مجرى ذلك

١ — كتاب تقريع وإنذار

كتابى ومولانا متظاهر أسباب السعادة والسلطان ، وعلو الشان وسمو المكان ، وأنا بدولته سالم ، والحمد لله رب العالمين .

وكان كتابك ورد مع صاحبك فعرفت ما أوردتَ ، وتمثلت ما سردت ، وأنهيت من عَرْضِهِ إلى المجلس — حرسه الله — ما ظننته يعود بصلاح حالك ، ويُفْسِح بعض الطرق إلى آمالك ، ولكنك شديد التسرع إلى مالا تؤمن غائلته ، وكثير التقدم إلى مالا تحمد خاتمته ، ولا بد من أن أصدقك ، ثم أقضى — من بعد — حقك ، وأعرفك موضع ذلك ، ثم أبتدئ[1] لتقريب أملك . قد علمت أنك قدمت قديما — فى مبدأ ورودنا ، و بعد ذاك — هنات ، واغتررت فى حالات ، ولو أوجبت دواعى التوفيق ، واجْتُمع مع الصواب فى طريق ، لعمرت مكانك بالحضرة التى منها اصطناعك ، وعنها إقطاعك ، وفيها سعِد أبوك ، رحمه الله ، ثم قدمت أنت ، أيدك الله ، وحين تباعدت عُدْت على وجه لم يخف منه ما حسبته عندنا مستورا ، ولم ينكتم دوننا ماظننته عنا مكتوما ، وقد جرى بموضع كذا ما جرى مرارا ، وقدمت على غير ذلك تحككا بالحلم واغترارا ، وتقدمت إلى غيرها فأُنْظِرْت ، والآن فلا إنظار بعد الإنذار ، ولا اعتذار مع الإعذار .

وقد رسم مولاى بعد الضجر بما أُنْهِى من سوء معاملتك فى تلك الضياع والبقاع التى لم ترسم بها ، ولم يُجْعَل لك يد فى توسطها ، إخراجَ فلان إليك ، وتحميله ما يورده صريحا عليك ، فإن تكن من أبناء الخدمة الذين يعرفون لوازمها ، ويقيمون فرائضها ، نالك من الإحسان ماالسعادة بمثله جارية ، فى كل نقىّ الطوية ، سليم النية ، ولحقك على الأيام ، من مزيد الإنعام ، مايشرح الصدر ، ويرفع القدر . وإن قدرت أن المقارة تقع على ما أنت

(١) فى الأصل : ابتدأت .

بسبيله ، فما أبعده من تقدير ، وأضلّه من تدبير ، وأنت حينئذ الجانى على نفسه ، المحيل لصورته وحقه ، فقرر مع فلان ما قد اعتمد لتقريره ، فقد أوعز وأذن لى فى جميعه ، واعمل بالأمثلة التى رسمت ، وابنِ على الأمور التى قدرت ، وكاتبنى بما يعين على صورتك ، فإن الرغبة فى اصطناعك بعثت على الإنباه لمّا رقدت ، والإذكار لما غفلت ، والله ولى التوفيق ، وصلى الله على النبى محمد وآله أجمعين .

٢ — وله فى تحذير العامة من الخوض فى الأراجيف

إن الله تعالى مع عظيم حكمته ، وفسيح رحمته ، واستغنائه عن الأمم ماضيها وباقيها ، واستعلائه على الخلائق طائعها وعاصيها ، جعل لمواهبه فروضا من الشكر ، من أقامها وعظم مَشْعَرَها ومقامها ، ارتبطها عليه ، وثبتها[١] لديه ؛ ومن أساء جوارها راكبا هواه ، وأخفى منارها ناكبا عن منحاه ، ارتجعها منه ، وانتزعها عنه ، وتركه مُثْلَةً للناظرين ، وعبرة للغابرين ؛ بذلك جرت سنته فى الأولين ، وتقدمت معذرته إلى الآخرين ، ولنا فى الأخذ بأدب الله عذر لا يعتلّ ، وجَدَدٌ لا يختلّ ، وقوة لا تميل ، وأسوة لا تستميل ، والله الكافل لنا بأسدّ الضرائب وأحمدها ، والمسهّل لأرشد المذاهب وأسعدها ، له المنة ، وبه الحول والقوة .

وإذا تصفح أهل أصبهان ما فاض عليهم من بركات أيامنا ، وانصب إليهم من ثمرات إنعامنا ، وكثر من خيراتهم فى ظل سلطاننا ، وتوفر من سعاداتهم فى كنف إحساننا ، حتى عاد المرمل غنيا مستظهرا ، والمُقْوِى موسراً مكثرا ، والمستتر المُخْفِى لشخصه مباهيا بحاله ، والمنقبض المكاتم لنفسه مساميا بماله ، ومن كانت السلامة معظم مناه ، والأمن غاية ما يسمو إليه مداه ، تشير إليه الأصابع وتنعطف عليه ، وتَفَيَّأَ أفناء الناس أفنية الخصب والدعة ، بعد البؤس والمترَبة[٢] ، وتفسحوا فى ضروب اللذات ، بعد التشحط فى حصول الأقوات[٣] ، هذا إلى ما تعمدنا به صنفا صنفا من فضل امتد باعه ، ونظر اتسعت رباعه ، وتسويغ كَبُرَ قدره ، وتخويلِ فُرِضَ شكره — علموا ، إن لم تكن البصائر مستعجمة ، والأبصار مظلمة ، والأفهام كليلة ، والألباب عليلة ، أن أحدا من الولاة عليهم فى قديم الدهر

---

(١) فى الأصل : وثبطها .
(٢) فى الأصل : المسربة .
(٣) فى الأصل : الأوقات .

وحديثه ، وتليد الزمان وطريفه ، لم ينحلهم يسيرا من عظيم ما أسبغناه ، ولم يَخْل لهم عن قليل من كثير ما سَوّغناه ، ولم تخفّ مؤن خلفائه وخدمه ، ووطأة أوليائه وحشمه ، الخفة التى نصبناها ورتبناها قِبَله ، فيمن يصرفهم عنا ويدبرهم ، ويوردهم عنا ويصدرهم ، ونراهم — أحسن الله هداهم — يتحككون بما يعيد بوارق الإحسان صواعق الانتقام ، وقوة البصيرة فى الإنعام ، صدق عزيمة فى الاصطلام ، وبالله العياذ من أن تخف الأحلام ، ويُؤخَذ بالنواصى والأقدام .

وعُرِضت — أدام الله عزك — كتب حُكى فيها إيضاع[1] جمهور الرعية لديكم ، فى أراجيف لا يشجع صدر الزمان ، بتفضل الله ، على تصديقها ، ولا تُقْدِم أفكار الأيام ، بإسعاد الله جَدّنا ، على تحقيقها ، من غير عذرٍ بَعَث ذلك وأوجبه ، ولا داعٍ طرّق إليه وسبّبه ، غير سوء البطر والأشر ، وقلة التمييز والنظر ، والتمرس بالنقم السود ، والتعرض للحتف المرصود ، وأن يختلق بعضٌ فيصدّق آخرون ، ويأفك زيد فيتبعه زيدون ، ويتلوهم الجميع فى إشاعة الحديث غير باحثين عن منبعه ، ولا فاحصين عن مطلعه ، فلم ندر علام[2] أمورهم ، وبماذا نقابل جمهورهم ، والعراص — ولله الحمد — ساكنة ، والنواحى آمنة ، والميامن راهنة ، والولاة دانية . ألم يعلموا أن الله العلى شانه ، القوى سلطانه[3] ، النافذ حكمه ، الماضى حتمه ، الذى يورث من يشاء مايشاء ، قد ذلل لمولانا ولنا فى إذراء[4] سلطانه ، وبعلاء شانه ، الأرضَ تهائمها ونجودها ، وحَدورها وصَعودها ، وسهلها ووعرها ، وبرها وبحرها ، وعراقها وشاماتها ، وأطرافها وعرصاتها ، وسهولها[5] وجبالها ، وموسوماتها وأغفالها ، وضرب على كل منحرف عن دعوتنا ، ومنصرف عن طاعتنا ، بالهلك والقلة ، والحَيْن والذلة ، فمن مُعَجّل إلى سواء الجحيم ، ومن مقيم على العذاب الأليم ، وذلك حين علم علام الغيوب أن سياستنا أرفق ، وحِضَارنا أسبق ، وباعنا أوسع ، وخيرنا أجمع ، والحق على أيدينا أعز نفيرا ، وأحوط منبرا وسريرا ، وأرحب نطاقا ومجالا ، وأكرم أنصارا ورجالا ، وذلك بفضله الذى يؤتيه من يريد ، وهو الحكيم المجيد ، فأية فسحة لإرجاف ملاقيح الفتن ، ومفاتيح الظلم ، وقد أيد

---

(١) فى الأصل : إيضاح .

(٢) هكذا فى الأصل ، ويتضح معنى العبارة بإضافة كلمة تدبر أو نحوها

(٣) فى الأصل : لسلطانه .

(٤) إذراء : إعلاء ، من الذروة .

(٥) فى الأصل : وسولها .

الله ونصر ، ومهد وأقدر ، ورفع الشعار وأعلن ، وفتح الأمصار ومكّن ، فلاعدو يخطر بباله غيرُ الاستخذاء ، ويعتلج فى صدره سوى الارعواء .

ولولا أن الله ألبسنا الحلم والرحمة ، ما نفعا ولم يُغريا ، ونجعا ولم يغويا ، لكان فيما أضبّ عليه القوم من هذه الأراجيف ، ما يُرجف عليهم ديارهم ، ويَضْعَق قلوبهم ، ويُزهق أبصارهم ويُعقبهم من الإنكار ، ما أقلّه يُسْعِر جمرات التقويم ويلهبها ، ويُؤرّث نيران التثقيف ويثقبها ، أو مادرى الأغفال الجهال أن امرأ من أطراف الملك لو استزله الشيطان ، فالتوى فى الطاعة ، وانزوى عن الجماعة ، لذرته الرياح واختطفته ، ومحقته المخافة ونسفته ، فلم نحتج بعون الله إلى تجشم حربه ، ولم نحتنكه بغير أعوانه وحزبه ، بل كانت الأقدار كافية فى القضاء عليه ، وسوق الفناء إليه . وهذه معذرة قد قدمت ، ونُذُر قد أبرمت ، فمن عاد فيما أنكر ، وفاه بما حظر ، فعليه وزرُ ما يناله . وإثم ما يغتاله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ، وما لهم من دونه من وال . فرأيك فى إشاعة هـذا الإنذار ، ليصير مأدبة للكافر ، وحافظا عادتنا فى المرحمة والرأفة ، قبل أن تضطر فريضة السياسة إلى ما تصلاه العامة مع الخاصة — موفقاً .

٣ — وله فى زجر السفهاء من العوام وإنذارهم بعد تعدد النعم عليهم

أنت ، أدام الله عزك ، تعلم أن إحسان السلطان ، إذا امتدت ظلاله ، وشاع اتصاله ، وكثرت أعداده ، وتوالت أمداده ، فصادف نفوساً شاكرة ، وألسنة ناشرة ، وقلوبا عارفة بحق الإنعام ، وصدوراً منشرحة بفرض الإكرام ، نمى على الأيام وتظاهر ، وتوالى على الزمان وتناصر ، وإذا أغرى بالاجتراء على ما يُحظَر ، والإقدام على ما يُنكَر ، وصار داعية الجحود ، ومؤذنا بسوء الغموط ، لم يلبث أن يُرتجع ، ولم يمكث أن يُنتزَع ، وصار عارية استردت حين قلقت فى ممر الخيانة ، لا عارفة خلدت وأنست فى مقر الصيانة .

ولئن كانت نعم مولانا على الرعايا مبسوطة لا تُقبَض ، وفائضة لا تُحبَس ، وسابغة لا تُقصر ، ومُبرَمة لا تُنتَقض ، إن الذى قسم منها لأهل قم[1] ، لأفسح مذاهب ومشارع ، وأوسع مشارب ومنادح ، وأمنع جوانب ومسارح ، فقد جمع لهم بين الإنصاف الموفور ، والنظر

(١) مدينة فارسية كبيرة بين أصبهان وطهران ، إلى الجنوب على طريق أصبهان .

المبذول ، وألغيت فيهم أقوال المتنصحين ، وترك تتبع مايرفع عليهم من الاستدراك العظيم ، ثم أريحوا ممن كان يطمع فى أملاكهم ، ويحرص على احتناكهم ، ويتبسط عليهم صارفا ومصروفا ، ويستنزلهم عن معايشهم والياً ومعزولا ، وردَّ النظر فى أمرهم إليك مع ظلفك عن الطُّعَم التى كانت تُنيف وجوه الضمناء والعمال ، وأكابر المتولين لتيك الأعمال . وسمحتُ لك فى البعد عن حضرتى رفقاً بهم ، ونظراً لهم ، فهل من حق هذه المواهب البيض ، وهذا الإحسان المستفيض ، بلوغ الجرأة بأراذل المحترفة وأذناب السَّفلة ، إلى أن يَرِد فلان الحاجب البلدَ مجتازا ، وقد ضُمّ إليه أكابر القواد ووجوه الغلمان والخواص ، فيتوثّب على غلمانه ، ويُقدَم على أصحابه ، ولا يُقنَع بذلك حتى يكون منهم اجتماع وتناصُر ، واتفاق وتنافر ، وإجراء إلى مايقبح ذكره ، ويعظم نشره .

ولولا أنى رغبت إلى مولانا فى إقالتهم هذه الدفعة ، لتقوم الحجة بالردع ، ويُفرط الإنذار بالزجر ، لخرج فيهم من نافذ الأمر مايقيم الميل ، ويُعَرِّف الصراط المستقيم ، ويُنسى التعاوى الذى قد صار شعار كثير من أهل تلك الديار . غير أنى جعلت الوسيلة فى استعطاف رأى مولانا — لا زال عالياً — ما رَهَن من مواصله لديهم ، وسبق من منائحه إليهم ، وشفعت فى أن تُحمى تلك المِنن عن كدر يعترض صفوها ، وتنغيص يجهد عفوها ، فأجرانى — حرس الله أيامه — على عادة الإيجاب ، بعد إلحاحى فى المسألة والارتغاب ؛ إذ كان مولانا — حفظ الله على الدنيا ظله ، وهنأ أهلها عدله — كما ينظر ويحسن ، ويُفضل ويُنعم ، فكذلك يوقِّف ويثقِّف ، ويعاقب ويهذب ، أخذا بأدب الله تعالى فى الحالين : إنعاماً وانتقاماً ، وإفضالا واصطلاما .

وبذلك البلد — ولله الحمد — من سادتى الأشراف ومشايخى من أهل العلم والتناهى[1] من قد صانه الله عن هذه المداخل الذميمة ، والمواقف المليمة ، وإنما العتب عليهم إذ لم يأخذوا على أيدى السفهاء ، ولم يزجروا ما بينهم من الأدنياء ، ولم تَخْلُ — أدام الله عزك — من عتب واستزادة ، حين لم توعز فى تقويم الجناة ، وعرضهم على النقمات ، نهياً لأمثالهم ، عن التشبه بأفعالهم ، وقد اعتذرت عنك بما كاد ينقبض ، حتى تأتّيت لبسطه ، واعتنيت

---

(١) فى الأصل : والتناه .

بالكشف عن وجهه ، فاعرض كتابى على الجماعة ، ليتنبه راقدها ، ويتقوّم مائدها ، ويَفْرق ذاهلها ، ويثقف مائلها ، فلئن بدرت من بَعْد جناية ، لتَفْحُشَنَّ النكاية ، ولئن اقْتُرِفَتْ جريمة ، لتَصْدُرَنَّ العظيمة ، والله ولىّ التوفيق والتسديد ، إنه خيرمبدئ ومعيد .

٤ — وله فى إنذار وتحذير من حل وثاق مأسورين من أهل العبث والفساد

كتابى ونعم الله عند مولانا مشفوعة بتظاهر العز والعلو ، ورفع الولىّ وكَبْت العدو ، وأنا فى ظله الظليل ، ورأيه الجميل ، مكنوف بالعافية ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وصلت لك كتب ووقفت على مودَعها ، وعرضت ماوجب عرضه فى المجلس العالى منها ، وكان من أحسنها موقعاً ، وأحمدها مطلعاً ، وأطيبها خبراً ، وأجملها أثراً ، قبضك على هؤلاء النفوس الذين ارتضعوا درّ الفساد ، وكانوا السبب فى جرأة سائر الأكراد . ورسمت فى كل وقت لفلان مكاتبتك بما تعلم أنه صادر عن لفظى ، ونافذ عن اهتمام صادق منى ، واحتيج الآن إلى مكاتبتك فى باب هو من مراعاة مولانا ببال ، ومن ملاحظته بعيان ، وقد وكّد — أعز الله نصره — علىّ القول فى مكاتبتك مطيلا ، وعظتك كثيراً ، وأن أُتبع الأمر وعيداً ، والنهى تحذيرا .

هؤلاء القوم ، الذين قبضت عليهم ، باعتقالهم قل الفساد بعد كثرته ، وخف الشر بعد شدته ، ودخلت قلوب أمثالهم هيبة ضمّت أطرافهم ، وحسمت أطماعهم ، وقد حظر مولانا عليك الفكر فى إطلاقهم ، وحل وَثاقهم ، والاشتغال بأخذ الرهائن — وإن كانت أرواحهم — منهم ، فإنك إن فعلت ذلك ، فقد قمت — والعياذ بالله — مقام من عرّفه ولىّ نعمته ، ومالك مهجته ، ما يؤثره ، فعدل إلى إيثار نفسه ، وأخلّ بما نفذ من عالى أمره .

وأقول مع هذا : متى أفرجت عن واحد من هذه الجماعة فقد أوحشتنى ، وتذمّمت إلى وقابلت ظنى فيك بما لا تستحقه عنايتى عليك ، وأنا عالم أن هذا الخطاب أو بعضه لو كان فى معنى أولادك لما أخرت الارتسام ، ولا أجّلت الامتثال ، فليأتنى منك فى جواب هذا الكتاب ما أعرضه فى المجلس مصادفا للإحماد الكثير ، والموضع اللطيف . وفلان لا بأس

إن ورد الحضرة البهية ليؤدى عنك فى وروده ، وإليك فى رجوعه ، فهاهنا مهماتٌ شرحها لك يشرح صدرك ، ويبسط أملك . وهذا فصل يشرحه فلان ، فراعِنى بكتبك وأخبارك إن شاء الله .

٥ — ولـــــه

كتابى — أيها الحكيم سيدى ! — كتاب عاتب عليك ، شاك منك إليك ، فإنك ضعيف العقيدة والعقدة ، قصير المدة فى حفظ المودة ، قليل الفكر فى حالتى صلتك وهجرانك ، خفيف الذكر لطبقتى أكابرك وإخوانك ، إذا زجّيت بالكسل يومك ، لم[1] تعرّج على من يطيل لومك ، وإذا[2] أدرجت بالملل وقتك ، لم تلتفت إلى مايطيل مقتك .

ولولا شغلى الذى قد أجارك من عتب لا السيف يبلغ حدّه ، ولا السنان يسدّ مسدّه ، لوهبت لك ساعة من نهارى ، فتعلم كيف أقصّ بسوء عهدك ، وأترك سيرتك عظة من بعدك ، ولكن ماأفعل ووقتى منهوب بأيدى الأعمال ، وزمانى مأخوذ بين الحل والترحال ، أتستجيز أن يتألم مولانا — أدام الله ملكه ، وقدم العالم قبله فديةً له — فتطوى عنى خبره حتى أتبلّد فى أمرى ، وأتبرّم بعمرى ، وأكاد أخالف معتقدى ، وأجنى على نفسى بيدى ، ثم يمنّ الله تعالى بعافيته ، أدامها الله ماعُرِف الدوام ، وتعاقبت الليالى والأيام ، فلا تكون آخر المخبرين إذا لم تكن أول المبشرين .

إنك لجاسى الطبع ، قاسى القلب ، دميم المسعاة ، قليل المراعاة ، فبالله لقد مضت بى فى تلك الأيام ساعات كانت الأمنية فيها طروق المنية ، لئلا يقرع سمعى أن الشكاة انتهت بولى نعمتى ، ومالك مهجتى ، إلى ذلك الحد ، وجسمُه ، وقاه الله بى ثم بالناس جميعاً ، دُفِـع إلى ذلك الأمد المشتد ، والحمد لله الذى كشف البلوى ، وأسبغ النُّعْمَى .

فأماحديث أبى العباس فكيف ألومك عليه ، وأشكوك فيه ، إذ كنت قد استجزت التقصير فى الأهم من خبر مولانا — أطال الله بقاءه ، وجعل كافتنا وقاءه — وهل يلام تارك الفرض على تأخير النفل ، والماطل بالحق على التضجيع فى الفضل ، وأنا أؤمل أن يكون انتقاله عن الهوى الجانى على نفسه ، سبباً لصحته وانحسار السّقم بإذن الله .

---

(١) فى الأصل : علم .　　(٢) فى الاصل : فإذا .

لعلك تحسبنى يا أبا الحسن قلت فاشتفيت ، وأطلت فا كتفيت ، كلا ! فقد حمّلتنى من جفائك كَلاًّ لم أحتسبه ، وقسمت لى من ضعف وفائك حظا لم أرتقبه ، والظن يخطئ مرة ويصيب ، والتوفيق يحضر ويغيب ، وسنلتقى فأقول وتسمع ، وأصول بالعتب فتشجع ، أو أجرى على رسمى فى احتمالك ، وأعمل حلمى فى مقابلة إهمالك ؛ إن شاء الله .

٦ — وله

قد نجم — أطال الله بقاء سيدى — بأصبهان من الإرجاف مالا سبب يقتضيه ، ولاغرض يستوجبه ويستدعيه ، إلا كفران النعمة ، والتمرس بعدوان الدولة ، وبالله العياذ من الأخذ بالسمع والأبصار ، من سوء البصائر والأفكار .

وقد كان الإنذار سبق فى بعض السنين بما حسبناه ينبه القوم من سِنَتهم ، ويأخذهم عن دميم سُنَنهم ، وبلغنى الآن ما إن لم يُتلافَ أشفقت على أتباع الجهل من عَدْوَةٍ تتركهم بالعُدْوة القصوى ، وتعرّضهم للتى هى أشنع وأخزى . وأطلعت سيدى على ما أُنهى وحُكى ، ليكون من وراء التدارك لما جُنِى ورُقِّى ، فقد تخوض العوام فى الإرجاف إذا وقع نُكْر فى طرف من الأطراف ، فأما إذا كان النصر — بتفضل الله — عزيزاً مبيناً ، والحبل حصيفا متينا ، والملك باسطا ذراعيه يميناً وشمالا ، ضارباً رواقيه[1] سهولا وجبالا ، فما الفكر فى توليد الأباطيل إلا التحكك بالنُّوَب السود ، والتحقق بسوءتى الغموط والجحود .

ومولاى ينكر ما أنكرته بما يعم ويخص ، ويثلم ويمس ، فإن يكن فى القول مقنع وفى العتب مردع ، وإلا فليوعز بإذكاء العيون ونصب الآذان ، على من يفوه ببُنَيَّات الجهل ، ويستوخم جوار الإحسان ، فإذا ظفر بالواحد منهم أنهكه عقوبة ، وجعل للسياط فى ظهره مشارع موروده ، كيلا يفشو الشر ، فيَصْلَى بنارالغواة البرآء الذين طريقتهم الاستقامة ، وبُغْيَتهم السلامة ، إذ كان غيرمحتمل أن تكون الرى[2] ، وهى دار المملكة ، ومقر الدعوة ،

(١) فى الأصل : واقيه .

(٢) مدينة كان لها شأن فى العصور الإسلامية ، وأطلالها معروفة اليوم على مقربة من طهران ، والنسبة إليها رازى .

ومجمع الراعى والرعية ، لا تُسْمَع فيها كلمة عوراء ، ولا تَخبِط على ألسنة عوامها عشواء . وأهل أصبهان وهم فى حَجْرَة من الأرض تتناوب عليهم شمس الإنعام وقمر العدل ، ثم يلفظ أحدهم بالعظيمة فيما لا يعلم ، ويَهمِز بما يُسلِم صاحبه فلا يَسْلم . جعلنا الله ممن لا يحيل بوارق الخير بوائق بقلة شكره ، ولا يعيد عوارض الأمن صواعق بكفرانه وكفره ، والسلام .

٧ — وله إنكار على عامل ظهر منه تقصير

قد علمتُ أنك قصرت فى عدة أبواب وأهملت وضيعت ، وإنى أولَ ورودك تلك الناحية عرّفتك أن القوم يستلينون عريكتك ، وسبيلُك أن تتشدد عليهم لئلا تَتوَى الحقوق . فأغفلت حتى تجرّأ القوم ؛ وكان من بنى فلان ما كان من كسر الحبس ، وخرق الهيبة ، ومنع السوقة من الجلوس ، فرُسِم فى أمرهم ما رسم ، واحتيج إلى عزل فلان ، وحبس الجميع .

ولما ورد فلان اعتذر لك بما تَقْصر عن الاعتذار بمثله ، واستعاد لك من الإيجاب ما بَعُدَ أن تجاب إليه ، فارفع طرفك ، وتلافَ أمرك ، وقدم على كل أمرٍ رَفْعَ حسابك ، ليُعرَف موضع قدمك ، وثق كيف جرت الحال ، بأن عنايتى تصدق بك ، ورعايتى لا تنحرف عنك . وإنى أوجب بموقعك من فلان ، من حقك ما يقوم بإزاء تقصيراتك ، إذا تلافيت وتداركت ، واستدركت ما أضعت .

٨ — وله إنكار وتقريع

كتابى وإن كنت أعلم أن الكتاب ضائع مع انصراف التوفيق عنك ، ومصاحبة الخذلان لك ، واستمرار العجز بك ، وظهور القصور والمهانة فيك ، إذ وليت تلك الناحية هذه المدة القصيرة ، فصار كلاهما أسوداً عادية ، استلانة لجانبك ، وعلماً بتحيرك فى مذاهبك . مَن بنو لاحق السقّاط الأوغاد ؟ حتى يشجعوا لما فعلوا ، ويقدموا على ما أتوا ، ويستجيشوا بالعامة فى حكومة بينهم وبين القاضى . ومرة يكسرون الحبس ، وهو حبس السلطان ، وتارة يحوجون القاضى إلى مفارقة البلد ، ثم لا يقنعهم هـذا التسلط والتبسط حتى يتلقوا أبا الجيش — أيده الله — مستغيثين متظلمين ، موعزين إلى أهل البلد بإغلاق الدكاكين .

ولو كنتَ ذا رُوح أو نفس أو نفَس أو مُنَّة ، لما جسر هؤلاء على أن يحكموا بهذا ، ولو رأوه فى منامهم ، لأصبحوا وقد زهقت أرواحهم وجلا . والله يعلم أنك كنت كاتب القبض لأبى فلان متخلفاً ، فكيف إذا أخذت تسوس ؟ فإن كفايتك ظهرت فى كل باب ، ودليل ذلك ما أحوجت إليه فى هذا الحمل[1] الذى أصدرته ، من استدانة واستعانة واستسلاف ، لا بارك الله فى عجزة الرجال .

وأعجب مامرّ بى أنك لم تخاطب حضرتى حتى الآن بحرف واحد ، وقد كاتبت منذ شهر ، ورسمت فى هذا الباب رسوما ، فلا والله إن أجبت بلفظ وقد كنت أحسب للقاضى أبى الحسن ذنباً ، فصح عندى بما أتاه بنو لاحق ثانياً ، أن الجريرة كلها لاصقة بهم ، والفتنة ثائرة عنهم ، وقد كتبت إلى أبى الجيش أساتكين بما تقف عليه ، وترتسمه ، فاقبض على معايش بنى لاحق أجمع ، من ضياعهم ومستغلاتهم ، ودبرها مع خاص السلطان ، وأشخصهم إلى أصبهان ، كما رسم لأبى الجيش ؛ ومَنْ تعصَّبَ لهم ، أو ثار فى الفتنة معهم ، فدُلَّ أبا الجيش عليه ، ليصرِّف هذه الطائفة بين التجريد للسياط ، والتغريم فى المال[2] ، وإن كان من العامة من ينطق بعد ورود الأمر الجزم فليُصْلَبْ على باب البلد ، والسلام .

٩ — ولـــه

قد علمت — أدام الله عزك — أن السياسة تحرس أحكامها ، عن جرأة الخاصة وإقدامها ، فكيف عن تبسُّط أصاغر الرعية وعوامِّها ، وأن من لم يثقفه الزجر بالموعظة ، نُبِّه بالعقوبة الموقظة ، ومن لم يقوِّمه القول الرادع ، أفيض عليه العقاب اللامع ، وكنا نحسبك تعرف سيرتنا فيمن أثار للفتنة ناراً ، ورفع للشر مناراً . هذا فى الأمصار الممصرة ، والبلدان المكوّرة ، فكيف فى أصغر بلد ، وأقل عدد .

وعرض قاضى القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد ، أدام الله تأييده ، كتاب خليفته أبى طاهر الفقيه بناحيتك على الحُكْمِ[3] ، أسعده الله ، بذكر عظيم ما اجترأ قوم من الرعايا عليه ، وأجروا بسوء اختيارهم إليه . وإن المعروفين بابن حماد وابن علويَّة أخلا

(١) الحمل : مال السلطان .

(٢) فى الأصل : الحال .

(٣) يريد خليفته على الحكم .

بالبلد زائدين فى هَيْج الأوغاد ، ومغترين بما سبق لهما فى سالف الآماد . وورد لك كتاب بهذا الذكر ، دل على سوء التأتِّى لما وجب ؛ وقلة التهدِّى لما لزم ؛ وسائر ممالكنا شرقاً وغرباً أفسح بقاعا ، وأوسع رقاعا ، وأكثر أصنافا ، وأشد خلافا ، ولا اعتراض لذى مذهب على صاحبه ، بل كل فرقة تجتمع إلى زعمائها ، وتذهب إلى مذاهبها وآرائها ، فلا تشجع واحدة على منع الأخرى ، وإكراهها على القول بما تهوى . وكان سبيلك أن تعمد إلى عشرة من هؤلاء السُّقَّاط ، فتمشق فى ظهورهم بالسياط ، وتنفيهم عن البلد نفيا لا أوب معه ، ولا رجوع بعده . وأماهذان اللذان أخلّا ، فقد كان الوجه أن تتبعهما بمن يخرجهما إلى الحضرة ، مستوثقا منهما ليذوقا وبال الفتنة ، ويعرفا مغبة سوء الدخلة ، وتقبض على دورهما ، وتحلّ مثل ذلك بأشياعهما وأوباشهما .

ولولا أننا نرى البُقْيا أوْلَى ما نفعتْ ، والرحمة أحْرَى[1] ما نجعت ، لكتبنا فى أمر هؤلاء بما يجعلهم آية لكل جاهل بأمره ، معتدٍ لطوره ، ألا تعلم هذه الطائفة أن الحاكم إذا صدر من حضرتنا فيده أعلى من كل يد ، وطاعته فرض على أهل البلد ، وأن المعترض له قد أباح من نفسه المحظور ، وجلب عليها التبار والثبور . ثم هذه المذاهب لا إجبار فيها ، من شاء اختار منها ما شاء ، سر ذلك صاحبَه أم ساء ، والاختلاف فيها موروث على الأيام ، منقول على وجه الزمان . وهذه تذكرة وتبصرة ، وحجة ومعذرة ، فليقابَل الجناة بما توجبه السياسة ، ثم من عاد لما أنكرنا ، وأقدم على ماحظرنا ، فانظر كيف تزلزل روحه فى جسمه ، وأرضه من تحته . وليكن أبو طاهر — أسعده الله — وسائر ذوى المجلس على جهاتهم قبل هذه الفتنة ؛ وليرد كتابك بارتسامك لهذه الجملة ، إن شاء الله تعالى .

١٠ — وله إلى أبى عيسى[2] الكردى

كتابى — أطال الله بقاءك — ومولانا ، أدام الله أيامه ، وهنأه إعزازه وإنعامه ، كما تخطبه همته العالية ، وتوجبه كلمته السامية ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

---

(١) فى الأصل : أخرى .

(٢) لعله أبو عيسى بن بدر بن حسنويه . انظر ابن الأثير ٩/١٥٠ .

وهذا الكتاب أنشأته فى أمر اختصَّ بعناية مولانا ومراعاته ، وعَدَّهُ فى خاصِّ مهماته ، فتدبره شديداً ، وتبصره مبدئاً ومعيداً ، واصبر على ما يثقل حمله ، ويخشن مسّه ، فإنه مؤدٍّ إلى صلاحك ، ومفضٍ إلى انتظام أحوالك ، فلا خير فى مستلَذ أعقب مكروهاً ، كما لا ضير فى متكرَّهٍ جلب محبوبا .

أنت — أيدك الله — تعلم أن الأمر الذى أرادك له مولانا بديًا ، وبذلته من نفسك مبتدئا ، حمايةُ السبل ، وحراسة الطرق ، وحياطة الأطراف ، وتطهير الأطرار(١) ، لئلا يشتغل سائر عساكر السلطان عما هو أخص بخدمتهم ، وأولى بكدحهم وملازمتهم . والأمر فى جميع ذلك جارٍ على خلاف ما أُصِّل ، وغير ما قُلِّدَ وأُمِّل ، فإن حاجتنا تشتد إلى إمدادك برجال ، تَلزَمُنا على إنهاضهم أموال بعد أموال ، وقد فعلنا هذا سنة بعد أخرى ، وثانية عقب أولى ، ثم الحال لا يخرج بالكِفاف ، فإن المسالك آمنة ، والمدارج هادية ، وأنواع العَيْث مقبوضة ، ومواد الفساد مرفوعة ، مادمت بالبعد ، فما هو إلا أن تدنو أحناؤك وأحويتك(٢) حتى ينجم الشر ، طائرَ الشرر ، متصل الضرر ، فتُخَاف المذاهب ، وتَراعَ المسارب ، ويُقطَع على الرُّفَق ، وتُحتَنَك أبناء الطرق ، وتبسط اليد على الضياع بالإجحاف ، وعلى الأكَرَة بالاعتساف ، وتسلب(٣) المزارع ، وتخرّب المصانع ، والسلطان لا يَصْبر لك على أن يَدِرَّ إنعامه ، ويستمر إكرامه ، ويتزايد اصطناعه ، ويتصل نظره وإقطاعه ، وثمرةُ انتفاعه بخدمتك ، واستظهاره بمناصحتك ، أن يحتاج طول المصيف إلى الذب عنك بخواص غلمانه ، وخلّص أجناده ، فإذا دفع فى نحور الباغين لك السوء ، كرَّ أصحابك على الرساتيق بالإفساد ، وعلى القرى بالخراب ، وعلى الطرق بالإخافة ، وعلى الأموال بالإحاطة .

وهذه الكتب قد توالت من قم بأن الناحية التى وردتموها قد انتُسِفت ، وأن ارتفاعاتها قد أبطلت ، والأيدى على مزارعها قد بُسِطت ، وتعدى الشر والضر إلى الطرق بين قم والحضرة الجليلة ، فما سمع فيها بقطع منذ تراخت ديارك ، وبَعُدَ أصحابك ، فلما انكفأت عاد الشر جَذَعاً ، والقطع مُقتَبلا . وهاهنا عذرٌ يتعلقون به كان يتلبس وقتاً ، ويتموّه دهراً ، وقد صار الآن بإخلاقه لا تخفى صورته ، ولا تغمض صفحته ، فإنكم تحيلون على

---

(١) الأطرار : الأطراف .

(٢) الأحناء جمع حنو وهو الضلع ، والأحوية جمع حوية ، وهى ما تحوّى من الأمعاء . استعارها لأصحابه وتابعيه .

(٣) فى الأصل : تسكن .

البرزيكان[١] ، فمن ليت شعرى يسمع هذا ويصغى إليه ، أو يعبأ به أو يعول عليه ، بعد ما عُرف فى عام بعد عام كيف الطريقة ، وما الشاكلة والجديلة ، وليت شعرى أن لا يرد البرزيكان مع بعادك ، وإنما يشارفون أوان اقترابك !

ورسم مولانا أن أخاطبك خطابا أستوفيه وأستقصيه ، وأُلغى المهوادة فيه ، لتروّىَ فى نفسك ، وتستحضر جوامع لبّك ، وتداوى هذا الأمر بدوائه ، وتعجل إلى معالجة دائه ، قبل أن يستفحل فيُعضل ، ويكثر فيغمر ، وتكف أصحابك إن كانوا[٢] غامسين أيديهم معك فى الطاعة ، ومجتمعين على[٣] فرض الجماعة ، وإن يكونوا عاصين ، وعنك متباينين ، ولما تأمرهم به مخالفين ، برّأتَ نفسك من عيوبهم ، وأخليتَ صحيفتك من ذنوبهم ، وأعلمت ولىّ نعمتك ، أطال الله بقاءه ، الذين حوربوا ذهابا مع الضلال ، وتعرّضاً للوبال ، فإنه — أدام الله علوّه — إذا همّ بهم لحظةً أخذهم الفناء قبل آجالهم ، وأصفقت البقاع والبلاد على استئصالهم ، وأوعزَ فى إحلال النقمات بهم ، وإعداد المَثُلات لهم ، بما تُعُوِّد فى نظرائهم ، وعهد فى أكفائهم ، حين راغوا عن المحجة القويمة ، وزاغوا إلى الطريقة الذميمة ، وكُتِب عليهم القتل والإسار ، أو النفى والحصار .

ولو أطلعتنى عليهم[٤] لكان كثير ممن يشمخ عليك بأنفه مُقَيّداً ، ولقيد[٥] مخالفك من جسمه مصفداً . وقد كفلت عنك فى المجلس المعمور ، وقلت إنك تبذل غاية المجهود ، وتصرف القوم عن هذا المسلك المذموم ، وتقوم بحماية قم وآبة ، وما ينشعب إليهما وعنهما من طريق ، فلا يُسْمَع بداعر ، ولا يُخْبَر عن مفسد ولا فاسد ، ولا أحسبك تدع ضمانى مرهونا حتى ترجعه بالاجتهاد مفكوكا . وأنا أتوقع الجواب ، فلا تعوّل على خطاب خالٍ تسطره ، وكلام عارٍ تُصْدِره ، واقرن المقال بالفعال ، وقابل الأمر بالامتثال ، إن شاء الله عزّ وجلّ .

---

(١) البرزيكان : جماعة من الأكراد ، انظر ابن الأثير طبع أوربا ٨/٥١٨ .
(٢) فى الأصل : كان .
(٣) فى الأصل : عن .
(٤) فى الأصل : عليه .
(٥) قيد من جسمه : أخذ القود من جسمه ، وفى الأصل : بقيد .

الباب الرابع عشر

فى التنصل والاسترضاء وما يشاكل ذلك

١ — كتاب استعطاف وتشكر واسترضاء وتنصل

قد عُرِض ما ورد منك فى المجلس العالى ، فأنِسَ مولانا لما نشرته عن الأمير جملا وتفصيلا ، وابتداء وترديداً ، أنساً لا يُضَم قطراه ، ولا يُدْرَك مداه ، وسرَّه — أدام الله له المسارّ ، وأحمده العواقب والمغابّ — ما أبنت عنه من تمثل الحال فى الاعتقاد والاعتداد ، وصحة النية والوداد ، فذلك ما كان إرخاء السجوف دونه قد شغل القلوب ، وأحرج الصدور . وأما الذى تصرف فيه الأمير من تلك الأقوال الكريمة ، والمخاطبات الشريفة ، فهو وإن جاوز الاقتصاد إلى أبعد غاية ، وأبلغ نهاية ، فى السرف ، فغير مستبدع مع كرم النَّجْر ، وشرف الطبع ، ومساعدة الإقبال ، ومقارنة التوفيق فى كل حال . والله يحمى هذه الوشائج عن لواحظ الأيام ، وعوارض الأزمان ، ويجعل من تَثَقُل عليه ، ولا تُحَبَّب إليه ، نَهْبَ الصروف المتقسمة ، والخطوب المتوزِّعة ، بمنّه .

وارتفع طرفى ، واشتد أزْرى لما ذكرت أنك أنهيته مجليًا عن عَقْدى ، ومودَع صدرى ، وأنت تعلم بطول الصحبة لى ، وفضل الأنس عندى ، أنه لا أحد من قريب وغريب ، كانت تلك العوارض على قلبه أشد ، وعلى نفسه أشق ، منى ؛ وأن صورتى كانت ، لَمّا بعدُ تصوّرها ، وتراخى تقرّرها ، صورة المأخوذ عن نفسه ، المفرّق بينه وبين قلبه ؛ وأن همى أجمعه ، وقصدى كله ، وشغلى معظمه ، بما زاد الأعداء قَذًى وعَوَراً ؛ وأنى أوثر فى خدمة الأمير ما أوثره فى خدمة مولانا ، ولكنى الرجل الذى يُؤمن كيف يُؤْتَى من اختلاف الحساد ، واختراع ذوى الإفساد ، وإن كان الله قد عوّد أن يكشف مكرهم ، ويحيق بهم خَتْرَهم ، ويظهر لموليينا أنى الأنصح جَيْباً ، الأحمد غَيْباً .

وفلان قد عرفتُ ماحكيته عنه ، وقررتُ ماوصفته منه ، فجزاه مولانا الخير عن حق أدّاه ، وصدقِ أنهاه ، وصلاح ابتغاه ، وخير اعتمده ونواه . فأما اعتدادى بما خصنى به ذكرا ،

وقولا صدقا ، فعلى حسب ارتياحى[١] متى تمثل اعتقادى على حقه ، وارتياعى متى حُرِّف عن وجهه .

٢ — وله فى إبطال متوهَّم الظن والإبانة عن السكون

إلى وكيد الوفاء والعقد

تخيَّل الأمير منى ارتيابا بعصَم عهده ، وفى التقدير عدل وظلم ، وظنّ بى امتراء بكرم وعده ، و بعض الظن إثم ، ولو حال القمر عن مسراه ، وحار الفلك فى مجراه ، لما جوّزت على بذله بخلا ، ولا تمثلت من عقده حلا ، إذ الأمير أفسح فى الحزم مذهبا ، وأعلى فى العز مرقباً ، من أن يُمِرّ أسباب الفضل ثم ينقضها ، و يمد أطناب البر ثم يقرضها ، كلا ! ومن جعل المحاسن محبوسة على مجده ، والمحامد منقوصة حتى كمّلها بيده ، ولكنى أعظِم ما وهبَ الله منه ، فأبخل برأيه على هُجْنَة التكدير[٢] ، وأغار على وفائه من جرأة المقادير ، وولوعُ الشفيق بسوء الظن داء قديم — ومعاذ الله — بل دواء كريم .

فأما المهم الذى أشار مولاى إليه ، واستخلف منابى عليه ، فإنى فيه عند حكمه ، وعبد رسمه ، ولوقدَرت ثم سخَّرت النجوم ، مهديا سعودها إليه ، ومُغرِياً نحوسها بمن يميل عليه ، لظننتنى — بَعْدُ — قريبَ المطلب ، قصير الباع والمنكب ، فلينم مولاى بمكاتبتى أمرا ونهياً ، يحمَدنى جِدًّا وسعيا ، إن شاء الله .

٣ — وله تنصّل واعتذار وتشكر

كتابى — أطال الله بقاء الملك — عن سعادة مولانا الأمير المؤيد وانتظام أمور ملكه ، وانقياد مادنا ونأى لأمره ، وعافيتى فى كنَف عزه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الملك قد تفضل بابتدائه ، زائداً فيا أشكُر من جميل رائه ، فحمدت الله على ما رهن بحضرته ، من خصائص نعمته ، ورغبت إليه فى إطالة مدته ، لمكرمة يستأنفها ،

---

(١) فى الأصل : ارتياعى . (٢) فى الأصل التكرير .

بعد أخرى يُسْلِفها ، ومنقبة يستقبلها ، بعد مأثرة يحصلها ، والله سميع مجيب .

ولو أديت الفرض غير معوّلٍ على ما يعرفه الملك من عقيدتى فى مشايعته ، ونيتى فى متابعته ، لـكانت كتبى تتصل إلى بابه ، ورسلى تحطّ بجنابه ، على اتصال الأوقات ، وتعاقب الساعات ، إلا أنى كما أتخوّف الإخلال ، أتجنب الإملال ، وكما أشفق من التقصير والإقصار ، أتوقى مواقف الإسآم والإضجار ، وعلى اختلاف الصورتين ، فإنى أعتمد ما فطرت عليه من موالاة ذلك البيت ، لا زال معمورا ، وبالمناجح مكنوفا .

وقد اعتد مولانا الملك بورود رسوله ، وما أُوصِل من خطابه ، وكان يجب أن يزيد فى انبساطه واسترساله ، إذ كان — أدام الله عزه — فى منائح الله قسيما ، وفى عوائد الله شريكا .

٤ — وله جواب شكوى واستجفاء وتأنيس بمكاتبة وإجلال

كتابى — أطال الله بقاء الشيخ — عن سلامة ، قد أحسن الله الإمتاع بها ، وأجمل الدفاع عنها ، ووصل سوابغ النعم بها ، وأجزل حظ السعادة فيها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب الشيخ فسرّتنى سلامته ، هنّأه الله إياها ، وأدام له أوفاها[1] ، بعد أن جمع إلى بعد الدار ترك المواصلة ، وأحوجَ إلى الاستبطاء والمعاتبة . فأما الأمر الذى حكاه وشكاه فقد طال منه تعجبى ، وكاد إنكارى يسابق تنكرى ، لولا أن الخبر طُوِى عنى ، ولم يُنْشَر لى ، وما حسبت الخفّة تستفز ذا سِنّ وترسّمٍ بالعلم لمثل ما وصفه الشيخ عمن تسرّع ، ولا أن حق الهيبة يُنْسَى حتى يقع هجوم من هجم ، وقد كان يجب أن يَزْدَع هذا الإنسان عن فعله أمورٌ : منها الاجتماع فى دار الإمارة وعندها يمتد ظل من الانقباض لا يتحول عنه أهل العقول إلا بالتحول عن ذلك المكان . ومنها أن إطلاق اللسان بحيث يحضره قاضى القضاة ، أدام الله عزه ، بما يدخل لفظه التكذيب ، إخلالٌ بقضية الوقار والتوقير . ومنها أن لكل أحد محلا فى نفسه ومكانه ، وعندواليه وسلطانه ، وقد شاهد الخلق العظيم كيف رُتْبَةُ الشيخ عندى ، وموقعه من نفسى . وأقدر أن المنازل عند السلطان يُسْتَدل عليها من

---

(١) فى الأصل : وأوفاها .

فعلى ، والمراتب تُؤخذ أوزانها عن مجلسى ، ولا أبعد أن يكون السامع قدّر الشيخ معرّضاً به ، وتعريض مثله أشد إيلاما من تصريح غيره ، فحمل نفسه على الخطر فى الانتصار ، وركب متن الغَرر فى الانتصاف ، كما يفعله من يسابق رأيُه رويَّتَه ، و بصره بصيرته .

والشيخ — أيده الله — شيخ أهل الرأى بهذه الكورة ، ومن له لدىّ عظيم القدر والخطر ، وأنا على جملة التعتب على المحكىّ عنه سوء التلفظ ، ولولا أنى لم أعرف جلية الحال إلا من هذا الكتاب ، لما اقتصرت على هذا القدر ، ولكن عَوْدِى يقرُب ، بمشيئة الله ولى الأمر ، فتكون زيادتى بقدر تحقق للحال ، لا لأن الشيخ مدفوع الخبَر ، لكن حكم الله أولى عند النظر ، أو يُوَفَّق المسيء للاعتذار ، والحليم للاغتفار ، فلا ينقبضِ الشيخ مما اتفق ، فهو المحروس المكان ، المخصوص بالتقديم والإعظام ، يتميز عندى عن كثير من الأكابر ، وخلقٍ عظيم من الأماثل .

وهذا ينسخ جميع ما تكلم به مسرف على نفسه ، أو معتدٍ لطوره ، وليُسِرّ مع هذا بخبره ، وعارض وطره .

٥ — وله جواب تنصل واعتذار من اجتياز هارب والتخلية بينه و بين المجاز

كتابى ، والأمور شرقا وغربا لمولينا : الملك السيد ، والأمير المؤيد ، منقادة ، والسعادة فى مصارف راياتهما وآرائهما معتادة ، وأنا بذلك موفور مسرور ، والحمد لله ولى النعم ، وسابغ المنن ، وصلى الله على النبى وآله وسلم .

ووصل كتاب سيدى فآنسنى الله بما سوغه من مواهبه ، وأحضره من صادق الرأى وصائبه ، وعلمت ما اتفق فى مجاز الهارب وسلوكه مغافصةً لتلك المذاهب ، وأن الحال وافقت تفرق الخيل عن سيدى ، لانصرافه عن البيجار[1] قريبا ، و إذنِه لمن خدم فى تلك الوجوه طويلا ، واستنفادِه مع ذلك الطاقة ، فيما أظهر به الإخلاص والطاعة .

وأوردت الجميع بحضرة مولانا أحسن إيراد ، واستعضت من الاستزادة فضل اعتداد ، ومعلوم أن الوقت لو فُسِح فى استثابة العسكر ، لبلغ سيدى فى المحل ماسار به الركبان ، وطنّ

---

(١) لعلها تعريب بيكار ومعناها بالفارسية : التبرع بالعمل .

بذكره البلدان . ومولانا من الثقة به على ما لا يتخلله امتراء ، ولا تعترضه شبهة يلتمس لها جلاء ، ومقامى فى حفظ الغيب ، وحراسة الاستنامة عن الريب ، المقـام الذى يغنى — إن شاء الله — علمه ببيانه وبرهانه عن اقتصاص شرحه ، والإفصاح عن لسانه .

٦ — ولـــه

كتابى والأمير المؤيد مختص من نعم الله بأجمعها لأطراف السعادة وأوساطها ، وشروط الإرادة وأشراطها ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى وآله أجمعين .

ووصل كتاب الأمير على عادة تشريفه لعبده ، وتنويهه بذكره وقدره ، فتلقاه بالدعاء الذى هو جهد مثله ، والشكر الذى رضيه الله من خلقه ، على عظيم مَنّه ، وانتهيت إلى ما حُكى عن مواقفه كذا ، وعرضته بحضرة مولانا ، فضاق له صدراً ، واشتغل فكراً ، إذ[١] لم يحسب أن مثله مما تسوّغ حكايته ، أو تصحّح روايته ، وهو زور مصنوع ، واختلاق موضوع ، وقد كانت الثقة مستحكمة بأن رياح المفسدين إلى ركود ، وجمراتهم إلى خمود ، وما حُسِب أن عواديهم تثمر ما سُمِـع ، وتنتج ما اخترع .

وقد قرأت ماصدر عن كذا من شرط ، ووعيت ما حكى من قول وعقد ، فلم ألحظ ولم أسمع مما ادّعى حرفا ، ولا عرفت من كلٍّ بعضا ؛ ولم يكن بحضرة الأمير واصلا ، ولبابه مكاتباً مراسلا ، فلاقبول بهذه الحضرة البهية له ولا إقبال عليه ، ولافكر فيه ولا إصغاء إليه .

وقد أنفذ فلان بغاية الاستبطاء والإنكار ، مع إحاطة العلم بما فى هذا الأمر من البهتان والبهت ، فقد حضر تلك المجامع من كان يكتب بالإيحاء واللمع ، والإيماء واللحظ ، فضلا عن مواقع الشرط ومساقط اللفظ .

والأمير يتحقق ما أنهاه عبده ، فهو — والله — القول الصحيح ، والحق الصريح ، وأنا أسأل الله أن ينزل حواضر نقماته ، على كل مستقل لهذه الألفة ، يُعْمِل لها المكايد ، وينصب المراصد ، وإن كانوا سيردّدون قريباً فى عثارهم ، ويُرَدَّوْنَ بين شفارهم[٢] وجفارهم ، ويحرس الله على موالينا أولياء النعم ، ترافدَ الأيدى واتفاقَ الـكلم .

---

(١) فى الأصل : إذا .

(٢) الشفار جمع شفرة : حد السيف ، وجانب النصل ، والجفار جمع جفرة وهى الـكنانة .

٧ — وله تنصل واعتذار

كتابى — أطال الله بقاء صاحب الجيش — يوم كذا ، وسعادة أيام مولانا جامعة من النعم أحسنها[١] ظهوراً ، وأحصنها وفوراً ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب صاحب الجيش ، مفتتحاً من ذكر صنع الله الجميل إليه ، بما بدأنى قبل ارتهانه لديه ، إذ كنت أجد المنائح إذا خيّمت بربعه ، مضافة إلى ماسوّغنى الله من فضله ، وقسم لى من مَنّه . وعرفت ما وصف صاحب الجيش به الأحوال التى أثّلها الله — تعالى — فى الجنبتين ، ونظم بها ذات البين ، وهى مقدورة بقدرها ، ومكنوفة بالمصالح التى لا وفاء بنشرها ، ومتصوَّرة فى أرفع مراقبها ، وأعلى محالها[٢] ومراتبها . ولولا أن الإسهاب فيما قد عُرِفَتْ مزيته ، وتُمُثّلت جليته ، فى رباط التعمل ، وحصار التصنع ، وبمعزل عن فضيلة التحقق ، وجديلة التخصص ، لا تسع نطاق القول كفاء عقيدة النفس ، ووثيقة الصدر .

وصاحب الجيش مُؤْثِر فى كل أمر ماهو إلى جمال هـذه الوُصَل أدعى ، ولحقوقِ فيها أرعى ، متعرّفٌ البركة فيما يُصْدر ويورد ، ويبتدئ ويجدد ، والله لا يُخْلِى من خلوص مودته ، ويحصّن مآثر الأيام باطالة مدته . وعرفت ما قاله صاحب الجيش فى معنى الضياع العتيبة[٣] بالرىّ ، معرفةً تقدمها إيثار الإيجاب على الرد ، وترجيح الإنجـاز على الوعد ، ولو ورد من تلك الحضرة البهية فى أضعافها ماورد ، لكان الإسعاف ملتزما ، وتقريب المراد مقدما . هذا إذا التُمِس لأفناء الأتباع ، ومغمورٍ من الأشـياع ، فكيف لمن يُكبّر قدره ويُفخّم ، ويُجَلُّ محله ويُعظَّم ، ويُرى توخّى محابه ، وتحرّى إيثاره فى آرائه .

وسأذكر لصاحب الجيش ماعيانه برهانه ، ووضوحه بيانه : إن جميع هذه الأملاك والضياع ، صائر فى أيدى الديلم بالإقطاع ، ولو أمكن حله فى الوقت لما أرجئ يوم إلى غد ، وقد صـدق الاهتمام الآن بفكه ، وإعادته للواجب بحق ملكه . ورسمت أن يناظر الواحد بعد الآخر فى قبول العوض ، والرضا بالبدل ، ليتسهّل فى مدة سنة أو سنتين فضُّ الجميع

---

(١) فى الأصل : أحسن .
(٢) فى الأصل : محلها .
(٣) العتيبة : قليلة الخير .

من حيث لا تخبث نفوس الجند ، ويتيسر المرام بإذن الله عن قُرْب . وقد حُمِّل فلان فى جواب الرسالة مايؤديه ، ويقوم بحق التخليص فيه . ولولا أن صاحب الجيش عارف بأن الملتَمَس لم يقصَد فيه المدافعة ، ولم تتوخَّ المراجعة ، وعالم بأخلاق الديلم ، وما يحتاج إليه مالكهم من التأتّى لحل أقطاعهم لانبسط القول فى الاعتذار من هـذه المهلة ، وإن كانت العِدَة ، فى ضمان الوفاء والثقة ، فإن رأى صاحب الجيش أن يتصور ذلك حق تصـوره ، ويخاطبنى بخبره ووطره ، فعل ، إن شاء الله .

٨ — ولــــه

التجرّم — ياسيدى وخليلى — دأبُ من ضاق عطنُه عن الأخلاق السمحة ، وتضاءل ودُّه عن الطباع العذبة ، فهودائباً يخلق لإخوانه جريرةً يصليهم نار عَتْبِها ، ويوليهم جانب عَذْلها ، والحرُّ كل الحر من لحظ أحوالهم بعين تجمع إلى النصفة التسمح ، وإلى المَعْدلة الترخّص ، وإن شاهد جميلا كثّر قليله ، وإن صادف تقصـيراً حسّن قبيحه ، وقد نزّهك الله عن أن تكون مِعَنًّا وعِرِّيضاً تنتهز الفرصة ، فما هذا التعدى الذى علقت أوثق أسبابه ، والتجنى الذى ولجت أضيق أبوابه ؟

وقد علم الناس كيف إيثارى إياك وإكبارى ، وعلمت كيفَ أباسطك فى خاصّ أحوالى وأسرارى ، حتى كأنا قضينا الشباب على تلاؤم ، وصالحنا الـكهولة عن تنادم ، ومتى كان الإعراض الذى أشرت إليه ، والانقباض الذى نصصت عليه ؟ ومن هذا الواشى الذى يطمع فى إحالة حالك ، ولو قعد من الدهر على رَصَد ، ونفث من السِّحْر فى العُقَد ، فـكيف حسبتنى ممن تستفزّه السعاة ، وتهزّه الوشاة ، إنك تستخف حلما ، لعل الأطواد الصمّ تشهد له بالرزانة ، والجبال الشمّ تبرأ إليه من الرصانة .

ولـكل ذى قلم جانب من البلاغة هو فيه أوسع عِناناً ، وأرحب جَناناً . وكنتَ فى العتب أفسـح مجالا ، وأملأ سِجَالا . وقد أردت أن أعاتبك عن عتبك فأطيل ، وأبدئْ القول وأعيد ، وأذكر مافى هذا الباب من المذام تضادّ محاسنك ، وتحادّ مناقبك ، ثم كففت وصـدفت ، واقتصرت وخففت ، نم وزعمت أنك قد أكثرت علىّ فسئمت ، وأطلت

فتبرمت ، ولو شئت لقلت : إنك أردت تهجينى ، فبدأت بنفسك ، وتبخيلى فتحاملت على فعلك ، إذ قد علم الناس خلاف ماحكيت ، ودروا أنى بمنآة مما ادعيت ؛ أوجب لمن ضمه إلىّ السبب الضعيف ما يوجب للأخ المشابك فى الأرومة ، المشارك فى الخؤولة والعمومة .

وإنى لا ألومك على الانقباض لوما يرينى فعلك لؤما ، ولبودّى لو كُلّفتُ مع كل صباح ، تنفسَ ، حاجاتٍ تعادّ الرمل ، وتناسب القطر . فهذا هذا والقصتان قد وقع فيهما بما رأيت ، وإن سألتَ فى الالتماس بأمرّ من العلقم ، وأضرّ من الأرقم . وكل ذلك تأتى به مقبول ، وعلى جانب الأنس محمول ، لاعدمتك .

٩ — وله

وصل كتابك ، وعرفت ما كتبت به فيما استقبحته ، وأثبتّ (١) من استبطاء قلته ، وأنت تعلم أن ذلك ليس مما فُعِل على تمكين وإيثار ، ولا بُدِئ فيه باستبداد واختيار ، ولكنك أشرت به مُلحِفا ، وأبدأت وأعدت بذكره مستسعفا ، وزعمت أنه جميل ، وموقعه لطيف ، وإلا فمولانا إذ أوجب أن يُتعهد مثل فلان ، درى كيف يفرى الفرىّ ، ويُجزل البر السنىّ .

وقد أنهيت ماورد منك فعجب مولانا من أوله إلى آخره ، وموارده ومصادره ، وقال : فلان بدأ بالمشورة ، وحكم بمقتضى الصورة ، وهو الآن يقول ويطيل ، ويبدئ ويعيد ، ولو خلت أولى سفراتك عنا وسفاراتك مما ينتج موجدة ، ويصرف محمدة لجاز ، ، فقد كان فلان على كبره ، وخطر سنه وفضله ، وبُعْد مسافة الذين استنجدوا من عنده ، روسل دفعتين ، فما جرى بعض هذا التخليط والتبكيت ، والله الكافى والمعين .

١٠ — وله

قد صار مولاى يظن بى الظنون ، عادلاً عن علمه بباطنى وظاهرى ، ويطيع فىّ الرِّيَب (٢) مع اختياره لشاهدى وغائبى ، وما كنت أحسبه — لو رآنى على حالٍ منافية

(١) فى الأصل : استبطاء .

(٢) فى الأصل : الرتب .

لموالاته — لا يكذّب حسه ، ولا يغالط نفسه ، رجوعا إلى فطرة أمرى فى مودته ، وبادئة حالى فى طاعته .

يظن مولاى — و بعض الظن إثم — أن كتابه يرد علىّ فأغفل إجابته ، وأهمل مخاطبته ، ثم لا يرضى ، وقد أطاع سلطان التهمة ، وكدَّر صفاء الثقة ، حتى يفصح بذلك ويصرح ، ويعقد الخنصر عليه ويحقد ، ويقول : لعل فلانا يميل إلى أن أخفف عنه ولا أُثقِل ، وأُغبَّ مكاتبته ولا أدمن .

هذا وقد علم الله أنى لا أرى أعطافى مهتزة ، والدنيا فى عينى غضة ، وأيام الشباب طلقة إلا إذا طلعت كتبه واردة ، ونعمه بها متجددة ، لاسيما إذا تفتحت فيها زهرات خطّه ، وأجْنَتْ بينها ثمــرات لفظه . ولو كنت أعقّ من ضبّ لما تركت استمداد الفائدة من مخاطباته ، ولا سمحت بانقطاع العائدة فى محاوراته ، ولـكن مولاى ربمــا انحطّ فى هوى التشكك ، وعلت عواديه على دواعى التحقق ، ووقع له أن الصديق ينزع مَعْرِضه بلا عِلة والولىّ يخلع ملبسه بلا شبهة ، ولو جاز على الحقائق الانقلاب لمـا اعترضت طاعتى لمولاى مِرْية ، ولا تبدَّلتْ لمشايعتى إياه صورة .

ولوعلمت أن كتابى تمتد إليه أيدى السبل ، وتتحكم فيه هنات الطرق ، لحملته بنفسى ، وأوصلته بيدى ، ومتى قلت لمولاى : إنى لم أحرَج صدراً ، ولم أعدم صبراً ، عند كتابه الذى خاطب به سيدى أبا محمد ، يجرحنى وكأنه يداوينى ، ويكْلِمُنِى وكأنه يأسونى ، فقد كذَبته عن نفسى وما صدقته ، وذلك لأنى إذا رددت طرفى وكررت لحظى كثيراً ، واستنهضت فكرى غائراً ومنجدا ، وصرَّفت خاطرى متهماً ومُشْئِماً[1] ، لم أر لى غير سيدى قبلة أقابلها بثقتى ، ووجهةً أصرِف إليها استنامتى ، وسنَداً متى أردت كان ولياً وعضداً ، ومتى شئت كان أخاً حدبا . والشأن فى أن الكتاب مفتتح لمهمّ سلطانىّ أردت شغل الفصول به وقصرها على ذكره ، ثم أبى الصدر إلا نَفثَة ، والسِّقاء إلا رَشْحَة .

(١) فى الأصل : ومشاما .

الباب الخامس عشر

فى الشفاعات

١

كتابى ، أيها القاضى ! — أطال الله بقاءك — أفردته بذكر أولاد أبى القاسم بن مقرن ، أيدهم الله ، وهم فى القرب والقُرْبَة ، والحظ والحظوة ، أولادى ، وصنائعى وتلادى ، ومن حقهم أن أخذوا الحق عنى[1] ، واستفادوا دلائله منى ، ومن اعتقد كاعتقادهم فليجتهد وليجاهد فى الدين كاجتهادهم وجهادهم . ثم قد حصل لهم مع الدين الستر الثخين ، والعقل الرصين ، وجدد أبو العلاء ، أيده الله عهداً ، وتجشم عن نفسه وشقيقه مشقة وقصدا ، فصار الحق ضعفا ، واستضاف مِثْلاً فمِثْلاً . وطرفاهم فى العدالة والسَّداد مُعْلَمان معلومان ، ولولا أن تفضيل الخلف عن السلف ، قد كرهه كثير من أهل الفضل والشرف ، لذكرتفاوت ما بينهما ، وبَيْن كثير ممن فرَط لهما .

والأقدمان فى السن أبو على [وأبو العلاء[2]] وسيتقدمان ، ما بينهما من الوقار ، مستجدُّ إزار ، وإن كان أبو الحسين زيد الثالث يجمع من فضائل الدين والدنيا ما ينشد معه فيه وفيهما :

من تَلْقَ منهم تقل لاقيتُ سيدهم ... مثلَ النجوم التى يَسْرِى بها السارى

هذا ما عرفتُ ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، فليكن إيجابك أيها القاضى — أيدك الله — كفاء إخبارى عنهما ، فسيزيد الاختبار من لفظهما على ما قدمت به ، والسلام .

٢ — وله عناية بذوى[3] الحرمات

وللوسائل اختلاف درجات ومنازل ، ومِن أَوْلاَهم بتحقق الحظْوَة ، وأجرئهم بتقدم

---

(١) فى الأصل : منى

(٢) زيادة يقتضيها السياق فى هذه الرسالة

(٣) فى الأصل : لذوى

الخُطوة ، مَنْ ورد أعذب شريعة ، بأوكد ذريعة . وتحمَّل فلان كتاب فلان إلى حضرة مولانا و إلىّ ، بما أظهر مواتّه وحرماته لدىّ ، فلما خيّرته فى نوازع الأمد ، ومضارب العمل ، كان أقصى مراده ، ومنتهى ارتياده ، أن أخاطب مولاى بذكره ، وأستكفى عنايته لاهتمام أمره .

هذا وله لديه ذمام البلدية ، إلى دواع يحكيها مَرْعِيَّة ، فليُوله مولاى من إقباله واشتماله ، ما يُظفره بأمانيه وآماله ، فلولا رجاؤه الذى لم ينزع إلا إلى أرجائه ، ولم يحوّم إلا على فنائه ، لكان فيما أورده منتجَعٌ بحضرتنا مَرِيع ، وظل من الإحسان ظليل . والله تعالى يحسن توفيق سيدى لما يطيب ذكره ، ويُعْرَف بِشْرُه ، بمنّه .

التوقيع فيـــه

إذا اجتمع إلى نباهة الوسيلة ، وجاهة الحرمات الوكيدة ، كان نيل الأرب فيه مستجيباً عن كثب ، فليَرْعَ مولاى لهذا الفتى حسْنَ ارتياده والتماسه ، وليهتمّ بتقديمه واختصاصه ، فقد رضى بعد تنجز الكتب من الحضرة بأن يكون ثمرةَ سَفَره ، وعائدةَ أمله ، ما خاطبت به سيدى فى معناه ، وحقيقٌ مثله بأن لا تخطئه مناه ، وسيدى — أدام الله عزه — مَلِيٌّ بخلافتى فى قضاء حقه ، و إنصافه من دهره .

٣ — وله تقريظ وعناية وإخبار عن شكر متحمِّل نعمة

أنا أحمد الله الكريم إذ أطلق الألسنة بمناقب مولاى تابعة للإجماع ، آمنة من النزاع ، حتى البعيدُ الدار منه ينشر ما ينشره الدانى الجوار .

وورد لأداء الفرض المكتوب من الحج فلان ، وهو من أعيان كتاب خراسان ، ومن أشاب نواصىَ الأيام فى مهمات ذلك الديوان ، فرأيت منه محاسن دراية وصيانة ، وديانة ورزانة ، وأدى التفاوض إلى ذكر من يضمه العصر من أفراد الصناعة وآحادها ، وأركانها وأعمادها ، فأعلمته أن ذلك حِضارٌ لسيدى سَبْقُه ، وفى يدى حقّه ، ولقلمى رقُّه ، وحسبتنى مُغْربا عليه ، مُبْدِعاً فيما أهْدِى إليه ، فإذا هومن رواة فضائل سيدى وحَمَلَةِ إحسانه ، والمنبثين

بمزية إيجابه وامتنانه ، وصار ما أخبَر به وعبَّر عنه نسباً أدناهُ إلىّ ، وأعزّه علىّ ، إذ الثناء بمادح سيدى دِينٌ أذب عن صحته ، وأوالى كلَّ مُجْلٍ عن صفحته .

وقد عرَّفت سيدى بعض ذلك فى خاص كتبى إليه ، وأحببت أن يرد فلان بسائره عليه . ومولاى أهدى لإتمام مِنةٍ تولى إنشاءها ، وأولى بإتباع الدلو رِشاءها .

٤ — ولـــه

جنابُ مولاى مثابةُ العلم ومحتمليه ، والفضل وأهليه ، فهم أين غابوا آبوا إليه ، وكيفما جوّلوا عوّلوا عليه . ومن اجتمع له إلى مزية درايته وأدبه أوليةُ شرفه ونسبه ، اهتدت بحضرته يدُه إلى أمله فلم تضلّ ، واستقرت قدمُه فى كنفه فلم تزلّ ، لازال ذاك كذلك .

وفلانٌ فضيلتُه وسيلتُه ، وشاهدُه رائده ، فهو واحد بنى أبيه فى العلم ، وفَرْدُ ذويه فى التحصيل والفهم ، حتى إذا قلت : لا أعرف فى الأشراف — أيدهم الله — بالعراق من يساويه فى المعرفة بل يدانيه ، قلت ما يلوح بيانه ، ويقوم برهانه . وليس ممن وقف لأحد من مغامسى الأعمال أيام الظَّلَمة بباب ، أوتعرف إليه بسبب من الأسباب ، بل اشتغل بتدريس أو دراسة ، وحجٍّ أو زيارة ، وانعقدت بينى وبينه أحوال ، لولا عزةُ الهاشمية لقلت : إنها تفوق اللُّحْمَة الواشجة ، والرَّحِمَ الدانية .

وكان خرج إلى طبرستان لمعيشة له بها من وَقْفٍ فأقام برهة ، ثم آثر الأوبة ، وقد كان استسلف عناية من مولانا الأمير بأصبهان بحضوره مجالسَ النظر بحضرته ، وكلامه لمن شرَع فى مكالمته ، ورَسْم مخاطبة الحضرة بذكره ، والإنباء عن الرعاية الصادقة لحقه . وعولت به على مولاى كما أعوّل بنفسى ، وكشفت عن صفحة ما أعرف من فضله ، وصحيفةِ ما أحمد من وده . وغرضُه من بين أغراض بنى جنسه أن يكون ملحوظا فى وطنه من الكوفة بإعزاز وتمييز ، وإكرام وتقديم ، ليظهر عليه أثرُ تخصّصه بالعلم الذى أثقب الله فى الدولة القاهرة ناره ، ورفع مناره ، فإن رأى مولاى أن يحتمل تطولى بتطوله ، ويُسبغ عليه وعلىّ ثوبَ تفضُّلِه[1] ، فعل ، إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل : تطوله

٥ — ولـــه

كتابى وأمور حضرة مولانا الأمير المؤيد مستقيمة ، ونعم الله علىّ فى خدمته الشريفة عظيمة ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين .

وقد عوّد الله ، وعز اسمه ، أن تكون المصالح أين سهلت سبلها ، والمحاسن أنى وضحت طرقها ، منسوبةً إلى أيام الملك السيد ، ليتصل الدعاء ما اتصل الليل والنهار ، ويدوم الثناء ما اختلف الظلم والأنوار ، والله يحرس دولته القاهرة من شوائب القدر ، ونوائب الغِيَر ، ويكنفها بالبقاء ما بقيت الأمكنة ، ونطقت الألسنة .

وكان اتفق على تجار أصبهان ، من القطع فى طريق خراسان ما انتشر خبره ، وساء على أكثرهم أثره ، وأنتهم البشرى بأن القُفص (١) الذين باشروا ذلك (٢) جُدّ من كرمان فى طلبهم ، وتيسر الاستيلاء عليهم والظفر بهم ، واقترنت النكاية فيهم ، بارتجاع مافى أيديهم ، وتصرفوا من الدعاء لمولانا فيما اللهُ ولىُّ استماعه والإجابة إليـه . وسألوا أن أخاطب مولاى شاكرا ، وراغباً فى الإنعام بإعادة بضائعهم إليهم ، بل التصدق بها عليهم ، فإن ذلك من أقرب أبواب القرَب ، وأدعاها إلى الثناء الحسن ، لا أن مولاى يحوج ملتمِس الخير عنده إلى شافع ، ولـكنهم عرفوا ماجمعنا الله عليه من الود البالغ ، وعودنى منه فى كل أمر سانح ، فمالوا مع الاستظهار ، وملت مع الاسترسال ، فإن رأى مولاى أن يأتى فى ذلك ما تحدوه عليه تلك الشِّيَمُ الطاهرة ، والمكارم الظاهرة ، ويخاطبنى بخبره وأمره ، فعل، إن شاء الله .

٦ — ولـــه

لولا ماأخذته على نفسى ، وقدمت فيه نَذْرى ، أن لا أمنع علويا عن مطلب يتسع له مالى ، أو يضطلع به جاهى ، لـكان ما التمسه أبو عبد الله الحسـين بن العباس الرندى ، أيده الله ، من مخاطبة مولاى الشريف ، أطال الله بقاءه ، [حريًا (٣)] أن أستذمّ

(١) القفص جماعة من الناس فى كرمان ينزلون جبلا بهذا الاسم ، وقد جاء ذكرهم فى شعر المتنبى يمدح عضـد الدولة فى أرجوزته اللامية إذ يقول : (لما أسار القفصَ أمس الخالى)

(٢) فى الأصل من ذلك

(٣) زيادة يقتضيها السياق

فيه بالمنع ، وأدفع فى صدر الإيجاب بيد العـذر ، فمكاتبة من لايكاتِب غميزةٌ فى العقل ، ونقيصة فى القدر ، لا سيما ممن عسى أن يقبض بنانه مكاتِباً ، بقدر ما يبسط راحته واهبا ، إلا إذا اتفقت مخاطبة مثله من الأعيان الأفراد ، والأركان الآحاد ، ولـكن لا بأس ، فإنه إن استمر على الخلق الوعر ، جعلت كتابى هذا بيضة العُقْر .

وبعد أو قبل فهذا الشريف حَسَنُ الهَدْىِ والسـتر ، جميل الطريقة والأمر ، منقطع إلى جانب العفاف والعلم ، وأراد المشهد[1] — صلوات الله على ساكنه ، ورحمته على زائره — وسأل أن أصحبه كتابى إلى الشريف سؤالا ، أفضى فيه الإلحاح ، إلى النجاح ، والإنجاف ، إلى الإسعاف . والشريف ولىّ ما يوليه ، كما يستحقه بنفسه وسادتِنا من أوَّليه ، إن شاء الله .

٧ — ولـــه

قد علم سيدى أن اهتمامى بما يخص أعماله ، ويُقرِّب آماله ، لايتميز عن اهتمامى بأمسّ ما أراعيه ، وأعمل الفكر فيه ، فلذلك أستجيز مخاطبته ، ومراسلته ، بما هو وإن ثقل بعض الثقل ، وزاد فى طائفة من الشـغل ، فهو أجمل مرجوعاً ، وأحسن مسموعاً . ومن خاص ذلك أمرُ أبى القاسم فهو صنيعة ذلك البيت وتليدُه ، ورضىُّ ذلك الجناب وعقيدُه . والعِثار قد يعرض ثم لايستمر ، والزلل قد يَعِنُّ ثم لا يستقر ، وكيف جرت حاله فقدفزع إلى ظلى ، واعتصم بحبلى ، واعتمد كلامى ، واستظهر باهتمامى .

وسيدى يغطِّى بهذه الذريعة على كل جريمة ، ويقدِّم هذه الوسيلة على كل عظيمة ، ويَـكْظِمِ الغيظ فهو أشبه بفضله ، ويستعمل الحلم فهو أليق بخلقه ، ويعيد أبا القاسم إلى كنف إيجابه ، ويحقق مسرح أمله ومسرى طِلابه ، فقد أنهضت فلانا متحمِّلا فى بابه ، مالا يُسْتَـكْثَر من سيدى بين شفاعتى وإيجابه ، فإن رأى أن يأتى فى ذلك ماهو المعهود من مذاهبه ، المأمول من ضرائبه ، ويخاطبنى بخبره وأمره آنَسَ ما أرقبه وأنتظره ، وأولى ما أقدِّمُه كما يؤثره ، فعل ، إن شاء الله .

---

(١) المشهد : مشهد الإمام على الرضا فى خراسان وهو الذى تسمى باسمه اليوم مدينة مشهد

٨ — ولـــه

كتابى — أطال الله بقاء الأمير مولاى — ومولانا مؤيد الدولة ، أعز الله رايتـه ، ونصر كلمته ، ممدودُ أَرْوِقَةِ الملك ، معمورُ أَفْنِيَةِ العزّ ، والحمدُ لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

والأمير بما أوتى من مناقب جمعت محاسنَ الآراء والحكم ، وفضائلَ السيف والقلم ، يتصور الأمور بصورها ، ويتخيل عواقبها من غُرَرها ، فيعلم أن مولانا يؤثر له ما هو فى الصيت أحسنُ وأجمل ، وفى التدبير أقومُ وأعدل ، وربما كان بعض ذلك مثقَّـلا بعض التثقيل ، ولـكنه أحزم عند التدبر والتحصيل .

وفلان الرجل نَبَّهَتْ تلك الدولة عليه ، وَجَذَبَ ذلك البيت بيديه ، فكان ، ما أقام ، حميدَ الأسماء ، رضيَّ الأنباء ، ثم عرض ما قد يتفق مثله ، فإذا حسن نظر الله وصنعه ، أخذ بالفضل من أعزّ نصره ، وأنفذ أمره . ولو لم يكن له بحضرة الأمير حق محفوظ ، ولا ذمام ملحوظ ، ولا سبقت خدمة تستعطف الحلم عليه ، وتستصرف الإغضاء إليه ، لكان التجاؤه إلى هذا الباب العظـيم ، والظل الظليل ، يمهد له عند الأمير حالا مستقبلة ، ومنزلة مؤثَّلة ، وجلّتْ هذه الوسيلة مواقع الاحترام ، وأوردت مشارع الإنعام .

وقد أخرج مولانا فلانا بذكره ، وحمّله رسائل فى أمره ، والأمير يصغى لها إصغاء مثله ، ممن المحاسن فى حصنه ، والمحامد بين قوله وفعله ، ويراجع أكرم خواطره فى معناه ، وأجمل ما يستصيبه ويراه ، إن شاء الله

٩ — ولـــه

وصل كتابُ الشريف ، فكان هلالَ عام ، وزَوْرَ إنعام ، وعهدى بمخاطباته تفوت القَدْر ، وتكاثر القطر . على أن الثقة بوده تدفع فى صَدْر العتب ، وتوجب حمل التقصير على كاهل العُذر ، وإن كان الأسف على بعده سميرا لا يُحْمَد ، وسـميرا لا يَخْمَد ، وقد يعتب الزمان ويرعوى الدهر ، والأمرُ يحدث بعده الأمر .

وأما فلان فقد أنشئ له أمان ، لا يُحذَر معه الزمان ، وسيناله من عواطف الجميل ، وعوارف النظر الحميد ، ما يتجاوز أمله ، ويسبق ما طَلَب وطُلِب له ، وكيف يجوز أن يحظى بغير الإحسان والحسنى ، وقد خفته من الأمير ملاحظة أسكنته حرماً لا يُراع ، ونالته من فلان محافظة أوطنته كنفاً لا يضاع . والشريف شفيعه ، وهو المشفع الذى لا يُدْفع ، والمتبَع الذى لا يُمْنَع . إلا أن الشريف يأمره بسرعة الانصراف فى إبطائه ، ما يبعث جراءة أكفائه . وفلان نم الوافد ، والرائد ، وألفيته حسن الفهم ، جيد الوعى لما يطرقه من العلم ، ولن يَرِد عن فلق الصبح ، إلا من اكتسب من ضياء الشمس . والشريف ولىُّ مخاطبتى بخبره ، ووطره ، إن شاء الله .

١٠ — وله

الدول — أطال الله بقاء الأمير — منائحُ يداولها الله تعالى بين الناس ، إلا أن فى أربابها من يجمع به أَمَنَة العام إلى سعادة الخاص ، وذلك بفضلٍ يؤتَوْنه من العلم والتمييز ، يستحلى ثمراتِه أهلُ الشرف الأصيل والفهم الصحيح . وذلك مشهور يُرافِد العيانُ فيه منقولَ الخبر ، ويعاضد المشاهدةَ عليه مأثورُ السير ، والأميرُ من الأفراد الآحاد ، الذين خلصت لهم الفضائل ، فسعِد بهم الأفاضل .

والشريف الحسينى أبو الحسن على بن محمد ، أيده الله ، ممن أشهد له شهادة قاطعة ، جامعة ، على تمنيه أيام الأمير حتى لولا طلوع شمسها لما عاود تلك النواحى ولا طَرَقها ، ولا راجع دارَه بها ولا سكنَها ، إلا أن الله حقق مناه ، وأراه قصارى ما كان مبتغاه ، فاغتنمَ الخروج لأمور ثلاثة : أولها كرم الأمير ، فهو المفزع والمُنْتَجَعُ ، والربيع والمُرْتَبَعُ . وثانيها أنه يختص بى الاختصاص الذى لولا حلوله من بيت النبوة ذروةَ النسب ، ومن مقر الوصية يفاعَ الشرف ، : لقلت : إنه الولادة أو ألصق ، والأخوّة أو أقرب . وثالثها أن من ناهض أملا ، وقدّم فى الرجاء سلفا ، نازعته نفسه إلى أن يشاهد موقع تأميله ، محفوفا بإنجاز الله وتحقيقه ، فإن يكن الأمير مشفعًا لى كتابا ، وعاجلا للإنجاز جوابا ، فهذا . والأمير مولاى يوليه ، ويوليني فيه ما أعُدّه فى بيض أياديه ، ويصرّفنى على أمره ونهيه .

١١ — وله تنصح وتشفع

أطال الله بقاء مولانا الأمير، سابغَ العز، ساطعَ مطالع الملك، والحمدُ لله، وصلواته على النبي وآله .

وقد تصور لاريب أن مولانا ، أعز الله كلمته ، يؤثر فى الأمور التى تخص تلك الأعمال ماهو للأمير أوفق، و برضاه أوقع، و إلى مباغيه أقرب، ولذلك رسم لى أن أخاطب بذكر فلان ، إذ تركُ أمره سُدًى مما لعل الرأى لايسوّغه، ومغادرةُ المتصلين به فى جانب الخلاف مما الحزم لايُرخِّصه . و إذا استخلص الجماعة لخدمته ، واستفاءها إلى طاعته ، و وفقها لأمره ونهيه ، واستضاف مافى أيديها من المعاقل إلى يده ، من دون أثقالٍ تتجشَّم ، وأعباء تتكلَّف ، وأيام تتدافع ، وآجال تتطاول ، كان ذلك أوْلَى فيما يتجلّى لنا من الرأى ويَبين ، و إن جاز أن يكون هناك ما يَغمُض عنا ويغيب .

وكان فلان يلتمس فى معنى فلان ضروبا فيها سَرَفٌ وشَطَطٌ ، فدُفع عنها ، ومُنِع بصريح القول منها ، وأُعلِمَ أن الكلام[1] فى بابه لا يقع بعد الأحوال التى وكّد الله مبانيها ، وثبت رواسيها ، إلا من طريق الشفاعة له ، و بعد أن يُخلِص فى موالاة الأمير نيته وعقده ، فلما تجلّت له الصورة ، وتمثّل قدر المعونة ، وعلم كيف يجب أن يلتمس ، وأقلع عن أن يقترح[2] ويحتكم ، أمرنى أن أخاطب الأمير بأن فلانا و إن زلّت به القدم ، فله فى ذلك البيت الخدمة والرحم ، وهو الرجل الذى كان الماضى رفعه ، واصطنعه ، ونوّه به ، ونبّه عليه . و إنما تُسْلَف الذمم ، وتقدّم العِصَم ، لتنفع عند زلة تتفق ، وتنقذ عند هفوة تتجه ، ولولا هذه الحال لما عُرِف كيف تغلب الوسائل على الجرائر ، وتقدّم الذرائع على الجرائم ، ولا أُثرت قضايا الصفح ، ولا عُلمت مزايا العفو .

وقد أبى الله إلا سَوْقَ الأمر إلى من أُوتيه بحق ، وأُعطيه بفضل ، فمن فرضِ إحسان الله أن يُتَعَمّد المسيء بالإقالة ، ويُتغَمّد جرمه بقبول الإنابة ، ويُؤْثَر من كرم الظفر ما هو أليق بآداب المجد والشرف . وعسى أن يكون الصواب فى أن يُستَعاد آمنا على نفسه والمتصلين

---

(١) فى الأصل : ما فى   (٢) فى الأصل : يعترح

به ، ويُجْرَى فى حسن النظر والطُّعمة على رسمـه ، ويمكّن من الانفراد بحضانة فلان ، ويُجْرَى ما يسمىّ له على يده ليوفىَ الأمر فرضَ التعبد ، ويبذل المهجة فى ضروب التقرب ، ويقود الذين فى حصنى كذا وكذا إلى تسليمهما ، والنزول عنهما .

وهذا أمرٌ الأميرُ مولاى أعرفُ بمضاره ومنافعه ، ومصالحه ومفاسده ، فإن استوفقه أنم بتعريفى إياه ، لأتوسطه وأتولاه ، فإنه يجمع قضاء ذمام من شبّ فى خدمة سلفه وشاب ، ودرج فى تحمل البيجار[1] لهم إلى أن شاخ ، وهو مع تظاهر الحرمة مستظهر بآصرة اللحمة ، واستصفاء بقية تلك القلاع مع عظم قدرها ، وفخامة ذكرها ، وإزالة شغل القلب بهـا ، إذ الأمر إذا أمكن قوده إلى المراد من طريق مُكْثِبة[2] ، ومنازِل مُصْحِبة[3] ، فلا وجه لتحمل الـكلف ، ومدافعة المدد ، وترك النظر فى العواقب والعُقَب .

وهذه الأحوال إذا رآها الأمير مولاى وأمضاها جمع إلى ما اقتصته الاستمدادَ من اعتداد مولانا ، فيمن استجار بالـكرم الذى لا يضاع آمله ، والحرَم الذى لا يُراع نازله ، وقد خاطبت فلانا بما يذكره ، والأمير يتدبّره ويدبّره ، فإن رأى أن يتفضل ، ويتمثل ما قلته فى معرض ما يراد الحظّ فيه لأعماله ، واجتماع كافتنا فى صفقة اختياره ، وَنَظْمُ الـكلم من أهلها على طاعته ، والإصفاق على مناصحته ، فعل ، إن شاء الله وحده .

---

(١) التبرع بالعمل

(٢) فى الأصل : مكثب

(٣) فى الأصل : مصحب

الباب السادس عشر

فى توصية العمال بتجلب المال وإظهار العفاف وحسن السياسة

١ — كتاب ضر ونفع

كتابى ، ونِعَمُ الله بالحضرة العالية متوالية ، والكلمة بحمدالله عالية ، والحمدلله وصلواته على نبيه محمد وآله .

ورسم مولانا الملك أن يُعَرِّف انتقال معاملة (ماه الكوفة[1]) إلى ديوان مؤيد الدولة ، وإنى استوهبتك لتباشر من مهمىّ ما أعتمد له قيامك ، وأرضى فيه منابك ، وأُخْرِجتْ إلىّ بواقٍ من الديوان المعمور اعتُدَّ بها على وكيل مولانا . ويجب أن تباشر العمل مباشرة مثلك ، وتقيم فيه غاية جدك ، وتستنفد نهاية طَوْقك ووسعك ، وتجعل من أول كَدْحك وهمك أمر العمارات ، والزراعات ، فأيامها قد ضاقت أو فاتت أو كادت ، وترفِّه الأكَرة ليقبلوا على تمكينِ تلافى الحالَ به ، واستحفاظَ ارتفاع سنة سبعين معه . وقد بلغنى أن عنتا يلحقهم ، ولا عذر الآن بعد نفوذ الخطاب العالى بانتقال المعاملة ، وتضمُّنِ العمل بالبقايا ما تَضَمَّن إيجابُها للوكيل .

وهذه البقايا عليك حراستها وتحصيلها ، وما احتجت من ذلك فيه إلى مزيد استئمار ، فإنه إلى الشيخ مولاى ، فإنّه — أدام الله عزه — رَسَمَ تقرير هذه البقايا وجمعها للوكيل ، وناب فيها عن مولانا مناب المخلص الخصيص . وأنا أنتظر ما تأتيه ، وتزكّى شهادتى فيه ، فقد كتبت إلى حضرة مولانا بوصفك ، وذكرت سابق حقك ، وقلت : إنى أستوهبك لما عرفته من سَدادك ، وحسن قيامك بما يُفوَّض إلى منابك .

وفلان يزيدك توقيفا وتعريفا ، فقد فاوضته ما علمت أن الشفاه فيه أبلغ وأنجع . وأشِعْ مع ذلك فى الرعية ، حرسها الله ، ماخرج به الأمر العالى ، أنفذهالله ، وعِدْهم عن كرم

---

(١) اسم آخر للدينور ومر سبب تسميتها بذلك فى ص ٦١ .

مولانا مؤيد الدولة بالإحسان والإنعام ، والعدل والفضل ، وعنى بما يضاهى هذه السيرة الشريفة ، وتقتضيه أمثلة الدولة السعيدة ، وابلُغْ فى تألف الأكرة والمزارعين ، واستعادة الشاردين ، ما هو قوامُ الصلاح ، ونظام السداد ، وواترْ كتبك إلىّ ، على نسق الأيام ، وقد أمرت أن يُنْسَخَ لك — آخر كتابى — الفصلُ من الحساب المتسلَّم من الديوان المعمور ، بذكر البقايا المختصة بعملك ، لتعرف ما يلزمك فى ذلك .

٢ — ولـــه

ورد من مولاى أبى فلان بذكر عمّال الأرصاد ما كان تطلعى وقفاً فى سبله ، وفكرى موكّلا به ، فلم يقنعنى ما أتاه ، ولم يكفنى ما كفاه . فإن ذلك الكويتب دامت أيامه فى العمل ، وطالت به نوازع الأمل ، وغرّه لين العاملة ، وأمِنَ خشونة المقابلة ، واستعان بكل متبرم بيمينه ، مخاطر بوتينه ، لا ينزع عن ذميم سجيته . وسبيلُ سيدى أن يتجرد للجماعة بنفسه ، ويستكشف أحوالها بجدّه ، ويسمح لخصومها فى المقال ، ويُصْغِى [إلى[1]] ما يُرْفَع عليها من يمين وشمال ، ثم يجمع لجناتها بين التغريم ، والتنكيل والتقويم ، حتى يسمع الأباعد عنهم تضاغيهم ، والسياط تمشق فى ظهورهم ، وتخط على جنوبهم ، وترسب فى مفاصلهم ، وتختضب بالعبيط من جوارحهم .

والرصد ليس بذى أصل تُرَد إليه رفوعه ، ولا ارتفاعه بما تُنَبِّهُ عليه نقائصه وخصومه[2] وإنما هو نُفْضَة أوقات ، وفرص لمحات ، فإذا لم تكن على الأيدى أغلال مخافة ، وحدائد مهابة ، فالمال نُهَب ارتفاق ، وعُرَض إنفاق ، إذ هذه الطائفة عبيد أيامها ، ومبذّرة حطامها فى وجوه آثامها ، وإن لم تراع أحوالها طراد الساعات ، نُظِر من الارتفاع فى أعقاب نجوم غائرات .

٣ — ولـــه

كتابى ومولانا الأمير كما يؤثره علاء نجم ، ومضاء حكم ، وأنا سالم فى ظل إنعامه ، وغانم بشرف استخدامه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق (٢) خصوم هنا جمع خصم : وهو ما يخصم

ووصل كتابك تذكر ما تيسّر لك من نظم مال الحَمْل وإصداره، والبلوغ فى الاجتهاد إلى أبعد آماده، وتوفرك على ترويج ما خصّ ومسّ من التسبيب، وتشكو معاملة بنى حامد وما يتصرفون فيه من ذميم المذاهب، وفهمته. وقد كان سيدى أبو العباس[1] أنهى حسن تصرفك، وحميد تحققك، وفضل جدك، وتصيير التقرب كل وَكْدك، فاستمد لك من الإحماد أوفر الحظوظ والأقسام، ومن الرضا أكمل السهام والأقساط. وأنت — أيدك الله — أوجه أمثالك محلا، وأوجبهم حقاً، وأكرمهم تحمداً، وأشدهم بى تحققاً، وحرماتك تقتضى لك من الرعاية أمدّها ظلا، وأردّها فضلا. وإن وسائلك لتخاطبنى دائباً مستمِدّة إيجابا، ومستجدة إطلابا، فتصور هذه الحال مثابراً على عمارتها بالانكماش على ما عمر الناحية واستدرّ الأموال، وبسط العدل فى الرعايا، وحسم أطماع المتصرفين.

وفلان قد كتبت بتقديم موافقته، وإنفاذ ما يتقرر من محاسبته، وعذرك فى التأخر عن أصبهان مقبول، ولمثل ما اعتذرت به أعفيتُك من ورود الحضرة العالية فى عاجل الحال، وإن كنت سأستقدمك للزيادة فى الرفع منك، والتنويه بك، بمشيئة الله.

وفلان قد عرفت مكانه لدىّ، وقرب محله إلىّ، وإنى أعدّه فى مشايخ أهل ودّى، وأقدّمه على أكثر من يتحقق بى، وقد عادنا، فاعرف له قدره، وفخّم أمره، وتوخّ محابّه وتحرّ مسارّه، وأجلّ منزلته عن أن تقع معارضة أو تحكّم فيما يقضى به ويراه، وأجْرِ أمر مشاهرته فى الإطلاق والإسلاف على ما يقترح، وكما يلتمس، فإنك لا تكاد تتحمد إلىّ فيما يخصنى بما هو أوقع من هذا وأحمد، وعرّفه ما خاطبتك به، بل اعرضه عليه بفصّه، واعلم أنى لو على قدر الاهتمام أطلت الكتاب، لنظمته قدر المسافة.

وأما فلان فداؤه معك داء الحاسد، وما أبْعَدَ دواءه، وأعْسَرَ شفاءه، وسبيلك أن تستوفى الحق قِبَلَه من غير إعنات ولا إرهاق، وتترك مايفعله أصاغر الناس من استجازة الظلم للتشفى، فى العدل مقنع، بل فى أقل منه متسع، وما أمكن أن تترك الضياع فى يده ويد ولده، فلا تقبض عليها، ولكن بعد أن يصح الواجبُ عنها. ومولانا إنما يَحْظُر فى بابه الاعتداء، فأما استيفاء حقوق بيت المال فلا عتبَ فيه عليك، والتسويغُ فلا وجه للتنكّد دون إجرائه، إن شاء الله.

---

(١) لعله أبو العباس الضبى.

٤— وله إلى عامل ناحية

كتابى ومولانا الأمير المؤيد فيما يُعْلِى الله من جَدّه ، ويرفع من يده ، على ما يؤثره ، ونحمد الله عليه ونشكره ، وأنا معافًى بدولته ، راغبٌ فى الصلاة على النبى محمد وعِتْرَته .

ووصل كتابك بذكر ورودك الناحية وما شاهدته من اضطراب أحوالها ، وتناهى اختلالها ، وامتداد الأيدى والأطماع إلى ارتفاعها ، ووقوع التقصير فى تنفيق غلاتها ، إلى سائر ما لخصته ، وشرحته ، واقتصصته ، ووصلته بإنهاء الصورة ، وتقديم المشورة ، وفهمته .

وقد كان ذلك الرجل — عفا الله عنا وعنه — اعتلَّ ، فى مبدأ وروده الناحية واختلَّ ، ورب أمرٍ قَدَّرَه أحوطَ وأعود ، لم يكن أوفق ولا أرفق . وإنما تظهر كفاءة الكفاة ، وجزالة العمال والولاة ، إذا أصلحوا الفاسد ، وثقفوا المائد ، وتلافوا الفارط ، وتداركوا الفائت . ولهذا أزعجتك من يَزْد[1] مع حاجتى إلى مقامك بها ، ولزومك لها ، غير أنى قدمت أخص الأمرين ، وأمَسَّ المهمين ، وسبيلك أن تفرغ الطاقة ، مستنفداً لجدك ، ومستنزفا لوسعك ، فقد مثَلْتُ بحضرة مولانا من أمر العمل ، ما تخلَّله من الخلَل ، فليس يلزمك عُهْدَةُ ما لا تطيقه ، ولا يعود عليك دَرْكُ ما لا تستطيعه .

والصواب أن تعتنق الأمر اعتناق من لا يُعَوِّل فيه على الإحالة ، ولا يركن إلى الحجج الشاذة ، ولا يقول : سأباشر راضياً بعفوه ، وآخذاً لصَفْوه ، فما اتجه من أثر حسن كان جماله لى ، وما دخل من وهَنٍ وتقصير كان عاره على المتولى قبلى — فليس لهذا أرِدْتَ ولا بهذه الشريطة اعتُمِدت ، ولم أورد ذلك والظِّنَّةُ متوجهة إليك ، وحسنُ الظن منصرف عنك ، بل لأن الهزَّ والتحريك ، ربما كانا[2] خيراً للمخاطب من المدح والتقريظ ، ولست أدع بعث أكثر أصحاب التسبيبات ، على قبض صَدْرٍ من الغلات ، بعد أن لا يُتَجَاوَز فى السعر القانونُ القائم ، فَرُضْهُمْ على هذا قاصداً ما يستتب به الأمر ، ويزول معه الشغل ، ومن كان من المتولين قد تخطى طريق الأمانة والصحة ، إلى الخيانة وسوء الثقة ، فلا تدع

(١) مدينة كبيرة فى وسط إيران إلى الجنوب ، وهى حاضرة ولاية يزد .

(٢) فى الأصل : كان .

المبالغـة فى استكشاف أمره ، حتى إذا وضح ما ظُنَّ به بالغتَ فى الإنكار عليه ، والتنكيل به ، على قدر ذنبه ، ومقتضى جرمه ، وطالعتنى بجليّةِ فعله .

وجملةٌ من القول : إن عصام بن أحمد إن كان قصُر أو قصَّر فما سرق ولا تحيّف ، ولا تولى زراعة ما استثمره عند هذا الدَّخْل . والبلدُ بارتفاعه ومتصرّفيه موكولٌ إليك ، معوّل فيه عليك ، والقدرُ الذى يقع من التفاوت بين تقديم الكيول وتأخيرها ، وتنفيق الغلات وترتيبها معروفٌ . ولهـذا الفَصْل الواحد وُلِّيت واستُكفيت ، فأَعْطِ النصيحة حقها ، ووفِّر عليها حظها ، وهب ليلك ونهارك ، واشغَل أوقاتك وساعاتك بهـا ، وعرفنى ما تأتيه وقتا وقتـا ، وتدبره أمرا أمرا . وقـد كفانى ما أخبرتنى به فى اختلال الأمور ، واضطراب الشئون ، فاجعل آنف ما تخاطب به بذكر ما تستصلحه وتستدركه ، وتتلافاه وتنظّمه ، إن شاء الله العزيز .

٥ — ولـــــه

فى نفسى أن أخاطبك منذ زمان بخطّى ، فلم يتفق ذلك لتراكم عملى وشغلى ، فالصورة متغيرة عما عهدت ، والحال بخلاف ما شهدت ، لأن مولانا ألبسنى أثوابا من التشريف والاعتماد ، والإيثار والإحماد ، زائدةً على ما تطوقته عند حضورك من إكرامه ، وقسم لى من فوائد إنعامه ، فلا يكاد يتفق أمر ، أو يعرض نفع وضر ، إلا آثر أن أباشره(١) بنفسى ، وأفصّله فى مجلسى ، والله يحفظ علىّ ظلّه ، ويديم لى رأيَه ، ويقيمنى بحقوق خدمته ، ويعيننى على شكر نعمته .

وقد أكثر السـعاة بذكرك ، وأقاموا الأسواق فى أمرك ، وجرى فلان على عادته فى تشقيق الكتب ، وبثّ الفيوج والرسل ، ومتى رأى فخامة ألفاظهم وضخامة أدراجهم(٢) ، ربما قدر وراءها تحصيلا ، وظن بعدها خيرا كثيرا — وعرفوا ما أراه بك ، وأوجبه لك ، فخرجوا على جميع ما خاطبوا ، فى إخفاء مخاطباتهم عنى ، وطيِّها دونى ، وطريقها ، كيف دارت ، علىّ ، ومصـبُّها ، أين جرت ، إلىّ ، وقد نُبِذَت فى وجوههم ، ورُدَّت فى

(١) فى الأصل : أباشر .
(٢) جمع درج : ورق للكتابة .

صدورهم ، وأُنشِبَت فى حلوقهم ، وكُسِرت فى نحورهم .

وعرف مولانا ولى النعم أنهم يميلون على جانب السعاية ، ويعتلقون أزمّة الوشاية ، فلم يرفع بما حكى عنهم طرْفا ، ولم يشغل بما ورد منهم سمعا .

ولعلهم حضروا هناك فلانا فشغلوا قلبه ، وأوقروا أذنه ، حتى خاطب بعضَ الناس برقعة خائف وجلٍ مما ألقى إليه ، مرعوبٍ حذرٍ مما زُخْرف لديه . وأجبناه بما أراه صورة القوم واضحة ، وأدلّة على طرائقهم لائحة . وعلىّ — ياسيدى — حفظ غيبك ما أمددتنى بنصح لهذا الملك تؤثره ، وجميل تُوَثِّره ، وعدل تبسطه ، ومكان تَعْمُرُه ، فلا يقدحنّ فى نفسك ما تأتيه هذه الفرقة ، ولا يثلمنّ فى صدرك ما تجنيه هذه العصبة ، فَسَعْيُها باطل ، وكيدها خامل . ولا وجه أيضاً لأن تُظْهِر هذا ، فتجعل لما ارتكضوا فيه وزنا ، أو توهم أنه مما يشغل فكراً ، وداوِ أمرك بدوائه ، وعالج عملك بعلاجه ، واشتغل بالتقرب إلى مولانا ولى النعمة وقد رفعك ، وأنبتك واصطنعك .

وإذا وصل الحَمْلُ الذى أريد أن يكون الهمُّ أجمع موهوبا له ، ومقصوراً عليه ، ومشغولا به ، وجاريا معه ، فقد توصلت إلى الزيادة فى الدعاء لك تقوية لمُنَّتِك ، وإضعافا لحسَدَتك .

وقد شافهت فلانا بما لم يجز أن أسطّره ، ولم يصلح أن أضمّنه ما أُصدره . ومحل فلان من مولانا لطيف ، ومكانه من رأيه — أعلاه الله — قريب ، فهو متجاوز رتبة الحجاب إلى منزلة النُّدَماء والسُّمّار . وسبيل تسبيبه أن يكون مروّجا ، وماله أن يكون مقدّما ، ولا بأس إن كاتبته وباسطته ، فلِما يخلفك به من منابٍ جميل موقعٌ أحبه لك وأوثره فيك ، وتكتب لأرباب النظر أجمع بما أنفذته مع فلان ، فليديموا الدعاء لهذا الأمير عن حسن رعايته ، لكافة رعيته ، والسلام .

٦ — وله

وصل كتابك وعرفنا ما ذكرته فى الأبواب أجمع ، واستدللنا منه ومن سائر ما ورد

على رضاك من نفسك بالتجوُّز ومن المعاملين بالتحكُّم. وليس لهذا نصبناك، أو بهذا أمرناك، تذكر مرة أن المقاطعين يمتنعون من التزام العَبْر[1] ويطمعون فى واقع نظر، وتزعم تارة أن القُبَّاض الثقات لايوجدون بقاسان، وتلتمس إخراجهم من أصبهان، وتُنْهِى إلينا أن أهل راوند[2] يتكرّهون خروج غلام إليهم وولايته، لجارى العادة عليهم، وتحكى عنهم مايقتضى التأديب، ويَستدعى التقويم.

وقد استظهرنا هذا الخطاب فيما أنكرنا، ففارِقْ طريقة التوانى والمقاربة، واعدِلْ عن سمت التضجيع والمراقبة، وخذ نفسك باستيفاء الحقوق وإجبائها عن آخرها، واجتمع مع أبى منصور على تهذيب الأمور وتثقيفها، ومن كانت عليه مقاطعة، فى السنة الماضية، فهى الآن له أوجب، وألزم، فلا تَحُلّ عن أحد معقودا، وطالبه بمال الضمان موفورا. وأما القبض فألزم كلا من وجوه البلد وثقات الناحية وتُنَّاء[3] الصُّقْع تولى طائفة منه، فإن كره أحدهم القيام بذلك، فليُقِم صاحباً له، مسكوناً عنده، يلتزم عهدته، ويودع خطّه الديوان بدرك مايصير فى قبضته.

وأما أهل راوند فخذهم مما أجرَوا إليه، وازجرهم عن معاودة ما اجترأوا عليه، فليس للرعية أن تختار العزل والتولية، وأما الغلمان والفرسان المقيمون هناك للحماية، فأزِحْ عللهم فى المشاهرة والجراية، وأنفذ دَرْجَ كتابك عريضةً بأساميهم وأصناف المقرر لهم، والاستقبال الذى أزحْتَ عنه فى معاملة سنة ثمان عِلَلَهُمْ بمشيئة الله. وتشدّد فى أمر الغلات، وأخْطِر نقلها إلى الحَوْمَة، على جارى الرسم فى كل سنة.

ومتى انتهيت إلى باب، وقبضك عائقٌ عن إتيان الواجب منه، فاذكره لأبى الوفاء وأبى منصور، فما عندهما انقباض لأمر، ولا اعتصام بعذر، واعمل على أن تَغْنَى عن الهزّ والبعث، والتحريك والحث، بما تستأنفه من جد واستنفاد للوسع، فإنا — مع استحقار الأرض بما تنظم — نحاسب على النقير، ونعاقب على القِطْمِير، فرأيك.

---

(١) العبر : وزن الدراهم والدنانير.

(٢) بليدة قرب قاسان وأصبهان.

(٣) تناء جمع تانئ : الدهقان.

٧ — وله

كتابى ، ياسيدى ! ، والأمور بهذه الحضرة — أدام الله بهجتها — على غاية الاستقامة ، والحمد لله ، وأنا معافًى بدولة مولانا الأمير مؤيد الدولة ، والشكر لله .

وقد كتبت إليك — يامولاى — كتابا [ما[1]] تمكنت من إشباعه ، ولا قدرت على استيفاء أبوابه ، شُغُلاً منى بمهمات ، وقَّرنى مولانا عليها ، واعتمدنى لها . وورد كتابك فحسبته خلص إلىّ من أثناء النجوم ، توقعا لما تحمله من ذكر المال واجتماعه ، والوقت المقدر لإصداره ، فيزول عَتْبُ مولانا عنك ، وتحول استزادته إحمادا لك ، فَأَخْلَفَ ظنى ، وأخطأ تقديرى . وعلامُ الغيوب يشهد بما يتزاحم على قلبى من أصناف الانزعاج متى رأيته — أدام الله تمكينه — مستبطئا لك ، مستقصراً لفعلك ، بعد الرّضا التامّ ، والمحمدة الشديدة ، والتقريظ الجم ، والأوصاف البليغة . وقد — يشهد الله — نُبْتُ ما أمكن ، وقتُ بالعذر ما اتجه ، ثم تراخى أمر المال فى أضيق وقت ، ومع أمسّ حاجة ، حتى رأيت ما أورده فى الاحتجاج عنك يكاد يولّد علىّ ضجرا ، فأُمْسكتُ ، وتركت الكلام لوقته وصمت . وأرجو أن ييسر الله — بلطفه — حمدا وافرا كثيرا ، يقع موقعا لطيفا ، ويسد مسدًّا عظيما ، فيبسط من لسانى ما انقبض ، ويُطْلِع من استرسالى ما عزب . وبالأمس أُخْرِج محمد خليفة الحاجب — أيده الله — إلى مستقرك يا مولاى ! بكتاب أطلته ، واختصرته بالإضافة إلى ما رَسَمَ ، وبسطته وإن حذفت بعض ما مثّل .

وأنت — يا مولاى — أحزم وأعرف من أن تبصَّر مواضع الرشد ، وتُدَلّ على سَواء القصد ، فناشدتك — ياسيدى — أن تبيض[2] وجوه إخوانك ، وأهل ودك ، بحميد صنعك ، وجميل رِفْدِك ، فإن الأمر إن تراخى يسيراً أو تدفّع قليلا ، أُخرج أبو الوفاء الحاجب على المجازات ، مستدعيا للمال ومقتضيا ، ووطأته تثقل ، ومئونته تعظم ، والقالة تقبح ، والصديق يجزع ، والحاسد يشمت . وما يبعثنى على هذه الإطالة إلا الضنُّ بمحلك ، والمنافسةُ فى ودك ، والحرصُ على بقاء موقعك ، من ولىّ نعمتنا ونعمتك ، ومالك مُهَجنا ومُهْجَتك .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) فى الأصل : إن لم تبيض .

وأَرْجِعُ لغير هذا ، قد عرَّفت مولانا مودَع كتاب فلان إليك ، و بطلانَ ما أحال به عليك ، وقررت الصورة فى توفير المصروف إلى الفيوج على تمام ووفور . وأحمد الغلامُ أنتظره ، وأنت — يا مولاى ! — لا تؤخره ، فربما اتفقت نهضة ، فى أقرب مدة . و إذا لم تلحقنى تلك المادة من التسبيب وقع تنقُّص فى الأهبة ، وكتبُك متوقَّعَةٌ ، وأرجوها لا تتأخر ، إن شاء الله .

٨ — ولـــه

قد كاتبناك ابتداء وجوابا بما قَصَرْناه على ذكر المال وحَمْله ، ومساس الحاجة ودعائها ، وأعلمناك أن مثلك يُقدَّم ويُرْفع ، ويُولَى ويُصْطنع ، لمثل هذه الحال التى التقربُ فيها فرضٌ على الخدم والأشياع ، وبذلُ الطاقة معها حَتْمٌ على المتصرِّفين والأتباع ، وضيقنا عليك سبل المحاجزة والتأخير ، وأبهمنا دونك طرق المدافعة والتقصير ، وحضضناك على ما تحصل به المحمدة الدائمة ، وتُدَّخر عنه الحظوة الصادقة .

ولا شك فى أنك قد جددت واجتهدت ، وقمت وقعدت ، واضطربت واحتلت ؛ واستخرجت وتمحلت ، وأن حَملك هذا يوفى على كل الذى حُمِل من تلك النواحى وعهد ، فنهضتُنا تقرب بإذن الله وعونه ، والمؤن — كما تعلم — تثقل وتعظم ، وما من أوليائنا وحاشيتنا إلا من قد وعدناه بهذا الحمل ومنيناه ، فليكن بحيث يسد مسدًّا عظيما ، و يقع موقعا لطيفا ، وأظهِر مايعرف من كفايتك وغنائك ، ومناصحتك وولائك ، وأعرض عن الراحة ، وارفض الدَّعَة ، واستغنِ بالمعاملين ، وجِدَّ بالمخالطين ، فالقليل لا يقنع ، واليسير لا ينجع ، والذى يُرْضَى منك التكثيرُ والتوفير ، وتجنُّب الاقتصاد والتعذير .

وقد دعت الصورة إلى ضرورة(١) متابعة الكتب ومظاهرة الرسل ، وأخرجنا هذا الركابىّ بعد أن أُمِر بالإسراع والتعجل ، وحُذِّر من الإبطاء والتلوّم ، ونحن نتوقع كتابك بمبلغ الحمد وقت صَدْرِه ، فالحال تمنع دون احتمال المطاولة ، والإحالةِ على الحواجز الممانعة ، والعوارضِ الشاغلة ، والأيامُ بل الساعات محصورةٌ معدودة ، ومحصاة عليك محسوبة ، إلى

---

(١) فى الأصل : الضرورة.

أن تُسْقِط عنا الشغل ، وتحطّ الكَلّ ، وتقدّم الحل ، فإن التوانى إن عرض فى ذلك عرّض بمكانك لدينا ، وتحيّف حقوقك علينا ، و بعث على أمورٍ أنت بحزمك وتيقظك تُغْنِى عنها ، ولا تُحْوِج إلى شىء منها ، إن شاء الله .

٩ — ولـــه

عاد الجواب عما خاطبت به الأستاذ فأفاد سكوناً إلى سلامته ، وفّر الله منها حظه ، وحفظها وسائر ودائعها عنده ، وأعقب انزعاجا ، لتأخر المال عن الوقت الذى قدرته ، وتعذُّر حمله على ما التمسته وأردته ، و بالله ما أرتاب ، بعتاب الأستاذ فى هذا الباب ، و إن استبطأت واستزدت ، وراجعت وعاودت ، غير أنى أحب أن يُحْضِر من عزائمه أدعاها إلى تسهيل ما أوثره ، ويُعمل من لطائفه أدناها من تقريب ما أنتظره ، ليتسهّل بعون الله التعجل إلى هذا البيجار ، فالإبطاء عنه عجز ، والتأخر دونه ضعف ، وترك السبق إليه وهن .

وإن اتفقت حال أفصح فيها عن طاعتى للأمير السيد ولى نعمتى فهذه ، كيلا يحسب صنائعه لدىّ ضائعة ، لا تصادف زكاء ، ولا تنتج غناء . وإن قَرُبَ انكفاء الأستاذ فهو ما أقترحه ، وأحرص عليه وأحبه ، ليكون ما أورده وأصدره[1] عن رأى منه ومشورة ، واستضاءة بما يشحذ من بصيرة ، ويقوّى من عزيمة . والأستاذ — أدام الله عزه — ينجز ما وعد فى استصحاب أكثر ما تتسع له المقدرة ، وتتوجه فيه الحيلة ، فالنهضة لا تمكن ، والخواص على استبطاء ، والغلمان على اقتضاء ، لا سيما والأمر المواجه يقتضى الزيادة فى الإحسان[2] ، ويبعث على مضاعفة النظر والإنعام ، ليباشروا الخَطْب بصدور منشرحة ، وآمال منبسطة .

ثم الله تعالى ولىُّ إنجاز مواعيده ، بحسب ما يعرف من نيات عبيده . وهو المأمول لإدامة أيام مولانا الأمير السيد عالىَ الكلمة ، متظاهر البسطة ، سامىَ الراية ، باقى الدعوة ، لا ترتقى همم الأيام إلى ذروة عزه ، ولا يَحُلّ الزمان عُقْدَةَ ملكه ، إنه فعال لما يريد . فإن رأى الأستاذ أن يديم إيناسى بكتبه ، ويعلمنى آنف ما يتجشمه ، ويتطوّع به ويؤثره ، فى

---

(١) فى الأصل : وأصدر .
(٢) فى الأصل : الإحسان به .

أمر المال لأعتدّ بحسبه ، ويَقِفنى على خبره ، ويباسطنى فى مهمّه ، فعل .

١٠ — وله

عاد الجواب عن كتابى إليه بذكر المال المطلَق للخواص ، وما وصفه فى حال الناحية وارتفاعها ، والنجوم التى يقع الاستيداء عنها ، فانزعجت وقلقت ، واستبطأت واستزدت ، وعجبت من حُؤول الأستاذ عما عرفته ، وألفته ، فى التشمر لما يعرض من مهماتى لديه ، ويُلْقَى من مآربى إليه . وقد علم أن الإنظار والانتظار بمكان ، ما كانت الأمور ساكنة ، والجيوش هادئة ، وأن الحرب لا تمهِل ، والخطب [لا [1]] يُنْظِر ، والرجال لا تجهز للقتال ، إلا بالأموال.

وإذا كان الأمير السيد قد أمرنى بالاستعداد للخروج ، واستعجلنى للنهوض ، وعوّل بدواوين خواصى على مال أرّجان [2] وكتب الأستاذ بأن مدة حصوله شهران ، فهل إلى النهضة سبيل ، وهل إلى امتثال المرسوم طريق . ألا يعلم الأستاذ أن المجمع الذى يهاب بى إليه مجمعٌ يرمقه الولىُّ المناصح ، ويرقبه العدو الكاشح ، وأن خواصى إذا لم يباشروا تلك الحال بأحسن زينة ، وأجمل هيئة ، وأوفر عدة ، تَصَوَّرْتُ بصورة يتفادى منها ، ولا يُصْبَر على الغضاضة فيها . ولم يكن الأمير السيد ليعول بى على مال [3] ، أبوابه مرتَجَة ، وطرقه مبهمة ، وليس للحيلة فيه مساغ ، ولا للتمحل فى تحصيله مجال . وما أدفع ماقاله الأستاذ وأورده ، وشرحه ووصفه . غير أن كورة أرجان لا تضيق ، وقد حضرها الأستاذ ، إذا جدّواجتهد ، واحتال ولطف ، عن القدر المطلق لأصحابه ، لا سيما وهو مصروف إلى أجمع الجهات لحظوظ الدولة ، وأدعاها إلى جمال المملكة .

والذى يزعجنى ويحوجنى أن الذكر قد اضطرب باستدعائى إلى الباب لهذا المهم ، فإن وقع فى حمل المال تأخير ، أو أبطأ به تعذير ، وتأخرت عن مزاولة الخطب ، لم أدر إلى ماذا ينسب تأخرى وعلى أى وجه يحمل هذا . ولو احتجت إلى الخروج منفرداً لما أبطأت عن

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) مدينة فى إقليم فارس فى الجنوب الغربى من إيران .

(٣) فى الأصل : أموال .

موقف أبذل فيه مهجتي عن مالك رقى ونعمتى ، والأستاذ يقضى الحق كله فى هـذا الأمر ، ويتوخى ارتهان أقصى الشكر فى هـذا الوقت ، ولا يدع طريقاً يفضى إلى ما التمست إلا سلكه ، ولا يغادر ظهراً يدنى مما حاولت إلا ركبه ، فما أعتدّ ما تحمله إلا معونة تكلفها من خالص ماله ، ولا يظن ما بسطت من القول عن سوء ثقة بمعتقده ، أو صرف ظنـة إلى إشفاقه ، غير أن السمعة التى تخوفتها ، والقالة التى تحاميتها ، تصورتا لى ، فبعثتا على ما كتبت واستغزتا لما أوردت ، وأنشـده الله ونعمةَ الأمير السيد أن يترخّص فى مطاولة أو مدافعة ، أو يحوج إلى مرافعة ومراجعة ، فقد وثق لى ما أعرفه من حرصه على مسرّتى ، وتنكبه لما ينتج وحشتى بأنّ كتابى يحضّ على تقريب البعيد ، ويهز لتسهيل العسير .

ولعل الأستاذ يفكر فى أنه إذا أجاب إلى ما أردت بعد العَتْب ، وحصّل ما أتطلع بتصريف العاملين بين الرفق والعنف ، ظننته — أيده الله — قصّر عند أول ما خاطبته ، ثم تشمّر لمّا عاتبته ، ومعاذ الله ، فإنه فى هـذه الحال مخبر بصدقٍ فى ذلك ، متشمر لقضاء حق . وساعاتى موهوبة لترقب ما يكتب — أيده الله — مقصورة على انتظار ما يرد من جهته ، وإذا تفضل بما ابتغيته ، كان قد رهن عندى مِنّةً توفى على المنن الغرّ ، وتربى على الأيادى الزُّهْر ، وتوجب من الإحماد ما لا تأخذ الأيام جدّته ، ومن الاعتداد ما لا يتحيّف الزمان مادته . فإن رأى أن يوفر فكره وخواطره ، وآراءه وهممه ، على توجيه هذا المال — فما يحسب حالا كهذه[1] ينبىء بها عن عنايته بما عنانى ، واهتمامه بما خصنى — فعل إن شاء الله .

فصـــل

قرأت كتابك — أطال الله بقاءك — فانبسط لسانى بالمناب ، واتجه لى الخطاب فى كل باب . وأوردت على مولانا ما وجب ، واصفاً لنيتك وطاعتك ، وبَذْلك فى رضاه أقصى استطاعتك ، ومحبتك للتقرب نهايةَ جِدِّك ومقدرتك . وتصرفتُ فى وصف ناحيتك وشمول الكساد لغلاتها ، على كثرة آفاتها ، وشرحتُ صورة غلات المجاور وكيف بيعت بالرُّخْص ،

---

(١) فى الأصل : لهذه .

وصُرِفت بالوَكس ، وقلت إن معوّلك فى توجيه ارتفاعك كان على ما يمتاره أهل كرمان[1] ، فإنهم الآن كالمستغنى عن نُجْعَتِهِ ، لخصب بلاده .

ووقع ذلك أجمل مواقع القبول ، وزال — يعلم الله — عنى شغل عظيم ، وسقط دونى همٌّ كبير ، فالمطلع على ما تجِنُّ القلوب ، وتجمع الصدور ، يشهد مساهمتى إياك ، وعنايتى بما عناك ، ومحبتى لازدياد صورتك جمالا عند ولىّ نعمتنا ونعمتك ، وأنى إذا رأيت توجيه أدنى عتب إليك ، وتسليطَ أيسر استبطاء عليك ، حَرِج صدرى ، وذهب علىّ أمرى ، وإذا شاهدت أحماده وقد توفرت عليك ، ورضاه وقد حسن عنك ، قَوِيَ قلبى ، وشُدِّد من أزرى ، والسلام .

---

(١) كرمان : ولاية مشهورة فى شرق إيران .

الباب السابع عشر

فى الآداب والمواعظ وما يقاربها

وهو مشتمل على أربع رسائل ولم يكن فى الديوان ما يزيد عليها

---

١ — كتاب

وصل آنفاً من خطابك ما آنَسَ مُتَنَاوَلاً ومفضوضاً[١] ، ومقروءاً ومعروضاً ، وسرنى الله — تعالى — بعافيتك ، لا زالت مُرْتَبِطَةً لديك ، مُسْتَصْحِبَةً أقسام النعمة إليك . واعتددت بما وعدتنيه عن نفسك ، أمتع الله بها ، ودفع المحاذر عنها ، إدماناً للمكاتبة ، واستمداداً من الآداب بالمواظبة . وأرجو أن يكون الإنجاز من همك ، والوفاء من عزمك ، فما اقْتَنَى امرؤ ولا اقْتُنِى له أفضل من علم ينوّه باسمه ، وينبّه على قدره ، ويزيد فى قيمة نفسه ، قضاء من أمير المؤمنين رضى الله عنه حين قال : قيمة كل امرىء ما يحسن، وكلاً أن يقول ما يملك . وقد تقدمت فى باب فلان بما اقتضاه كتابك فى معناه ، فأدِمْ مسرّتى بما تديمه ، مراعاةً بأخبارك ، ومناجاةً بأوطارك ، إن شاء الله .

٢ — ولـه

كتابى — أطال الله بقاء الشيخ — عن سلامة فى النفس ، أسأل الله صلتها بسلامة العافية ، وحسن الخاتمة ، وأن يلطف لنا فى تخليص النفوس من الشبهات ، كما هدانا فى دينه الذى ارتضاه بالبينات ، وأحمده قبلُ و بعدُ على إفضاله ، وأسأله الصلاة على النبى وآله .

ووصل كتاب الشيخ فسررت — يشهد الله — باسمه موقّعاً على عنوانه ، ثم بخبر سلامته ، فإنى أعتدّه جمالا لإخوانه وزمانه ، وإنى لأتحسر على قربه وجواره ، وأتأسف على ما يفوت من شِفاهه وحِواره ، وأرجوه لا ينسانا فى الدعاء ، فإنا لا ننساه فى الثناء ، ومتى

---

(١) فى الأصل : مفضوضاً بدون واو .

اجتمع عندنا أهل العلم ، ذكرنا لهم ما خصّه الله به من الفضل .

وعلى هذا الذكر فقد كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعده ووعيده . هذا وفى فقهائه وفور ، وفى الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على بث كلمة الحق ، وسَمِعَ الأكثرُ على لين ورفق ، وليس تمنعنى كثرة شغلى من الانتصاب فى بعض ليلى للمذاكرة والتبيين ، والتكشيف والتخليص ، فقد صلح خلق كثير ، والحمد لله رب العالمين ، وبه نستعصم من أفعال ، لا تشبه الأقوال ، وهو حسبنا فى كل وقت وحال .

والشيخ — أدام الله عزه — يَسُرُّ بمخاطباته ، ويُؤْنس بخبره ، وخبرِ أبى سعد ، أعزّه الله ، وعارضِ حاجاته ، إن شاء الله .

٣ — وله إلى أهل الصيمرة(١)

كتابى — يا إخوانى ومشايخى ! — عن سلامة تجمع النفس والدين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتابكم — فسرّنى بما دلّ عليه من استقامة أحوالكم ، وسألته أن يبلغكم فى دينكم ودنياكم غاية آمالكم — مُتَوَقَّعاً ، إذ كنتم بحمد الله ومَنّه ، وطَوْله وفضله ، المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله ، وصدقه فى وعيده ووعده ، وكان بلدكم من بين البلاد كغُرّة أدهم ، وشهاب فى ليل مظلم ، وما فى النعم أجلُّ موقعا ، وأهنأ مَشْرعا ، من النعمة فى القول بالحق والدعاء إليه ، والتدين به والبعث عليه ، ومهانةِ من شبّه الله بخلقه ، فتابع فى جهله ، أو جوّره فى فعله ، فشك فى حسن نظره وطَوْله . والحمد لله الذى جمع على الصدق آراءنا ، وحمى من مكايد الشيطان أهواءنا ، يزيدنا تسديدا وتأييدا ، وتثبيتا وتمهيدا ، ويوفقنا لصالح الأعمال ، كما وفقنا لصالح الأقوال .

وكان فى الواجب أن أبدأكم بالمواصلة والمكاتبة والمراسلة ، ولكنكم سبقتم إلى الجميل كما توجبه أديانكم الصحيحة ، ونياتكم الصريحة . نسأل الله اجتماعا حيث لا فرقة ، وأنسا

---

(١) بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان على يسار الذاهب من همذان إلى بغداد .

حيث لا وحشة ، فإنما نحن له و به ، وتَواصينا فى مِلْكه و بيده ، إليه نفوض و به نستعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد عرفت شكركم لفلان فاعتقدت له عن ذلك ودًّا وعهدا ، وأوجبت شكراً وحمداً ، ووجدتنى المخصوص بما أزلّ[1] إليكم ، واستَمدّ به عليكم ، وقد خاطبته معتدًا بما أتاه ، حاضًا على إتمام ما أنشاه .

وأنا أسألكم — أيدكم الله — أن تُسْهموا لى فى أدعيتكم ليلا ونهاراً ، وسرًّا وجهارًا ، ليكفينا الله شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، ويختم لنا بخير أفعالنا ، ويتابع ألطافه فى تخفيف المآثم ، ورد المظالم ، وتجديد التوبة ، والتحرز من الحَوْبَة .

ولولا أن الرسول خرج مستعجلا لأصحبته بعض ما صنفت ، وأبليت وألفت ، وقد أمرت بجميع ما أستصلحه لكم ، وسينفذ — من بعدُ بمشيئة الله — إليكم . ومما أسرّكم به أن الجَبْر خصوصا كان استولى على هذه البقاع ، فحين يسّر الله ورودى إياها ، انكشفت الشُّبَه ، وزال العَمَه ، وقوى الحق وأهله ، ورجع كثير من الدينُ همُّه ، ولله الشكر ، وله الطول والمن ، فلا تدعوا مكاتبتى بأخباركم ، وحاجاتكم وأوطاركم .

٤ — وله خطبة نكاح

الحمد لله ناظم الأشتات ، ومسبّب الأرحام للمتشابكات ، وجامع القلوب بعد افتراقها ، ورادّها عن تباينها لاتفاقها ، حمداً يُزْلف لديه ، ويُقَرِّب إليه ، وصلى الله على الصادع بأوامره ، والدال على زواجره ، محمدٍ المختار ، وأهل بيته الطيبين الأخيار .

و إن أحق ما استعمله الخالون[2] ، ولحق به التالون ، كتاب الله الذى تعبّد به عباده ، وأظهر فيه مراده ، فما حضّنا عليه ، وأهاب بنا إليه ، طيبُ النكاح ، المُغْنِى عن خُبْثِ السفاح ، قال الله تعالى : وأنكحوا الأيامى منكم الآية .

وذكر فلان ابن فلان عقيلتكم فلانة بنت فلان خاطباً ، وبذل لها من الصداق راغباً ، فخذوا بأدب الله إجابةً إلى ماحاوله ، وتصديقاً لما أمله ، خار الله لنا ولكم .

---

(١) أزل : أسدى .

(٢) فى الأصل : العالون .

الباب الثامن عشر

فصول وغرر ، وتوقيعات ودرر

١ — فصـــل

ذلك إذا تسهل زاد فى تراجع الأعداء على أعقاب الحسور ، وأدراج الإقصار والقصور ، وقد تقرر من الأمر ، ما يوجب علىّ إدامة الشكر ، إذ كنت — يشهد الله — أفرض طاعة الأمير على نفسى فريضة ، لا أريد عنها سوى إحماده مَعُوضة .

٢ — توقيـــع

ما حسبت فلانا و إن علت حكمته ، وارتفعت كلمته ، يَتَشجّعُ لتأخير المرسوم لفلان ، وهو يعلم كيف تخصُّصُه بى ، وتقدُّمُه أكفاءه فى مجلسى ، وأنه من لا يكاد يبعد ليلا ونهاراً عن مرمى طرف . وقد تلحق العامىّ السكرة ، إذا ملكته من الإهمال نشوة ، فأنبهُهُ من رقدته قولا ، قبل أن أنبّهه فعلا ، وليُعِدْ ذم فلان له حمدا ، أستبدِلْ من الإعراض عطفاً . والسلام .

٣ — فصـــل

مطاولة سيدى تُسْتَلَذّ ، وتقطيع ساعات الصوم بمثلها يُستَحَبّ ، ولكن الشمس قد عادت كالمرآة فى كف الأشلّ ، كأن الأرض تجذبها بمَرَس ، وتكسوها السماء لباس وَرْس ، وآخرُ دعواى أن الحمدُ لله رب العالمين .

٤ — فصـــل

فلان قد أغلق بابى الأداء والحَمْل ، وسهّل طريقى التأخير والمطل ، وأجرى أصحاب

التسبيبات مجرًى واحدا فى التأخر والمنع ، وصارت الكتب تصدر إليه ، فيعيرها عينا عمياء ، وأذنا صماء . ويجب أن تُبْهِم عليه طرق المدافعة ، وتأخذ دونه بمنافذ المطاولة ، ولا تقنع بمواعيد ، قد استراح إلى اتصالها ، وأخذ ينجزها بأمثالها .

٥ — فصـــل

مولاى يعلم أن فلانا خدمنى صغيرا و كبيرا ، وفارق صاحبه ، ليس لأن مرعاه كان جديبا ، ولكن ليزداد إمراعا ، وقد ازداد عندك إمعارا[١] ، فليأذن له سيدى فى العود إلى حضرتى لئلا يُطَلّ حقه ، ويُهدَر ذمامه ، إن شاء الله .

٦ — توقيع إلى عامل

بلغنى أنك عزمت على تفرقة غلة السلطان فى الرعية كُرْهاً ، وما جعل الله ذلك لك ، ولا أمرك سلطانك ، أطال الله بقاءه ، وليت ما فعلته عامًا لم يُفعَل ، فإنّ عادِيَتَه كَثُرَت ، وعائدتَه قلّت . فأجْرِ — أيدك الله — أمر القوم فى الرفق والإحسان مجراهم الأول ، بل زِدْهم بحسب زيادة إحسان الله عند مولانا وعندى فى خدمته ، وأشِعْ ذلك لتكتسب النفوس عن ضعفها قوة ، وعن خيفتها أَمَنَة .

٧ — فصـــل

وصل فلان اليوم بوصول الحمل :

فلم أدر أن الحاجبيّة وَصْـــلُها على القلب أحْلَاً أم نزولى على نجْدِ

وأنا منذ الغداة أسأله عن أخبار مولانا ، فكأنى أجْدَحُ المسك فتيقا ، وأضبح الروض أنيقا ، لازالت أخبارُ مولاى أنفاسَ الأسحار .

٨ — فصـــل

أبو فلان مشاهدته أبعد من النجوم ، فلِمَ ذلك ؟ ألأنه من عنايتى عارٍ ، أو من إيجاب

---

(١) الإمعار من أمعرت الأرض : لم يكن فيها نبات .

مولاى خالٍ ، أو لـكثرة من يساوقه فى الخفة والقرب من مجلسى ؟ . إذا ثَقُل بعض أعضائى على بعض ، وتبرمت بالنظر إلى الأرض ، وليس الخَمْلُ عندى بعذر ، فإن ماله عنـه بمعزل ومعدل . ومولاى يُعْتِبه أو يكتب رجعته ، لأقيم له البدل وأُكْفَى مراجعته ، إن شاء الله .

٩ — توقيع على ظهر كتاب لابن جحا الـكوفانى

لو استغنى موثوق بوده ، مسكون إلى عهده ، عن الإذكار بنفسه ، والدلالة على صحة عَقْده ، لـكنت يا أخى ! — أطال الله بقاءك — ذلك الإنســان ، لاعتمادى سريرتك الخالصة ، ومودتك الصادقة .

والله يعلم أنى آنس إلى ذكرك إذا مرَّ بسمعى ، واسمِك إذا خطر بفكرى ، فـكيف بكتابك إذا قابل طرفى ، وأوجب لك ما لعلّى لا أوجبه من خلّص إخوانى إلا لأفراد وأعيان ، يعز أمثالهم فى الزمان ، فخاطبنى متى نشطت ، واسترسل فى حاجاتك كيف آثرت . وإن جريت فيما يخصك على الانقباض الذى هو طبعك ، فكاتبنى بحاجات إخوانك ، ليعرفوا موقعك من إيثارى ، ومحلك من اصطفائى واختيارى . سقاك الله فروّاك ، وحيّاك وأحياك ، وهو حسبى ، وصلواته على النبى محمد وآله .

١٠ — توقيع على رقعة لابن جحا

أنت الأخ ديناً ، والصديق يقيناً ، وكلفةُ التجشم موضوعةٌ عنك ، أطال الله بقاءك ، لقوة التحقق ، ولو عرفت مقامك حيث أصحرت لـكددت الناظر طالباً ، واستنجدت الطَّرْف رائداً . ولو وقفتُ على اعتيادك الباب لرتبت من يتلقاك مكرماً ، ويوصلك مؤثراً . ودون الغيوب أستار لا تكشفها العيون والقلوب . ومتى نشطت للحضور انفرجت أغلاق الأبواب ، وتجافت أعطاف الستور ، وقالت الدار مرحباً .

الباب التاسع عشر

فى النوادر النادرة فى فنها

وهى الكتب الغريبة المعانى فى جنسها

---

١ – فصل فى صفة الخَرْكاهات[1]

سبيلها أن لا يتخللها ما يَضْعُف عوده ، ويَهِن مَتْنُه ، أو يقع فيها ذوات العُقَد والأُبَن ، أو يُتَجَوَّز فى أصباغها وأدهانها ، فتنشقق عند تداول الرياح إياها ، وأن يبالَغ فى انتقاء أصوافها ، والتناهى فى عركها .

٢ – وله عتاب كاتب تراجع فى صناعته

كنت ابتدأتك بالمخاطبة ، وحضضتك فى آلات الكتابة على المداومة والمواظبة ، فأجِدُ خطَّك يزداد على الأيام ويستجاد . ثم أهملتَ التعهد ، واستعملت التجوّز ، وصار ما تكتبه مضطرب الحروف ، متضاعف الضعف والتحريف .

وجعلت أتأول لك يوماً بقلم لم يُستَجد بَرْيُه ، ويوماً بمداد لم يساعد جريُه ، إلى أن صارت رداءة الخطّ سُنَّةً لك وسَنَناً ، ورسماً ثابتاً مرتهناً ، فقدمت هذا الخطاب مذكراً ، ورجوت ألاّ تحوج إلى مثله منكراً .

وإياك إياك[2] واضطرارى ، فثابر على المشق والتسويد ، واهتمّ بالتصحيح والتجويد ، واعمل على أن تقوّم حرفاً حرفاً من خطك ، وتتصوره فى نفسك قبل تصويره بيدك ، وليكن لك من يوقفك على مواضع التقصير والتضجيع ، لأتبين الزيادة فيما يرد منك وقتاً وقتاً ، قبل أن أوسعك تهجيناً ومَقْتاً ، والسلام :

---

(١) الخركاه : الخيمة .

(٢) فى الأصل : وإياك .

٣ – وله فى تكذيب أراجيف العامة

دَلَّ كتابك على أراجيف تتردد بين العوام ، فى أخبار مدينة السلام ، وما أدرى أىُّ اختلاف ، قاض للإرجاف ؟ وقد ذلل الله لمولانا الملك السيد رقاب الزمان ، وملَّكه أعنَّةَ الأيام ، واستصفى له ما لم تحلم به ملوك العرب ، وأكاسرة العجم ، وانضافت الشامات إلى العراقين فى الانقياد ، وترتب العمال فى جميع البلاد ، ودانت طواغيت الروم ، وتقرَّب المغربى برسول بعد رسول ، وصار بنو حمدان كرميم ، طاح فى ريح عقيم ، ومُلكت قلاعهم التى لم تنتزع منذ مائة وخمسين سنة ، مملوءةً ذخائر ، مشحونةً غنائم ، والشمس لاسبيل إلى سترها ، وتغطية أمرها .

وقد عاد — حرس الله أيامه ، ونصر أعلامه — إلى حضرة الخلافة ، ومجلس الإمامة بآثار فى الذب عن البيضة ، وأياد[1] فى الذب عن الحوزة ، ومقامات فى تزايد البسطة ، وتضاعف العزة ، أسلمت المنابذين للأيدى والأفواه ، وكبَّتهم على الرؤوس والجباه ، تُجْبَى إليه ثمرات كل أرض ، وتُسْمِح له الدنيا ذاتُ الطول والعرض ، فالحمد لله على ما أسْنَى ، والحمد لله على ما سنَّى ، ولا زال مولينا الملك السيد والأمير المؤيد آخذين بآفاق المجد ، مادين لرواق الملك ، إن الله يفعل ما هو لبلاده أصلحُ ، ويمكِّن من هو بعباده أرأف .

٤ — وله فى إعفاء من استعفَى من بهاء التلقيب
والوعد بما سواه من أنواع التشريف

كتابى — أطال الله بقاء الأمير — عن سلامة مولانا الأمير المؤيد واتصال السعادات إلى عالى حضرته ، واقتران البركات بسامى كلمته ، والحمد لله وصلواته على النبى محمد وآله .

وكنت خاطبت الأمير بالسبب الذى استعاد فلانا إلى الحضرة ، وعاد فى الجواب مادل على أنه لو أُصْدِر بتلك الجملة ، واقتُصِر دون اللقب على اللواء والعهد والخلعة ، لكان ذلك أدعى إلى محبته ، وأدنى إلى مسرَّته ، وجدَّدَ القول فى الاستعفاء من اللقب ، والاكتفاء بما

(١) فى الأصل : والزيادة .

سواه من الرُّتَب ، وخاطبَ حضرة مولانا بما قدمتُ إصداره ، فعرف — أطال الله بقاءه — بغيته وإيثاره ، وقال ، حرس الله ملكه ، إنا حسبنا اللقب أوقع بقلبه ، وآثر فى نفسه ، وإذا كرهه فلا إكراه على التشريف ، ولا امتناع من التخفيف .

وإن فلانا مُنْهَض فى الأسبوع بالخِلَع التى يعرف الله ميامنها ، ويُفيض محاسنها ، واللواء الذى يَلْوى أيدى المنازعين ، ويُلْوِى بالمنابذين والمقارعين ، والعهدِ أشرفَ ما عهد فى أمثاله ، وأولى ما قدمه السلطان لأمراء أعماله . وكتاب مولانا تقترن به هذه المخاطبة . وإن مولانا الأمير رأى إصدارهما مع مجمِّزين ، يصلان مسرعَين ، وما يلى هذه المخاطبة ينبىء — بمشيئة الله — عن فصول[1] فلان ، والنصّ على اليوم الذى نهض فيه عن الحضرة أجلّها الله .

٥ — وله فى الانباء عن الوحشة لمفارقة ولىّ النعمة

كتابى — أطال الله بقاء مولاى ورئيسى — وحالى منذ فارقت البابَ المعمور حالُ من أدخل الجنان ، حتى إذا عرف نعمها كيف تُسْبَغ ، ونعيمها كيف يَخْلُص ، ودرجاتها كيف تسمو ، وقطوفها كيف تدنو ، راعه الخروج منها ، فلم يكشف غمّته كاشف ، ولم يدفع حسرته دافع ، وهل للخلود عِوَضٌ فتقبله النفوس ، وتطمئن به عليه القلوب ، والله ولىّ إعادتى إلى ظله الظليل ، وكنفه[2] الشريف العميم .

وأُخِّرَ كتابى عن مولاى حتى اليوم ، لأنى عدت فتعاون علىّ من الحمّى والقلق خصمان يدفعانى بينهما ، وضعفت طاقتى عنهما . وقد كنت عن أحدهما عاجز القوة ، قاصر المُنَّة ، فكيف إذا اجتمعا . هذا والبعد عن الحضرة العالية ، أشد وقعا وأحرُّ لذعا ، لأنه فَوْت شرف كان يبسط باع المطاولة ، وتراخى مجد كان اكتسابُه لسانَ المنافرة ، وليس الذى يخص الجسم أذاه ، كالذى يشترك فيه النفس والجاه .

وشغلى الآن الدعاء لمولانا فقد كان فى تواتر تلك النعم ، وتظاهر تلك المنح ما يشغل عن الفكر فى ارتفاع أقدارها ، واتساع أقطارها ، والآن أخذت أتتبعها ، فلى عند ذكر كل واحدة منها جبهةٌ ساجدة ، ودعوة صادقة ، وقُرَبٌ — كما أوجب الله — متصلة ، وزلَفٌ

(١) الفصول هنا : الخروج ، وفى الأصل : الفضول (٢) فى الأصل : وكنف .

— إن شاء الله — متقبلة . فأما انزعاجي لفراق مولاى فانزعاج السارى زال قمره ، والروض تخطّاه مطره ، ومَنْ هذا الذى يبتعد عن فرد دهره ، وشمس فصله ، ومن يستمد محاسن قوله ، كما يستظهر بمكارم فعله ، فتبقى له جانحة لم تلتهب قلقا ، ولم تشتعل أسفا ! ؟ على أنى حاضرُهُ بنيّتى ، ومسايرُه بطوِيّتى ، والمرء يسير بقلبه ، وإن أقام بشخصه . ولله لطائف تعيد الدار أدنى منها أمس ، وأحرى بالسرور والأنس ، فإن رأى مولاى أن يعين[1] على سقمى وهمى بكتبه جلاء الأحزان ، وشفاء الأبدان ، ويصرّفنى على أمره ونهيه ، فعل إن شاء الله .

٦ — وله فى وصف شِعْر

وصلت لك قصيدة هى السحر أو أدق ، والماء أو أرق ، قد جمعتْ إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، فكأن الفحلين أبا فراس وأبا حزرة[2] ، أنشرا فى مسْلكك ، وانخرطا فى سلـكك ، فنحت هذا لك صخره ، وأساح لك ذاك بحره . وحسبك بشعر وقف إعجابى وتعجبى إزاءه ، حتى كررت قراءته ، وأدمت استقراءه . هذا وأكثر ما أسمع — منذ اليوم — يصْدِى الريّان ، ويُصدىء الأفهام . لا زال عودك فى الفضل صليبا ، وغصنك منـه رطيبا . وقد اغتفرت لك الغارة الشعواء ، وإن كنت فيها لَقْوةً شغواء ، فأما النعمة التى هنأت بها ، فثوبٌ مَدحُك طُرَّته ، إن لم يكن طرفا شعرك غُرَّته . وفلان حبذا هو فى السُّجَراء ، فليُوَلّ إيصالَ جوابه ، من تولّى إصدار كتابه .

٧ — ولـــه

وصل كتاب الشريف سيدى ومولاى زائدا فى بره ، عاضدا سابق فضله ، وآنسَ الله رَبْعى وسَمْعى بخبر سلامته وصل الله خِطَامها ، وحرس أيامها . وعرفت ما رآه من إتمام عزيمته فى الحج ، وتبينت له أمارات الخير والنجح . وإنما يقصد البيت الذى رفع جدُّه خليلُ الرحمن — صلى الله عليـه — قواعده ، وأعلى أبوه رسولُ الله — صلى الله عليه —

---

(١) فى الأصل : يعيد .

(٢) يعنى الفرزدق وجريرا .

مفاخره، فلا يَرَى إلا مواقف الأنبياء والأصفياء من أجداده الكرام، وآبائه العظام، حيث يهبط الملائكة المقربون على رسول رب العالمين.

تلك منازل ورثها بشرفه العميم، ومفخره العظيم. فالحمد لله الذى أوضح فى ذلك دليله، وسهّل سبيله، كما أنار حجته، ورفع فى الذرّية الزكية درجته، وأحسن الله أداءه، وأطال فى طاعته بقاءه، وزكّى عمله، وبلغه فى مضيه[1] وانكفائه أمله. وأنا أسأله — أدام الله عزه، إذا يسّر الله وروده الحرمين، ووقوفه فى المشعرين، وتنقله بين المعرّف والمحصّب، وطوافه بالبيت المعظم، واستلامه الحجر الأسود، وقيامه على بئر زمزم، وسعيه بين الصفا والمروة، ودخوله، إن دخل، إلى الكعبة، ثم إذا قرب من مشهد رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، زائرا، وعدل إلى البقيع مسلمًا، وعاد إلى الغرىّ[2] والحائر[3] صلوات الله على سكانهما سيد الأوصياء، وسيد الشهداء — أن يذكرنى فى أدعيته، ويتوسل عنى برسول الله، صلى الله عليه، والسادة من ذريته، ويكون ما يلتمسه لى العافيةَ فى الدين والدنيا، والسعادةَ فى الخاتمة والعقبى، والتوفيقَ لردّ المظالم، والخروج من التبعات، والتوبة من السيآت، والتباعد من الشبهات، فتلك وديعتى إليه، وأمانتى قد أخرجتها إليه.

وأما النيابة عن سيدى الشريف فلا أطيل القول، فيشهد الله أنى — معما أتانى الله من حظ دين ودنيا — لا أدفع نفسى عن أيسر أمره، تقربا إلى خير الأولين، والآخرين جدّه صلى الله عليه. وسينفذ منى إلى فلان ما يزيده بصيرة فى التكفل بتلك الأسباب، وهؤلاء الأصحاب، إن شاء الله.

٨ — وله إلى الأستاذ الرئيس أبى العباس[4]

وصل كتاب مولاى فلَصِقَ بيدى، ونَدِىَ على كبدى، ولم أدر بماذا أنعته وقد ملَى قلبى وملأ صدرى، وكيف أصفه وقد أمتع نفسى ورفع طَرْفى، وهل أقول نسيم الرياض تدرّجت الشمال على أنوارها، وأغريت الصَّبا بإخراج أسرارها، أم أقول الحياة عادت فى

---

(١) فى الأصل: مضيئه.
(٢) البقعة التى فيها قبر على بن أبى طالب.
(٣) البقعة التى دفن بها الحسين بن على.
(٤) هو أبو العباس الضبى.

الجسد ، والروح سرى فى البدن ، فله على كل مستحسَنٍ أنيق فضل ، وعند كل حِضَارٍ سَبْقٌ وخَصل . وحسبت انبساطَ مولاى فيه مواهبَ قصرت الأمانى عنها ، فطال إحسان الله بها ، ومنائحَ رقدت الآمال فيها ، فاستيقظتْ عَيْنُ أفضال الله عنها ، وأنا أرجو أن يعيدنى الله فيه لأفضل عادته ، ويعيذنى فيه بلطفه ورأفته ، فأقرأ كتابه مبتسما عن خطّه ، كما قرأته منتظما للفظه ، لأجمع تحجيل المسرة إلى غُرّتها ، وأقرِن حِجّة الأنس إلى عُمْرتها ، والله يفعل ما يريد ، وهو اللطيف المجيد .

قد عرفت ما شرحه مولاى من أمره ، وأنبأ عنه من أحوال جسمه ، فدلَّتنى جملته على بقايا فى البدن يُحتاج معها إلى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية . فأما الذى يشكوه من ضعف معدته ، وقلة شهوته ، فلأمرين : أحدهما أن الجسم — كما قلت آنفاً — لم يُنَقَّ فتنفتق الشهوة الصادقة ، وترجع العادة السابقة . والآخر أن المعدة إذا دامت عليها المطفئات ولزّت بها المُبَرِدات ضعفت فتقل الشهوة ويضعف الهضم ، ومع ذلك فلابد مما يطفى ويغذّى ، ثم يُمْكِنُ من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوّى منها ، ويزيل العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل جالينوس : قدّم علاج الأهمّ ، ثم عُدْ فأصلح ما أفسدت .

والأقراصُ فى أواخر الحمّيات خيرُ ما نُقِّيت به الكبد ، وأُصْلحت به العروق ، وقَوِى به الطحال ، ليتمكن من جذب [العكر[1]] لاسيما والذى وجده مولاى ليس الذنب فيه للحميات التى وجدها ، والبلدة التى وردها ، فلو صادف الهواء المتغير جسداً نقياً من الفضولات لما أثر هذا التأثير ، ولا طوّل هذا التطويل ، وإنما اغترّ مولاى بأيام السلامة فكان يَنْبَسِط فى أنواع الطعام ، ويُسْرِف فى تناول الشراب ، فامتلأ الجسم من تلك الكَيْمُوسات الردية ، وورد بلداً شديد التحليل مضطرب الأهوية ، فوجدت النفسُ عونا على حلّ ما انعقد ، ونفض ما اجتمع . وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لأن الجسد يخلص خلاص الإبريز إذا زال عنه الخبث ، وسُبِك ففارقه الدرن .

وأما الرعشة التى يتألم مولاى منها ، ويضيق صدراً بها ، فليست — والله — محذورة العاقبة ، وإنها لتزول بإقبال العافية ، فالرعشة التى يُتَخَوّف منها ، هى التى تعرض من ضعف

---

(١) زيادة من اليتيمة طبعة الشام ٣/٤٢ .

القوة الحيوانية ، كما تعرض للمشايخ وتُؤَدِّى — بمشاركة الدماغ — إلى كثير من العظام ، فأما هذه التى تُعْتاد بعقب الحمى ، فهى على ما قال جالينوس فى تقصيه الفضول : من أن حدوثها يكون ، إذا شاركت العروق — التى تحدث فيها العلة — العصبَ ، وتزول عنه بزوال الفضل .

وعَجِب مولاى من تكرُّهه شمَّ الفواكه ، ولا عجب إذا عرف السبب ، فإن العفونة التى فى العروق قد طبَّقت روائحها آلات الشم ، فما يصل إليها من الروائح الزكية يَرِد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة فتتكرهها ولا تقبلها ، وتأباها ولا تؤثرها . وهذا قياس بيِّن على ما كشفه الأفروديسى .

ألا يرى مولاى أن الأشياء الحلوة توجد فى فم ذى الصفراء بطعم الأشياء المرة ، لاستيلاء المرارة المضادة للحلاوة ، على آلات الذوق والمضغ والإدارة . وهذا راجع إلى ماحكمنا به أولا من أن هناك فضلا لا يمكن الهجوم على تحليله ، لما يُخْشَى من سقوط القوة ، وإن كان ما لم يخرج لم يؤثر بوفور الصحة .

وأنا أحمد الله ، إذ ليست شهوة سيدى متزايدة ، فالشهوة الغالبة مع الأخلاط الفاسدة تغرى صاحبها بالأكل الزائد ، وتعرِّضه للمزاج الفاسد ، إلا أن التغذِّىَ لا يجوز إهماله دفعة ، والتبرم به ضربة ، فإن البدن إذا احتاج إليه وجب للعليل أن يتناوله تناوُلَهُ الدواء الذى يصبر عليه ، وذاك أن فى دقة الحِمية وترك الرجوع أولَ أولَ ، إلى عادة(1) الصحة ، إماتةً للشهوة ، وحياةً للقوة .

وجالينوس شرط فى المعالجات أجمع استحفاظ القوَى ، لأن الذى يفعله الضعف لا يتداركه أمرٌ ، إلا أن ذلك بإزاء ما قاله الحكيم الأول بقراط فى البدن السقيم : أنك متى زدته غذاء زدته شراً ، وهو نفسه يقول : إن الحمية التى فى نهاية الدقة ليست بمحمودة ، والطرفان من الإسراف والإجحاف مذمومان ، والواسطة أسلم . أغنى الله مولاى عن الطب والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وقد كتبت فى كذا ما يغنى اهتمام سيدى به عن ترديد ذكره :

وإذا رميتَ إلى ابن عزمٍ حاجةً   فاعلم بأن جناحها يستيسرُ

---

(1) هكذا فى اليتيمة وفى الأصل : إعادة .

٩ — وله جواب كتاب فتح ورد من الشريف أبى طالب السيلق

هذا كتاب الشريف سيدى طلع ، أم عهدُ الشباب رجع ، وخطابهُ أسفر ، أم لقاؤه تيسّر ، والربيع ضحك وابتسم ، أم بيانه ظَهَرَ فَبَهَر ، والزمان أعتب ، بعد ما أذنب ، أم جِواره تُلِي وسُمِع ، والوصل بعد الهجر أُتيح وقُدِّر ، أم صوب العقول من بين يديه اعتن[(١)] وعرض ، وعَشِيَّات الحِمى لذّت بمهبّ نسيمها ، أم فِقَرٌ من سحره تجلّت فى سلك نظمها ، وساعات اللوى أسعفت بضمّ الشتيتين ، ودفعت بالقرب فى صَدْرِ البين ، أم رتعت العينُ فى حديقة بيانه أظآرَ البلاغة ، وحواملَ الخطابة ، وغرّة الدهر انتُهِزت من أثناء نوائبها السود ، أم لُمَعٌ من أفكاره تراءت من خلل السطور ، وصفحة العفو تجلّت لموبَق من جرائمه ، أم صحيفته حدثت عن غرّ فوائده ، والهداية أُتيحت للحيران وقد أُخِذَ عن مراشده ، أم تهنئته أقبلت مقتبسة من محاسنه ومحامده ، والفقير عاجلته الثروة ناسخة بؤساه بنعماه ، أم مناجاته توشّحت بحُلَل فهمه وحِلاه ، والنزاع نُقِعَ بالاجتماع عليه ، أم كلامه سُهّل فى المسامع سبيله .

ثم وصل الكتاب ، فكان مُنَى النفس وقرة الطرف ، وانشراحة الصدر ، وبرد الكبد ، والشفاء بعد السقم ، وغاية الأمل ، ونهاية الطلب ، ومظنة الوطر ، وغاية المراد ، ونُهيَة المرتاد ، وفرحة الإياب ، وإصابة الغرض الأبعد ، والشماتة بالعدو الأنكد ، والعيش الذى يقال فيه سَمْح ، ويقال غضّ ، ويقال رَطْب ، فرأيت به فتحا ثانيا ، ونصرا تاليا ، وأنسا ناميا ، وعيشاً راضيا ، وخيراوافيا ، وسرورا صافيا ، واقتبست عنه علما جما ، وأدبا غمرا ، وفضلا دَثْراً ، ووجها من الزمان طلقا ، وجانبا من الخير سمحا ، وقلت له أهلا وسهلا ، وسعة ورُحْباً ، ولم لا ، وهو كتاب [سلالة[(٢)]] خيرة الله من خلقه ، وحجته من أرضه ، والهادى إلى حقه ، والمنبّه على حكمه ، والداعى إلى رشده ، والآخذ بفرضه ، والمؤدِّب بندبه ، والمصرف بين إباحته وحظره ، والمؤيد من عنده ، والمحتج به على جنه وإنسه . مختار من أكرم المنابت ، منتجب من أشرف العناصر ، مرتضىً من أعلى المحاتد ، مُؤثَر من أعظم

---

(١) فى الأصل : اعتز .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

العشائر ، مُغتَامٌ من أفخم القبائل ، معضود بالمعجزات الغرّ ، مرفود بالدلالات الزُّهْر ، لا تخبو ناره ، ولا يوضع مناره ، ولا يُتَحَيَّفُ سناه وسناؤه ، هُدِى به الخلق من ضلالة سوداء دهماء ، وعُلِموا به من جهالة رَبْداء جهلاء . مباركٌ مولده ، سعيد مورده ، قاطعة حجته ، سامية درجته ، ساطع صباحه ، متوقد مصباحه ، مظفَّرة حروُبه ، ميسَّرة خطوبه ، نُسِخَت بملته الملل ، و بشرْعَتِه الشَّرَع ، و بنحلته النِّحل ، وبكلمته الكلم ، و بأمته الأمم ، و بسنته السنن ، وصار العاقب والخاتم ، والقاطع والجازم ، قد أُفرد بالزعامة وحده ، وخُتِم بأن لا نبيّ بعده ، فاستوفت دعوته شرق الأرض وغربها ، ومسحت برّ الدنيا وبحرها ، وأذعنت له سود الرجال وحُمْرُها ، وذلّت لعزته صِيد الملوك وكُبُرُها ، وصار المخالفون سرًّا ، يضطرون إلى اعتزاء إليه جهرا ، والمنْحَرفون عنه إدمانا ، يَحْقِنون دماءهم بالانحياز معه إعلانا ، يُفْصَح بشعاره على المنابر ، و بالصلاة عليه فى المحاضر ، وتعمُر بذكره صدور المساجد والمنابر ، ويستوى فى التطامن لأمره حالتا الغائب والحاضر ، والوارد والصادر ، لم يكتب كاتب إلا ابتدأ مصليا عليه ، ولم يختم إلا بردّ السلام والتحية إليه ، كأنهم مسخَّرون غير مؤْثِرين ، ومجبرون غير متخيِّرين ، لطفا من الله جمعهم على فضيلته ، وألفهم على جديلته . ذلك سيد الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

و إن للشريف مع هذا شرفا آخر تضع له الأفلاك خدودها وجباهها ، وتلثُم النجوم أرضه : أفواهها وشفاهها ، ينضاف إلى ذلك الذى يلحظ الجوزاء من عالٍ ، ويطول على السماء كلّ مطال ، بمن إسلامه سابق ، ومحله سامق ، ومجده باسق ، وذكره نجم طارق ، وسيفه قدر و بارق ، وعلمه بحر دافق ، و إمامته لواء خافق ، ونظير هرون[1] عند المشاكلة ، و باب المدينة[2] عند المشابهة ، بدر يوم بدرٍ بل شمسه ، وأخو المصطفى بل نفسه ، مصلّى القبلتين ، والهاشمى من الهاشميّين ، كُفْؤُ أشرف النسم ، وأكرم الكرائم فى الأمم . نسله أعز نسل ، وأصله أفضل أصل ، به تُحلّ المشكلات ، و إليه ترجع المعضلات ، ولداه الشمس والقمر ، ولولا علىّ لهلك عمر . سيفه أمّ الآجال ، ورمحه يتّم الأطفال ، وحَمْلَتُهُ رَفْعُ السدود ، وصولته كسرُ البنود ، قوّى الله [به[3]] أزر المسلمين ، وأفشى القتل

(١) إشارة إلى ما يروى من أن النبى (ص) قال لعلى : أنت منى بمنزلة هرون من موسى .

(٢) إشارة إلى ما يروى من قول الرسول أنا مدينة العلم وعلىّ بابها .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

فى المشركين . قيم[١] الجنان ، و باب الرحمة والرضوان . ثانى أصحاب الكساء[٢] فى إذهاب الرجس ، وحامل لواء الحمد عن يمين العرش ، وصاحب الحوض يسقى من شايع ، وبايع ، ويمنع من ناصب ونازع . ذاك أمير المؤمنين صلوات الله [عليه[٣]] تختص أوصافه عن المشاركة ، وتخلص نعوته عن المزاحمة .

وهذا — أطال الله بقاء سيدى — باب إذا اشتُغِل به استنفَد البحر مدادا ، وبُسُطَ الأرض بياضا وسوادا ، ونباتها وشجرها أقلاما[٤] ، وأنفاس البشر خطابا وكلاما . وإنما ذكرت من الدائرة نقطة ، ومن البحر قطرة ، لأكيد مناصبا ، وأغيظ مجانبا . وأرجع للكتاب . ثم وحَمِدَ الشريف سيدى ربه على هذا الفتح الكريم منصبُه ، العظيم مرقبه ، البهىّ مطلعه ، السنىّ موقعه ، الرفيع مناطه ، الواضح صراطه ، السابق رهانه ، القائم برهانه ، الشاهد أثره ، السائر خبره ، المرفوع ضَبْعه و باعه ، المشبوح بسطه وذراعه ، الصادق سحابه ونوؤه ، الصادع صباحه[٥] وضوؤه . وكيف لا يكون كذلك ومولانا الملك السيد فاتح تدبيره ، ومبتدىء تقريره ، ومنشىء سحابه ، ورافع حجابه ، ومهيّء دواعيه ، ومثقف مساعيه ، والقاسم له لحظةً من حفافى سريره ، وقادمةً من جناحى تقريره ، وإذا عزم فقد أوقع ، وإذا أمر فقد نفَذَ ، وإذا قال فقد ارتسم ، وإذا صال فقد انتقم ، ولاةُ الأرض خلفاؤه ، وجنود الأقاليم أولياؤه ، والقدر يخدم أمره ، والقضاء يتبع حكمه ، والدهر يمتثل رسمه ، والزمان يتقبل أخذه وتركه . ومولانا الأمير المؤيد مناهض الخطبَ بنفسه ومراسه ، وناهض له بصولته وباسه ، ومرجف الأرض بسنابك خيله ، وحوافرِ الجياد تحت الأمجاد من جيشه ، ورامٍ ثُغَر الأعداء بكيده — وهو يرتقى مناكب الجبال الرواجح ، حتى يحطمها إلى بطون الأباطح — ومعتَمِدة صدورهم بأيده[٦] . ودونه ماتضع كل ذات حمل عنده حملها ، وتخف الغبراء وتهجُر ثقلها ، وملاقيهم بعد ذلك برجال يسترسلون إلى المنايا ، كأن رحما — تجمعهم — دانية ، ويأنسون بالحروب كأن أُمًّا[٧] — تكفلهم — حانية ، فلم

(١) القيم : السيد ، وفى الأصل : قسيم .

(٢) يشير إلى مايقص عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى علىّ وفاطمة والحسن والحسين كساءً وقال نحن أهل البيت الخ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) فى الأصل : أقلامها .

(٥) فى الأصل : صاحبه .

(٦) الظاهر أن هذه السجعة سابقة للجملة : الاعتراضية وقد وضعها الناسخ فى غير موضعها .

(٧) فى الأصل : إماء .

تمض الإساعة ، حتى [1] أقيمت على المخاذيل الساعة ، وعلم أن الجيل [2] أخس جيل . وكل هذا من تفضل الله على مولينا — أدام الله علاهما — لا يدّعيان حولا ولا قولا إلا به ، ولا يريان عونا ولا نُصْرة إلا منه ، يسجدان سجدات الشكر ، ويعفّران لمالك الخلق والأمر ، علما بأنهما عبداه ، إلا أنه تعالى استكفاهما أمور العباد ، واسترعاهما سبل الصلاح والرشاد .

وأقول لم يؤت الشريف سيدى من بيان وبلاغة ، وإحسان وإجادة ، ولسَن وإصابة وسلاقة وذرابة ، ولكن الأمر جلّ فى نفسه ، فحسر القرائح عن وصفه ، وقصر الأوهام عن علمه ، وقبض الأيدىَ عن عدّ فضائله ، وأيأس القلوب من حصر مناقبه ، واستوى فى الإخبار عن كنهه ، والإنباء عن حقه ، والتحدث بنعمة الله فى إشراق نجمه ، وعلوّ قِدحه ، حالتا القادر والعاجز ، والكامل والناقص ، والمفضول والفاضل ، والصامت والناطق ، والمسهب والمقتصر ، والمطنب والمقتصد ، والمكثر والمختصر ، والفصيح اللهجة ، والمرمىّ باللُّكْنَة ، والميسّر لرقة العَذَبة ، والممنوّ بغلظ الأسلة . بلى لبنوّة النبوّة توفيقٌ يأخذ منه الشريف بحظ السابق ، وحق الوارث ، والمُعَلَّى من قداح الياسر ، فكلامه فصل ، وكتابه فى نفسه أصل ، يبلغ بالقول اليسير الغرضَ البعيد ، وبالإيماء القليل المطلبَ الشديد ، وبالنكتة يلقيها جملة ، مايعجز خطباء إياد عن تقصيه برهة ، فهو سلالة من أوتى جوامع الكلم وقال : أنا أفصح العرب ، ختما على الأفواه أن تعارضه ، وعلى الألسنة أن تناقضه ، بنفسى هو وبأنفس الناس أجمعين .

شوقى إلى الشريف سيدى شوقٌ لو تقاسمته ربيعة ومضر ، وتقارعت عليه العرب والعجم ، واشتركت فيه الطوائف والأمم ، وجعل فوضى يغمر القلوب ، وشورى يملأ الصدور ، ونُهْبَى يسع النفوس ، لما كان فيهم إلا ملتهبُ الجوانح صبوةً ، ومتأجّجُ الأعضاء غُلّةً ، وسائح الدمع غُصّة ، وعازب الصبر حسرة ، ومهزوز الأعطاف لوعة ، وممتلئُ الأحشاء غمّة ، وهل يَسَعُ غير هذا وقربه الرَّوْح والراحة ، والأنس والغبطة ، والسرور والبهجة . خلق عظيم ، وشرف عميم ، وطبع كريم ، وعهد قويم ، ولسان فصيح ، وعقد صحيح ، ومجد صريح ، وتواضع لم تتمشّ فيه نخوة ، وتسمّح بل سماحة غَمْرَة ، وعشرة يكاد ماؤها يقطر ، وثغرها يبسم . يعطى من نفسه مالا يُسْتَحَقُّ ، ويسمح عنها بما هو الحق ،

---

(١) فى الأصل : وقد .

(٢) الجيل سكان جيلان .

وقد أصبح مع ذلك محفوظ الوقار ، سامىَ المقدار ، محظوظ الأطوار ، محمىّ الذمار ، عزيز الجوار ، يُخشى سطوه ، كما يُرْجَى حلمه ، وتُحْذَر صواعقه كما تُشَام بوارقه ، ويُتَخَوَّف نكاله ، كما يُتَشَوَّف إفضاله ، فلا خير فيمن لم يجمع سلاسة وشدة ، وسكوناً وحدة ، وسهولة ومرونة ، وليناً وخشونة ، وانقياداً وجِماحا ، وطِماحاً و إسماحا . والله المسئول اجتماعاً على حال تشرح الصدر ، وتشد الأزر ، وتظاهر النصر ، وترفع القدر ، وتعلى الذكر ، وتوجب الغلبة والقهر ، وتلزم الأعداء الصُّغْر ، وتسلِّط على بقاياهم الدهر ، وتقسم لنا العيش السهل ولهم البقاء الوعر ، إلى أن يكونوا حصائد السيوف بعد أن تتساقط أنفسهم نفوساً بأيدى الحسرة ، وطرائدَ الحتوف بعد أن تتهافت قواهم قوة قوة بعوادى الكربة ، فلا بقاء نجيح ، ولا فناء مُريح . وهذا دعاء اغتنمت أن يؤمّن عليه الشريف سيدى ، فإن الإجابة — سيدى ! — هناك مرجوّة ، وآية الإسعاف متلوّة ، وعادة الإفضال مبلوّة .

ما زلت أترصّد وقتاً يفسح لى فى الكتاب إلى الشريف سيدى فلا أجده ، وأتحيَّن زماناً يخلص لخاطرى فى إجابته فأستبعده ، ثم قلت : مالى وللتصنع وقد أسقط الله عنى كلفته ، ورفع بينى و بينه عُلْقَته ،فلم لا أملى إملاء أسرع من سَلّة سارق أو لمعة بارق :

وخطفة برقٍ أو كنظرة مغرمٍ على حذرٍ أو ردِّ طَرْفِ المراقبِ

فأمليت ، وأنا لا أعلم كيف أحث خاطرى و يدَ كاتبى ، وأستعجل لسانى و بنان ناسخى ، وبقى أن يكون الشريف يستر الزلل ، ويتجاوز الهفوة ، ولا يكشف السقطة ، ويغمض على العثرة ، ويُغضى على الخلة ، فإنى له ومنه ، ومختلط بالولاء معه غير ممتاز عنه ، ومحاسنى — إن كانت — فله جمالها ، و إليه مآلها ، وعنده مستودعها ، وفى أفقه مطلعها ، و بروضه زهرها ، وفى سمائه قمرها ، ومقابحى — إن أحصيت — فعليه عهدتها ، وفى ذمته تبعتها ، وهو المقنَّع بعارها ، المتلفِّع بشنارها ، والمرمىّ بنبالها ، والمقصود بحبائلها وحبالها ، وقد قال الصادق عليه السلام : نحن الأَعْلَوْن وشيعتنا العُلْويّون ، وقبله ما رُوِى : مولى القوم منهم ، فليحسب لنفسه ثم ليحاسب ، وليتثبت ثم ليطالب ، وليقض حق بطىء الكتاب إن لم يكن فى نشره فائدة ، و إخفائه إن لم يكن فى إبدائه غنيمة باردة ، فهو عندى من الكلام الذى لا يفتح السمعُ له إلا حجابا ضيق المسلك ، ولا يشرع له القلب إلا مجازًا ضنك المشرع :

وأسيءُ بالإحسان ظنًّا لا كمَنْ   هو بابنه وبشعرِهِ مفتونُ

١٠ — وله عهد لعلويّ وَلِيَ النقابة بين الذرية الطيبة رضى الله عنهم

الشريف أبوالقاسم زيد بن محمد بن الحسين الحسنى أدام الله عزه

قد استخرنا الله كثيرا، وصلينا على النبى محمد وآله الذين طهرهم من الرجس تطهيرا، واعتمدناك لما كان جدك، رحمه الله، معتمدا له من نقابة العلوية، أيدهم الله، بحضرتنا، وفى أطراف مملكتنا، إعظاما — لهذه الذرية الذكية، والشجرة النبوية — عن أن يتولى الحكم بينها، والنظر فى أحوالها، طبقات الحكام الخارجين عن جملة الأسرة، وربقة العترة. فكن من الأتقياء لله — تعالى — على ما يكون عليه، مَنْ شَرُفَ ببنوة النبوة، وكان سلالة الرسالة. والقرآنُ العظيم، الذى يجمع المواعظ، وينظم المراشد، على جدك صلى الله عليه وعلى آله نزل، والإنذار فيه بدأ الأقرب من عشيرته فالأقرب، فأحق الناس بالسداد، وأولاهم بالرشاد، من نشأ فى حجر الإمامة والوصية، وانتمى إلى الدوحة الطيبة الرضية، وكان جده رسولَ الله صلى الله عليه، وأبوه سيدَ الأئمة الراشدين، صلى الله عليهما وعلى آلهما أجمعين.

وحُطْ هذا النسب الذى غشّاه الله ملابس التعظيم وآتاه جوامع التفخيم، وقدّمه على مفاخر الأولين والآخرين عن أهل الدعوة[١]، والمنتحلين اسم النسبة. ومَنْ عثرت به منهم فأشهر ذكره، وغيّر أمره، فأجدر المناصب بالحراسة عن الدخلاء، والحماية عن الأدعياء، منصب كان المصطفى — صلى الله عليه وعلى آله الأدنَين — أصلَه ونجْره، وذريته[٢] مجده وفخره، ووفِّ شيوخ هذا البيت، أيدهم الله، حق الإكرام، وفرض الإعظام، بحسب مواقعهم من الصلاح، ومراتبهم من السداد، ومنازلهم من العلم، ومحالهم من الستر، واكنف باقيهم — أعزّهم الله — بالإعزاز والإيثار، وتوخّ غابرهم[٣] بالإعذار والإنذار، ومن زاغ عن الطريقة، ولم يردّه الزجر إلى حسن البصيرة، فخذ بأدب جدك، فقيه العرب وسيد بنى عبد المطلب صلى الله عليه كثيرا وسلّم على أهله وصحبه تسليما، فى كف معرّته،

---

(١) فى الأصل: الدولة.   (٢) فى الأصل: درعه.

ودفع مضرته ، لئلا يقع من أحد ما يهجّن علوّ نسبه ، ويتحيف فضل حسبه ، فإن المنتمى وإن كان عظيما ، فهو مفتقر إلى تقوى الله شديدا .

وابعث الأشراف على إحسان معاملة سائر الرعية وصيانتهم عن الامتهان والأذية ، فقد كان محمد صلى الله عليه وعلى آله — كما وصف الله — رءوفا رحيما . ومهما وعظتهم به وذكرتهم وهديتهم إليه وبصّرتهم فاسبق إليه ، وقدم العمل عليه ، ليقتدوا بك ، ويهتدوا بمذهبك . واعلم أنا كما حمّلناك من أمانة الله ثقيلا ، وقلدناك عظيما جليلا ، فسنوسعك إحسانا وتقديما ، وإكراما وتأييدا ، وإنعاما وتخويلا ، ونرسم إجراء نظرنا وصلاتنا ، وعطايانا وهباتنا ، للعلوية — أيدهم الله — على يديك ، وتفرقتها لديك ، فاستمد هذا الرأى بسلوك أرضى المذاهب وأحمدها ، وأهدى المسالك وأسدها ، ولا تدع مشاورة أولى العلم والرأى من العلوية ، أعزهم الله ، عموما ، والشريف أبى طالب الحسينى ، أيده الله ، خصوصا ، والله ولىّ توفيقك وهدايتك ، وعصمتك وكفايتك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب العشرون

فى الشوارد ، وهى الكتب المختلفة المعانى

— ١ —

كتابى ومولانا الأمير المؤيد متصل أمداد النعم ، مرفوع عماد الكلم ، وعبده سالمٌ بامتداد ظله ، ولله الحمد شكراً لمنّه .

ووصل كتاب مولاى بعد تراخى العهد به ، واستبهام طرق السكون لتأخره ، فقد علم أن المخاطبات بأنبائه أقوات النفس ، ولها أوقات فى الورود ، فإذا تدافعت عُدِم القرار ، ومُلِكت الأفكار . وعلمتُ أن الذى بَطُؤ به ، الشغلُ بالخروج إلى الأعمال الميمونة ، ومشاهدة النعم الموفورة ، فإنها بهرت العقول قبل العيون ، وفاتت الأحلام قبل الظنون .

وإن كان كلُّ أبىٍّ مستوعر ، وقصىٍّ متعذر ، متى قصدته الهمة العالية مصحبا يدور الفلك بتقريبه ، ويخف القدر فى تسهيله . والله يديم سلطان مولانا ليحرس الدنيا كما ملكها ، ويحوطها كما افتتحها ، بمنّه الوسيع ، وصنعه الجميل . وقَرُبَ الانكفاء ، بطالع البسطة والعلاء ، إلى السرير الأعظم ، لازال خصاصه مسدودا بولَى الأمم ، وصدره معمورا برب المُلْك والكرم الأعظم ، بشرى تعيها المسامع ، وتتهنأ معها المنح الجوامع ، ويُكَبُّ لها الباطل لوجهه ، ويخِرُّ عندها الضلال ليده وفمه . وكتاب مولاى من العسكر مَرْغَب النفس ومرْقَب النصر ، وانتظامُ أمرِ كذا وما يجرى معه ؛ أمرٌ كان القضاء تضمّنه ، يوم ألقى مولانا ظله .

٢ — ولـــه

كتابى عن سلامة ونعمة ، مسبغها سكون ظل الخدمة ، والحمد لله . وتطلعت خبرك فأبطأ إبطاءه ، وشغل الفكر وإن لم يضيّق العذر ، لعلمى بطيّك المنازل ، وإدراجك المراحل ، وكنا تفاوضنا عود فلان من النهروان[1] ، وقلتُ : إن ذلك لمستقبل حُسْنَى وإحسان ، فلم

---

(١) كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى .

يخطىء ظنى ، ولم يبطىء زجرى ، لأن صدره كان بالخلع المباركة ، واللواء الميمون ، والعهد الكريم ، ثم أفكرَ مولانا فى أن ذلك إذا تأخر عنه اللقب وجد التشريف متحيَّفاً من بعض جوانبه ، مُخِلاً برسم من مراسمه ؟ فاستعاد فلانا لينضاف اللقب المتخيَّر إلى سائر ما استجزل فيه الشرف ، وأوعزَ فى مخاطبة الأمير بهذا الذكر، ليعرف وفور الاهتمام بمواقع الفخر ، و يُؤْمَن عليه ذهاب الخاطر مع سوء الفكر ، و إنبائِك بالأمر لتمتثله ، وتعرف آخره ، كما عرفت أوله . وأنا أنتظر إيابك ، وقبله كتابك ، وأخبارك ، وآرابك .

٣ — ولـــه

كتابى ، ونعم الله عند مولانا الأمير — أدام الله سلطانه — متصلة الورود ، متضمنة أقسام السرور ، وأنا سالم فى ظله الظليل ، و برأيه الجميل ، ولله الحمد .

ووصل كتابك يذكر عرضك ، بحضرة الأمير صاحب الجيش ، ما استصحبت ، ومجاورة بره قولا وفعلا لما تطلّعت وارتقبت ، إلى سائر ما تصرّف — أدام الله نعماءه عليه — من بواعث الكرم ودواعيه ، و بسط الجميل والإغراق فيه ، وعرضته ، فاعتدَّ مولانا بما تظهره الأيام زائدة فى الثقة ، ومضاعِفَةً للمودة السابقة ، وقال ،أدام الله تمكينه ، إنا لو لاطفنا كِفاء ما عندنا من إكباره ، لتكلفنا ما لا حصر لأقداره ، لكنا علمنا أن القليل إذا اعتمد به حفظ نظام الاسترسال ، وما يجب من الانبساط عند امتزاج الأحوال ، لم يكتسب هجنة ، ولم يواجه ظِنَّة .

وأوُبك الآن متطلَّع ، إذا رأى الأمير ذلك وأوجبه ، واهتمّ به فلان وسبَّبه ، فانه خَبَرُك على تلخيص (١) ، إذ قد أبطأ من المجمّزين من تقدّمك ، وكذلك من صحبك ، وأذْ كَرُه أحوالك .

٤ — ولـــه

باب التفتى (٢) بأصبهان كنت أغلقته ، بل أوثقته ، واقتدى مولانا بى فى ذلك فردمه ، وسدّ ثلمه ، إلا أن الشاذ يقع من حيث لا يُتَوَقَّع .

---

(١) تلخيص هنا : تبيين .

(٢) التفتى يراد به فى ذلك العصر أعمال الفتوة من الفروسية وإكرام الضيف وحماية الضعيف ونحو ذلك .

وورد الباب صبى بقرب فلان ، اضطره إلى الخروج إعراض أنيسيان ، آذاه بالدعاء إلى التفتى معه — فتّ الله عضده وأضلّمه — ومولاى يزجره زجرا ، يصير حَصْرًا ، ليسْلَمَ هذا الضعيف عليه ، ويمكنه المقام على أبويه ، إن شاء الله .

٥ — ولـــه

وصل كتابك فأنِسْت لوقوع الطرف عليه ، وامتداد اليد إليه ، وفضضته فجمع وفاقا وخلافا ، وأطلع شيات أخيافا[١] ، فأما الشكر والاعتداد ، والإخلاص والاعتقاد ، فأمور أنت تستغنى عن ذكرها خَبَراً ونشراً ، بعد ماقتلتُها علماً وخُبْراً ، فكِلْ معرفتها إلىّ ، ولا تستزد فيها لدىّ . وأما فلان فقد كنت أحب أن يتفق مقامك بأصبهان ولمّا بَعُدَ عنها ، فتشاهد توفّراً ترقّ حواشيه ، وتروق نواحيه ، كما تستحقه علىّ ، وعلى من هو منى .

على أنه خارج بعـد أيام ، وواصـل — إن شاء الله — قبل مفارقتك أصبهان ، فيتَلافى بعض الحق إن أعوز كله ، ويُؤدّى عنى ما لا يؤديه إلا مثله . وأما ما شغلتَ به من أفكارك فكرا ، ومن سطورك سطرا ، فى إرجاف زيد ، واختلاف عمرو ، فلو شئت لكفيتَ نفسك وإياى كلفته ، وصُنْت يدك وسمعى عن أن تَثْرُدَ[٢] جلدته ، فمثله لا يصدر إلا عن أفواه مانطقت صوابا ، ولا قالت إلا كذابا ، لاسيما وأنت تعلم أن سمعى حَرَمٌ لا تدخله بُنيّات الكلام ، وهَنات الطغام .

واستدعيت مهماتى ، فخذ — إن لم يكن وفاؤك ظِهْرِيًّا وعَرْضك سابريًّا[٣] — للشيخ المرشد — أدام الله عزه — شرح كذا من الفقه ، وقد رأيتَ جُلّه عنـدى ، إذ ذكرت موقعه من كتبى ، ولكنه بين هُجْنتين : من اختلاف الخط والتقطيع ، وسُبّتين[٤] : من فقد التصحيح والتتميم ، فارتدْ — إذا عدت لى — نسخة تجمع التمام والحسن والصحة .

وخراجك قد قلت فيه لفلان ما يزيل عنك الشغل ، ويميط دونك الثقل ، والتسويغ الثانى قد أجريت ذكره فى المجلس الشريف ، وأنا — إن شاء الله — ألطف فى التذكير ،

---

(١) أخيافا : مختلفة .

(٢) تثرد : تعرك وفى الأصل هكذا : يبرر .

(٣) العرض السابرىّ : عرض رقيق يشترى بأدنى ثمن .

(٤) فى الأصل : وستبين .

والله ولىّ التيسير . فا كتب — أيدك الله — ما أقمت ، ثم إذا انصرفت ، فاذكر حاجاتك كيف اخترت وأحببت ، إن شاء الله .

٦ — ولـــه

وصلت رقعتك فذكرت فيها من شكاتك — مسحها الله بإدامة معافاتك — ماشغل قلبي ، وقسم فكري ، والله يُهْدِي لك من العافية أفسحها وطناً ، وأثبتها مرتهَناً ، بمنّه .

وفلان ورد كتابه بذكر ما لَقِيَ في طريقه أجمع ، من بِرّ تجاوز القصد إلى السرف ، وجاز كل غاية أمد ، وأنه — حين وصـــل — تلقاه الأمير متناهيا في التوفر ، وموفيّاً أقسام التفضل ، فأورد بهـذا الذكر ، ما استنفد طاقة الحمد والشكر ، فوقَع بحضرة مولانا الأمير ألطف مواقع الاعتداد ، واستجزل من إحماده أكمل السهام والأقساط .

وقد أنهيت جليّة ماورد إلى الحضرة العالية إنهاء المشارك المخلص ، والمشايع المتخصص ، في كل الذي يتصـل بجنبة الأمير مولاي ، والله يزيد الأحوال قوة أسـباب ، وقرب أنساب ، بمنّه .

٧ — ولـــه

كتابي يوم كذا وقدتقدمت اليوم بتقديم مَضار بي إلى سَحْنة[1] ، لأنهض — بمشيئة الله — بكرة ، مواجها الحضرة البهية ، والله يعرف في ذلك الخيرة ، ويلقّي النجح والعافية .

وكانت عليّ في تهذيب هذه الأعمـال — التي فسـدت على الأيام ، واضطربت على الزمان — أشغال وأثقال ، ولم أحسبها تنزاح في مدة قريبة ، ومهلة يسيرة ، إلا أن سعادة الخدمة الشريفة تسهل العسير وتقرب البعيد ، وحداني على فضل التعجل ، والزيادة في التشمر ، أن الكتب من المجلس الشريف توالت إليّ ، بالبعث على البِدار ، والحث على تقديم الفراغ ، للمهمات التي يلزم التصرف على تقريرها ، والتخفف في تقديمها .

---

(١) موضع بين بغداد وهمذان ، وقيل بلد بالقرب من همذان .

ووصل كتابك — فتكافأ موقعه وتوقعه ، وآنس مطلعه ومودَعه ، وأحمدت ماتصرَّفت فيه إحمادى سائر أحوالك ، واعتقدت فيه اعتقادى فى كافة أفعالك — بأنى أنكرت إيرادك ، فى جملة اعتذارك ، أنك حسبت كتبك لا تُتَرَقَّب ، فلذلك خففت ، ومخاطباتك لايؤبه لها ، فكرهت المواظبة وأقصرت ، وما علمت أنك — بعد — من اليقين بموضعك لدىّ فى هذه الدرجة القريبة ، والمعرفة الضعيفة ، وقد كانت لك فى المعاذير فسحة ، وفى مذاهب القول سعة ، فَلِمَ ألجأت نفسك إلى أضيق السبل وأوعر الطرق ، ولعمرى إن كثيراً من الناس بالرتبة التى ظننت نفسك بها ، حاشاك منها ، فإنك إذا كتبت كان سعيك مشكورا ، وإذا أعتبت عوتبت طويلا ، ولم نظن بك إلا جميلا .

وقد عرفت مابشرتنى به من تماثل فلان وإقباله ، والفضل من ظاهر حاله ، وما شاهدته عند استقباله ، وأنا أرجو أن يهب الله له ولى فيه عافية ، يمتد ثوبها ، وتثوب القوة معها ، فإن الذى يبلغنى من ضعفه قد أضعف المُنَّـــة ، وإن لم يضعف الظن بالله والثقة ، كفاه الله بالسلامة ، وشفاه بلطائفه الخاصـة والعامة . وقد عرفتُ ما أصدرتَه إلى الحضرة البهية ، فحمدت الله على معونته لك ، وتوفيقه إياك .

وكتَب فلان بأن العـدد نقص عن التوظيف شيئاً ، فنتج ذلك فى المجلس الشريف عَتْباً ، ولا أدرى كيف أخاصمك لنفسك ، فإنك تُثْلَمَ فى الكثير بتحيف اليسير ، وتُزِيل محمدة الجليل بانتقاص الدقيق ، مع معرفتك بمسألة مولانا عن هذا الباب مستقصياً ، والتمامه الحساب به مستوفيا .

٨ — ولـــــه

وصل كتاب مولاى فأفادنى من بره ما قد سبق إقرارى بالقصور عن الواجب فيـه شكراً واعتداداً ، وإن كنت لا أقصّر نية واعتقاداً .

فأما الذى بشرنى به مولاى من إنعام مولانا فى اختيار يوم لورودى البابَ المعمور ، ففوق كل أمل ومأمول ، لم تبلغه همتى ، ولم تشجع له مُنْيَتى ، إذا سَعِدَ يوم ووقت لأمثالنـا من أصاغر الخدم وأنشاء الدار ، يومٌ يمثلون فيـه بإزاء السرير الأعظم مُقَبِّلين على الأرض

بالتقبيل[١] ، ولكن نفحات الإحسان من ملك الأملاك ، وفلك الأفلاك ، أدام الله أيامه ، لا حصر لها ولا حد . وأنا عامل على ما مَثَّل ومُرْتسم بإذن الله . والذى أهَّل له السلار أبو نصر — أدام الله عزه — تلقيناً له وترتيباً ، وتشريفاً وتقريبا ، يَزِيد أولياء الدولة وخدمها انشراحَ صدور وارتفاع نواظر ، والمداهنين فى فرائضها ولوازمها حراراتِ صدور ، ومرارات قلوب .

وقد بادرت بكتاب مولاى ، أدام الله تأييده ، إلى حضرة مولانا الأمير المؤيد ، أدام الله أيامه ، علما بأنه يهتز لما اتفق ، ويتحقق أن عنايته به ، هى التى شفعت إلى الرأى العالى له ، لا زال كل مرموق وملحوظ مستمدا خيره وجاهه بطاعةٍ للحضرة العالية يلتزمها ، وخدمة يُخلصها ، ولمحةٍ يستمدها ، ونظرة يُتَفَضَّل عليه بها .

٩ — وله

كتابى — أطال الله بقاء قاضى القضاة[٢] — عن سلامة يُسوِّغها تَفضُّلُ الله الشامل ، وإحسان فوق ما يأمله الآمل ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على النبى محمد وآله أجمعين .

ووصل كتاب قاضى القضاة ، أدام الله عزه ، فكان أنسى به ، مشتقا من أنسى بقربه ، فأما تفضل مولانا ، أعز الله نصره ، فالصنيعة فيه عند قاضى القضاة — أدام الله عزه — مُصيبة طريقَ المَصنع ، وواقعة أكرم موقع ، ولا غرو أنْ درَّ الغمام ، وقطع السيف الحسام ، أدام الله أيامه ، ولا أفقد إغراسه وإنعامه .

وفلان قد كان وَفَّى فى بابه ، ما استقلت معه المنوى فى عقابه ، وإذ قد حكى قاضى القضاة براءة ساحته ، فقد سرَّنى أن انصرفت اليد عن مساءته .

وما بينى وبين قاضى القضاة يكبر عن الشكر ، لا بل عن إجراء الذكر . فأما أنا فالعافية سابغة علىَّ ، والسعادة خالصة لى وإلىَّ ، ولله حمد ذلك . بل أُنسى مدخول ،

---

(١) لعله يشير إلى استدعاء عضدالدولة له كى يمثل ببابه على نحو ما سبق وصفه فى غير هذا الموضع .

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد على ما مر .

ونشاطى معلول ، لشكاة مولاى أبى العباس[1] ، والله أسأل أن يَقِيه ويبقيه ، ويكفيه ويعافيه .

الأمر الذى أومأ إليه قاضى القضاة من حديث أصحابنا ببغداد ، إذ قد جرت فيهم ضروب ، وترددت خطوب ، ورأيت الصواب فى ترك مخاطبة المزكِّى لنفسه ، المعجب بدرسه ، فأمسكت ، وللجملة تفصيل ، وإذا التقينا — بمشيئة الله — قلت .

وقد استحضرت فقهاء هذا البلد فى فرص الفراغ ، فرأيت قوماً بهم الاستفادة والتعرف ، والاستعلام والتفهم ، وأجمل مافيهم التصوّن ثم أن لا تنازع بينهم فى أمر الدنيا ولا تشعب ، بل جميعهم كاليد الواحدة يردون موردا ؛ ويصدرون مصدرا ، وما بهم عن سماع الحق بُعْد ، بل ثَمَّ إصغاء وقُرْب ، وليس يخطئهم التقريب والرفق ، ومن عند الله التوفيق والرشد . هذا وفيهم من يتجاوز هذه الطبقة ، ويعتمد الموافقة فى مقامى على تقرر أحوال الدينور ، فإن استقرَّت ، كما أريد ، كفيت الخروج إليها ، وإلا ألممت أياما خمسة بها ، ثم أنكفئ إلى الحضرة ، فإن البعد عنها يترك النفس فى جانب الفتور ، والأمل فى ناحية القصور ، إلا أن أهل هذه البلدة منذ مدّ عليها ظل العدل كمن أحيى وهو رميم ، وأُنْبِتَ وهو هشيم ، نسأل الله توفيقاً لما يُرضيه ، وتسديداً فيما يمضيه ، وهو حسبى ونعم الوكيل . لست أذكر تشوق قاضى القضاة ، أَكِلُه إلى علمه ، وأسأله استشهاد نفسه :

فعلى القلوبِ من القلوبِ شواهد وعلى الصُّدورِ من الصُّدور دلائلُ

١٠ — ولـــــه

كتابى ومولانا محبوٌّ من النعم بما يتجلّى صنع الله فيه باهراً للعيون ، محققاً للظنون ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على محمد وآله أجمعين .

وتأخرت كتبى عن مولاى لكرور علل علىّ صارت حِلْفًا لازما ، وطبعا ثانياً ، حتى عادت الصحة كطارق مُستغرَب ، وطارئٍ مستبدَع . وعوّلت فى المهمات أجمع على ماينهيه أبو فلان ، فقد عرف فى كل باب ماعرفته ، وعلم منه ما علمته ، وقد نهض منذ أيام ، والله

(١) هو أبو العباس الضبي .

يبشر المنائح أين توجّه الخدم عن الباب المعمور ، والأمر المتبوع ، بمنّه .

وكان مولاى ، أدام الله عزه ، بشَّر بما تيسر فى كذا ، فابتسمت ثغور الأمل ، وآذنت بنهاية المراد فى أقرب أمد ، لا زالت عزائم مولانا غنائم لأوليائه ، وصوارم على أعدائه . وكتاب البشرى بغية الطرْف ليجلوه ، والروح ليغذوه .

آخر الباب العشرين ، وبه تمام هذا المجموع من الديوان ، والحمد لله حق حمده ، والصلاة على النبى محمد وآله .

وفرغ من كتابته أبو الحسن على بن أحمد بن زكريا المعروف بابن الشصاص البغدادى بهمذان فى شهر رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة ؟ .

فهـــرس الرسائل

[illegible]

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

تصحيحات

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٢٤	٢٠	حدّ	لأحدّ	١٠٩	٣	أُوجب	أَوْجَبَ
٣٥	٣	كتابٌ	كتابَ	١١٩	١٣	اشتراك	اشترك
٤١	١٠	آثام	أثام	١٤٧	٥	ضَبُع	ضَبْع
٧١	٦	مرادَه	مرادُه	١٥٠	١٤	فيزورُ	فيزورَ
٧٨	١٤	يُهنئني	يَهنئني	١٧٢	١٤	ضُبُع	ضَبْع
٨٢	١٤	تنوِل	تنوِل	١٩٩	٤	وعز اسمه	عز اسمه